



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية الآداب واللغات
قسم الآداب واللغة العربية



الخطاب المحجائي وآليات الإقناع في كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لللكواكي

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطّور الثالث (ل.م.د) في الآداب واللغة العربية

تخصص: اللسانيات واللغة العربية

إشراف الأستاذ الدكتور:

عمار ربيع

إعداد الطالبة:

رميساء مزاهدية

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
محمد خان	أستاذ	جامعة بسكرة	رئيسا
عمار ربيع	أستاذ	جامعة بسكرة	مقررا
حمدي منصور جودي	أستاذ محاضر(أ)	جامعة بسكرة	عضوا مناقشا
نعيمه سعدية	أستاذ	جامعة بسكرة	عضوا مناقشا
دليلة مزوز	أستاذ	جامعة باتنة	عضوا مناقشا
بلخير أرفيس	أستاذ محاضر(أ)	جامعة المسيلة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1442/1441هـ - 2020 / 2019

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، أما بعد:

اللغة وسيلة التواصل البشري بين الأفراد والمجمعات، فهي ظاهرة اجتماعية يتميز بها الإنسان ويتواصل بها مع غيره، يفكر بها ويتحدثها ويكتبها، وكل ذلك في سياقات مختلفة، تتطلب أن يكون المتكلم مخاطباً ومُحاججاً ومُدافعاً عن بنات أفكاره، ليُبين عن نفسه، ويكشف عن وجوده، ليُجلب نفعاً أو يدفع سوءاً، لكن اللغة رغم ما تملكه من قدرة على الدفاع عن الأفكار، وتغييرها، وترقيتها، تبقى طاقة كامنة، وقوة لابثة، لا تفعل ما يمكنها فعله إلا إذا حرّك المخاطب قوانين الخطاب.

وهذا ما جعل من الخطاب أحد أهم مجالات الدراسات اللغوية، وهذه الأخيرة حاولت أن تُسَنِّ له قوانين تضع الباحثين على الدرب الصحيح نظراً لأهميته في كل مجال من مجالات الحياة، فللمجتمع سياقات كثيرة تتطلب خطابات متنوعة تقتضيها العملية التفاعلية المتبادلة بين المرسل والمرسل إليه، مع الأخذ بالحسبان طبيعة العلاقة بينهما واللغة المستعملة و الظروف المحيطة بإنتاجها، وكذلك مفهومية المتلقي، ومدى قدرته على الاستيعاب وتحديد مقصدية المتكلم وما يتوخاه من خطط معينة واستراتيجية للتبليغ عن هذه المقاصد وتنوع طبيعة الاستراتيجية المنتقاة تبعاً لتغير وتنوع هذه المعطيات.

من أبرز أنواع الخطابات الخطاب الحجاجي لكثرة جريانه على الألسنة لعلاقة نشوئه اللازمة بمحدث الاختلافات بينها ومحاولة دفعها عن طريق التأثير والحمل على تغيير الوضع المُختَلَف فيه واستبداله بموقف ثانٍ هذا ما جعل منه موضوعاً قيمياً غنيً به الكثير من الباحثين من أجل الكشف عن بنية وآليات اشتغاله وطبيعة اللغة المدرجة فيه وما لها من دور في تحقيق المقاصد والتأثير في المتلقي واستمالته بالحجج التي تهدف لإفناد مفاهيم ومعتقدات وبناء آراء ومفاهيم جديدة على قناعة؛ مما يجعله يستجيب للدعوى المُقدَّمة فينعكس ذلك على وجدانه، فكره، وتصرفاته فتكون مصحوبة بتغير جذري يلاحظ ويقاس في مختلف مجالات الحياة.

لذا نطمح في هذه الدراسة إلى الكشف عن بنية الخطاب الحجاجي والآليات الإقناعية التي توفرها اللغة بغية استمالة متلقي كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) ودفعه إلى الاقتناع.

من هذا المنطلق جاءت دراستنا موسومة بـ: " الخطاب الحجاجي وآليات الإقناع في كتاب طبائع

الاستبداد ومصارع الاستعباد للكواكبي"، نشد من خلالها الإجابة عن إشكالية أساسية، تتمثل في:

● كيف تأسس الخطاب الحجاجي عند الكواكبي من خلال كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد؟

وما هي الآليات الإقناعية التي بنى عليها خطابه؟

تولدت عن هذه الإشكالية الأساسية مجموعة من الإشكالات الفرعية، وهي كالآتي:

● ما هي المراحل المساهمة في تشكيل بنية الحجاج وفيه تكمن وظيفتها؟

- هل يعود لها الفضل في وسم خطاب الكواكبي بسمة الديمومة الزمكانية؟ أو بصيغة أخرى إلام يعود سر الرؤية الاستشرافية للكواكبي في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)؟
 - هل هناك تفاضل بين نظرية شايم بيرلمان وتيتيكاه ونظرية أوزفالد ديكر و أم أنها متكاملتين؟
 - ما هو الدور الذي تلعبه الآليات الإقناعية وكيف تستثمر في جذب المتلقي والتأثير فيه واستمالاته؟
 - كيف يمكن رسم نموذج تطبيقي متكامل يعتمد عليه في التحليل الخطابي الحجاجي؟ ويعود سبب اختيارنا لهذا الموضوع وفي هذه المدونة بالتحديد إلى جملة من الأسباب، لعل أهمها:
 - قدرة الحجاج على السيطرة على العقول وإثارة الانفعالات، دون اللجوء إلى الفرض والإجبار.
 - الانطباع الواضح الذي يتركه الكتاب في نفسية وذهنية القارئ؛ ولا سيما حينما يقوم بعملية إسقاط لأحداث الاستبداد السياسي وظواهره التي عايشها الكواكبي وانتقدها وتحدث عنها وعن مشاكلها التي مازالت سائدة في زماننا المعاصر وكأن التاريخ يعيد نفسه.
 - الرغبة في التعرف على طبائع البشر التي تتحول إلى مصارع للاستعباد، على الرغم أن الطبع وهو الهيئة الراسخة في النفس كيف يتحول الاستبداد وهو أمر طارئ على الإنسان إلى هيئة راسخة في النفس؛ أي أن يجعل من الاستبداد أساسا في الخلق، كأنه مولود به مثل دافع الجوع ودافع العطش وفيه دعوة للانعتاق من الاستبداد.
 - محاولة الكشف عن سرّ الرؤية الاستشرافية للكواكبي في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد).
- ومن أجل تجسيد هذه الدراسة وفق الاعتبارات السابقة، منهجنا العمل في أربعة فصول؛ الفصلان الأولان نظريان أما تطبيقهما في الفصل الثالث، أما الفصل الرابع فهو فصل نظري تطبيقي ثم خاتمة، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

الفصل الأول: موسوم بـ: "الخطاب أساسيات ومفاهيم" ركزنا فيه على تحديد الجهاز المفاهيمي للخطاب وإبراز سماته في المفهوم اللغوي والاصطلاحي عند العرب والغرب وفق المنظور التواصلية، ومن ثم قمنا بالتطرق إلى عناصر التفاعل الخطابي، شروطه وقوانينه التي تكفل تنظيم العلاقات بين المتخاطبين وتولد عن هذه العلاقة مجموعة من الخطط توجه الخطاب لتنوع على حسب طبيعة هذه العلاقة وتعرف باستراتيجية الخطاب، لنصل بعد ذلك كله إلى تحديد مفهوم الاستراتيجية الخطابية وتبيان أنواعها وأهم

الوسائل المعتمدة لتجسيدها في الخطاب ثم البحث في أنواع الخطاب وأماطه لنلج منه إلى العلاقة بين الخطاب والحجاج.

الفصل الثاني: معنون بـ: " الحجاج -بين التأسيس والتأصيل" تطرقنا فيه إلى الحجاج بين المفهوم الغوي والتأصيل الاصطلاحي في الفكر البلاغي الغربي والعربي، لا نروم التأصيل من أجل التأصيل وإنما من أجل تبيان العلاقات التباينية والتقاطعات المصطلحية؛ فهناك من البلاغيين من وضع مفهوم الحجاج موضع الجدل ومنهم من جعله مرادفا للإقناع ومنهم من عقده بالبلاغة، فبحثنا في طبيعة العلاقة بين الحجاج والبلاغة الحجاج والتواصل، الحجاج والبرهان والاستدلال، الحجاج والإقناع والاقتناع، وانتقلنا بعد ذلك إلى تحديد بنية الحجاج من خلال أنواع الحجج والسلام الحجاجية.

الفصل الثالث: يعد عمود البحث ومحوره؛ إذ إنه يعكس تصوراتنا في الجانب النظري لاستثمارها في هذا الفصل التطبيقي، وهو معقود على " بنية الخطاب الحجاجي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد" نهدف من خلاله إلى دراسة عناصر التفاعل الخطابي في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد) والتعرف على كل ما يخص المتخاطبين والسياقات التي تولد في خضمها إنتاج الخطاب، بغية الوقوف على مدى إسهام هذه العناصر في تشكيل بنية الحجاج كمرحلة أولى تستوجب مآ التدقيق في المرحلة الثانية المرتبطة بتقسي أنواع الحجج وتبيان دورها ووظيفتها التأثيرية في المتلقي، تليها مباشرة المرحلة الثالثة المتعلقة بمراتب الحجج وفق السلم الحجاجي العام الذي بُني عليه الكتاب، ثم تحديد السلم الحجاجي الجزئي لفصل "الاستبداد والعلم" باعتبار أن كل سلم حجاجي جزئي هو سلم حجاجي عام إذا ما قيس بمحتوياته من الحجج ثم قمنا بالكشف عن سر الرؤية الاستشرافية للكواكبي في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد).

الفصل الرابع: متعلق بـ " الآليات الإقناعية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد" وهو فصل نظري تطبيقي يهدف من خلاله إلى تبيان دور اللغة ووظيفتها التأثيرية، من خلال تحليل الآليات اللسانية النصية واللغوية والبلاغية المعتمدة في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد) مع التركيز على إظهار أثرها في المتلقي.

الخاتمة: سجلنا فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال الدراسة بشقيها النظري والتطبيقي.

وما يستحق الذكر أن الفصول النظرية في هذه الدراسة هي بمثابة الموجّه والمحدد والراسمة لمعالم الجانب التطبيقي والمساعدة على بلورة التصورات وتحويلها إلى حقائق ملموسة وهذا ما أشاد به أستاذي المشرف في مقاله المعنون بـ "البحث الأكاديمي من صناعة العنوان إلى صناعة التصور"؛ إذ إن التمكن

من الجانب النظري يجعل الباحث مستوعبا لكل أسرارهِ وحقائقهِ متعمقا في فهمهِ قادراً على السيطرة على جلّ جوانبه مما يكسبه ذخيرة من المعلومات تؤدي به في الأخير إلى الفهم والتحليل.

وتسهيلاً لهذه الدراسة نعتمد على المنهج الوصفي وعلى آليات التحليل؛ لما يقدمانه من معطيات وتقنيات تساعدنا على كشف بنية الحجاج في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وآلياته الإقناعية مع الاستعانة بالمنهج التداولي بوصفه أنجع أداة إجرائية للكشف عن جوانب المقام، مما يسمح بالكشف عن المعنى الضمني، ومن ثم إبراز مقاصد المتكلم وأثرها في متلقي الخطاب. مع العلم أن طبيعة الدراسة اقتضت الاستعانة بالجدول والمخططات التوضيحية كوسائل لتبيان المقاصد المستهدفة من هذه الدراسة.

ومن أجل الوصول إلى الأهداف المنشودة وتحقيقها اعتمدنا على عدد من المصادر والمراجع، أهمها:

- 1- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ل: عبد الرحمن الكواكبي.
 - 2- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ل: طه عبد الرحمن.
 - 3- الحجاج في القرآن من أهم خصائصه الأسلوبية، ل: عبد الله صولة.
 - 4- استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، ل: عبد الهادي بن ظافر الشهري.
 - 5- الحجاج في الشعر العربي بنينته وأساليبه، ل: سامية الديردي.
 - 6- في بلاغة الحجاج - نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات-، ل: محمد مشبال.
 - 7- الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفع، ل: حمدي منصور جودي.
- وكأيّ موضوع بحث علمي جادّ لا بد أن يعرف الباحث أين يتلامس موضوعه مع غيره، وأين تكمن حدود التمايز والجدة فيه أو بما يسمى القيمة المضافة للبحث العلمي؛ لهذا كان لزاماً علينا الاطلاع على الدراسات السابقة ومحاولّة تبيان القيمة التي أضافتها دراستنا لمجال الدراسات الحجاجية، نذكر من هذه الدراسات ما يأتي:

- الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة - دراسة تداولية-، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة، للطالبة ابتسام بن خراف، إشراف الأستاذ الدكتور السعيد هادف كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2009. حاولت فيها الباحثة استنطاق أهم الوظائف الحجاجية في هذه المدونة.
- الخطاب الحجاجي عند الإمام محمد الغزالي، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علوم اللسان العربي للطالب مالك عوادي، إشراف الأستاذ الدكتور بلقاسم بلعرج، جامعة محمد خيضر بسكرة، 2015.

وهي دراسة قدم فيها الباحث أتمودجا عن الخطاب الديني والدعوي بالكشف عن مكونات العملية الحجاجية فيه.

- بنية الخطاب الحجاجي في كلية ودمنة لابن المقفع، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللسانيات واللغة العربية، للطالب: حمدي منصور جودي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2015. حاول فيها الباحث تقديم نموذج تطبيقي لتحليل بنية الحجاج في مدونة على السنة الحيوان وإسقاط معانيها على الواقع الإنساني ودراسة مختلف الوسائل الإقناعية التي تستعمل المتلقي.

غير أننا حاولنا في خضمّ بحثنا إضافة نموذج تطبيقي متكامل بين نظرية شاييم بيرلمان (Chaim Perlman) وتيتيكاه (Tyteca) ونظرية أوزفالد ديكرود (Ducrot) لتحليل بنية الحجاج ووسمها بطابع استشرافي وتطبيقها على مدونة تنعدم فيها القراءات الحجاجية وحتى اللغوية، وزيادة على ذلك حاولنا تطوير طريقة لتحليل الصور البلاغية بدمج ثلاثة أبعاد حجاجية في الصورة الواحدة، هي على التوالي: مادة الصورة المستقاة من المجال الحسي والثقافي والعقدي للمتلقي، والوقوف على الملفوظات التي تورط المتلقي في إنتاج الدلالة بواسطة المقام الذي يُلقى فيها لجمه على استخراج المعنى الضمني، وكذا رسمها لصورة المتكلم وإثارة انفعالاته وأهوائه، وهذا التعاضد بين هذه الأبعاد من شأنه أن يؤدي عدّة وظائف تخدم الوظيفة الحجاجية كالوظيفة التنبيهية، المعرفية، والعاطفية التي تؤدي بالمتلقي إلى الاقتناع.

ومن أهمّ الصعوبات التي واجهت سير هذه الدراسة:

- توزع مفاهيم الحجاج وتشعبها لدى الدارسين والباحثين، وهذا طبعاً راجع لاختلاف المدارس والمنطلقات.
- صعوبة لغة المدونة وغموض معانيها وتعدد مرجعياتها مما يحتاج إلى جهد ومعرفة موسوعية لإدراك مقاصدها.
- انعدام الدراسات اللغوية والأدبية التي تناولت هذه المدونة خاصة من وجهة نظر حجاجية، إلى غير ذلك مما يقلّ في درجة الأهمية ومن الممكن تجاوزه والتغلب عليه، فلا نجد داع إلى ذكره.

والجدير بالإشارة أن كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) قدّمه عدد من الباحثين منهم الدكتور "عمار علي حسن" والدكتور "محمد خالد" وحققه الدكتور "محمد عمارة"، ولكننا أثّرنا الاعتماد على النسخة المقدّمة من قبل "عمار علي حسن" في تحليل النماذج التي تم اختيارها لتكون مادة للدراسة؛ ويعود سبب اعتمادنا على هذه النسخة لحصولنا على الكتاب في شكله الورقي، وهذا لا يعد رجوعنا إلى تقديرات أخرى لما فيها من معلومات إضافية وتفصيلات تخص حياة الكواكبي وعصره كلما اقتضت الحاجة.

وفي الأخير لا يسعني إلا أن أرفع أسمى آيات الشكر والعرفان للأستاذ الدكتور "عمار ربيع" لما بذلَهُ من توجيهات ونصائح ثرة لا ينضبُ لها معين ولا ينفدُ لها صبرٌ، فكان بحق نعم المشرف المعين، ولكل من أعانني على إتمام هذا البحث ولو بالكلمة الطيبة فجزاهم الله عتًا خير الجزاء.

والله المعين والموفق وهو من وراء القصد.

الفصل الأول:

الخطاب – أساسيات ومفاهيم –

- 1- الجهاز المفاهيمي للخطاب.
- 2- عناصر التفاعل الخطابي، شروطه وقوانينه.
- 3- منطق التخاطب.
- 4- أنواع الخطب.

تمهيد:

الخطاب الحجاجي مركب وصفي لا يتحدد مفهومه إلا بالنظر في مفهوم لفظيه (الخطاب) و(الحجاج) لذا ينبغي أن تفكك مفهومه أولاً، وأن نعرف كلا منهما على حدة، لنستصفي سماتها العامة، علماً تَوْقِنًا على القيمة الدلالية لكل منهما، ومدى تأثير أحدهما في المفهوم الآخر، بما نرجو أن يتجلى في نهاية الأمر في مفهوم واضح للخطاب الحجاجي؛ لذلك خصصنا كل فصل على حدة. نتوقف عند فصل الخطاب لنحيط بكل جوانبه:

1- الجهاز المفاهيمي للخطاب:

1-1 المفهوم اللغوي للخطاب:

ورد في لسان العرب لابن منظور (ت 711هـ) في مادة خطب: "خطب: الخطب: الشأن أو الأمر صَغُرَ أو عَظُمَ يُقَالُ ما خطبك؟ أي ما أمرك؟ والخطب الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال.... يقال: خطب فلان إلى فلان فخطبه وأخطبه أي أجابه والخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً وهما يتخاطبان ..."⁽¹⁾ ومعنى الخطاب في لسان العرب لابن منظور (ت 711هـ) يتجسد في سؤال: ما خطبك؟ الذي يتطلب الأخذ والعطاء بين مخاطب ومخاطب؛ وهذا ما نلمسه في معنى: ما خطبك؟ فكان المصطلح يحمل في جيبه إفهام السامع بعد الترد على سؤاله لإقناعه وإفهامه أي إن الإفهام هنا مبني على الحجاج بغية الإقناع.

نستشف من التعريف اللغوي للخطاب على أنه لا يخرج " عن صيغته التخاطبية بين شخصين، إذ تستوجب المخاطبة الإجابة وردة فعل، تستدعي الإجابة تحويل الكلام من المتلقي إلى المرسل فذلك يعني تبادل الكلام"⁽²⁾ وهذا التبادل يستلزم وجود طرفين طرف منتج للخطاب أي مخاطب وطرف مستقبل للخطاب أي مخاطب وهو بذلك نشاط تخاطبي تواصلية تفاعلي.

2-1 المفهوم الاصطلاحي للخطاب:

1-2-1- المفهوم الاصطلاحي للخطاب عند العرب:

حظي مصطلح الخطاب من الناحية الاصطلاحية بعناية من قبل المفسرين والأصوليين واللسانيين فانكبوا عليه دراسة وتعريفاً وتحليلاً وتفسيراً.

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1419هـ-1999م، ج4، ص 134، 135، مادة (خطب).

(2) ذهبية سمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة، الجزائر، (د. ط)، 2005م، ص 14.

ففي القرآن الكريم ورد مصطلح الخطاب في آيات من القرآن الكريم في أكثر من موضع سواء بصيغة الفعل أو بصيغة المصدر، نذكر منها:

قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿وَلَا تُخَاطَبِينَ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (1).

وقوله عز وجل في الآية الثانية ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (2).

وقوله جلّ وعلا في الآية الثالثة: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي

الْخِطَابِ﴾ (3)

وقوله تعالى في الآية الرابعة: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ رَوْءَ آتِيَتِهِ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ (4)

في هذه الآيات البيّنات قرّن مفهوم الخطاب بالكلام، "على اعتبار أنه تأدية فردية ونشاط ذي فعالية

أدائية ذاتية من المتكلم الذي له مقاصد محددة أثناء التبليغ" (5)

وإذا رجعنا إلى كتب التفسير نجدهم قد أولوا عناية خاصة بشرح مفردة الخطاب منها؛ الآية الثانية يفسرها الطبري (ت 310 هـ) "لا يملكون منه خطاباً" قال "كلاماً" أي لا يملكون أن يخاطبوا الله والمخاطب: المخاصم الذي يخاصم صاحبه" (6) وقال الزمخشري (ت 538 هـ) في تفسير هذه الآية "أي: ليس في أيديهم مما يخاطب به الله ويأمر به في أمر الثواب والعقاب، خطاب واحد يتصرفون فيه تصرف الملاك. فيزيدون فيه أو ينقصون منه أو لا يملكون أن يخاطبوه بشيء من نقص العذاب أو زيادة في الثواب إلا أن يهب لهم ذلك ويأذن لهم فيه" (7).

(1) سورة المؤمنون، الآية 27.

(2) سورة النبا، الآية 37.

(3) سورة ص، الآية 22.

(4) سورة ص، الآية 19.

(5) حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، ط1، 2018، ص 31.

(6) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1405 هـ، 1984 م، المجلد 15، ج

30، ص 22

(7) أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه خليل مأمون شيخنا، تفسير الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1430 هـ، 2009 م، ج 30، ص

1171.

وفي تفسير الآية الثالثة يقول الزمخشري "وعزّني: غلبني... يريد: جاءني بحجج لم أقدر أن أورد عليه ما أردّ به"⁽¹⁾؛ أي إن مفهوم الخطاب يرتبط هنا بالغلبة أو السلطة اللغوية.

يفسر الزمخشري "فصل الخطاب" في الآية الرابعة بقوله "البين من الكلام... الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه، وأردت بفصل الخطاب: الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفساد والحق والباطل، والصواب والخطأ... ويجوز أن يراد بالخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار محل ولا إشباع ممل"⁽²⁾. وباستنتاج كنه هذا التفسير تظهر لنا فاعلية الخطاب في كونه يأتي لاستجلاء الخبايا والفصل بين الفعل الصالح والطالح وبين الجيد والرديء منه للابتعاد عن مزلق العنف والفساد، أملا في الخروج بمحصلة معرفية مبنية على نتائج منطقية ذو دعامة تأثيرية إقناعية لبث الإصلاح كما أنّ عبارة فصل الخطاب تضيف شيئا جديدا وهو النفوذ والسلطة و" تشرح بمعنى الحجاج والإقناع والقدرة على ممارستها"⁽³⁾.

وقد عزّفه الآمدي (ت 631هـ) بأنه "اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه"⁽⁴⁾ وقال أبو البقاء الكفوي (ت 1094هـ) في "الكليات" "الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام، وإفهام من هو أهل للفهم، والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطابا"⁽⁵⁾ وعرفه التهانوي (ت 1158): "بأنه توجيه الكلام نحو الغير للإفهام"⁽⁶⁾.

وهذا ما يجعلنا إلى أنّ الخطاب يوجه لغرض الإفهام؛ فالإفهام صفة جوهرية في الخطاب وإذا خلا الخطاب من هذه الصفة فلا يكون الخطاب خطابا.

أما من ناحية صيغة لفظ الخطاب، فهو أحد مصدري فعل خاطب يخاطب خطابا ومخاطبة وهو يدل على توجيه الكلام لمن يفهم، فأصبح في عُرف الأصوليين يدل على ما خوطب به وهو الكلام، وقد اهتم

(1) الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل، ج 23، ص 923.

(2) المصدر نفسه، ج 23، ص 921.

(3) عبد العالي قادا، الحجاج في الخطاب السياسي، الرسائل السياسية الأندلسية خلال القرن الهجري الخامس أمودجا (دراسة تحليلية)، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2015م، ص 113.

(4) علي بن محمد الآمدي، (أبو الحسن سيد الدين علي بن محمد بن سالم الثعالبي الآمدي)، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط02، 1986، ج01، ص 136.

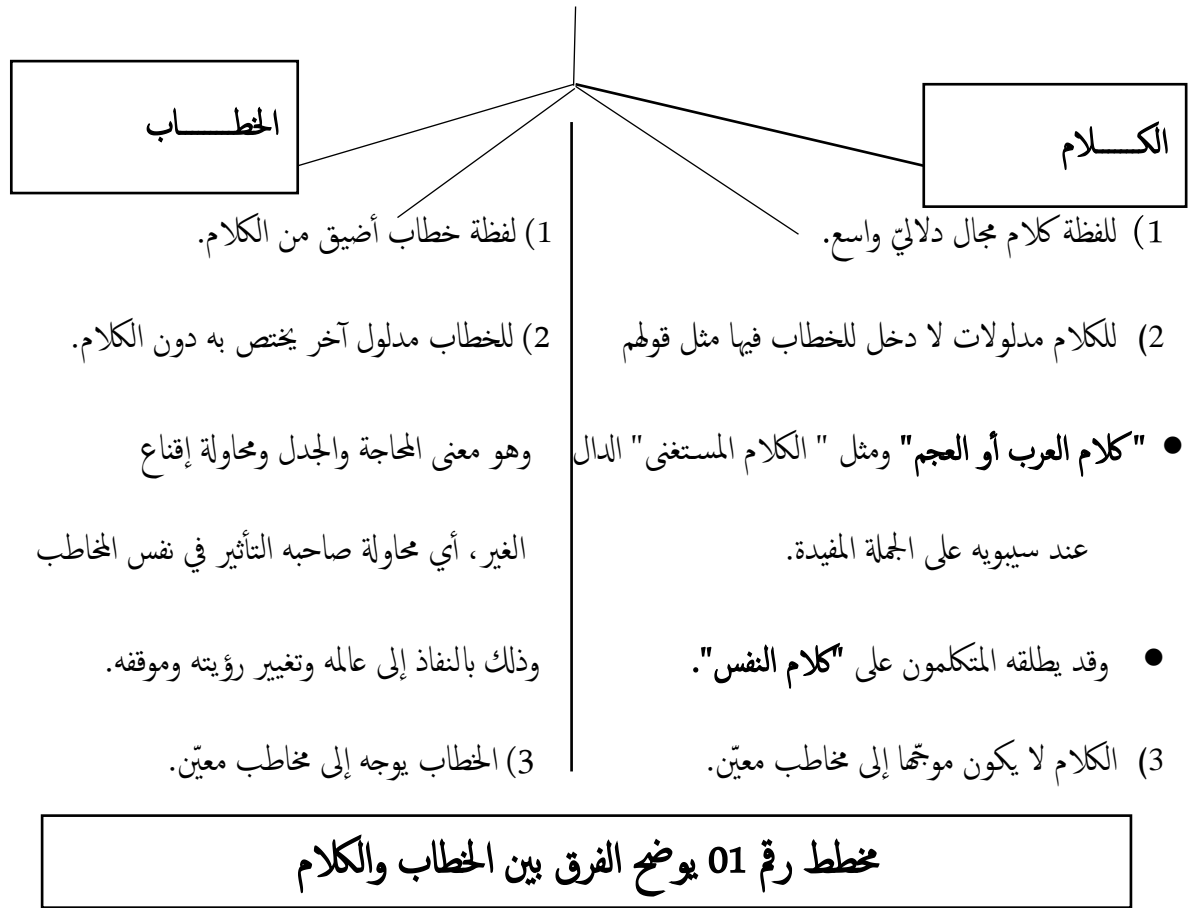
(5) الكفوي (أيوب بن موسى الحسيني القريني، أبو البقاء الحنفي، ت 1094)، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، الرسالة، بيروت، ط1، 1992م، مادة: (خطب). ج1، ص 339.

(6) التهانوي (محمد علي بن علي بن محمد التهانوي الحنفي، ت 1158) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة رفيع العجم وتحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان، ناشرون، ط1، 1996م، أش، ج1، ص 749.

علماء اللغة بصيغة اسم المفعول (المخاطب) وهذا للدلالة على طرف الخطاب الآخر الذي يوجه المرسل كلامه إليه⁽¹⁾.

لاحظنا في التعريفات السابقة بأن تعريف الخطاب جاء مساويا للكلام المفيد ولكن الكلام ليس بالضرورة خطاب فالذي يضفي على هذا الكلام صفة الخطاب ويحصر مجاله الدلالي الواسع هو ما يحصل في التخاطب؛ أي إن "الخطاب لا يكون إلا في مخاطبة وهذا اللفظ نفسه مصدر خاطب فلا يتصور خطاب إلا في حال خطابية مع مخاطب معين"⁽²⁾.

وقد فصل عبد الرحمان الحاج صالح في مدلولات كل من الكلام والخطاب وعرض النقاط الفارقة الجوهرية التي تميز كل واحد منهما على الآخر، نستقرؤها وفق المخطط الآتي:



⁽¹⁾ ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص 35-36.

⁽²⁾ عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، سلسلة علوم اللسان عند العرب 3، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، ط1، 2012م، ص16.

الخطاب ينتج عن سمة التفاعل، ولا ننكر أنّ هذه السمة هي وليدة الكلام المفيد الذي ينجم عنه الإفهام فيحدث عن مجملها "سمة تخاطبية وهي التفاعل والتي تحقق وظيفة من وظائف اللغة هي الوظيفة التفاعلية إذن لا تفاعل دون خطاب، ولا خطاب دون تفاعل، فالتفاعل إجراء والخطاب ممارسة ونتيجة، بيد أنه لا ينفك أي منهما عن الآخر مما يرقى بالعلاقة بينهما فتتواءم وترد في سياق واحد"⁽¹⁾.

وعليه يمكن القول إن التفاعل لا يحدث إلا بين ذاتين على الأقل، "فالتزاوت سمة من سمات الخطاب ناتجة عن سمة التفاعل، إذ تسهم كل ذات في عملية تفاعلية تراوح بين إنتاج الخطاب وتأويله فالمخاطب هو من يصوغ الخطاب مستثمرا نظامه الأساس اللغة في حين يؤوّله المخاطب، وبما أنّ عملية التفاعل تستلزم التزاوت فإنها تتمثل باعتبار الذوات، فتعملها ولا تهملها وفق قواعد التعاون في الخطاب وتهذيبه بالتأدب على اختلاف درجاته"⁽²⁾.

إذن فاستمرارية الخطاب بين المخاطب والمخاطب تقتضي أن يكون الحوار بينهما بناء بعيدا عن لغة التعصب والإجبار.

كما أنّ الخطاب لا يحدث إلا في زمان محدد ومكان معين، فاجتماع الذوات بما تحمله من صفات وما تتخلق به من سمات في زمان التخاطب ومكانه تشكل سياقا يضمنها فتصبح أبعادا يؤثر كل منهما في سيرورة الخطاب؛ وعليه فلا خطاب دون سياق، فالسياق سمة خطابية. وتستلزم سمة السياقية سمة أخرى هي الحركة بما تدل عليه من تفاعل الذوات، واعتبارها، واعتبار الزمان والمكان، وغيرها من الأبعاد، وفي هذه النقطة يقول (أحمد المتوكل): "أنّ الخطاب نموذج حركي ذو مراحل مختلفة تقتضي كل مرحلة منها من المعلومات ما لا تقتضيه المراحل الأخرى"⁽³⁾.

فهذه الحركة تدرج في جميع فعاليات الخطاب، فتؤدي إلى تقلب أحوال الخطاب وتنوع صيغه مما يؤدي إلى "تباين درجات معناه بين المطابقة الحرفية تارة، والمفارقة تارة"⁽⁴⁾.

إذن بعد عرض مفاهيم الخطاب المتنوعة عند العرب يمكن أن نلخص سماته الكليّة في هذه المعادلة:

$$\text{الخطاب} = \text{كلام} \times [\text{حركة الخطاب} \times (\text{الإفادة} + \text{التفاعل بين الذوات} + \text{السياقية})]$$

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية، الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2013م، ص 41-42.

(2) المرجع نفسه، ص 42.

(3) أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية "بنية الخطاب من الجملة إلى النص"، دار الأمان، الرباط، (د.ط.)، 2001م

ص51.

(4) عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية، ص 43.

2-1-2- المفهوم الاصطلاحي للخطاب عند الغرب:

إنَّ مفهوم الخطاب في الدراسات الغربية "قد ناله التعدد والتنوع، بتأثير الدراسات التي أجراها عليه الباحثون، حسب اتجاهي الدراسات اللغوية الشكلية والدراسات التواصلية"⁽¹⁾ وهذا تبريرنا لتقلب مناهج الدراسات الشكلية والدراسات التواصلية التي عنيت بالخطاب، فاعتراه التباين، وبالرغم من هذا التباين إلا أنَّه لا يخرج عن "أحد مفهومين، يتفق في أحدهما مع ما ورد قديماً عند العرب، أمَّا في المفهوم الآخر فيتسم بجدته في الدرس اللغوي الحديث وهذان المفهومان هما:

"الأول: أنه ذلك المفظوظ الموجه إلى الغير، بإفهامه قصداً معيناً.

الآخر: الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة"⁽²⁾ فالمفهوم الأول وظيفيٌ نعني به المفظوظ الذي يوجهه المخاطب إلى غيره وهنا يكمن التساؤل بغية ماذا يوجهه إلى غيره؟ بغية إفهامه قصداً معيناً، أما المفهوم الثاني فهو مفهوم شكلي يُعنى بالمظهر الخارجي اللغوي الذي يتجاوز حدود الجملة، وهذا المفهوم هو الغالب في الدراسات اللغوية الحديثة.

وعرضت **ديورا شيفرن* (Deborah Schiffrin)** ثلاثة تعريفات للخطاب جامعة للتباين الناجم عن تعدد مناهج

الدراسات اللغوية حيث يرد "بوصفه أكبر من الجملة، أو بوصفه استعمالاً أي وحدة لغوية، أو بوصفه المفظوظ"⁽³⁾.

تعريف 3	تعريف 2	تعريف 1

ونسبت كل تعريف إلى منهجه، فوجدت أنَّ الخطاب في أحد تعريفاته هو تلك الوحدة الأكبر من الجملة وهنا تتجسد رؤية **الاتجاه الشكلي** "عندما تتجه عناية الباحث إلى بنية الخطاب الداخلية تركيبياً ودلالياً بعناصر انسجام عناصره، وترابطها، وتحليل تراكيبه، وتحديد علاقة وحداته بعضها ببعض، بل تناسبها وذلك على مستوى بنيتها المنجزة"⁽⁴⁾.

في حين نجد في تعريفها الثاني الذي يجسد **الاتجاه الوظيفي** و "الذي يتجاوز فيه الباحث الوصف الشكلي فلا يقف عند هذا الوصف ولا يكتفي بالاختصار على بيان علاقة وحدات الخطاب بعضها ببعض وتحليلها، بل يوسّع عمله فيلتفت إلى الاعتناء بإسهام عناصر السياق الخارجية في إنتاج الخطاب وفي تأويله

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 36.

(2) المرجع نفسه، ص 37.

* باحثة أمريكية اهتمت بموضوع المقاربات الخطابية ولها عدة كتب من بينها: Approches to discourse, Blackwell, Cambridge, USA, 1994.

(3) عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية، ص 45.

(4) المرجع نفسه، ص 46.

للقوف على مدى توظيفها وحضورها، مثل دور العلاقة بين طرفي الخطاب، ودرجاتهم الاجتماعية وطرقهم المعتادة في إنتاج خطاباتهم"⁽¹⁾.

فالتلفظ المتعدد لخطاب واحد، مثلا يجسد (الأنا) المتلفظة في تباينها الواقعي والاجتماعي مع المخاطب ويكشف هذا التعريف عن كيفية تحقيق بعض الوظائف اللغوية التي يستطيع الإنسان أن يعبر بها عن مقاصده ويحقق أهدافه، مثل الوظيفة التفاعلية، والوظيفة التعاملية، "مما يبرز العلاقة المتبادلة بين نظام اللغة وسياق استعمالها. وهنا يقوم المرسل باقتناص فرصة استثمار كافة المستويات اللغوية، مثل المستوى الفنولوجي بتوظيف التنعيم"⁽²⁾.

نرى أنّ التعريفين السابقين قد اتّحدا في الحدّ الكمي للخطاب الذي يتجاوز الجملة، ولكنهما تباينا في طريقة النظر إليه، وتحليله بين إغفال السياق وإعماله.

في حين نرى أنّ التعريف الثالث "بوصفه الملفوظ" هو التعريف الأنسب؛ لأنه يمثل "نقطة التقاطع بين المنهجين السابقين أي بين البنية والوظيفة"⁽³⁾ فهو يتحلل من سطوة الشكل من جهة، كما يبقى على اعتبار السياق وتحقيق الفائدة من جهة أخرى فقد يكون جملة أو أكثر، ولكن ليس بمفهوم الجملة النحوي التجريدي بوصفها سلسلة من الكلمات غفلا عن اعتبار السياق، بل بمفهومها التلقّي في السياق. وقد يكون هذا ما حدا بالباحثة لأن تعدل عن استعمال مصطلح الجملة الواحدة. ومن البين أنّ هذا التعريف الثالث الذي أوردته لا يتسق مع مفهوم الخطاب وفق المنهج الشكلي؛ أي بوصفه "ما يزيد عن الجملة كما يعدل به عن كونه تراكما من الوحدات اللغوية الصغرى التي لا سياق لها، إلى كونه مجموعة من وحدات ذات سياقات تلقّية خاصة بها"⁽⁴⁾ أي إنّ الخطاب هو ملفوظات سياقية قد تقلّ وقد تكثر، وعليه فسمّة السياقية هي السمة الجوهرية التي تكشف عن مبررات إيراد الخطاب في نظم معيّن، كما تسهم في تحديد معانيه وأهدافه"⁽⁵⁾.

"ولا ريب أن الخطاب وفق هذا التعريف هو الخطاب الفعلي الذي يمارسه الناس في حياتهم، فلا يتقيدون بطول معيّن، بل يكتفون بما كان محققا لأهدافهم، كاشفا عن مقاصدهم، وهذا هو الحدّ العملي الآني الذي

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية، ص 46.

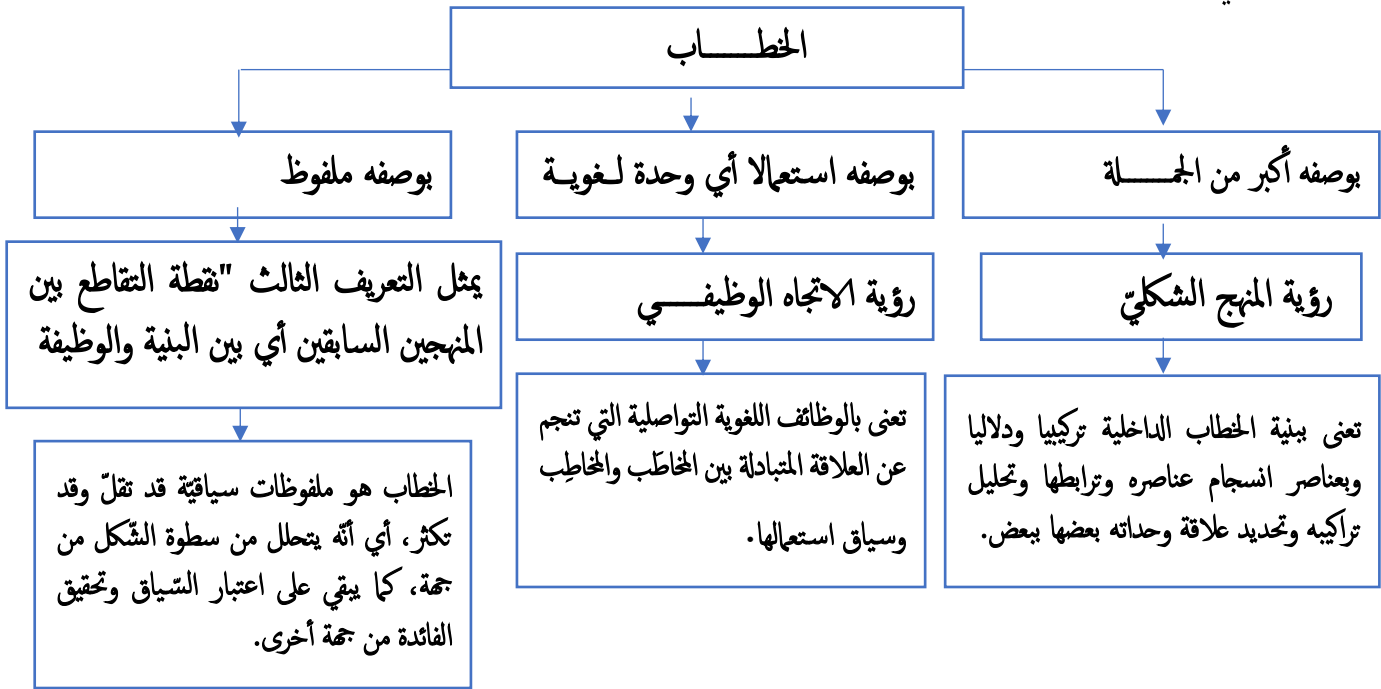
(2) المرجع نفسه، ص 38.

(3) المرجع نفسه، ص 38.

(4) المرجع نفسه، ص 38.

(5) المرجع نفسه، ص 48.

يتجاوز الحدود الشكلية المسبقة⁽¹⁾ إلى حدود نغمية تواصلية وفق ما تقتضيه مختلف السياقات، تمثل تعريفها بالخطط الآتي:



خطط رقم 02 يمثل تعريف ديورا شيفرن

وقد عرفه إميل بنفينيست (E. Benveniste): "بأنه الملفوظ المنظور إليه من جهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل"⁽²⁾ وهو بذلك يجعل الخطاب ملفوظا مرتبطا باللغة المكتوبة انطلاقا من آليات التواصل وما تقتضيه من استعمال "للدليل اللغوي المتواضع عليه"⁽³⁾ فهو بذلك يعدّ نصا بوصفه ملفوظ مقرونا بفعل التواصل، كما أنه يعرفه أيضا "بكونه كل عملية تلفظ تتطلب متكلما يقصد التأثير في سامعيه بكيفية ما"⁽⁴⁾ وهذا ما يستدعي ارتباط الخطاب باللغة المنطوقة، إذ يتطلب طرفين هما المتكلم والمستمع وهدفا تأثيريا بكيفية معينة. وهذا القصد التأثيري ينبغي أن يرسم ويحدد من قبل المخاطب أثناء التخاطب بألية وكيفية محددة واستراتيجية إقناعية منتهجة من قبل المتكلم للتأثير في السامع.

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية، ص 48.

(2) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب، ط1، 2005 م، ص 19.

(3) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 32.

(4) زكريا السرتي، الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2014، ص 97.

أمّا رومان جاكبسون (*Roman Jakobson*) فيرى أن الخطاب: "نص تغلبت فيه الوظيفة الشعرية للكلام"⁽¹⁾ فجاكبسون ينظر إلى الخطاب باعتباره نصا.

نستشف من تعريف كل من إميل بنفينيست (*E. Benveniste*) ورومان جاكبسون (*R. Jakobson*) أنّ هنالك تداخلا كبيرا بين مفهوم الخطاب وبين مفهوم النص، لذا سنحاول الفصل والتفريق بينهما نظرا للتعلق الموجود بينهما.

فالخطاب "كلمة تستخدم للدلالة على كل كلام متصل اتصالا يمكنه من أن ينقل رسالة كلامية من المتكلم أو الكاتب، وليس كل خطاب نصا وإن كان كل نص بالضرورة خطابا فالكلام المتصل خطاب ولكنه لا يكون نصا إلا إذا اكتمل ببداية ونهاية، وعبر عن موضوعه ببناء متماسك منسجم."⁽²⁾

يمكن التمييز بين الخطاب والنص باعتبار: المتلقي، الكتابة وباعتبار التواصل يتضح أن الخطاب يؤدي وظيفة تواصلية عن طريق المشاهدة ويؤديها النص عن طريق التدوين والكتابة⁽³⁾ إذن فالكتابة تخص النص دون الخطاب، ويمكن أن نصف الخطاب بأنه رسالة من متكلم أو كاتب، و"النص بأنه وحدة مجردة لا تتجسد إلا من خلال الخطاب كفعل تواصلية"⁽⁴⁾؛ ولهذا أحدثت الكتابة تحولات جذرية في طبيعة التواصل بين المحاطب والمخاطب وهذا الانتقال من التواصل الشفوي (الخطاب) إلى التواصل المكتوب (النص) هو "إنتاج لنوع جديد من الخطاب بمقومات سياقية جديدة وليس بخروج من وضع أصلي إلى وضع فرعي، لأن الخط ليس مجرد تثبيت للمنطوق، وليست علاقته بالنطق علاقة عَرَضُ بجوهر، ولئن كانت المشاهدة هي الأصل فإن الخط أحدث تحولا جذريا في علاقة الكلام بقائله ومتقبله وممكن الكلام (الخطاب) من التحرر من ظروف التواصل الشفوي في الزمان والمكان"⁽⁵⁾.

أمّا بالنسبة للمتلقي فالخطاب يستلزم متكلما ومتلقيا آنيا أثناء التواصل، بينما النص فمتلقيه يمكن أن يكون غائبا وتؤجل عملية التواصل لحين القراءة، إذن فكلّ من الخطاب الشفوي والنص المكتوب تجسيد

(1) نور الدين السدّ، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، 1997، ص 11.

(2) خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق - مثل من صورة البقرة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2008م، ص 24.

(3) ينظر: حسين خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2007م، ص 35.

(4) خلود العموش، الخطاب القرآني، ص 24.

(5) عبد العالي قادا، الحجاج في الخطاب السياسي، ص 128.

وتحقيق للوظيفة التواصلية، ويمكن أن نميز بين النص والخطاب في مجموعة من النقاط الجوهرية تتمثل في⁽¹⁾:

- ✓ الخطاب مرتبط باللغة المنطوقة، أما النص فهو نتاج اللغة المكتوبة.
- ✓ الخطاب يتطلب متكلمًا ومستمعًا وحضورًا آني أثناء التواصل، أما النص فيتطلب منتجًا (ناصًا) ومتلقيًا قد يؤجل إلى حين القراءة.

✓ الخطاب ينقطع بزوال لحظة التواصل، أما النص فمستمر حتى ولو غاب متلقيه، وهذا ما يثبت أن النص ذو ديمومة واستمرارية كتابية حاضرة في كل زمان ومكان.

✓ الخطاب مقترن بالتلفظ الآني الذي يحمل دلالة معينة تتفاعل معها الأطراف المجسدة له أثناء التواصل، في سياق محدد، يبرز نفسية وثقافة هذه الأطراف، أما النص فتتعلق بالملفوظ والكتابة وهو يحتوي تلك الدلالة المعينة للخطاب، ولهذا رأى **فان دايك (Van Dyck)** أن النص يتضمن الخطاب، وإذا تم تجسيد هذا النص في موقف وسياق تواصلية يعد خطابًا.

هذه النقاط الفارقة تجعلنا ننظر إلى الخطاب بأنه نتاج العملية الشفوية في حين يتجلى لنا أن النص ما هو إلا ذلك القالب الذي يشكل الخطاب ببنائه وخصائصه النصية ولغته المكتوبة "فهو مجمل القوالب الشكلية النحوية، والصرفية والصوتية"⁽²⁾.

ويمكن أن ندرج في هذا المقام دعماً لرأينا مقولة نراها هامة لـ **فان دايك (Van Dyck)** يدرج فيها تمييزاً دقيقاً بين مصطلح الخطاب والنص أوردها حسين خمري في كتابه **نظرية النص** "إن الخطاب هو عملية الإنتاج الشفوية ونتيجتها الملموسة، أما النص فهو مجموع البنيات الآلية التي تحكم هذا الخطاب"⁽³⁾.

هذه المقولة تجعلنا نستحضر الفرق الذي أدرجه **سعيد يقطين** بين النص والخطاب؛ وذلك يجعله النص بنية تتضمن الخطاب والخطاب إنتاج لفظي؛ فالنص هو مجموع البنيات النسقية التي تتضمن الخطاب وتستوعبه في حين إن الخطاب هو في آن واحد فعل الإنتاج اللفظي ونتيجته الملموسة والمسموعة والمرئية باعتباره موضوعاً أمبريقياً مجسداً أمامنا كفعل⁽⁴⁾.

وما نخلص إليه في خضم هذا الجدل بين النص والخطاب، أنّ العلاقة الجامعة بينهما هي علاقة التضمن فالنص متضمن في الخطاب وهذا الأخير يسمح للنص بالتظهر في شكل خطاب ويضمن له بذلك تحقيق الوظيفة

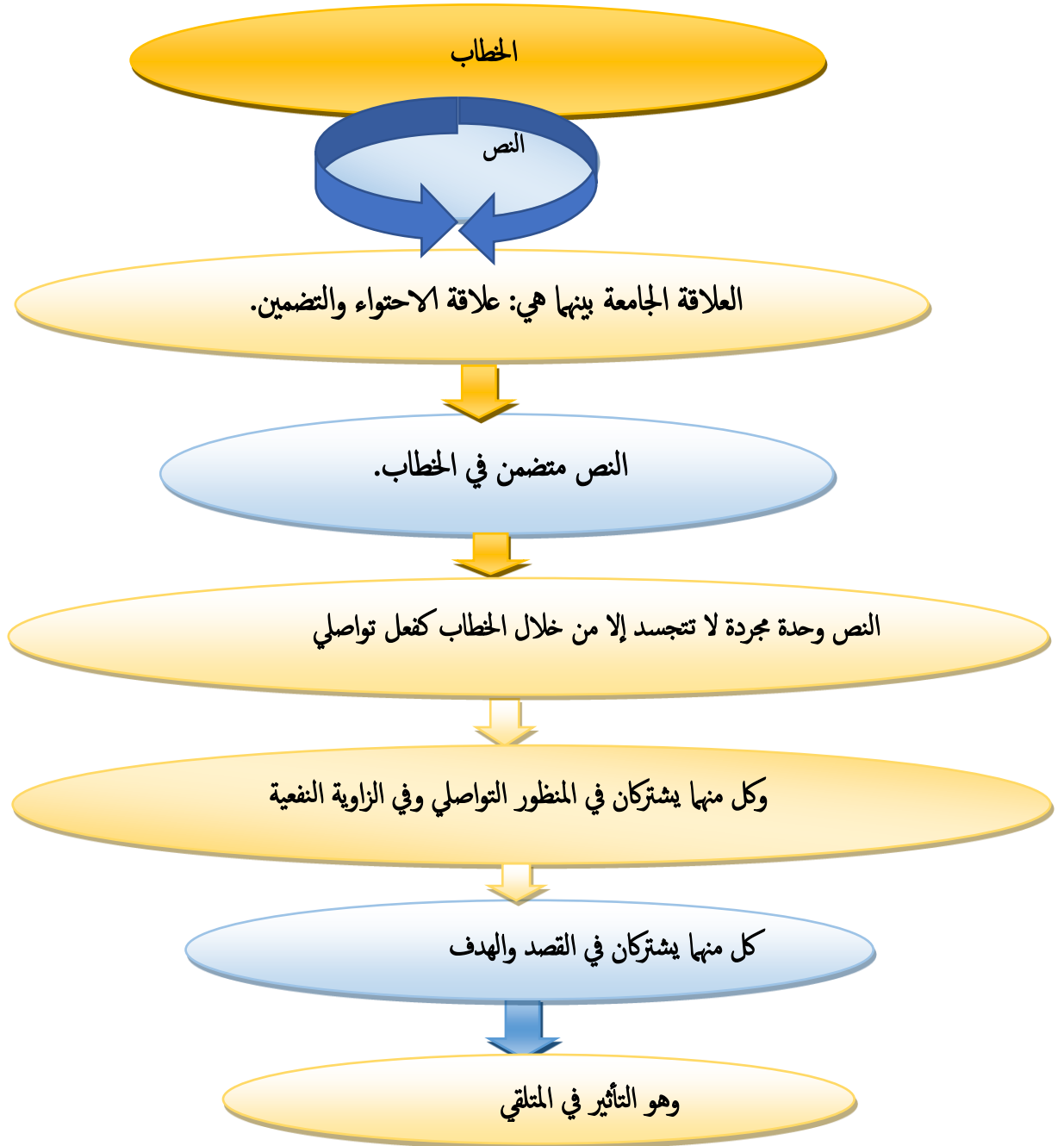
(1) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 34.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 39.

(3) حسين خمري، نظرية النص، ص 60.

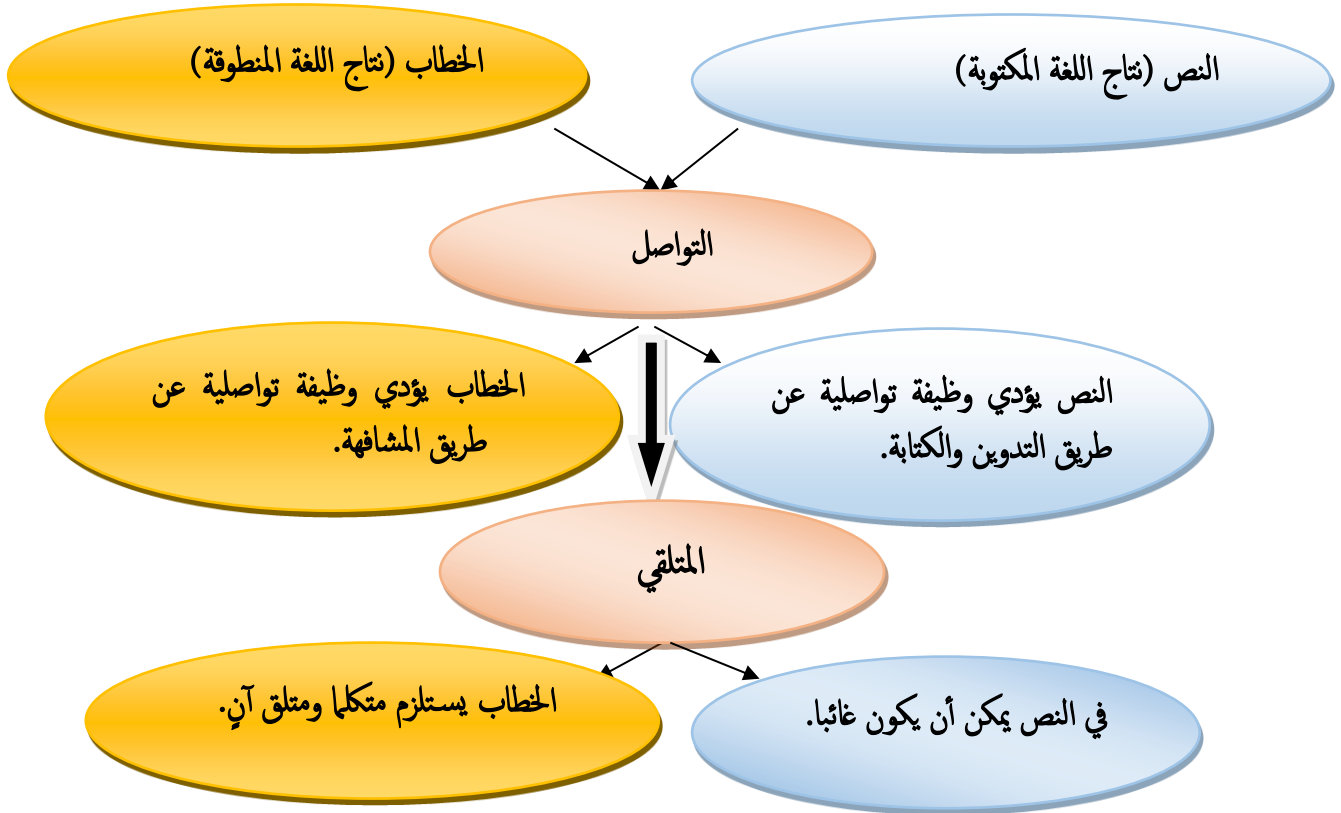
(4) ينظر: سعيد يقطين، افتتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، 2001م، ص 16.

التواصلية هذا من جهة، ومن جهة أخرى إذا نظرنا إلى كل منها بمنظور تواصلية ومن زاوية نفعية، نجد أن كلاً منهما يشتركان في القصد وهو التأثير في المتلقي فلما ينتج المتكلم خطابه والكااتب نصه فهو ينتجه بنية التأثير في الآخر وتمثيل ذلك وفق المخطط الآتي:



مخطط رقم 03 يوضح العلاقة الاحتوائية بين النص والخطاب.

إلا أنّ بينهما فروقا جوهرية تتمثل في المخطط الآتي:



مخطط رقم 04 يوضح النقاط الفارقة بين النص والخطاب.

ولا يمكن الحديث عن الخطاب بمعزل ومنأى عن العناصر الفاعلة والمشكلة له "لأنه يميلنا إلى عناصر السياق الخارجية في إنتاجه وتشكيله اللغوي، وكذلك في تأويله، مما يفترض معرفة شروط إنتاجه وظروفه"⁽¹⁾

2- عناصر التفاعل الخطابي، شروطه وقوانينه:

1-2 عناصر التفاعل الخطابي:

يستحيل أن يكون الخطاب ذا معنى أو يُمكن أن يتواصل به بمعزل عن العناصر المشكلة له، لذا يستلزم الحديث عن الأطراف الفاعلة فيه، فهي التي تضيف على الخطاب خصوصيته التواصلية، فلا يكون الخطاب خطابا إلا إذا قام على جملة من العناصر الأساسية يتضمنها أي حدث خطابي، والحدث الخطابي بالنسبة للمخاطب هو تعبير أو وسيلة لتوصيل أفكاره أو شعوره أو رغباته، وهو بالنسبة للمخاطب مثير

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 39.

يدفعه إلى القيام بعمل ما أو اختيار ضرب معين من السلوك، أمّا فيما يتعلق بالخطاب في حد ذاته فهو الحدث اللغوي وغير اللغوي تكمن مهمته في نقل الأفكار وتوصيلها⁽¹⁾.

و"هذه العناصر تشترك في بلورة عملية التواصل في الخطاب"⁽²⁾ فيؤدي بذلك ثلاث وظائف لا تخرج في كون الخطاب "معبر وموصل ومؤثر"⁽³⁾ ويمكن معرفتها وفحصها من خلال النظر إلى الخطاب ذاته بوصفه الميدان الذي تتبلور فيه كل هذه العناصر مؤدية هذه الوظائف، وهي:

1-1-2 المخاطب: مما لا شك فيه أنّ المتكلم يلعب دورا رئيسا في عملية التواصل في الخطاب فهو السبّاق والمنتج والمحرز لعملية التخاطب فهو يشكل "الذات المحورية في إنتاج الخطاب، لأنه هو الذي يتلفظ به من أجل التعبير عن مقاصد معينة، وبغرض تحقيق هدف فيه، ويجسد ذاته من خلال بناء خطابه"⁽⁴⁾ فبدونه لا يكون هناك خطاب؛ إذ يعدُّ الطرف الأول المفعول للخطاب الذي يتجه به إلى الطرف الثاني ليكمل دائرة العملية التخاطبية، بقصد إفهامه مقاصده أو التأثير فيه، ولذلك فإنه يختار ما يتناسب مع منزلته ومنزلة المرسل إليه، كما يتوخى اختيار ما يتناسب مع السياق العام؛ فخطاب التاجر مع زبونه يختلف حتما عن خطابه مع تاجر آخر مثله، كما يختلف خطاب ملك مع أحد رعاياه عن خطابه مع آخر من أئداده⁽⁵⁾. فالمخاطب هو المنوط ببناء خطابه وانتقاء لغته بحسب مقتضيات السياق وطبيعة المتلقي، "فالمعطيات السياقية التي تتصل بالمخاطب في الواقع المادي تتحول إلى صور وتمثلات ينشئها المتكلم... عن طبيعة المخاطب وهويته واثمائه الاجتماعي واللغوي والثقافي، وبحسب كفاياته الذهنية والتخيلية"⁽⁶⁾.

فاللغة لا يمكن لها أن "تتجسد وتمارس دورها الحقيقي إلا من خلال المرسل"⁽⁷⁾ فهذا الأخير هو الذي تتوقف عليه نجاح العملية التخاطبية "فاللغة لا تسبق ذاتها، وإنما المتكلم هو من يلائم بين اللغة والسياق

(1) ينظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمه وقدم له وعلق عليه كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط12، (د.ت) ص 27.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 39.

(3) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص 27.

(4) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 45.

(5) ينظر: المرجع نفسه، (المقدمة ص 7).

(6) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2014م، ص 286.

(7) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 45.

المناسب للخطاب"⁽¹⁾ ويجورها على حسب مستوى المتلقي، وهناك عناصر أساسية ينبغي للمخاطب أن يأخذها بعين الاعتبار قبل إنتاج خطابه، من أهمها:

➤ الأخذ بعين الاعتبار أن المخاطب طبقات، وعليه أن يسوق معاني كلامه وفق هذه الطبقات وفي هذا يقول **الجاحظ (ت 255 هـ)**: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني، على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"⁽²⁾ أي أن يضع لكل طبقة الخطاب الذي يناسبها وبطابقتها لغة ومعنى "فشرف الخطاب لا يعود إلى اتئائه إلى هذه الطبقة أو تلك، بل يعود إلى قدرته على التصرف في كل الطبقات وتحقيق الغاية التي من أجلها وُضع"⁽³⁾. ويفصل لنا الجاحظ ويدقق في معنى الطبقات؛ فكل طبقة خطاب تتفاعل معه "وكلام الناس في طبقات كما أنّ الناس أنفسهم في طبقات"⁽⁴⁾ وعلى إثر هذه الطبقية يصوغ المخاطب خطابه، على حسب نوع الطبقة التي ينتمي إليها هذا المخاطب، فالمخاطب البليغ هو الذي يكون في "قواه فضل التصرف في كل طبقة"⁽⁵⁾ وعرض كل طبقة بالتفصيل وقسمها إلى نوعين أساسيين من المخاطبين وسمى النوع الأول **بالعامّة أو العوامّ** والثاني **بالخاصة أو الخواص** وعلى إثر هذين النوعين يتم المخاطب توجيه خطابه فالخطاب كما يقول **الجاحظ** يكون "على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوامّ والخواصّ"⁽⁶⁾.

فالتفاوت بين المستويات والقدرات العقلية الإدراكية للمتخاطبين ضرورة حتمية في الكون، والمخاطب اللبيب هو الذي يعرف متى يشتغل بخطاب خاصّ أو بخطاب عام، فيأخذ بعين الاعتبار التصنيف الطبقي ويصوغ خطابه وفق هذا التفاوت الطبقي في المستويات المعرفية.

➤ أن تجتمع في الخطيب آلات البلاغة وتكتمل لديه كأن "يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح قليل اللحظ، متخير اللفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفع، ص 39.

(2) الجاحظ، (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري) البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 7، 1418هـ، 1997م، ج 1، ص 138-139.

(3) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 291.

(4) الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 144.

(5) المصدر نفسه، ص 105.

(6) المصدر نفسه، ص 105.

فضل التصرف في كل طبقة⁽¹⁾ فيكون بذلك بليغا، وبطبيعة الحال لا يتأتى له ذلك إلا إذا كان "تصفحه لمصادره، في وزن تصفحه لموارده، ويكون لفظه مؤثقا ومعناه نيرا واضحا. ومدار الأمر على إيفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم وأن تواتيه آتته وتتصرف معه أدواته"⁽²⁾.
وإذا كان موضوع الكلام على الإيفهام، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس فيخاطب السوقي بكلام السوقة والبدوي بكلام البدو، ولا تجاوز به عما يعرفه إلى مالا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب، لذا ينبغي أن يتكلم بفاخر الكلام ونادره ورصينه ومحكمه عند من يفهمه عنه ويقبله منه، فإذا توجه إلى من لا يفهمه ذهب فائدة كلامه، وضاعت منفعة منطقه، لأن العامي إذا كلمته بكلام العلية سخر منك، وزرى عليك⁽³⁾ و"الخاصي إذا خاطبته بألفاظ سوقية أو بألفاظ غير مناسبة لهويته ومرتبته كان ذلك جفاء تستجلب به أسباب الفشل في الاستمالة والإقناع"⁽⁴⁾.

لذا ينبغي أن تخاطب كل طبقة وفق مستوى فهمها وخلفياتها المعرفية، لكي لا يتعذر وصول المعنى لعدم بلوغ الإيفهام "فالبلاغي لا يتصور خطابا قادرا على الفعل والتأثير في مخاطبه ما لم يأخذ بعين الاعتبار خصائصه وأحواله وهويته السوسيو ثقافية"⁽⁵⁾، وذلك "ليدخل إليه من بابه، ويدخله في ثيابه"⁽⁶⁾ فإذا لم يأخذ المخاطب بعين الاعتبار الخصائص النفسية والأحوال والانتماءات اللغوية والاجتماعية والثقافية للمخاطب فلن يتمكن من استمالة المتلقي وبالتالي ييؤء خطابه بالفشل. ومن أمثلة ذلك "ما حدث للشاعر ذي الرمة حين دخل على عبد الملك بن مروان، ولم يأخذ بعين الاعتبار بعض خصائصه الفيزيولوجية والنفسية"⁽⁷⁾ "فأنشده قصيدته (من البسيط):

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يُنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَفْرِيَةٍ سَرِبُ*⁽⁸⁾

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ص 92.

(2) أبو هلال العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري)، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، مطبعة محمود بك في جادة أبي السعود في الاستانة العليا، ط1، 4 محرم، 1319هـ، ص 14.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص 21 إلى 23.

(4) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 294.

(5) المرجع نفسه، ص 294.

(6) ابن رشيق، (أبي علي الحسن بن الرشيق، القيرواني الأزدي) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط5، 1981، ج1، ص 199.

(7) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 295.

* الكلى: جمع كلية، وهي رقعة تكون في أصل عروة المزادة (وعاء من جلد لحفظ الماء)، مفريّة: مقطوعة، سرب: جار.

(8) ذو الرّمة (غيلان بن عقبة العدوي)، الديوان، تحقيق زهير فتح الله، دار صادر، بيروت، ط1، 1996، ص 59.

وكانت بعين عبد الملك ريشة، وهي تدمع أبدا، فتوهم أنه خاطبه... فقال: وما سؤالك عن هذا يا جاهل؟ فمقته وأمر بإخراجه"⁽¹⁾.

عودا على بدء؛ لا بد أن يأخذ المخاطب بعين الاعتبار عند بناء خطابه الحال الذهني، النفسي اللغوي الثقافي والاجتماعي للمخاطب، فهذا الأخير محدد ثقافيا وكفاياته الذهنية والعقلية تستند إلى مرجعيات ثقافية إذ لا بد على المخاطب استحضارها وتفعيلها داخل خطابه؛ لأن هذه المرجعيات تحظى بالنفوذ والمصدقية في الحقل الذي ينتمي إليه المخاطب، وعليه أن يضع في حسبانته أنّ هذا الأخير كائن إنساني حي أساس تكوينه مجموع عناصر تميزه: من ذهن وعقل ولسان، نفس وانفعال فيها يؤثر في مجتمعه ويتأثر بالظروف السائدة فيه فالخطاب البليغ هو ما "حبب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشت إليه الأسماع وارتاحت له القلوب"⁽²⁾ وجسد واقع المجتمع وانطلق من صميم آهاته.

غاية الخطاب هو الإقناع، ولتحقيق الإقناع ينبغي استمالة النفس و"التوجه إلى العقل والعمل من أجل إفهام المخاطب"⁽³⁾، ليكون الخطاب فاعلا وشاملا يلامس العاطفة والعقل ليكون قادرا على استمالة وإفهام مخاطبه وأن يكون هذا الأخير قادرا على فهم الخطاب وتفهمه؛ لأن مدار الأمر كما يقول الجاحظ (ت 255هـ): "على البيان والتبيين وعلى الإفهام والتفهم"⁽⁴⁾ ولا يتأتى للمخاطب إفهام المخاطب إلا إذا تمكن من استهوائه واستمالتة عاطفيا واتصل بذهنه وألتحم بعقله"⁽⁵⁾.

وكلما انفصل وابتعد المخاطب عن نفسية وعقل المخاطب وذهنه كلما أدى ذلك إلى عسر في الفهم والإفهام، وكل سوء وتعسر في فهم المخاطب يتعذر عنه تحقيق الإفهام*، وهذا ما ينجم عنه فشل الخطاب في بلوغ عقول المخاطبين وأذهانهم والدراية بخبايا نفوسهم.

وبناء عليه إذا أراد المخاطب أن يتوج خطابه بالنجاح، عليه أن يركز على إفهام المخاطب، والتقرب من مستوياته الذهنية والعقلية، وأن يخاطبه تبعا لهذه الكفايات – الذهنية والعقلية والفكرية والثقافية والاجتماعية-

(1) ابن رشيقي، العمدة، ج 1، ص: 222، وينظر: الجاحظ: البيان والتبيين، ج 1، ص 144.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج 2، ص 8.

(3) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 300.

(4) الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 11.

(5) ينظر: المصدر نفسه، ج 2، ص 8.

* الفهم مصدر من الفعل فهم ويدل على عملية الفهم ذاتها، والإفهام مصدر من الفعل أفهم وهو الفعل الذي يقوم به شخص من أجل إيصال أمر وهو يتطلب فهمها للآخر.

وليتحقق الإفهام لابد أن "نأخذ بعين الاعتبار أن المخاطبين طبقات متفاوتة في كفاياتهم الذهنية والعقلية"⁽¹⁾ وكذا الثقافية والنفسية؛ وفيما يخص الحالة النفسية فقدرة المخاطب على التحمل تختلف من مخاطب إلى آخر لذا لابد من أن يأخذ المخاطب طاقة مخاطبيه النفسية بعين الاعتبار، لأن "للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية"⁽²⁾.

➤ "أن ينطلق المخاطب في تصوير وتخيل خطابه من العالم الحسي المؤلف للمخاطب"⁽³⁾؛ أي ما هو معروف ومتعارف عليه في عالمه وليس بالغريب عنه، و"أن يبدع في التصويرات التي تروق السامعين وتروعههم، والتخييلات التي تهز الممدوحين وتحركهم"⁽⁴⁾.

إذن نخلص إلى أن المخاطب هو عماد العملية التخاطبية، ونجاحها مرهون عليه وعلى كفاءته في تحقيق المقاصد التي يتوخى تحقيقها من خطابه وعليه أن ينتهج طرائق تمكنه من الوصول إلى غاياته ولا يتأتى له ذلك إلا إذا كان ملماً بجميع الخلفيات والمرجعيات وكل الجوانب التي تمس المخاطب اجتماعياً وذهنياً وثقافياً ونفسياً، لأنه بدون مراعاة ذلك لا يمكنه أن ينجح في استمالته وإقناعه.

فإذا كان هدفه الإقناع لابد أن يتكون لديه بنك معلوماتي يحنّد فيه مختلف الأدوات اللغوية والآليات الخطابية التي تتماشى ومستوى المتلقي وبالتالي يصل إلى المراد من خطابه ويحقق غاياته، فيؤدي بذلك دوراً مهماً في إنتاج الخطاب، فهو ليس مجرد مصدر للعمليات، ولا مجرد ذات لسانية، بل دوره أعمق من ذلك "لكونه فاعل اجتماعي يفعل داخل مقامات اجتماعية ملموسة ومحددة، ويفترض هذا الدور كفاءات خاصة في المتكلم"⁽⁵⁾ يستند عليها في إنتاج خطابه، وتتمثل أهم كفاءات الإنتاج فيما يأتي:⁽⁶⁾

✓ **الكفاءة اللغوية الأدبية:** فأول ما يحتاجه المخاطب معرفة اللغة والعلم بأسرارها وإنتاج الكلام وفق أصولها وقواعدها اللغوية والأدبية والقدرة على الإبداع والابتكار وإنتاج الكلام البليغ، فأول آلات البلاغة التي يجب توفرها عند منتج الخطاب: "جودة القرينة وطلاقة اللسان...ومن تمام آلات البلاغة، التوسع في

(1) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 302.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 99.

(3) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 308.

(4) المرجع نفسه، ص 308.

(5) حسن المودن، الخطاب الإقناعي في البلاغة العربية، ملخص عن أطروحة دكتوراه الدولة، كلية الآداب، مراكش، جوان 2006،

ديوان العرب، دراسات وأبحاث، <http://www.diwanalarab.com/spip.php?article5018>

(6) ينظر: المرجع نفسه.

معرفة العربية ووجوه الاستعمال لها، والعلم بفاخر الألفاظ وساقطها ومتخيرها وردائها، ومعرفة المقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام"⁽¹⁾.

✓ **الكفاءة الثقافية:** وتعني أن يعرف المخاطب ثقافة الآخر الذي يريد أن يتدخل فيه، حتى "لا يمزج الصفو بالكدر، ولا يخلط الغرر بالعرر"⁽²⁾، فعند مخاطبته يعرف مستوى ثقافته "فعقل الرجل مدفون تحت لسانه"⁽³⁾، فيتخير من اللفظ ما يتناسب ومستوى ثقافته، وعلى إثر هذه الثقافة يتخير ألفاظه وقد قيل "اختيار الرجل قطعة من عقله"⁽⁴⁾، ويستثمر تخير اللفظ في الإقناع والتأثير.

✓ **الكفاءة النفسية الانفعالية:** وتنقسم إلى كفاءتين، الأولى لها علاقة بالحالة النفسية الانفعالية التي يستحسن أن يكون عليها المخاطب عندما يقبل على إنتاج الكلام البليغ، والثانية تتعلق بالحالة النفسية المناسبة لإنجاز الخطاب وأدائه أمام السامع وهذا ما ذكره أبو هلال العسكري حين قال: "أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن النفس جدا لأن الحيرة والدهشة يورثان الحبسة والحصر وهما سبب الارتاج* والأجبال**"⁽⁵⁾ إذ إن علامة سكون نفس الخطيب ورباطة جأشه هدوءه في كلامه وتمهله في منطقه، دلالة على توازنه النفسي فيضفي ذلك الجزالة والحلاوة في خطابه⁽⁶⁾.

غير أن دينامية هذا العنصر الفعال من الخطاب لا تكتمل إلا بوجود العنصر الثاني للعملية التواصلية التفاعلية وهو المخاطب (المرسل إليه) ومرد ذلك إلى أنّ "الخطاب هو نشاط إنساني يتطلب على الأقل وجود شخصين يمتلكان اللسان نفسه، ويوجدان في المقام نفسه... فالمبادرة تكون من المتكلم وإن كان المستمع معنيا أيضا فدوره فاعل وإبداعي في مستوى فاعلية المتكلم، فالخطاب إذن بحسب غارنر (Gardner)

(1) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، ص 15.

(2) المصدر نفسه، ص 3.

(3) الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 171.

(4) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، ص 3.

* الارتاج: الأغلاق على المتكلم من قولهم أرتج استغلق عليه الكلام، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص 130.

** الأجبال: صعب عليه القول، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 2، ص 169.

(5) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، ص 15.

(6) ينظر: المصدر نفسه، ص 16.

هو إنتاج مشترك وسيروورة دينامية تركز على تفاعل دائم بين المتكلم والمستمع نفسه⁽¹⁾ وسنوضح دور هذا الأخير في توجيه الخطاب.

2-1-2- المخاطب:

يمثل المخاطب الطرف الثاني الذي أُنتج من أجله الخطاب؛ فهو ثاني عنصر تداوتي* فعال " وإليه تتجه لغة الخطاب التي تعبر عن مقاصد المرسل"⁽²⁾؛ " فهو من يتلقى الشفرة وعليه فك رموزها ومعرفة الموجات التي أرسلت إليه وماذا يقصد المرسل من رسالته"⁽³⁾.

فيما رس بشكل غير مباشر، دورا سلطويا في توجيه المرسل عند اختيار أدواته وصياغة خطابه " فلأجله تتغير الأساليب والصيغ وطرائق التعبير، وكذا الضمائر ومفردات اللغة وأبنيثها"⁽⁴⁾.

فهو عنصر فعال ومؤثر في مسار العملية التواصلية سواء كانت شفوية أو مكتوبة وذلك بحضوره العينيّ أو الذهنيّ أو ما يسمى " بالمخاطب الواقعي والمخاطب المتخيل"⁽⁵⁾.

وهذا ما يُحيلنا إلى التمعن في المخاطب وفق الرؤى البلاغية بنظرة مركبة والتساؤل عن طبيعتها وفيما تتجلى؟ ونحاول الوقوف عندها لتحليلها.

تتمثل النظرة الأولى في كون هذا "المخاطب هو الكائن الإنساني الواقعي الذي يتوجه إليه المتكلم بالخطاب في زمان ومكان محددين"⁽⁶⁾ أما النظرة الثانية فتتمثل في أن "المخاطب هو هذا الكائن نفسه وقد انتقل إلى متخيل المتكلم ليكون من العناصر المؤسسة لخطابه"⁽⁷⁾.

فبحسب النظرة الأولى فالمخاطب الواقعي مخاطب بعديّ يتوجه إليه المخاطب بعد إنتاج الخطاب، في حين تحيلنا النظرة الثانية إلى أنّ المخاطب قبلي يستحضره المخاطب قبل إنتاج خطابه وبطبيعة الحال الخطاب

(1) حافظ إسماعيلي علوي، ذهبية سمو الحاج، منتصر أمين عبد الرحيم، تساؤلات التداولية وتحليل الخطاب، دراسات وبحوث مختارة، دار كنوز المعرفة، ط1، 2016، ص 19-20.

* التداوت: ونعني به الذات المنتجة للخطاب التي تُعنى بتبليغ الرسالة، وهذه الأخيرة تتنوع ذواتها (بين الذات المتخلقة، المتأدبة، المبلّغة، الناقل)، والذات المستقبلية للخطاب والمؤولة له.

(2) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 285.

(3) عبد العالي قادا، الحجاج في الخطاب السياسي، ص 130.

(4) عيسى عودة برهومة، تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 01، مجلد 36، 1 يوليو، سبتمبر، ص 127.

(5) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 285.

(6) المرجع نفسه، ص 285.

(7) المرجع نفسه، ص 285.

يقضي "أن يكون المتكلم قد كون فكرة مفترضة وصورة متخيلة عن مخاطبه قبل أن يواجهه بخطابه واقعيًا وفعليًا"⁽¹⁾؛ وهذه الصورة تتشكل انطلاقًا من علاقاته السابقة بالمخاطب وموقفه منه ومن موضوعات الخطاب "وكل ذلك يترك أثره بوصفه هو الذي يمارس تفكيك الخطاب ويؤوله لمعرفة مقاصد المخاطب وأهداف الخطاب التي يرى أنه يريد تحقيقها"⁽²⁾

فقد أشار اللغويون القدامى في التراث العربي إلى تأثير المخاطب على المخاطب عند إنتاج خطابه سواء على المستوى اللغوي أو المستوى البلاغي أو التداولي؛ و"هذا ما يثبت أنّ بناء الخطاب وتداوله مرهون إلى حد كبير بمعرفة حاله، أو بافتراض ذلك الحال.... فالمرسل إليه حاضر في ذهن المرسل عند إنتاج الخطاب سواء أكان حضورًا عينيًا أم استحضارًا ذهنيًا، وهذا الشخص أو الاستحضار للمرسل إليه هو ما يسهم في حركة الخطاب."⁽³⁾ وانتقالها عبر العصور.

إذن فالمعرفة بأحوال المخاطب والإلمام بقدراته الاستيعابية تزيد في قدرة المخاطب التنويرية والاستشراعية وتمنحه أفقا لبناء خطابه واختيار اللغة الملائمة التي تتماشى وطبيعة مستوى المخاطب، وبناء الخطاب على هذا الأساس ينجم عن ذلك تفاعل حركي يتولد عنه استمرارية الخطاب عبر العصور وفعاليته. "فنجاح الخطاب أو فشله رهين بالمسافة الفاصلة بين المخاطب الواقعي والمخاطب المتخيل؛ أي إن المسافة الفاصلة بين الصورة المتخيلة وبين الواقع هي التي تحدد فعالية الخطاب. وإذا كانت المسافة كبيرة فإنّ مآل مشروع الإقناع هو الفشل وكلما كانت الصورة المتخيلة أقرب من الواقع إلا وكانت عنصرا حاسما في التوصل والإقناع"⁽⁴⁾.

ولا يعني المخاطب المتخيل أنه من صنع الخيال، بل يعني أن المخاطب قبل أن يواجه المخاطب الواقعي بخطابه يكون قد استطاع أن يكون عنه تمثلا ذهنيًا وصورة متخيلة انطلاقًا من معطيات سياقية تخصّ المخاطب الواقعي، وهذه المعطيات السياقية متعددة ومتنافرة بحسب طبيعة المخاطب؛ هذا الأخير الذي يعتبر عنصرا يحدده المخاطب عندما يختاره هدفا لمشروع الإقناع والتأثير مراعيًا في ذلك هويته وانتماءاته الاجتماعية واللغوية والثقافية؛ أي بمعنى أدق على المخاطب قبل إنتاج خطابه أن يطرح على نفسه سؤالًا جوهريًا، وهو: من يكون المخاطب الذي سيتوجه إليه الخطاب؟.

(1) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 285.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، (المقدمة، ص 4-5).

(3) المرجع نفسه، ص 48.

(4) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 285.

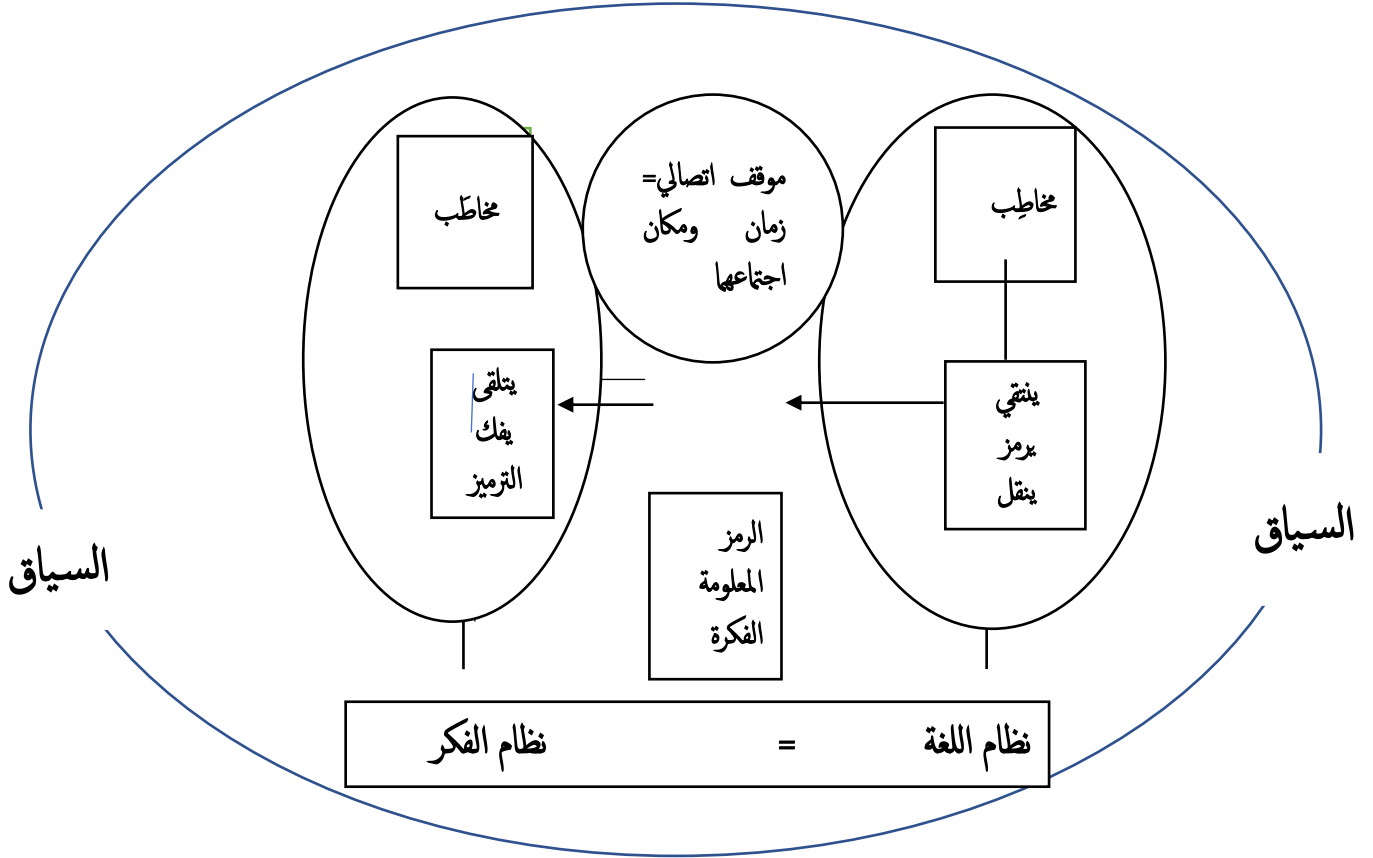
فالمخاطب بذلك ليس مجرد أداة جامدة مستقبلة للخطاب، "بل هو كائن إنساني حي يحمل على ظهره خلفيات وقيم هي التي تشكل هويته الإنسانية والاجتماعية واللغوية والثقافية، [...] تحكمه ظروف زمانية ومكانية وشروط موضوعية ونزوعات ذاتية"⁽¹⁾ فيتحكم في لغة الخطاب الموجه إليه "فإذا كان الملقى جريئاً وجسوراً فالمتلقي في الالتفات ناطق وصامت، فبراعة نفسية المتلقي تحدث التنويعات والتلوينات والتحويلات في أشكال التعبير وبناء ودلالاته، ذلك أنّ المتلقي يفهم من الكلام ما لا يفهمه الملقى (المرسل)"⁽²⁾ فالمخاطب مرآة عاكسة يتجلى وضوحها في حذاقة المخاطب وقدراته اللغوية وإمكانات توصيلها بسلامة وإقناع واف بالغرض المراد إيصاله، كما أنّه يتعرف على نفسه من خلال اللغة التي يخاطب بها، أي أن يتعرف إلى هويته اللغوية والثقافية والاجتماعية من خلال الخطاب الموجه إليه، "فنجاح الخطاب رهين بمخاطبة المخاطب بلغته"⁽³⁾، وهذه اللغة بالنسبة إليه حركة داخلية للفكر تعكس مستواه الفكري فهي مثير وسبب محرك للمخاطب للتفاعل بدرجة عالية لما يقوله المخاطب، "فالفكر لا يوجد سابقاً على اللغة إنه يتشكل فيها وبها"⁽⁴⁾ وتمثيل الموقف التواصلية الفكري الذي تجسده اللغة في المخطط الآتي:

(1) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 293.

(2) عيسى عودة برهومة، تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، ص 126.

(3) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 297.

(4) عيسى عودة برهومة، تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، ص 128.



مخطط رقم 05 دائرة العملية التخاطبية

لا تقتصر دائرة العملية التخاطبية على عنصر المخاطب والمخاطب، ومراعاة حال هذا الأخير وخصائصه في بناء الخطاب من حيث لغته ولفظه ومعناه، فلاكتمال هذه الدائرة التخاطبية لا بد أن تُخلق بين المخاطب والمخاطب روابط تلاحمية تجمعهما في زمان ومكان يحتويهم وظروف تحيط بالخطاب وتسهم في بلورته وتشكيله وهي تتجلى في عنصر آخر أوسع وأشمل "يستند إليه المتخاطبون ويرتكزون عليه في حصول الفهم فهما كاملا في عملية التخاطب"⁽¹⁾ وهو عنصر السياق الذي يعول عليه الطرفين الفاعلين (المخاطب والمخاطب) في إنتاج الخطاب وفي تأويله ليحدث الإقناع والاقناع.

2-3-1 السياق:

يعرّف الشهري السياق بأنه: "الإطار الذي يسهم في ترجيح أدوات بعينها واختيار آليات مناسبة لعملية الإفهام، والفهم بين طرفي الخطاب، وذلك من خلال عدد من العناصر، فمن عناصره العلاقة بين

(1) محمد محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 2007م، ص75.

المتخاطبين... فمعرفة عناصر السياق، تسهم في عملية التعبير عن المقاصد والاستدلال لإدراكها، وعليه فإن اختيار الأدوات والآليات اللغوية يعد انعكاسا للعناصر التي تشكل في مجموعها سياقاً معيناً يبرز من خلال لغة الخطاب ومعرفته يمكن تفكيك هذه اللغة للوصول إلى المعنى المقصود أو الغرض المراد⁽¹⁾.

وبذلك يمكن اعتباره بمثابة الحيز الذي يدعم عملية الفهم والإفهام الحاصلة بين طرفي الخطاب، ويساعد في انتقاء أدوات بعينها، تلم بالظروف التي نشأ في كنفها الخطاب، و"يمكن أن نسميه الجو الخارجي الذي يلق إنتاج الخطاب من ظروف وملابسات، وبعد العنصر الشخصي من أهم عناصر السياق ويمثله طرفا الخطاب المرسل والمرسل إليه، وما بينهما من علاقة بالإضافة إلى مكان التلفظ وزمانه، وما فيه من شخوص وأشياء وما يحيط بهما من عوامل حياتية، اجتماعية، أو سياسية، أو ثقافية"⁽²⁾، وبحسب الطرفين وما يحيط بهما من مؤثرات على اختلافها تمثل لبنات يتشكل على إثرها الخطاب.

وهذا يوضح أنّ السياق هو "جملة الظروف العامة التي ينتج فيها الخطاب، ويتركب من المتكلم والمستمع ومن أنساقها المعرفية والإرادية والتقديرية، ومن علاقتها التفاعلية المختلفة"⁽³⁾ فشاييم بيرلمان (C. Perelman) يقدم تصوراً للسياق حيث يعتبره أنه لا يخرج عن نطاقين؛ فالنطاق الأول يكمن في أنه الإطار المحدد للخطاب والمستوعب لكل محتويات العملية الإبداعية، ولكل المشاركين فيها والنطاق الثاني يتجلى في تلك المقدمات ذات النظام العام التي تساعد المبدعين في بناء الحجج وترتيب القيم⁽⁴⁾ ويرتبط السياق إلى حد كبير بثقافة المجتمع الذي يحدده ويوجهه وجهة خاصة وعلى إثره تتم عملية التلقي، لذلك كان مصدر اهتمام وتجاذب عدة ميادين وتخصصات على الرغم من اختلافاتها إلا أنّها تنفق جميعها في أنّ السياق يفسر الكثير من العمليات المصاحبة لأداء اللغة في وظيفتها التواصلية والإبلاغية لدى كل من منتج الكلام والمتلقي، وأنه ركن أساس في فهم الرسالة اللغوية. إذن السياق ركن محوري أساسي في فهم الرسالة اللغوية؛ وهذه المحورية تجعله يحتل أهمية تؤهله ليكون عنصراً فعالاً في نجاعة الخطاب "فهو يضطلع بأدوار كثيرة في التفاعل الخطابي مثل تحديد قصد المرسل ومرجع العلامات"⁽⁵⁾.

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، (المقدمة)، ص 71.

(2) المرجع نفسه، ص 45.

(3) طه عبد الرحمن، الاستعارة بين حساب المنطق ونظرية الحجاج، مجلة المناظرة، عدد 04، ماي 1991م، ص 69.

(4) ينظر: ولد محمد الأمين محمد سالم، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، يناير، مارس، 2000م، عدد 02، ص 85.

(5) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 40.

1-3-1-2 عناصر السياق:

يقضي السياق عناصر مختلفة يتشكل منها الخطاب، وهي⁽¹⁾:

✓ **العنصر النائي:** ويشمل معتقدات المتكلم ومقاصده وهدفه من الخطاب، إلى جانب اهتماماته ورغباته تجاه ما يرتبط بالحياة عموماً.

✓ **العنصر الموضوعي:** يتعلق بالوقائع والظروف الخارجية التي تام فيها القول زمانياً ومكانياً.

✓ **العنصر النواتي:** يكشف عن ذوات المتخاطبين (المرسل والمرسل إليه) وما بينهما من علاقة معرفية مشتركة تشكل أرضية يعول عليها لاستمرار الخطاب بين الطرفين حتى يتمكنوا من الفهم والإفهام والإقناع والاعتناع.

نتوقف لفصل في نقطة قد تكون غير ظاهرة في نقطة التداوت، فمن المعروف أن الذات المتكلمة ذات واحدة مرسلة للخطاب؛ ولكن ما ينبغي معرفته أن المخاطب بمعنى الذات المتكلمة ليست ذات واحدة وإنما هو ذوات متعددة يتقلب بينها المخاطب في مضمار النقل أو التبليغ؛ الذات الناقلة ليست ذات "تجوز مماثلته بجهاز للإرسال، وإنما هو ذات مبلغة أي ذات لا تقصد ما تظهر من الكلام فقط، بل تجاوزه إلى قصد ما تبطن فيه، معتمدة على ما أوردت في متنه من قرائن وما ورد منها خارجه"⁽²⁾.

ويتجلى التداوت في العلاقة التخاطبية التي تتم بين جانبيين فأكثر "يكون للمتكلم فيها فضل السبق في إقامتها كما يكون له حق الانتهاض فيها بأدوار مختلفة، مما يجعله، لا ذاتاً واحدة، وإنما ذوات متعددة بعضها فوق بعض"⁽³⁾.

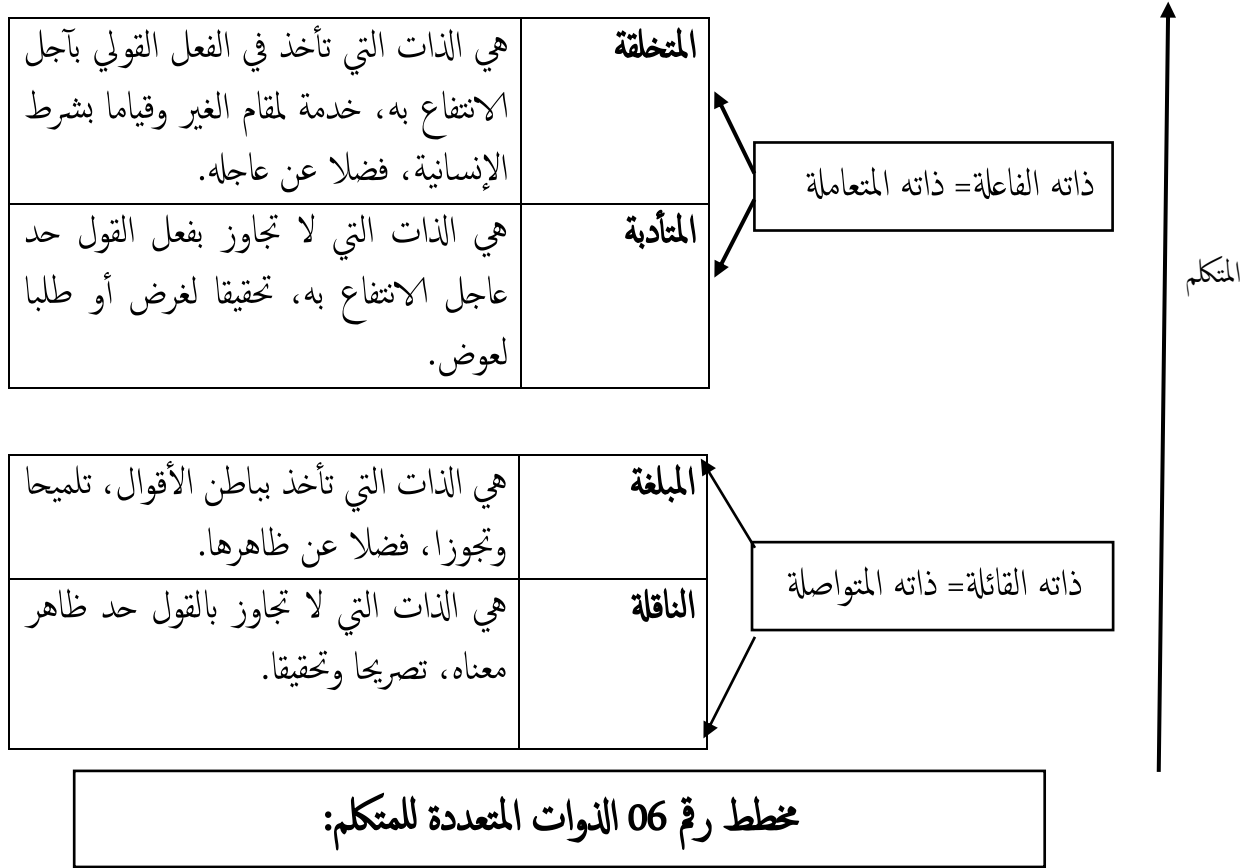
ونستطيع أن نحدد أنواع مراتب الذوات التي يتقلب بينها المتكلم استناداً إلى ما ورد لدى طه عبد الرحمن، واجتهد زكرياء السرتي على وضعها في هذا الجدول⁽⁴⁾

(1) ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 45، وينظر: حمدي جودي منصور، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 30.

(2) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط 1، 1998م، ص 216.

(3) المرجع نفسه، ص 224.

(4) المرجع نفسه، ص 224، ينظر: زكرياء السرتي، الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، ص 89.



ويتبع تفصيل تجلي ذوات المتكلم (المخاطب) عند الكواكبي في مدونته طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد في الجانب التطبيقي.

يمكن القول إن السياق يتشكل وفق هذه المعادلة:

اجتماع الذوات بما تحمله من صفات (ذوات المخاطب + ذات المخاطب) + اجتماعها في زمان ومكان معينين وما يكتنفهما من ظروف = تشكل السياق.

2-3-1-2 أنواع السياق:

السياق لا يخرج عن كونه: " واحدا من اثنين: أولا: السياق اللغوي وهو ما يسبق الكلمة وما يليها من كلمات أخرى، وثانيها السياق غير اللغوي: أي الظروف الخارجة عن اللغة التي يرد فيها الكلام"⁽¹⁾ ومنه نستطيع القول إن السياق ينقسم إلى نوعين:

- **السياق اللغوي:** ويقصد به الوحدة اللغوية وهي الجملة التي تتشكل من خمس مستويات (صوتي، معجمي، صرفي، نحوي، دلالي)

(1) ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، دلالة السياق، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في علم اللغة، إشراف الدكتور عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، منشورات جامعة أم القرى، السعودية، مجلد1، 1418هـ، ص 40.

● **السياق غير اللغوي (المقام):** ويقصد به كل الظروف والأحوال المحيطة بإنتاج الملفوظ مهما كانت طبيعتها المهم أنّها ساهمت في تشكيل هذا الخطاب.

وبشكل أدق الأول منها هو الذي يعطي الكلمة أو العبارة معناها الخاص في الحديث أو النص فهو يزيل اللبس عن الكلمة، بينما الثاني يزيل اللبس عن الجمل والنصوص، والسياق بهذا المفهوم يتعدى ما هو معروف من حيث إنه تتابع للأصوات والألفاظ ليشمل فضلا عن ذلك الجو البيئي والنفسي المحيط بكل من المتكلم والسامع⁽¹⁾ كما أنّ من شأن السياقين تحديد نوع الخطاب وتوجيه طبيعته ولغته وبيان القصد منه وعلى أساسه يؤول ويكتشف دور المخاطب أهو يُحاجج، يُفسر، يُخبر ومنه يمكن القول بأنّ "السياق هو دليل المرسل في اختيار استراتيجيته الخطابية"⁽²⁾.

تعددت أنواع التسميات التي تصنف السياق تحت مسميات مختلفة، منها من سمّاها أنماط السياق وشعب السياق، ولكن مهما تعددت التسميات فلا تفرق في تغيير المعنى فالمعنى يبقى واحد، سنحذو في اختيار أنواع السياق الاقتراح الذي قدمه أحمد مختار عمر تقسيما للسياق والذي ضمنه أربع شعب وتشمل⁽³⁾:

أ- السياق اللغوي: Linguistic Context

ب- السياق العاطفي الانفعالي: Emotionnel Context

ج- سياق الموقف أو المقام: Situational Context

د- السياق الثقافي أو الاجتماعي: Cultural Context.

وتم اتباع هذا التقسيم لشموليته والتماس إحاطته بجوانب ظاهرة وأخرى خفية؛ "فدراسة معاني الكلمات تتطلب تحليلا للسياقات والمواقف التي ترد فيها، حتى ما كان منها غير لغوي- ومعنى الكلمة على هذا - يتعدل تبعا لتعدد السياقات التي تقع فيها، أو بعبارة أخرى تبعا لتوزيعها اللغوي"⁽⁴⁾ نركز على عبارة غير لغوي؛ لأنّ من مميزات هذا التقسيم "أنه يغفل الفصل بين ما ينتسب إلى اللغة، وما ينتسب إلى العناصر التي تؤثر في تشكيلها خطائيا"⁽⁵⁾؛ أي الإشادة بما تلعبه السياقات غير اللغوية من دور إسهامي في تشكيل وبلورة الخطاب اللغوي فلا يمكن الفصل بينهما حتى في التقسيم.

فالسياق اللغوي يشمل في ثناياه سياقات غير لغوية تكون ركيزة أساسية ومرجع لفهم السياقات اللغوية وهذا ما يوضح: "أنّ هذه الأنواع من السياقات متداخلة و مترابطة، فلا يستغني أي منها عن الأنواع الأخرى وبهذا يصبح المنهج التداولي للغة كافيا لأنه يشير إلى وجهات نظر معينة وتوجّه معروف نحو اللغة والعلامات

(1) ينظر: خلود العموش، الخطاب القرآني، ص 26.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 44.

(3) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998، ص 69.

(4) المرجع نفسه، ص 69.

(5) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 44.

الأخرى" (1)؛ أي إنه "يشمل كل ما يتصل باستعمال الكلمة من علاقات لغوية وظروف اجتماعية وخصائص وسمات ثقافية ونفسية وغيرها" (2)، وعليه سيتبع هذا التقسيم بالشرح والتفصيل:

أ- السياق اللغوي: Linguistic Context

أو ما يسمى سياق النص هو المحدود بحدود النص لا يتجاوزه، ويبدأ بالنظر في بنية الكلمة المفردة صوتياً و صرفياً، وسياقها المعجمي، وتركيب الجملة وعلاقات الجمل، وينتهي بالنص بوصفه سياقاً للجملة ولا شك أن هذه المستويات السياقية فيها من التداخل والترابط بحيث لا يمكن الفصل بينها أو حصر وظائفها الدلالية في مستوياتها. فهذه المستويات تتفاعل وتتداخل لتأتي الدلالة في نهاية الأمر حصيلة هذا التفاعل (3). وهذا ما يجعل من السياق اللغوي لا يخرج عن كونه هو الخطاب ذاته بمستوياته اللغوية المعهودة: النحوية والمعجمية والدلالية والصرفية والصوتية التي تكشف عن كنه المعنى، إذن "السياق اللغوي هو حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة متجاوزة وكلمات أخرى، مما يكسبها معنى خاصاً محددًا ويشار في هذا الصدد إلى أن السياق اللغوي يوضح كثيراً من العلاقات الدلالية عندما يستخدم مقياساً لبيان الترادف أو الاشتراك أو العموم، أو الخصوص أو الفروق" (4)

سمثل فيما يأتي للسياق اللغوي بأمثلة مختلفة، نبين من خلالها بأنه الأرضية الخصبية التي تندر فيها المباني اللفظية بنوعها (الوظيفية والمعجمية) وعلى إثره تُضبطُ دلالة معينة فهو حسب هايمس يؤدي دوراً مزدوجاً: " إذ يحصر مجال التأويلات، ويدعم التأويل المقصود" (5)، لذا فهو بمثابة الحارس الأمين للمعنى. فالاستعانة بالمعجم منفرداً لا يفي بالغرض، ولا يعطي للفظ معناه الحقيقي. "فالمعنى الذي يقدمه المعجم عادة هو معنى متعدد وعام ويتصف بالاحتمال، في حين أن المعنى الذي يقدمه السياق - ولا سيما السياق اللغوي - هو معنى معين له حدود واضحة وسمات محددة غير قابلة للتعدد أو الاشتراك أو التعميم" (6)؛ لأن اللفظ في الجملة له استعمالات كثيرة تتعلق بوضع المفردة وعلاقتها ببقية الوحدات من كافة الجوانب لغة وتركيباً ودلالة؛ وبهذا يكون السياق اللغوي هو سياق فهم النص ودراسته من خلال استعمال المفردة في داخل نظام الجملة وعلاقتها بما يسبقها وما يليها من مفردات، إذن "يتحدد معنى الكلمة من خلال تفاعلها بما يسبقها وما يلحقها من الكلمات، ولا ينظر إلى الكلمات كوحدة منعزلة مستقلة، ولا يتحدد معنى الكلمة إلا من خلال سياقها الذي ترد فيه" (7) أي تسيق الوحدة اللغوية، وللتوضيح ذلك نضرب هذه الأمثلة (8):

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 44.

(2) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، ط1، 1996، ص 355.

(3) ينظر: عيد بلع، السياق وتوجيه دلالة النص، دار الكتب المصرية، ط1، 2008، ص 141.

(4) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص 355.

(5) نقلاً عن محمد خطاي، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1991، ص 52.

(6) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص 355.

(7) كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1984، ص: 74.

(8) ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 69.

✓ كلمة "عملية" لا نستطيع تحديد معناها إلا من خلال وجودها في سياق معين، فإما أن تكون عملية جراحية أو عسكرية أو حسابية.

✓ كلمة (good) الإنجليزية ومثلها كلمة (حسن) العربية، أو (زين) العامية التي تقع في سياقات لغوية متنوعة، فإذا وردت وصفاً لك أشخاص، نحو: رجل، امرأة، ولد، دلت على الناحية الخلقية، وإذا جعلت وصفاً لمقادير ومحسوسات دلت على الصفاء والنقاء والخلو من الغش وإذا وردت وصفاً لمعلم أو طبيب أو مهني دلت على التفوق في الأداء والعمل المتميز.

✓ كلمة (Garçon) الفرنسية يتحدد معناها حين ترد في سياق لغوي خاص، فإذا وردت في سياق قولهم هات كأساً من الشاي في أمكنة الخدمة العامة قُصد بها النادل، وإذا جاءت في سياق الحديث عن الأبناء دلت على الصبي أو الغلام⁽¹⁾.

✓ "كلمة (عين) في العربية، وهي من المشترك في سياقات لغوية مختلفة باختلاف كل سياق ترد فيه، إن كل سياق آت ترد فيه كلمة (عين) يقدم معنى واحداً تتجه إليه الأفهام وتترك ما سواه فلا يقع أي اشتراك في السياق، فقولنا:

- عين الطفل تؤلمه: العين هنا هي الباصرة.
- في الجبل عين جارية: العين هي عين الماء
- هذا عين للعدو: العين هنا الجاسوس.
- ذاك الرجل عين من الأعيان: العين هنا السيد في قومه"⁽²⁾

✓ ويمكن التمثيل له كذلك بكلمة (يد) التي ترد في سياقات متنوعة منها:

- أعطيته مالا عن ظهر (يد) يعني تفضيلاً ليس من بيع ولا قرض ولا مكافأة.
- هم (يد) على من سواهم: إذا كان أمرهم واحداً.
- (يد) الفأس ونحوه: مقبضها.
- (يد) الدهر: مد زمانه.
- سقط في (يده): ندم.
- هذه (يدي) لك أي استسلمت وانقذت لك.

المتبوع لهذا الاختلاف في المعنى واللفظ واحد في هذه الأمثلة بعين حازمة ورؤية واضحة، يتوصل إلى أن

(1) ينظر: أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص 356

(2) المرجع نفسه، ص 355.

"المعنى الصادر عن السياق ليس من صنع السياق وحده حتى ينسب إليه؛ فالمعنى المعجمي، إنما هو في المقام الأول معنى إفرادي وذلك أن دور السياق لا يتجاوز إقصاء بقية الدلالات التي تكمن في الكلمة المعينة وإبعادها بحيث ترجح دلالة واحدة لكلمة والمرجع في ذلك هو السياق"⁽¹⁾

في هذا القول تأكيد على عدم استبعاد وظيفة المعنى المعجمي الإفرادي للكلمة والاستبقاء عليه دليل على وظيفته البيّنة في الإحاطة بتضارب المعاني للفظ الواحد ولكن يبقى الفيصل الحاسم في المعنى بإقصاء دلالات والاستبقاء على دلالة بعينها يكمن في دور السياق فهو يزيل اللبس عن المعنى ويجعله بيّنا واضحا فهذا المعنى "لا يتحدد إلا بالسياق"⁽²⁾

إذن السياق اللغوي يؤدي دورا فعالا في تأويل الخطاب والكشف عن معناه وفهمه "فهو يحرص من جهة عدد المعاني الممكنة، وأنه يساعد من جهة أخرى على تبني المعنى المقصود"⁽³⁾

ومن أمثلة ذلك ما أورده الإمام السيوطي (ت 911هـ) من أبيات للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) من ثلاث أبيات على قافية واحدة يستوي لفظها ويختلف معناها⁽⁴⁾.

يا ويحّ قلبي من دواعي الهوى	إذ رحل الجيران عند الغروب
أبتعتهم طرقي وقد أزمعوا	ودمّع عيني كفيض الغروب
كانوا وفيهم طفلة حرّة	تفتّر عن مثل أقاحي الغروب

فلفظة الغروب الأول تحمل معنى غروب الشمس، أما الثانية فهي جمع غروب وتعني الدلو العظيمة المملوءة أما الثالثة فهي جمع غرب، وهو الوهاد المنخفضة⁽⁵⁾؛ المتبع لكلمة الغروب يأخذ نظرة التشبيه القائلة: "أن الكلمة عندما توضع في سياقات مختلفة كالحرباء التي تتلون بلون المكان الذي تحل فيه؛ أي إن الكلمة أشبه بالحرباء تمتلك إمكانات معينة، كل منها يبرز في موضعه المناسب، ويخضع لما يفرض عليه من الخارج"⁽⁶⁾.

ب- السياق العاطفي الانفعالي: Emotionnel Context

السياق العاطفي الانفعالي هو الذي يتولى الكشف عن المعنى في الوجدان بالدرجة الأولى في علاقة الأنا مع ذاته ومع الآخر*، فيترجم الأنا هذه العلاقة الثنائية بواسطة اللغة للتعبير عما يختلج في نفسه من

(1) محمد محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى، ص 124.

(2) ستيفان أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمه وعلق عليه كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط 12، 1997، ص 6.

(3) ج.ب. براون، ج. يول، تحليل الخطاب، ترجمة وتعليق لطفي الزليطني، منير التريكي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، (د.ط.)، 1418هـ، 1997م، ص 47.

(4) عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه كل من: محمد أحمد جاد المولى بك، محمود أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د.ط.) 1986، ج 1، ص 386.

(5) ينظر: المصدر نفسه، ص 388.

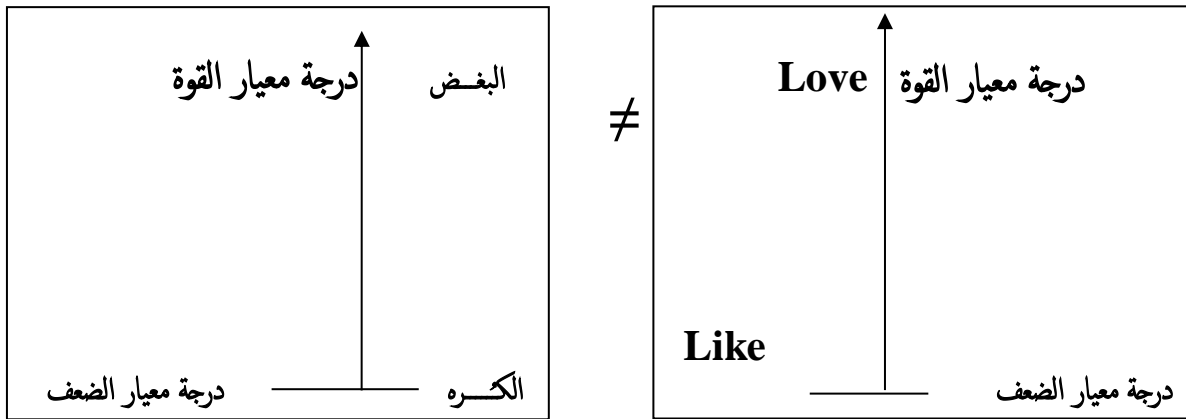
(6) محمد محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، ص 124.

* هذا الآخر قد يتجسد في شخص أو مسؤول أو مجتمع.

مكونات وجدانية، فتؤدي اللغة بذلك وظيفة تعبيرية ذو شحنة عاطفية ديناميكية محولة بذلك هذا الزخم الوجداني إلى تمثيلات واقعية لغوية يعيشها ولها تأثير على سلوكياته؛ فتفاعل كل جوارحه مع الكلمة التي تشحن بمضمونات عاطفية، فتمسه وتخطب كيانه العاطفي بحسب ما تحدث فيه من افعال.

فالسّياق هو الذي "يحدد درجة القوة والضعف في الانفعال مما يقتضي تأكيداً أو مبالغة أو اعتدالاً"⁽¹⁾ في صيغ ومعاني دلالة الكلمات، فبالرغم من اشتراك وحدتين لغويتين في أصل المعنى إلا أنّ درجة القوة والضعف والانفعال تختلف، وعلى حسب درجة الانفعال قد تتحول إلى تأجج عاطفي وسلوك مؤثر يتبعه الإنسان متوقد بالأمل والرغبة في الحياة، وكلما ضعف انفعال الحب قلت مراتبه وتحوّل إلى كراهية متأججة بالشر والعمّة النفسية المظلمة تمثل لذلك بهذه الأمثلة:

"كلمة (Love) الإنجليزية غير كلمة (Like) رغم اشتراكهما في أصل المعنى وهو (الحب) وكلمة (يكره) في العربية غير كلمة (يغض)"⁽²⁾. تمثل لمعيار القوة والضعف في الكلمتين الإنجليزيتين والعريبتين بالمخطط التالي: تمثل لمعيار القوة بالسهم المتجه نحو الأعلى (↑)، ولمعيار الضعف (—) بالسهم الأفقي الذي يمثل القاعدة المتواجد في الأسفل.



مخطط رقم 07 درجة القوة والضعف في الانفعال حسب دلالة الكلمات

السياق العاطفي هو الذي يبين درجة الانفعال قوة وضعفاً، فالكلمات ذات الشحنة التعبيرية القوية ترد حين يكون الحديث عن أمر فيه غضب أو هيام وعشق وشدة انفعال، فالمتكلم في هكذا حال من الشعور الجامح يغالي في استخدام كلمات ذات شحنة عاطفية كبيرة يسوقها في معاني مضخمة تترجم حالته تكون محملة بما يعتره من اندفاع، قد لا يقصد معناها الحقيقي فالمتكلم الذي يكون في مثل هذه الحالة الاندفاعية يستعمل كلمات لوصف أشخاص يتعاركون بكلمات (يتناجون) أو (يتقاتلون) أو (يتحاربون).

(1) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 70.

(2) المرجع نفسه، ص 71.

فمستخدم هذه الكلمات لا يريد بها معانيها الحقيقية، إذ لا يعدُّ ذلك مبالغة في التعبير عن حالته العاطفية فتكون محملة بما يعتمل في داخله من غضب وانفعال أو انشراح وسرور، وعواطف جيّاشة كما أنّ طريقة الأداء الصوتي لها دور فعال في شحن المفردات بالكثير من المعاني الانفعالية والعاطفية، كأن نطق الكلمة وكأنها تمثل معناها تمثيلاً حقيقياً ولا يخفى ما للإشارات المصاحبة للكلام في هذا الصدد من أهمية في إبراز المعاني الانفعالية⁽¹⁾ التي تتجسد على أرض الواقع ويجورها السياق بإضفاء دلالة حتمية توضح ما ينبغي الوصول إليه من المعاني، وبهذا يمكن القول إن "السياق وحده هو الذي يوضح لنا ما إذا كانت الكلمة ينبغي أن تؤخذ على أنها تعبير موضوعي صرف، أو أنها قصد بها - أساساً - التعبير عن العواطف والانفعالات. ويتضح هذا بصفة خاصة في مجموعة معينة من الكلمات نحو "حرية وعدل" التي قد تشحن في كثير من الأحيان بمضمونات عاطفية"⁽²⁾

إذن الكلمة بمحملتها المعنوية العاطفية والصوتية تسيطر على الوجدان ثم تشحن سلوك المخاطب أو القارئ بانفعالات ويكون لها حكم سلطوي أشد تأثيراً فيرد على لسانه محملاً بما تفيض به نفسه من انفعالات والسياق هو الذي يوضح استعمالها ودلالاتها.

ج- سياق الموقف أو المقام: Situational Context

عرّفه أحمد مختار عمر بأنه "الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة"⁽³⁾ فتتغير دلالاتها تبعاً لتغير الموقف أو المقام. وقد أطلق اللغويون على هذا التغير في الدلالة مصطلح الدلالة المقامية⁽⁴⁾ مثال على تغير الدلالة المقالية حسب مقتضيات المقام "استعمال كلمة يرحم في مقام تشميت العاطس (يرحمك الله) (البدء بالفعل) وفي مقام الترحم بعد الموت (الله يرحمه) (البدء بالاسم) فالأولى تعني طلب الرحمة في الدنيا والثانية تعني طلب الرحمة في الآخرة. وقد دلّ على هذا سياق الموقف إلى جانب السياق اللغوي المتمثل في التقديم والتأخير"⁽⁵⁾.

وبناء على هذا المثال؛ "لا يتم التفاهم في أية لغة إلا إذا روعيت مناسبات القول وأخذت العلاقة بين أصحابها بنظر الاعتبار ولن يكون الكلام مفيداً ولا الخبر مؤدياً غرضه ما لم يكن حال المخاطب ملحوظاً ليقع

(1) ينظر: أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص 357.

(2) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص 70.

(3) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 71.

(4) ينظر: منقور عبد الجليل، علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط.)، 2001، ص 90.

(5) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 71.

الكلام في نفس المخاطب موقع الاكتفاء والقبول⁽¹⁾ إذن فكلمنا كان الكلام موافقا ومراعيا لظروف المقام وملما بالسيات المتعلقة بالأشخاص والشخصيات المساهمة في الحدث اللغوي وغير اللغوي كلما كان الكلام مقبولا ومستحسنا عند المتلقي وكان عاملا قويا في جذب انتباهه لأنه يلامس ويشخص واقعه ومقامه.

فمراعاة المقام قد تجعل المتكلم يعدل عن استعمال الكلمات التي تنطبق على الحالة التي يصادفها خوفا أو تأدبا بل قد يضطر المتكلم إلى العدول عن الاستعمال الحقيقي للكلمات فيلجأ إلى التلميح دون التصريح ومثال ذلك "ما ورد على لسان الأحنف بن قيس حين سألته معاوية بن أبي سفيان عن رأيه في أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد ولده مع أنه لم يكن محمود السيرة في الناس، فقد قال الأحنف قولته الشهيرة **أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت؛** فكانت كنيته أبلغ من التصريح وأقدر على أداء المعنى من التوضيح"⁽²⁾

وكلما كان الكلام موافقا لظروف المقام كان مقبولا ومستحسنا وليس المهم أن يختار المتكلم لذلك الكلمات ذات الدلالة الموضوعية الدقيقة التي ربما تكون غير مقبولة عند المتلقي، إنما المهم هو وجود المناسبة بين الكلام والموقف وينبغي أن يفهم المقال في ضوء المقام.

إذن ليلم التفاهم لا بد من مراعاة المناسبات الزمانية والمكانية التي يجري فيها الكلام والعلاقة بين المتخاطبين بمعنى أدق مراعاة جميع أنواع الظروف المحيطة ببيئة المخاطب والمصاحبة للحدث الكلامي، فقد يفهم ما يريد المخاطب قوله ولكن لا يتفاهم معه لكونه كان بعيدا عن مراعاة مناسبات سياق الموقف لكون هذه الأخيرة هي الوجه الذي يعكس التزام المخاطب في كلامه وفي كونه أكثر وعيا بالظروف المحيطة بإنتاج الكلام بما فيها من علاقات وأحداث وظروف اجتماعية تسود ساعة أدائه للمقال فكل مقام مقال.

د- السياق الثقافي أو الاجتماعي: Cultural Context.

ينفرد السياق الثقافي بدور مستقل عن سياق الموقف الذي يقصد به عادة المقام من خلال المعطيات الاجتماعية، لكن هذا لا ينفي دخول السياق الثقافي ضمن معطيات المقام عموما⁽³⁾، لأنه لا يمكن أن يدرس بمعزل عن المجتمع وقضاياه فالمجتمع بشخصه هو الذي يشكل السياق الثقافي، لا ننكر أنه تكوين ذاتي ولكن تبلور وتشكل داخل فضاء المجتمع الذي يضعه في قلبه.

ويظهر السياق الثقافي في استعمال كلمات معينة في مستوى لغوي محدد، فالمثقف العربي المعاصر يختار كلمة (عقيلته) التي تعد في العربية المعاصرة علامة على الطبقة الاجتماعية المتميزة بالنسبة لكلمة

(1) مهدي الخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1986م، ص225.

(2) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص358.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص359.

(زوجته) أو (مدام) أو (مره) أو (الدار) التي تدل على الطبقة العادية للمجتمع⁽¹⁾، وكلمة (جذر) لها معنى عند المزارع ومعنى ثان عند اللغوي ومعنى ثالث عند عالم الرياضيات⁽²⁾.

لذا فمن مقتضيات السياق الثقافي تحديد المحيط الثقافي أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستعمل فيه الكلمة، "إذ تأخذ ضمنه دلالة معينة وقد أشار علماء اللغة إلى ضرورة وجود هذه المرجعية الثقافية عند أهل اللغة الواحدة لكي يتم التواصل والإبلاغ، وتخضع القيم الثقافية للطابع الخصوصي الذي يلون كل نظام لغوي سمة ثقافية معينة وهو ما يكون أحد العوائق الموضوعية في تعلم اللغات"⁽³⁾

وتعقيباً على ذلك نقول إن العديد من الكلمات له ارتباط وثيق بالثقافة إذ تحمل الكلمات هنا وضعيات ثقافية معينة، فتكون علامات على الانتماء العرقي أو الديني، لذا يجب فهمها ووضعها في السياق الثقافي المناسب حتى تفهم وفق مرجعياتها الثقافية؛ لما لهذه المرجعية الثقافية من دور في تشكيل عقل الإنسان في بيئة ما و"ترفد هذا العقل في عمليتي إنتاج الظاهرة اللغوية وتأويلها"⁽⁴⁾ نضرب في هذا الموضوع مجموعة من الكلمات "تستخدم كلمة (فتح) للدلالة على الحرب وكسب الأرض لا يساوي بحال من الأحوال استخدام كلمة (احتلال) أو (غزو مسلح) لأن كلمة (فتح) لها دلالة ثقافية، تاريخية إيجابية كما أن استخدام كلمة (المجاهد) لا يتطابق دائماً مع كلمة (المناضل) أو (المقاتل) أو (الفدائي) لأن كل كلمة من هذه الكلمات ظلالات ثقافية ذات ارتباط بالتاريخ أو الدين أو السياسة"⁽⁵⁾.

إذن لا بد أن تطوع هذه الكلمات وفق السياق الثقافي للمخاطب لتتواءم مع مقتضياته المعرفية أو العقائدية أو المذهبية السياسية وانتماءاته الأيديولوجية، هذا التنوع في السياقات لا ينفى التداخل بينها على مستوى سياق واحد بين ما هو لغوي وغير لغوي لينعكس على نسق التبليغ الخطابي التواصلية في شكله والقصد منه وتأويله.

فالنظر إلى الخطاب من زاوية التواصل يقتضي العناية بالسياق وبمختلف أنواعه في التصور البلاغي الجديد، بوصفه "نسقا من القيم والإجراءات العملية الرامية إلى إحداث تغيير في الأنساق السلوكية والاعتقادية للمتلقى"⁽⁶⁾ ولا يتأتى لنا تحقيق هذا التغيير إلا بالإلمام بكل أنواع السياق التي من شأنها أن

(1) ينظر: أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص 359، وينظر: عمر مختار، علم الدلالة، ص 71.

(2) المرجع نفسه، ص: 71.

(3) منقور عبد الجليل، علم الدلالة، أصوله ومباحثه في التراث العربي، ص 90، 91.

(4) عيد بلع، السياق وتوجيه دلالة النص، ص 168.

(5) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، ص 359.

(6) عزيز لدية، نظرية الحجاج، تطبيق على نثر ابن زيدون، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2015، ص 87.

تحقق المقاصد والأهداف التي قام من أجلها الخطاب وهو إقناع المخاطب وتغيير وجهته انطلاقاً من جس نبض مختلف أنواع الظروف المحيطة به.

نخلص إلى أن السياق يؤدي دوراً فعالاً في إمطة اللثام عن المعنى وإجلاء كنهه فهو مقياس بلاغي يساعد لا محالة على فهم الخطاب، لذا يتطلب من الباحث الإلمام بكل المعطيات السياقية التي يجري الكلام فيها "لذلك يمهّد عادة للآثار الأدبية بدراسة البيئة الزمانية والمكانية للملابسات الشخصية"⁽¹⁾ وكل الظروف الاجتماعية والسياسية التي تولد في خضمها إنتاج الخطاب؛ فهي ترجمة للسياق غير اللغوي في شكل لغوي فالفصل بين السياقات اللغوية وغير اللغوية "أمر غير ملائم، لأنه من الصعب أن نقول إنّ هناك، في جهة ما عالماً للأشياء والأنشطة الخرساء، وفي جهة أخرى توجد اللغات والمقالات"⁽²⁾ فالتزاح بينهما أمر محتوم.

وتجدر الإشارة أنّ نجاح العملية التخاطبية متوقف على جس نبض المحيط المشكل للسياق بدءاً بجس نبض السياقات الخارجية الاجتماعية والسياسية والنفسية والثقافية التي تمخض عنها إنتاج الخطاب والتي تتمثل في مجموع الظروف والملابسات التي تحيط بطرفي الخطاب (المخاطب والمخاطب) والعلاقة الجامعة بينهما. بالإضافة إلى مكان وزمان الخطاب وصولاً إلى التلفظ به فإنتاجه. وهذا ما يثبت أنّ أثر هذه العناصر "ليس مقتصرًا على لحظة التلفظ فقط، بل يمتد إلى ما قبله"⁽³⁾؛ أي يلم بكل الظروف "التمثّل قاعدة بيانات ينسج على منوالها نص الخطاب وهدفه وغاية المتكلم منه"⁽⁴⁾. فهذه القاعدة البيانية تكون بنك معلوماتي لكل العناصر يستمد منها المخاطب لغة خطابه وهذا ما سنركز عليه في الجانب التطبيقي.

2-1-4 لغة الخطاب:

ننظر إلى لغة الخطاب وفق النظرة الوجودية اللغوية التداولية للخطاب بأنّه "ليس بالإمكان وجود لغة دون وجود متكلم بها أو شخص يفترض فيه أن يتكلمها فسيكون من العبث أن نتخيل أننا نتكلم دون أن نكلم أحداً، في الأخير من المستحيل أن نتحدث بالفعل، وألا نتحدث عن شيء. إنها طبيعة الأشياء نفسها إذن، والضرورة ذاتها هما اللتان تضيفان على اللغة طابع"⁽⁵⁾ التفاعلية التخاطبية بين مخاطب ومخاطب وفق موضوع معين تمخض عن ضرورة اقتضتها الظروف الزمانية والمكانية المحيطة بإنتاج لغة الخطاب.

(1) منقول عبد الجليل، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، ص: 358.

(2) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 314.

(3) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 45.

(4) حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 39.

(5) حافظ اسماعيلي علوي، ذهبية حمو الحاج، منتصر أمين عبد الرحيم، تساؤلات التداولية وتحليل الخطاب، دراسات وبحوث مختارة،

فلغة الخطاب هي المنوطة بنقل الأفكار وتوصيلها؛ "فالخطاب دليل على الحالة العقلية للمتكلم ورمز للرسالة وتنبيه للسامع"⁽¹⁾ لكونها المثير الخارجي التي تساق وفق مستوياته الإدراكية وقدراته اللغوية فتدفعه إلى القيام بعمل ما.

اللغة نسق يتحكم فيه المخاطب ليؤثر في المُخاطَب على حسب قدراته والسياق المحيط به، "والا لا فائدة ترجى منها، سوى العبثية والاعتباطية، وما خلقت أو اجترحت اللغة عبثا على هذه البسيطة فيتسم الخطاب بصفة الاتصال والتأثير فهو لا يتحقق إلا باللغة ومن خلالها، ليخرج من العبثية إلى أن يتصف بالبلاغة، (خطاب بليغ)"⁽²⁾.

ومن هذا المنطلق تُعد لغة الخطاب " ثمرة اجتماع العناصر الثلاثة السابقة- المرسل، المرسل إليه السياق- ففيها تبرز الأدوات اللغوية، والآليات الخطابية المنتقاة"⁽³⁾، ومن خلال تتبع خصائصه التعبيرية يمكن معرفة الكيفية التي تعامل بها المخاطب مع ذاته ومع المخاطب، " وبالنسبة لتعامل المرسل مع ذاته تقدّم لنا روث أموسي (Ruth Amossy) استنادا إلى " قاعدة الإيتوس القبلي * " الصورة التي يصنعها الباتّ عن نفسه حتى يصيرها ناجعة تساؤلا عن كيفة انبناء هذه الصورة في سدى الخطاب انطلاقا من كل الوسائل اللفظية والتلفظية... التي لها صلة بنحت اللغة لهويته التي تصنع وتبني ولا توهب وتعطى وكذلك فإن لها علاقة بتكوينها وصياغة معالمها"⁽⁴⁾، مما يسمح ب بروز العلاقة بين الذات والآخر وكيفية التعامل معه "هل أجله واحترمه أم أهانه وحقره هل حاول أن يُقربه أم يُبعده؟ هل حاول إقناعه أم فرض سلطته عليه مباشرة؟ هل تنازل عن موقعه الاجتماعي أو الوظيفي تقديرا للمرسل إليه أم أنه مكث في عليائه؟ كل هذه الاعتبارات وغيرها تبين كيف للغة الخطاب أن تقود الفاحص إلى إجابات واضحة على هذه التساؤلات"⁽⁵⁾ وتكشف عن طبيعة موضوع الخطاب التي ترتبت عنه كل هذه الاعتبارات.

(1) ستيفان أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص 27.

(2) عيسى عودة برهومة، تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، ص 122.

(3) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، (المقدمة)، ص 6.

* صورة المتكلم التي يصنعها عن نفسه، والتي يستعملها للتأثير في مخاطبه.

(4) علي الشعبان، الحجاج وقضاياها من خلال مؤلف روث أموسي، الحجاج في الخطاب، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، تحت إشراف حافظ إسماعيل علوي مع مجموعة من الباحثين، ابن نديم، الجزائر ط1، 2013م، ص 923.

(5) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، (المقدمة)، ص 6.

ولعل مردّ اختلاف مادة اللغة في خطاباتنا ونسجها وصنعها من قبل قائلها يعود إلى طبيعة مستوى المرسل إليه، وكذا حسب المشكل أو الموضوع الذي يريد أن يبثه أو أن يرسله إلى الآخرين⁽¹⁾ فتكون اللغة " قابلة لأن تتطور إلى قوة، تسيطر على عقولهم وتمدهم بالأفكار ونماذج السلوك، فتضع الحواجز بين البيئات اللغوية المختلفة"⁽²⁾ وتخطب كل طبقة حسب بيئتها الطبقيّة اللغوية التي تنتمي إليها فالمخاطب "يوظف اللغة في مستوياتها المتميزة بتفعيلها في نسيج خطابه، ذلك التفعيل الذي ينوع طاقاتها الكامنة"⁽³⁾ وفقا لكل طبقة من طبقات المجتمع لغة تحدد هويتها السوسيو لغوية، فيمكن للمخاطب أن يلجأ إلى اللغة الأصل، لغة الأعراب والفصحاء والبلغاء، فهي التي توفر أهم الشروط التي تقتضيها بلاغة الخطاب، ولا نظير لهذه اللغة، لما لها من الخصائص التي تجعلها تستحوذ على عقول المخاطبين ونفوسهم، ويقول الجاحظ عن هذه اللغة: "إنّه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنق. ولا أذّ في الأسماع، ولا أشدّ اتصالا بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويما للبيان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء والعلماء البلغاء"⁽⁴⁾.

ولكن نحن هنا في المستوى اللغوي الأجود الذي تتواصل به طبقات المجتمع الخاصة، وهناك لغة وسطى، لا هي بدوية أعرابية فتكون غريبة وحشية، ولا هي عامية سوقية فتكون سخيفة ساقطة، يتواصل بها العوام من المجتمع، فكما " لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا، وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا، إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي"⁽⁵⁾.

فالواقع يثبت أنّ لكل طبقة لغتها، فلا يمكن مخاطبة إنسان تريد إقناعه إلا بمستوى تفكيره اللغوي فمن أهم شروط نجاح الخطاب الإقناعي وفعالته أن يأخذ بعين الاعتبار شخصية مخاطبه اللغوية التي تدل على مستواه الفكري واتمائه الاجتماعي، فلغة الخطاب ليست ثابتة وقارة وليست حكرة على أشخاص معينين في المجتمع، بل هي "ممارسة اجتماعية تأخذ بعين الاعتبار أن المجتمع موزع إلى فضاءات لغوية خطائية منظّمة ولكلّ فضاء اجتماعي شخصيته السوسيو لغوية"⁽⁶⁾ التي نوظف لها معاني وفقا لهذا الفضاء الاجتماعي الطبقي لترجمه الألفاظ اللغوية كما يقول ابن رشيق من يود "معنى كريما فليتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ

(1) ينظر: عيسى عودة برهومة، تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، ص 127.

(2) ستيفان أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص 18.

(3) عيسى عودة برهومة، تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، ص 124.

(4) الجاحظ، البيان والتبين، ج 1، ص 145.

(5) المصدر نفسه، ص 145.

(6) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص 298.

الشريف، ومن حقها أن يصونها عمّا يفسدهما ويهجنهما، وعمّا تعود من أجله أسوأ حالا منك من قبل أن تلمس إظهارها... وكن في إحدى ثلاث منازل: فإن أول الثلاث أن يكون لفظا رشيقا عذبا، وفتحها سهلا ويكون معنك ظاهرا مكشوفاً، وقريبا معروفا إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما للعامة إن كنت للعامة أردت⁽¹⁾.

ولكن ابن رشيق عندما تحدث عن المعنى الظاهر ساوى في ذلك بين المخاطب الخاص والعام، فاللغة التي تعبر عن المعنى هي التي تساق وفق هذين الصنفين فالألفاظ والمعاني الموجه للخاص غير العام، "إذ الألفاظ خدم المعاني والمصرفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته، وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنة الاستكراه وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين"⁽²⁾.

لذا ينبغي أن يسوق المتكلم ألفاظه على قدر المعاني، ولا يتكلف باللفظ على حسب المعاني، ومن قام بهذا التكلف يكون " كمن ثقل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها"⁽³⁾.

وعلى هذا فاحترام الطبقة اللغوية لفظا ومعنا من شأنه أن يوطد أواصر التواصل والتفاهم بين المخاطب والمخاطب، فاللغة هنا أداة شفافة تحمل رسالة من المخاطب إلى المخاطب، هذا الأخير الذي يُعنى بفك الشفرة اللغوية لتتحول هذه الشفرة إلى مادة تأثيرية إبلاغية فيحدث التفاعل والتلاقي والانسجام الفكري.

وحدوث هذا التلاقي والانسجام إنما هو وقف على تأدية اللغة " لوظيفتين رئيسيتين: التعبير والتوصيل أي التعبير عن الأفكار... وتوصيل هذه الأفكار إلى الغير."⁽⁴⁾ فنتحقق نتيجة مؤكدة وهي التعبير والتوصيل والتأثير وبذلك تتوصل اللغة إلى تحقيق نتائج محسوسة ملموسة ذات قوة سحرية قادرة على التأثير ومن ثم التغيير.

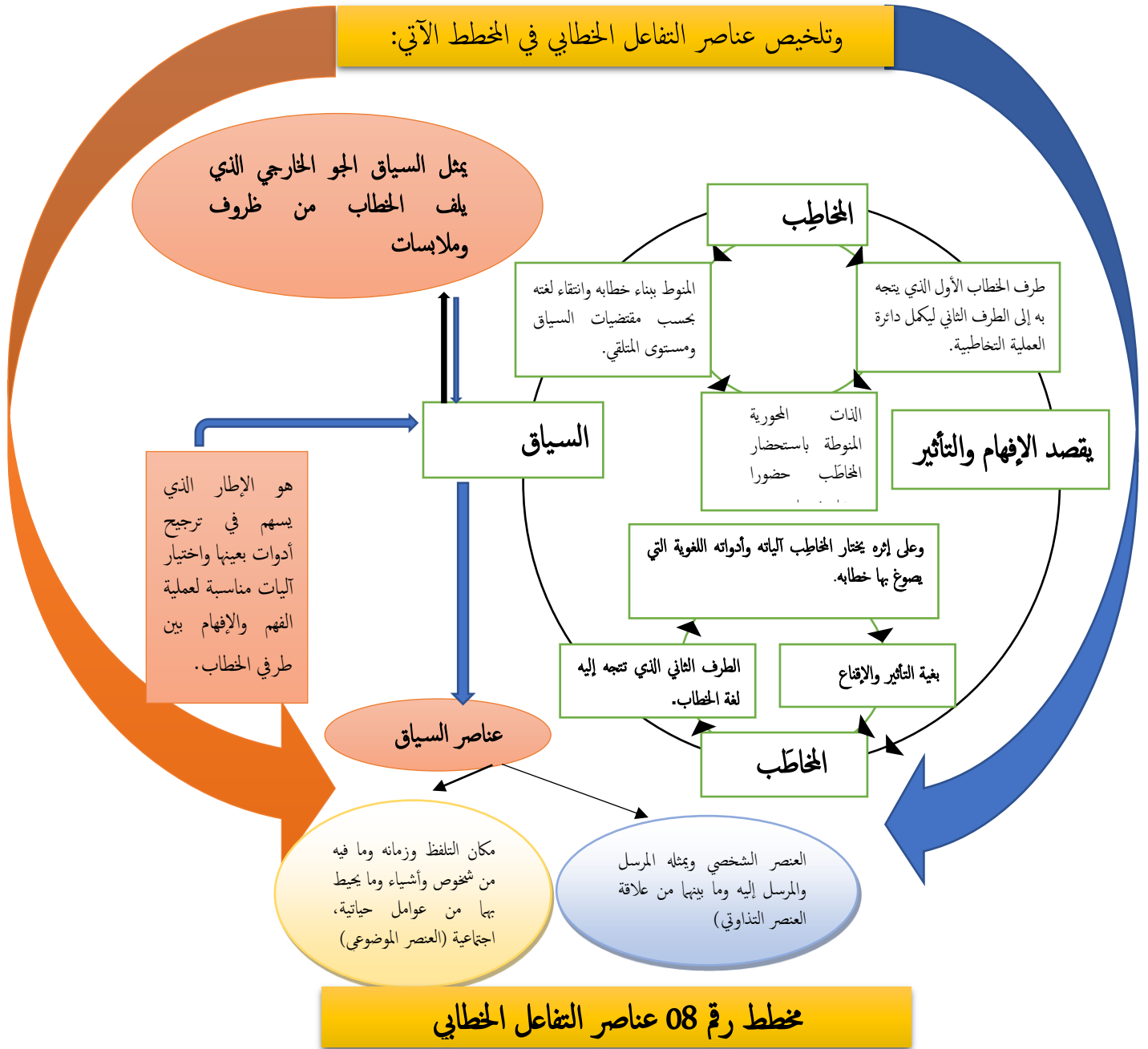
(1) ابن رشيق، العمدة، ج1، ص 213.

(2) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني، ط1، 1411هـ، 1991م، ص 8.

(3) المصدر نفسه، ص9.

(4) سنيفان أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص28.

وتلخيص عناصر التفاعل الخطابي في المخطط الآتي:



2-2 شروط التفاعل الخطابي:

كل عناصر الدورة الخطابية (المخاطب، المخاطب، السياق، لغة الخطاب) تُسهم في التفاعل الخطابي

الذي سعى بعض الباحثين إلى تحديد واستنباط الشروط الواجب توافرها فيه. وهي كالآتي: (1)

(1) ينظر: قدور عمران، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012م، ص9.

1-2-2 القصدية في الخطاب:

إن ما يتفق الباحثون بشأنه هو أنّ التوسل بخطط خطائية يفترض السعي إلى تحقيق هدف معين إلا أنهم يختلفون في تعيين هذا الهدف، فهو يقوم عند بعضهم على الرغبة في إثبات صحة الموقف الذي يتبناه المخاطب وفي الآن ذاته دحض الموقف المخالف أو تصحيحه.

في حين يحرص آخرون على أن غاية التفاعل في موقف الاتصال اللغوي تكمن في تصحيح ما انطبع في ذهن المخاطب من أفكار خاطئة بشأن المتكلم، وفريق ثالث يرى أن التفاعل الخطابي غايته أنه يلح على رغبة المخاطب في استدراج المخاطب إلى الاقتناع برأيه، وحمله عن طريق البرهان على تعديل موقفه والعمل وفق ما يميله عليه من أحكام تستجيب لمصالحه أو مطامحه.

وبهذا نكون أمام خطاب تواصلي يمتاز بخصائص بنائية وفعلية يسعى فيها الطرف الأول لجذب الطرف الثاني وإقناعه، ويستند في ذلك على مرجعية وسياق مشترك بين طرفي الخطاب وكل الملابس التي تحيط بالخطاب تؤدي إلى بروز قيمة القصدية بالنسبة للذوات المتخاطبة.

فالقصدية في أبسط معانيها هي "كل ما يدور في خلد المتكلم باستمرار أثناء إصداره للمفوضاته، من مقاصد وطموحات ورؤى يسعى إلى إرسالها، والدفاع عنها بواسطة الحجج. إنها كل ما من شأنه أن يحفز المتكلم على تحريك العملية التبليغية التواصلية تصريحاً أو تلميحاً. ويلعب القصد... دوراً محورياً في تأويل الملفوظات والنصوص"⁽¹⁾.

إذن فسمّة القصدية من السمات الأساسية "التي يجب أخذها بعين الاعتبار في الاستدلال الحجاجي ذي الطبيعة الخطائية؛ لأن معنى قول ما، في سياق تواصلي معين، لا يمكن وصفه دون الإحالة على بعض قصود التلفظ"⁽²⁾.

فهذه المقاصد الكامنة في الخطاب التي ينبغي البحث عنها في مختلف الظروف التي أسهمت في صدور الملفوظات، لذا فلا يمكن الحديث عن انسجام الخطاب بمعزل عن معرفة القصد منه لذلك ينبغي أن نكون على دراية بالقصد الذي أصدر من أجله، وفي هذا الصدد تقول آن روبرول: "يشكل القصد محور إنتاج

(1) عزيز لدية، نظرية الحجاج تطبيق على نثر ابن زيدون، ص 80.

(2) رضوان الرقي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، عالم الفكر، عدد 02، مجلد 40، أكتوبر، ديسمبر، 2011، ص 80-

وتأويل الملفوظات والخطابات"⁽¹⁾ فمن التحصيل الحاصل أن يدرك القصد من الخطاب حتى تتم العملية التواصلية بنجاح وتؤدي مضمونها.

2-2-2 القيمة في الخطاب:

لا يخرج التفاعل الخطابي في جميع حالاته عن أحكام القيمة، ولا يدافع المخاطب عن وجهة نظر معينة إلا إذا كانت أكثر قيمة عنده وأقرب إلى المنطق والأعراف السائدة من أي قيمة أخرى.

تكمن أهمية التفاعل بين المخاطب والمخاطب في ضرورة الالتزام بطبيعة الأرضية المشتركة بينهما، وهي أرضية تضم كل الإمكانيات الخطابية الخاصة بمقام ما (معلومات مضمونية، وسائل ترتيبية واستدلالية) تراعي كلها اعتقادات طرفي الخطاب وردود أفعالهما، "فكل منهما يشتركان في مجموعة المعطيات (السياق) إلى جانب المعلومات المشتركة بينهما وما يربطهما من تجارب وثقافة"⁽²⁾

فهي التي تُسهم في تشكيل معنى الملفوظ فيغدو ذا قيمة يكتسبها تركيب الخطاب في سياق التلفظ أي أن المعنى، كقيمة لا تتحكم فيها اللغة بقدر ما يتحكم فيها مستعملوها وبالأخص موجّه الخطاب لكونه الفاحص والمشخص لمن يوجّه هذا الخطاب وبيان ذلك أنّ " قيمة الخطاب تتجلى في أن يجسّد الهوية الطبقية لمخاطبه، فلا يمكن للتواصل أن يحصل ولا للإقناع أن يتحقق إذا واجه المتكلم طبقة من المخاطبين بخطاب يخصّ طبقة أخرى"⁽³⁾.

فالملفوظ إذن هو منتوج التفاعل بين المتخاطبين، فقيمة الخطاب لا تكمن "في حضور المتكلم فحسب ولكنه حضور يتقاسمه مع حضور المخاطب"⁽⁴⁾ وهذا ما يثبت أن المخاطب يعد مكوناً أساسياً في العملية التخاطبية والتواصلية وموجّها ضرورياً لطبيعتها وأهدافها فهو الذي يُعنى بفهم وتأويل الخطاب فقيمة الخطاب هنا "تكمن في أن يكون مُبيناً"⁽⁵⁾ لأنّ البيان كما يقول الجاحظ " اسم جامع لكلّ شيءٍ كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب...، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصولة كائناً ما كان ذلك البيان ومن أيّ جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هي الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"⁽⁶⁾.

(1) A.Reboul,J.Moeschler;la pragmatique de discours,Paris, Armand Colin, 1998, P 156.

(2) ذهبية سمو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص 15.

(3) حسن المودن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 300.

(4) ينظر: قدور عمران، البعد التداولي والجاجي في الخطاب القرآني، ص 10.

(5) حسن المودن، بلاغة الخطاب، ص 300.

(6) الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 76.

2-2-3 التلقي:

حتى تثمر العملية التخاطبية وتحقق عملية التلقي وتعطي نتائجها لابد أن ينطلق المخاطب من هذا الطرح: كيف تجعل الآخر (المخاطب) يعتقد أنّ ما تنتجه من أفكار وأطروحات مفيدة؟ وماهي السبل المتخذة من أجل استمالة المخاطب وجعله قابلاً للتلقي؟ حتى يبلغ المخاطب غايته المنشودة لابد من الإجابة عن هذا الطرح وهذا يتطلب البحث في الاقتضاءات المشتركة داخل موقع المخاطب التي من شأنها أن تخلق أرضية مشتركة بين المتخاطبين⁽¹⁾ فاستمالة المخاطب للمخاطب إنّما هي وقف على بناء العمليات الحجاجية، التي تستوجب منذ البداية اعتبار المخاطب والبحث في سياقاته، وبعبارة أخرى، "ينبغي البحث عن الاتفاقات المسبقة والمشاركة التي سيقوم عليها الاستدلال، وإلا فإنّ الحجاج سيكون مصادرة على المطلوب ولا يؤدي وظيفته الإقناعية الأساسية"⁽²⁾ لذا ينبغي البدء من نقطة الاتفاق.

2-2-4 التفاعل:

إن التفاعل بين المخاطب والمخاطب، لا يمكن أن يحدث إلا بمفوضات، ترد في سياق معين، وزمان ومكان محدد، فالمفوض يؤول حسب السياق الذي يرد فيه⁽³⁾. وهذا ما يثبت أنّ ما تتلفظه من خطابات نسعى من خلالها إلى إحداث تفاعل لدى المخاطب ليتفاعل مع المفوض، ونتيجة لذلك التفاعل يحدث التغيير في الوضعيات والمواقف. وهذا التفاعل اللغوي من حيث هو سلوك اجتماعي يخضع لعدد من المعايير تتغير في الزمان والمكان وتنعكس على طبيعة العلاقة بين طرفي الخطاب وتتجسد فيه، وذلك لكونها توجه و"تحكم سلوك المتكلم إزاء متلفظه المشارك (لا يجب الاتصاف بالعدوانية أو السخرية والتملق المبالغ فيه واحتكار الكلام، ومن جهة أخرى هناك قواعد تجبر المتلفظ على عدم تعريض وجهه للخطر (لا يجب الإفراط في الاحترام وعلى العكس إظهار الادعاء)"⁽⁴⁾.

(1) ينظر: قدور عمران، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، ص 11.

(2) المرجع نفسه، ص 11.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 12-13.

(4) دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتين، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، 2008م، ص 83.

هذه العلاقة توجهها جملة من القوانين تكفل تنظيم وتقنين العلاقات فتضمن استمرارية الخطاب أثناء التواصل؛ وبالتالي حدوث التفاعل ونجاح الخطاب إنما هو وقف على هذه القوانين والتي مهمتها التنسيق بين المتخاطبين، وتفصيل ذلك في المبحث الموالي:

3-2 قوانين الخطاب: (Lois du discours)

تؤدي قوانين الخطاب دورا هاما في كل تفاعل لغوي فتضمن له الاستمرارية التواصلية و" فهم وتأويل الملفوظات وتحدد نمطا معيناً للكفاءة التداولية أو كما يسميها البعض الكفاءة البلاغية، إنها ليست قوانين كتلك التي تحكم الجملة (قوانين النحو والصرف) بل هي قوانين تتعلق بالمتحاورين والواجب احترامها أثناء التكلم"⁽¹⁾. والجدير بالإشارة أن هذه القوانين وضعها غرايس (Grice) وسماها أحكام الحديث (Maximes Conversationnel) ثم أعاد ديكرود (Ducrot) صياغتها تحت اسم (قوانين الخطاب)⁽²⁾.

تعد هذه القوانين من أهم المبادئ التي يركز عليها نجاح الخطاب، فهي من الأسس التي تنظم العملية التخاطبية بين طرفيه و"تتحكم في عملية تبادل الأدوار الكلامية بين المرسل والمرسل إليه،... ومرتبة المرسل ومقاصده التبليغية، وكفاءة المرسل إليه في إدراك ما لم يصرح به المرسل"⁽³⁾، وهذا الإدراك إنما هو وقف على سرعة بدهته وقدراته على الفهم والاستنتاج والتأويل، وهذه القوانين تعمل وتتماشى مع المدركات والقدرات العقلية للمخاطب كبدأ ملائمة الملفوظ له، التي "يفترض كل مشارك أن الآخر يحترمها عندما (يلعبون لعبة) التبادل اللغوي، لتحديد وإحصاء هذه القوانين تقترح كيربرات أوريكيوني (Catherine Kerabrat- Orecchioni) التمييز بين مبادئ خطابية عامة وقوانين خطاب أكثر تخصيصاً"⁽⁴⁾.

ويمكن ذكر ثلاثة مبادئ أساسية عامة للخطاب نضيف إليها بعض القوانين المحددة معتمدين في ذلك على

تقسيم "أوريكيوني" (C.K. - Orecchioni)

1-3-2 مبدأ التعاون: (Principe de coopération)

يشكل هذا المبدأ "عند" غرايس (Grice) العمود الفقري للمحادثة، فالتعاون يضمن للمتكلمين التواصل وعدم انقطاع المحادثة، وكل طرف من المتكلمين يضمن لنفسه وللآخر الحق في التناوب على

(1) قدور عمران، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، ص 70.

(2) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 106، وينظر: دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 82.

(3) حمدي جودي منصور، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 106.

(4) دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 82.

الكلام" (1)؛ بمعنى أن هذا "المبدأ يرتكز عليه المرسل للتعبير عن قصده، مع ضمانته قدرة المرسل إليه على تأويله وفهمه" (2)؛ أي لا بد للمخاطب أن يكون متعاوناً في إصداره للمفوضاته ولا يُغلب سلطة الأنا المعرفية على الآخر بل لا بد أن ينتج خطابه مع ما يتماشى مع قدرات المخاطب ليكون قادراً على فهم وتأويل هذه المفوضات وعلى المخاطب أن يكون متعاوناً معه لحدوث التبادل والمنفعة المرجوة من الخطاب تقول **أوريكيوني**: "إذا كان للشخصين فائدة في ممارستها للكلام فإن كل طرف منهما سيجني ثمار ذلك إذا تحقق التبادل وعكس ذلك مآله الفشل" (3)، فتحقيق التبادل المعرفي يقتضي استبعاد سلطة الأنا واحترام الإرادة المشتركة للوصول للمنفعة المرجوة بين طرفي الخطاب المتفاعلين وضمان ذلك اعتماد الحد الممكن من التعاون.

وصاغ غرايس (Grice) مبدأ التعاون على النحو التالي:

✓ "اجعل مساهمتك في المحادثة بحسب ما يتطلبه الحال أثناء المحادثة برعاية الغرض المقبول أو اتجاه الكلام الذي تشارك فيه" (4)؛ بمعنى ليكن إسهامك في الحديث بالقدر الذي يتطلبه سياق الحديث وبما يتوافق مع الغرض المتعارف عليه أو الاتجاه الذي يجري فيه ذلك الحديث. ولنجاح الخطاب ينبغي على طرفي الخطاب المتفاعلين توفير "حد أدنى من التعاون وإرادة مشتركة في احترام بعض القواعد" (5).

وقد فرع غرايس (Grice) عن مبدئه في التعاون قواعد تخاطبية، وهي (6):
قاعدة الكم، قاعدة الكيف، قاعدة الإضافة (أو العلاقة)، والجهة.

ثم أدرج تحت كل قاعدة من هذه القواعد عدداً من التوصيات والمقولات المخصصة وهي كالآتي:

1-1-3-2 قاعدة الكم:

✓ لتكن إفادتك للمخاطب على قدر حاجته.

✓ لا تجعل إفادتك تتعدى القدر المطلوب. - بمعنى لا تجعلها أكثر إفادة من المطلوب-

(1) قدور عمران، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، ص 71.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 96.

(3) Catherine Kerbrat- Orecchioni : « L' implicite, Armand Colin, Paris, 1986, p197.

(4) روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 1998م، ص 495.

(5) دومينيكا مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 34.

(6) ينظر: طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، ص 238، 239، للتعمق أكثر في فهم هذا القانون ينظر: أ مولز- ك.زيلتمان-ك. أوريكيوني، في التداولية المعاصرة والتواصل، ترجمة وتعليق محمد نظيف، إفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)، 2014م، ص 132-133.

2-1-3-2 قاعدة الكيف:

✓ لا تقل ما تعلم كذبه.

✓ لا تقل ما ليست لك عليه بيّنة - بمعنى لا تقل ما تعتقد عدم صدقه ولا مالا دليل لك عليه أي لا تثبت ما تعوزنا فيه الحجج.

3-1-3-2 قاعدة علاقة الخبر بمقتضى الحال:

✓ ليناسب مقالك مقامك

4-1-3-2 قاعدة الجهة:

✓ لتحترز من الالتباس. (تجنب غموض العبارة)

✓ لتحترز من الإجمال. (كن واضحاً)

✓ لتتكلم بإيجاز. (أوجز)

✓ لترتب كلامك. (كن مرتباً)

واتباع هذه التوصيات وقواعدها الرئيسية كفيلاً من وجهة نظره بنقل المعنى وتيسير المحادثة نحو الإفهام وتحقيق الهدف المشترك، تعويلاً على التعاون بين الطرفين المشاركين في الخطاب، " فعلى المشارك في التفاعل أن يقدم مساهمته بحيث يستجيب لانتظارات المتلفظ المشارك، وهذا وفق الغاية المنوطة بتبادل الكلام"⁽¹⁾ وكمثال لاحترام مبدأ التعاون "إذا طلب الشخص أ من الشخص ب طريق المحطة، يمنح لنا المبدأ اعتباراً ب يشتركان في ممارسة نشاط مشترك يتمثل في "تعيين طريق المحطة". ينجم عن هذا التشارك أن الالتزام الذي على الشخص أ أن يضطلع به هو أن يطلب طريقه بكلمات يفهمها ب، بينما يعود ل ب أن يعطي جواباً بكلمات يفهمها أ. إذا تصرف أحدهما بخلاف ذلك فإنه يعاكس هدف المجتمع الذي شكّله هو نفسه مع شريكه ومن ثم هدفه الخاص. الالتزام الذي يعلنه مبدأ التعاون ليس إلا الارتباط الاجتماعي الكلامي"⁽²⁾.

إذن فهذا المبدأ يفرض على المتفاعلين في الخطاب احترام القواعد التي تواضعوا عليها والالتزام بها يؤدي إلى بلوغ القصد من الخطاب.

(1) دومينيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 34، للتعلم والتفصيل أكثر ينظر: روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص 495 إلى 497.

(2) أ مولز - ك. زيلتمان - ك. أوريكيوني، في التداولية المعاصرة والتواصل، ص 136.

2-3-2 مبدأ الملاءمة: (principe de pertinence)

مبدأ الملاءمة "لا يقل أهمية عن مبدأ التعاون، ويُعدُّ مُسَلِّمةً أساسيةً في التبادل الخطابي"⁽¹⁾، فهو يقوم في جوهره على جعل ملفوظات الخطاب تتلاءم ومدركات المستمع، فلا تستخدم عبارات تفوق مدركاته وتخرج عن نطاق وحدود طاقاته الاستيعابية "وتقويم الملاءمة يعود إلى المتلقين، فمن خلال معارفهم يحكمون على ملاءمة الملفوظ، وإذا كان المتكلم يسعى إلى جعل الملفوظ ملائمًا قدر الإمكان فالمستمع يُفترض أنه يحترم مبدأ الملاءمة"⁽²⁾، والسياقات المحيطة بإنتاج الملفوظ.

3-3-2 مبدأ الصدق: (principe de sincérité)

نجاح الخطاب وتحقيق الغاية منه إنما هو وقف على مدى مراعاة مبدأ الصدق للنفوذ إلى عالم المخاطب ونقل كل الوقائع والتصورات "يلح غرايس على أهمية الصدق في الخطاب، ويمثل ذلك في قول الحقيقة كما هي موجودة في الواقع أو كما يتصورها المتكلم انطلاقًا من إدراكه للواقع"⁽³⁾ فمبدأ الصدق لا بد أن يكون أصلًا وعرفاً في الخطاب.

ويصطلح طه عبد الرحمان على تسميته بمبدأ التصديق ويصوغه كما يلي⁽⁴⁾:

لا تثقل لغيرك قولاً لا يصدقه فعلك؛ بمعنى لا تتكلم بشيء وفعلك يناقضه، فعلى أقوالك إظهار جوهرك وأفعالك أي أن تكون مرآة لتصرفاتك، حتى يُصدق خطابك.

فهذا المبدأ ينبنى على عنصرين اثنين، أحدهما: نقل القول الذي يتعلق... بالجانب التبليغي من المخاطبة والثاني تطبيق القول الذي يتعلق بالجانب التهذيبي، وتقتضي ممارسة الصدق مستويات ثلاثة: الصدق في الخبر، الصدق في العمل، مطابقة القول للفعل فصدق الخبر هو حفظ اللسان عن الإخبار بأشياء على خلاف ماهي عليه، أما الصدق في العمل، فهو صون السلوك عن إشعار المخاطب بأوصاف هي على خلاف ما يتّصف به، وأما مطابقة القول للعمل فهو حفظ اللسان عمّا يشعر المخاطب بتفاوت بين اللسان والسلوك.

فالصدق في هذه النواحي الثلاث من أسباب التقارب بين طرفي الخطاب الذي ينقله الجانب التبليغي ويعكس صدقه الجانب التهذيبي.

إلى جانب المبادئ العامة للخطاب يمكن أن نسجل قوانين خاصة ومحددة تتعلق بمضمون الملفوظ، من بينها:

(1) قدور عمران، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، ص 72.

(2) المرجع نفسه، ص 72.

(3) المرجع نفسه، ص 72.

(4) ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 94-95.

2-3-4- قانون الإخبارية: (la loi d'informativité)

قانون الإخبار كما يحدده ديكرو (Ducrot) "هو الشرط الذي يخضع له الكلام والذي هدفه إخبار السامع، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا إذا كان هذا الأخير مجهول ما يشار إليه"⁽¹⁾، بمعنى إخبار المخاطب بالمعلومات التي لم تسبق له معرفتها أثناء الخطاب، يقول ديكرو (Ducrot): "على المخاطب تقديم المعلومات اللازمة التي يملكها عن موضوع الخطاب، وغرضها إفادة المخاطب"⁽²⁾ وهو بهذا يقصي مقولة نحن نتكلم كي لا نقول شيئاً، فنحن نتكلم لندحض ما تحمله هذه المقولة ولغرض الإفادة وقول ما يختلج في فكرنا، وقانون الإخبار ملازم للتواصل فبحدوث الإخبار يحدث التواصل وهذا الأخير هو النتيجة الحتمية للإخبار.

2-3-5 قانون الشمول: (la loi d'exhaustivité)

يرتبط هذا القانون بالإخبار؛ لأن الشمول يكون عند الإخبار "ويتلخص هذا القانون في إعطاء المخاطب كل ما يجوزته من معلومات للمستمع، ويلح غرايس (Grice) على أن تحتوي مساهمة المخاطب على أكبر قدر ممكن من المعلومات ليكون كلامه شاملاً"⁽³⁾. إذن يجب مراعاة هذه القوانين من الوهولة الأولى للخطاب، ليترتب عنها استمرارية الخطاب وتأويل الملفوظات على حسب السياق ومن ثم بلوغ الأهداف المتوخاة بأريحية في العملية التواصلية. لإجراء العملية التخاطبية إجراء ناجعا بعناصرها المشكلة للخطاب وفق شروط وقوانين تسعى إلى تنظيم وتقنين حدوث التلاقي والتفاعل والنفاذ إلى عالم المخاطب إنما هي وقف بالدرجة الأولى على جس نبض الروابط التلاحمية المشكلة للأرضية المعرفية المشتركة بين طرفي الخطاب، فهذه المعرفة المشتركة تؤدي "دورا تداوليا في سياق الخطاب اللغوي ومعرفة المرجع الذي تلتقي عنده أذهان طرفي الخطاب في مرحلة إنتاج الخطاب وفي مرحلة تأويله"⁽⁴⁾ فمعرفة المرجع الذي تلتقي عنده أذهان الطرفين الفاعلين في الخطاب تقتضي تخطيط ذو خلفية منطقية عقلانية تسير إجراءات الخطاب وتحيط بكل حيثياته اللغوية وغير اللغوية، فهذه المعرفة المشتركة بينهما تتطلب⁽⁵⁾:

⁽¹⁾ قدور عمران، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، ص 73.

⁽²⁾ O. Ducrot, Dire et ne pas dire , 3ème édition, Hermann éditeur, paris, p204.

⁽³⁾ قدور عمران، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، ص 74.

⁽⁴⁾ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 52.

⁽⁵⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص 49.

✓ معرفة عامة بالعالم، ومنها معرفة كيف يتصل الناس بعضهم البعض وكيف يفكرون وكيف يستطيعون أن ينجزوا أفعالهم اللغوية داخل المجتمع مع إقامة الاعتبار لأطره العامة الدينية الثقافية الاقتصادية، الاجتماعية.

✓ معرفة بنظام اللغة، في جميع مستوياتها، بما في ذلك دلالاتها وعلاقتها بثقافتها. إذن هذه المعرفة المشتركة بين طرفي الخطاب اللغوية وغير اللغوية تنضوي داخل منطق التخاطب فهو الكفيل بتسيير العناصر الفاعلة فيه والتحكم في شروطها وقوانينها لتكون نقطة انطلاق وهو ما سنتدارس كل حيثياته.

3-منطق التخاطب:

الخطاب والتخاطب لا يخرج عن كونه طبيعة عقلية (لوغوس) ولغوية، فهذا المعنى نجده في التفسير الفلسفي للخطاب والقائم على النظام والمنطق فهو "نظام من العمليات الذهنية القائمة على مجموعة من القواعد المرتبة ترتيبا منطقيا"⁽¹⁾ إذن فهو عملية ذهنية عقلية منطقية لكونه مركب من سلسلة العمليات العقلية الجزئية أو تعبير عن الفكر بواسطة سلسلة من الألفاظ والقضايا التي يرتبط بعضها ببعض، "ولم يعد الخطاب طريقة للتعبير أو حديثا متساوقا أو مجموعة عمليات فكرية مترابطة أو تجل لذات واعية تتأمل وتعبر وإنما أصبح إمكانا وشرطا لوجود نظام، وأصبح حقلًا تتمفصل فيه الذوات ومجموعة علاقات تجد فيها مركزا له"⁽²⁾، ولهذا كان مجالًا خصبا للدراسات الفلسفية والمنطقية لكونه ترجمان الفكر.

اعتبر المنطق من أرسطو إلى نهاية القرن التاسع عشر (فن التفكير) تفكيرًا صحيحًا أو توليفًا للقضايا بكيفية نسحب بها على النتيجة صدق المقدمات... إذ يحدد ترسيمات التفكير المنتج لنظرية الخطاب العقلاني فالمنطق الطبيعي مهمته تفسير عمليات الذهن التي تتيح للمخاطب أن يبني مواضيع ويخبر عنها كما يريد ويتصف هذا المنطق بخاصيتين تميزانه عن المنطق الرياضي:

✓ إنه منطق الذات التي تدخل في علاقة من طبيعة حوارية تعد هي الأساس في مسار التفاعل.

✓ منطق مواضيع، يصلح نشاط الخطاب لبناء مواضيع تفكير تكون مراجع مشتركة بين المتخاطبين⁽³⁾.

(1) الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، (د.ط.)، 2000 م، ص 92.

(2) عيسى عودة برهومة، تمثلات اللغة في الخطاب السياسي، ص 122.

(3) ينظر: باتريك شاردو، دومينيك مانغو، معجم تحليل الخطاب، ص 345-346.

ويراعى في منطقتي التخاطب ما يأتي:

1-3 دورة التخاطب والمشاركون فيها:

إن دورة التخاطب والمشاركون فيها - كما يصطلح على تسميتها عبد الرحمان الحاج صالح - وما بينهما من علاقة هي التي تضيء على الخطاب عقلانيته ومنطقه.

فالالتزام بالمنطق اللغوي العلائقي من شأنه أن يحقق وظيفة التخاطب الأساسية على حد قول عبد الرحمان الحاج صالح "وهي الإعلام والبيان المتبادل"⁽¹⁾ "المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمختلجة في نفوسهم والمتصلة في خواطرم والحادثة في فكرهم مستورة خفية ... لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وإنما يجي تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها... وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم وتجلبها للعقل وتجعل المخفي منها ظاهرا والبعيد قريبا وهي التي تلخص الملتبس وتحلّ المنعقد وتجعل المهمل مقيدا والمقيد مطلقا والمجهول معروفا"⁽²⁾.

فمنطق التخاطب يرتبط بدورة التخاطب وعلاقة المشاركون فيها، فهناك مجموعة من القضايا ينبغي أن نلج إليها وأن يضعها منتج الخطاب في ذهنه، وهي⁽³⁾:

1-1-3 الخطاب مبدأه المخاطب ومنتهاه المخاطب: لما كان المخاطب مشاركا للمخاطب في حال

معنى الكلام إذ الكلام مبدأه المخاطب ومنتهاه عند المخاطب. ولولا هذا الأخير ما كان للمخاطب أن ينج لفظا مسموعا ولا أحتاج إلى التعبير عنه، فلما اشتركا في المقصود بالكلام وفائدته لزم من ذلك أن الكلام واحد.

2-1-3 المخاطب لا يكون إلا واحدا ولا حصر لعدد المخاطبين: بينوا اختلاف حكم المخاطب

عن حكم المخاطب في الالتباس وعدمه، فقالوا: اعلم أن المتكلم غير ملبس على المخاطب؛ لأن كلاما واحدا لا يكون من متكلمين بصوت واحد وآلة واحدة فأما المخاطب فإنه قد يقع فيه لبس لأنه قد يكون بحضرتة اثنان وثلاثة وأكثر فرما اعتقد غير المقصود بالخطاب أن القصد منه بذلك.

3-1-3 عطف المخاطب على المخاطب وتوجّهه إليه: الشروع في الخطاب لا يمكن أن يحصل

إلا بعطف المخاطب على من يريد مخاطبته؛ أي يجعله متصلا به في حالة إنصات ويستعمل

(1) عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص 49.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 75.

(3) ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح، الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، ص 50 إلى 52.

في ذلك وسيلة لإيقاعه وتحصيله، ويلجأ في ذلك إلى ما يسميه النحاة بالأصوات؛ أي ما لم يُصغ على صيغة كلمة متمكنة وهي حروف النداء أولاً ثم بعض الكلم التي تُسمى بأدوات الاستفتاح والتنبيه مثل: ألاً وأماً وغيرها. - وفي هذا التوجه بالعطف على المخاطب قضاء على اللبس وبيان للقصد. -

4-1-3 ضرورة اشتراك المتخاطبين في معرفة المواضعة:

ومن أهم العوامل في إجراء عملية التخاطب نذكر مشاركة المخاطب للمخاطب في معرفته لوضع اللغة الذي يجري به التخاطب وهو المواضعة اللغوية؛ أي الكود الذي لولاه لتعذر كل تخاطب، فلو لم يتواضعوا عليها (اللغة) لما صح في اللغات أدلة تُفهم بها الأغراض ويقع بها التخاطب.

إذن العلاقة المشتركة بين المتخاطبين المشاركين في الخطاب هي التي تُبنى على حسب طبيعتها المواضيع فتكون كخلفية منطقية آنية توجه الخطاب وتعني "المرسل من تطويل الخطاب وإثقاله بالتفاصيل والجزئيات"⁽¹⁾، وبهذا تظهر فاعلية الخطاب ويتمكن من التأثير في نفوس الناس وذلك بفضل تشخيصه للمشكلات ووصوله للحلول بأيسر الطرق وذلك باعتماد قالب لغوي يتوافق مع مدركات المخاطب وفق منطق علمي سليم عماده الطابع العقلاني دون حشو أو إطناب أو استعمال الغريب من الألفاظ وتوجيهه في غير موضعه " فعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى وكلما كانت الإشارة أبين وأنور كان أضع وأضع"⁽²⁾.

ولهذا فلا بد أن تكون هذه المعرفة اللغوية المشتركة سابقة على كل تخاطب؛ لأنها شرط لحصوله ولا مناص منها، فالألفاظ موضوعة للدلالة على ما سبق علم المخاطب ولا يحسن أن يخاطب بلسان من الألسنة إلا ما سبق معرفته لذلك اللسان، وكون هذه المعرفة ماهيتها الحفظ والتوقيف لا يجوز لمستعمل اللغة في خطابه أن يغير أي شيء يرجع إلى الوضع أو يأتي بشيء جديد من عنده وإلا خالف كل المستعملين لهذه اللغة وخرج بذلك عن جماعة الناطقين بها، وليس معنى هذا أن المستعملين لوضع اللغة يعرفون بالضرورة كل اللغة غريبها و واضحها ومستعملها بل في ذلك طبقات يتفاضلون فيها.

وعلى مؤجّه هذه اللغة أن يراعي منطق التخاطب الوضعي والاستعمالي للغة وعلاقتها بطبقة وحال المخاطب، فعليه أن يسعى إلى أن تجد لغته في نفسه موقع الاكتفاء والقبول وإلا انقطع التخاطب وتعذر التواصل ومثال ذلك " ما أخبرنا أبو حامد عن الصولي عن علي بن محمد الأسدي عن محمد بن أبي المغازل الضني عن

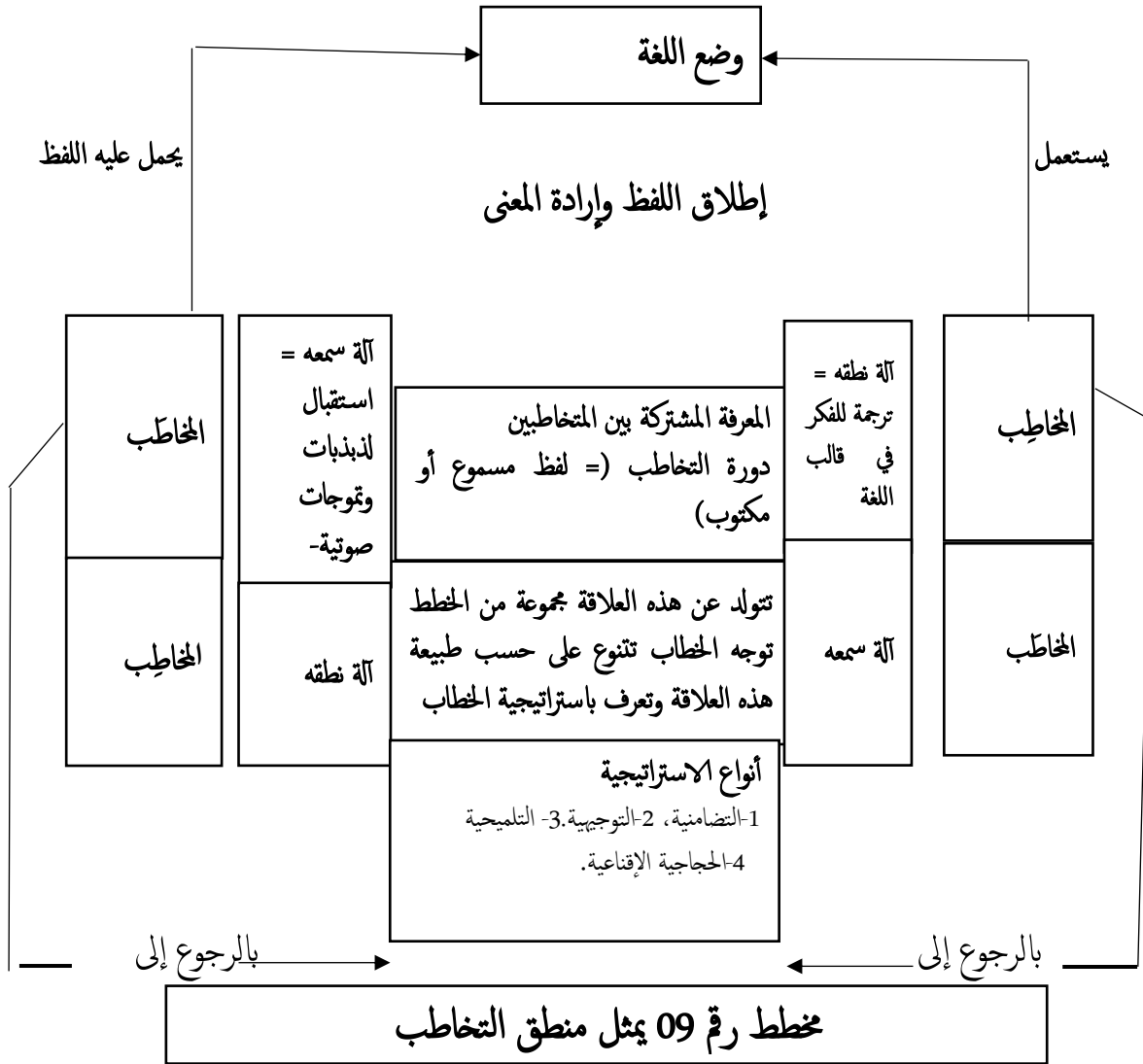
(1) عبد العالي قادا، الحجاج في الخطاب السياسي، ص 135.

(2) الجاحظ، البيان والتنبيه، ج 1، ص 75.

أبيه... قال... كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم إلا بالغريب. فخرج إلى ضيعة له على حجر معها مهر فأفلتت، فذهبت ومعها مهرها... فخرج يسأل عنها... فمّر بخياط... فقال يا ذا النصح وذات السم- الطاعن بها في غير وغى لغير عدى، هل رأيت الخيفانة القباء، يتبعها الحاسن المسرهف، كأن غرته القمر الأزهر ينير في خضرة كالخلب الأجرد... فقال الخياط أطلبها في ترخ... فقال ويلك وما تقول قبحك الله فما أعلم رطانتك... فقال لعن الله أبغضنا لفظا وأخطأنا منطلقا"⁽¹⁾

فمن رجاحة منطلق التخاطب وصوابه مخاطبة الناس بالألفاظ المتواضع عليها والابتعاد عن غريبها ومراعاة الحالة الثقافية للمخاطب، فالكو في هنا لم يراع الحالة الثقافية للخياط البسيط، وخاطبه بمنطق لغوي مُسوّد فيه من غريب الألفاظ ما لا يفهمه إلا أرباب اللغة، ولذلك أجابه الخياط فقال في ترخ وهو مكان غير موجود أصلا ووصف كلامه بأنه بغيض لعدم فهمه إياه، كما نبيه إلى أمر مهم جدا، وهو أنه ليس من المنطق أن يخاطب أحدا بكلام غير مفهوم.

⁽¹⁾ أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، ص20.



(فكرة المخطط أعلاه مستوحاة من كتاب الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية للدكتور عبد الرحمان الحاج صالح وتم إضفاء ما يتلاءم وطبيعة البحث، ينظر: ص 54)

إذن خطاب المخاطب " لا ينطلق من العدم وإنما يستغل هذا المتكلم المعرفة المشتركة بمجموع الإمكانيات اللغوية وغير اللغوية التي تنتظم وفق معطيات السياق المحيط بين طرفي الخطاب، هذا الاستغلال الذهني المسبق هو ما يكفل للمتكلم بناء خطة متبعة أثناء التخاطب تعرف باستراتيجية الخطاب"⁽¹⁾؛ وهذه الاستراتيجية تتأثر وتتحدد وتنوع على حسب طبيعة العلاقة بين المتخاطبين وعلى حسب السياقات اللغوية وغير اللغوية المحيطة بهما.

(1) حمدي منصور جودي، تشكل أنواع الاستراتيجيات الخطابية، دراسة في الأهداف والوسائل، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، جوان 2017م، العدد 21، ص 82.

3-2- استراتيجيات الخطاب:

3-2-1 تعريف استراتيجيات* الخطاب:

يطمح المخاطب إلى بلوغ مقاصده مما كانت الظروف السياقية السلطوية المحيطة به، فيعتمد إلى فن تدبير خطط يطبقها من خلال اللغة لبلوغ مقاصده وإخراجها عن طريق اللغة ويطبعها بطابع تكتيكي. وهذا ما يصطلح عليه في تحليل الخطاب باستراتيجيات الخطاب وهي من شروط إنتاجه " تتكون هيكلية عمل لغة من فضائين: فضاء إكراهات يتضمّن المعطيات الدنيا التي ينبغي الاستجابة لها ليكون عمل اللغة صحيحا... وفضاء استراتيجيات يطابق الاختيارات الممكنة التي يتوخاها المتكلمون ليقوموا بإخراج عمل اللغة"⁽¹⁾؛ أي المعرفة بجميع مستويات اللغة واحترام نظامها وتوظيفها في الاستراتيجية المنتقاة وبلورتها عن طريق اللغة لبلوغ أهدافه. ومن هذا المنطلق تعرّف استراتيجيات الخطاب بأنها: "مجموعة عمليات تهدف إلى بلوغ غايات معينة، أو هي تدابير مرسومة من أجل ضبط معلومات محددة والتحكّم بها"⁽²⁾؛ وهذه التدابير تختلف باختلاف طبيعة العلاقة بين المخاطب والمخاطب والسياق "فالعلاقة هي التي تحدّد الاستراتيجية المناسبة لتجسيدها وردّت الفعل المتوقعة"⁽³⁾ وتتفق في ذلك مع نظرية استراتيجيات الألعاب فهي " مجموعة القواعد المحددة لسلوك اللاعب في كل وضعية لعب ممكنة"⁽⁴⁾ فكل وضعية تقتضي استراتيجية معينة على حسب الظروف المحيطة باللعبة وسننصل ذلك في أنواع الاستراتيجيات.

وتعنى الاستراتيجية المستخدمة في الخطاب بأنها المحرك العقلي المبرمج للخطاب والمتحكم فيه فهي لا تخرج عن كونها "خطة مبرمجة مسبقا لتحقيق أهداف محددة أفقا، تعتمد في إنشائها على جانبين اثنين، أولهما تخطيط ذهني مسبق لما ستكون عليه الخطة المتوقعة، وثانيهما تجسيد فعلي وواقعي لمعطيات ومراحل الخطة

* جاء لفظ استراتيجية من فن قيادة عمليات جيش في ميدان القتال، إلى حد أنها آلت إلى تعيين جزء من الفنون العسكرية وأمكن لها أن تكون موضوع تعليم (دروس الاستراتيجية في المدرسة الحربية) وقد انتهى الأمر بهذا المفهوم إلى اكتساب معنى أعمّ يفيد كل عمل يتم القيام به بصفة منسقة لبلوغ هدف ما، لذا يتحدث الناس عن استراتيجية انتخابية، تجارية، سياسية، وباعتبارها مفهوما فإنه يستعمل استعمالا مركزيا في فنون فكرية مختلفة، في نظرية الألعاب وفي علم النفس. ينظر: باتريك شارود، دومينيك مانغو، معجم تحليل الخطاب، ص 532.

(1) باتريك شارود، دومينيك مانغو، معجم تحليل الخطاب، ص 532.

(2) عبد الرحمان العبدان وراشد الدرويش، استراتيجيات تعلّم اللغة العربية بوصفها لغة ثانية، مجلة جامعة أم القرى، (اللغة العربية وآدابها) السنة 10، عدد 16، 1997م، ص 324.

(3) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 49.

(4) باتريك شارود، دومينيك مانغو، معجم تحليل الخطاب، ص 532.

المبرمجة، حتى يتم التطابق بين ما هو ذهني وما هو مادي واقعي"⁽¹⁾؛ وهذا ما يفسر لنا أن الاستراتيجية في الخطاب هي طابع تخطيطي يعطي الخطاب المنجز سمة الديمومة النظامية ولتحقيق ذلك يستعان بجملة من الأدوات والوسائل وهذا ليس ببعيد عنها؛ لأنها ذات "عمل عقلي يبني على افتراضات مسبقة، وتتجسد من خلال أدوات ووسائل تناسب سياق استعمالها"⁽²⁾.

وعلى هذا يختار المخاطب الاستراتيجية المناسبة على اعتبار "أنه صاحب الاستراتيجية وهو من يركز عليه الأمر كله، سواء عند التخطيط أو عند التجسيد أو عند استغلال الوسائل والإمكانات المساعدة"⁽³⁾ التي تستطيع أن تعبر عن قصده وتحقق هدفه بأفضل حال، مراعى في ذلك طبيعة المخاطب والسياق المحيط به مختاراً في ذلك نوع الاستراتيجية التي تتماشى وهذه السياقات.

3-2-2- العوامل المؤثرة في اختيار استراتيجية الخطاب:

هناك عاملان من العوامل المهمة ذات الأثر البالغ في توجيه المخاطب لاختيار استراتيجية الخطاب وتداول اللغة وتأويلها وترجيح استراتيجية مقابل استراتيجية أخرى وهما:⁽⁴⁾

3-2-2-1 عامل المقاصد.

3-2-2-2 عامل السلطة.

وعرجنا على هذين العاملين لكونهما يجسدان واقع المدونة - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد للكواكبي ما كان يعانيه من قهر السلطة وكل الظروف المحيطة به لتبليغ مقاصده -

3-2-2-3 عامل المقاصد:

يرتكز دور المقاصد على بلورة المعنى كما هو عند المخاطب، إذ يستلزم منه مراعاة كيفية التعبير عن قصده وانتخاب الاستراتيجية التي تتكفل بنقله مع مراعاة العناصر السياقية الأخرى. "فاختيار استراتيجية الخطاب للتعبير عن القصد هي الخطوة الأولى عند المرسل في الإنتاج وعند المرسل إليه في التأويل"⁽⁵⁾، وما «الاستراتيجية التي يستعملها المرسل في الخطاب إلا وسيلة تتجسد باللغة لتحقيق المقاصد"⁽⁶⁾، والمخاطب

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلياته ودمنة لابن المقفع، ص 42.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 55.

(3) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلياته ودمنة لابن المقفع، ص 42.

(4) ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 180.

(5) المرجع نفسه، ص 182.

(6) المرجع نفسه، ص 187.

يراعي قواعد الوضع والاستعمال لهذه اللغة في الخطاب لبنني على منوالها استراتيجية الخطابية ويحقق صحة الفهم والتأويل عند المخاطب⁽¹⁾.

3-2-2-2 عامل السلطة:

تعني السلطة في معناها العام هي السيطرة بالقوة لطرف على آخر واستخدامه في تنفيذ الأوامر في شتى مجالات الحياة، إذ "تستلزم أمراً ومأموراً وأمر؛ أمراً له الحق في إصدار أمر إلى المأمور، ومأموراً عليه واجب الطاعة للأمر، بتنفيذ الأمر الموجه إليه"⁽²⁾ وهذه الخصيصة السلطوية تنشأ بين طرفي الخطاب بين من هو أعلى درجة في السلم إلى من هو أدناه.

"يختار المرسل استراتيجية الخطاب المناسبة للسياق وفق لما تقتضيه سلطته، إمّا بتفعيلها أو بالتنازل عنها لتحقيق مقاصده"⁽³⁾، إلا أنّ المخاطب لم يعد المؤثر الوحيد في بناء الخطاب واختيار الاستراتيجية بل هنالك أكثر من عنصر من عناصر السياق تسهم في إنتاج الخطاب وكل عنصر منها يتمتع بسلطته وبالتالي فهناك أكثر من بعد من أبعاد السلطة وهي على التوالي⁽⁴⁾:

✓ **سلطة اللغة:** تفرض اللغة على المخاطب نظاماً من القواعد الصوتية والصرفية والمعجمية والدلالية والتركيبية ينبغي أن يتقيد بها ويستجيب لسلطتها.

✓ **سلطة المخاطب:** يمتلك المخاطب بفضل كفاءاته اللغوية مهارات تواصلية تأثيرية يستطيع بواسطتها النفاذ إلى عالم المخاطب وتغيير كل ما في جعبته من أفكار والتأثير فيه انطلاقاً من مكانته في السلم العمودي وتفعيلها لصالح تلفظه بملفوظات تنجز وتتجسد على أرض الواقع.

✓ **سلطة المخاطب:** للمخاطب دور كبير في اختيار الاستراتيجية التخاطبية فهو يوجه المخاطب بطريقة أو أخرى لاختيار الاستراتيجية المناسبة والعدول عن غيرها ليتمكن من ممارسته لسلطته التي تعكس مكانته.

(1) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 54.

(2) ناصيف نصار، منطق السلطة مدخل إلى فلسفة الأمر، دار أمواج، بيروت، لبنان، ط1، 1995م، ص 7.

(3) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 222.

(4) ينظر: المرجع نفسه، ص 224 إلى 231.

✓ **سلطة المجتمع:** تتجسد سلطة المجتمع بحسب أعرافه وتقاليده فهي "تفرض ما هو مناسب من الموضوعات والاختيارات على المرسل، فلا يستطيع أن يقول أي شيء، أو أن يتحدث في أي موضوع"⁽¹⁾.

ما نخلص إليه أن تبليغ المقاصد يتحكم فيه عامل السلطة وعلى إثرها يتم تعيين نوع الاستراتيجية المناسبة التي يراوغ عبرها المخاطب لتبليغ مقاصده في ظل سيطرة الحكم السلطوي التعددي (سلطة اللغة سلطة المخاطب، سلطة المخاطب، سلطة المجتمع) فهي التي توجه المخاطب لاختيار استراتيجية بعينها مع ما يتلاءم والموقف التواصلي.

3-2-3 أنواع استراتيجيات الخطاب:

تتنوع الاستراتيجية الخطابية تبعاً لتغير وتنوع معطيات أحوال المخاطب والسياق المحيط، وكذا اللغة الطبيعية المستعملة، ومقاصد المتكلم من خطابه.

وعموماً تم تصنيف أنواع استراتيجيات الخطاب بناء على معايير واضحة، وهي⁽²⁾:

3-2-3-1- المعيار الاجتماعي ذو البعد الأخلاقي، ويتعلق بالعلاقة بين طرفي الخطاب، وينشئ إحدى الاستراتيجيتين التاليتين؛ الأولى تستبعد عامل السلطة والثانية تبقى عليه وهي على التوالي: الاستراتيجية التضامنية، والاستراتيجية التوجيهية.

3-2-3-2 معيار اللغة الطبيعية المدرجة في الخطاب، وهو معيار دلالي يبرز مقاصد المخاطب من الخطاب وتأسس عليه الاستراتيجية التلميحية.

3-2-3-3 معيار هدف الخطاب، والغاية منه التأثير في المتلقي تجاه قضية ما وتأسس عليه الاستراتيجية الحجاجية الإقناعية.

ومن خلال الجدول التوضيحي الآتي يمكن التعرّيج على أنواع استراتيجيات الخطاب وإبراز أهم النقاط التي تتفرد بها⁽³⁾:

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 231.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 444، وينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة، ص 57.

(3) للتعلم أكثر ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 256 إلى 476، وينظر: حمدي جودي منصور، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، من ص 57 إلى 75.

الاستراتيجية	التضامنية	التوجيهية	التلميحية	الحجاجية الإقناعية
تعريفها	تقوم إجمالاً على محاولة التقرب من المخاطب وتقريبه	يقوم المخاطب من خلال خطابه التوجيهي إلى الضغط على المخاطب لتوجيهه إلى مقاصد معينة.	المخاطب يلمح بمعاني ضمنية عن قصده دون التصريح بها لينج عنه دلالة يستلزمها الخطاب ويفهمها المخاطب.	يسعى المخاطب إلى تحقيق هدفه من الخطاب وذلك من خلال التأثير على المخاطب وإحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي لحصول الاقتناع عنده.
عامل السلطة	إبعاد عامل السلطة ليحل محله عامل أخلاقي هو التأدب.	توجيه المخاطب من خلال فرض سلطة معينة تتعدى مبدأ التأدب والتخلق	محاولة المخاطب التملص من السلطة فيفسح مجال التأويل حول المقاصد التي يرمي إليها من خلال خطابه.	استبقاء عامل السلطة وأخذها بعين الاعتبار عند بناء الحجج. كامتلاك سلطة الحجة العلمية وسلطة التلفظ وآلياته لإسكات المخاطب.
الوسائل اللغوية المعتمدة في كل استراتيجية	العلم (أبرزها الاسم ثم الكنية ثم اللقب). آلية المكاشفة (يكشف المخاطب للمخاطب عن أموره الشخصية). الإعجاب والمدح. التصغير، الطرفة (النكتة)، اللهجة.	✓ الأمر. ✓ النهي. ✓ الاستفهام. ✓ التحذير.	منها الصور البيانية وما يمكن أن تؤديه من تلميح: ✓ التشبيه. ✓ الاستعارة. ✓ الكناية.	- الوسائل النفسية الاجتماعية. - الوسائل المنطقية. - الوسائل اللغوية.

جدول رقم 01 يوضح أنواع استراتيجيات الخطاب وأهم النقاط التي تتفرد بها:

ويبقى المخاطب هو المنوط باختيار الاستراتيجية المناسبة لتبليغ مقاصده تبعاً للعلاقة بين طرفي الخطاب والظروف المحيطة وعلى حسب عامل السلطة فقد يتطلب الموقف الخطابي التواصل الواحد من المخاطب

أن يعتمد إلى التضامن والتوجيه والتلميح والحجاج الإقناعي مع المخاطب ليبلغ مراده؛ وقد يقتضي الموقف التواصل اختياري استراتيجية واحدة في الخطاب، ويبقى عامل الغلبة في الاستعمال هو معيار السيطرة لاستراتيجية خطابية دون أخرى في موقف تواصل معين.

4- أنواع الخطاب وأتماطه (1):

يقترح التمييز التقليدي المتوارث للخطابات تصنيفاً مُنطلياً فيه من أحد المعايير التالية: الموضوع والآلية والبنية.

1-4 من حيث موضوعها إلى خطاب ديني، خطاب علمي، خطاب أيديولوجي، خطاب سياسي خطاب اجتماعي، خطاب ثقافي، خطاب إلهامي، خطاب فلسفي.

2-4 من حيث بنيتها داخل ما يسمى الخطاب الفني (الإبداعي، الأدبي) إلى قصة ورواية وقصيدة شعر نثر وغيرها.

3-4 من حيث الآلية المشغلة فيميز بين الخطاب السردية والخطاب الوصفي والخطاب الحجاجي. إذن أغلب هذه الأنواع من الخطابات وأشهرها هو الخطاب الحجاجي حيث يهدف المخاطب من خلاله إلى الحجاج بغية إقناع المخاطب بوجهة نظر ما وحمله على تغيير وضعه واستبدال موقفه الأصلي بموقف ثاني يدعو إليه المخاطب.

تتوقف عند الخطاب الحجاجي ونحاول أن نبين العلاقة الجامعة بين الخطاب والحجاج، وذلك من خلال الوقوف على الحجاج كإجراء ومجموعة من الآليات لا يمكن أن تمارس خارج الخطاب، فالحجاج يمارس بالخطاب، وهذا الأخير يتضمن نظاماً من المعطيات اللغوية قابلاً لاحتواء آلياته الإجرائية. إذن كيف يتجسد الحجاج في الخطاب؟

• العلاقة بين الخطاب والحجاج:

مصدر الخطاب فردي وهدفه الإقناع والتأثير؛ وهذه الخاصية تحيلنا إلى أنه نتاج يتلفظه المخاطب ويهدف من ورائه إلى إيصال رسالة وترك أثر واضح في المخاطب، فقد لا تكمن وظيفة المخاطب في توجيه الكلام للغير

(1) ينظر: أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية، ص 25-26.

لمجرد الكلام ولا ليخبره أو يشرح له لمجرد الإخبار والشرح والإعلام "فتسلسل الأقوال والمجمل في الخطاب لا يعتمد المعنى الإخباري أو المحتوى الإعلامي وإنما يعتمد بالأساس المعنى الحجاجي"⁽¹⁾.

فالمعنى الحجاجي هو الذي يحوي الوظيفة التأثيرية ويحقق الهدف القابع في ذهن المخاطب الذي حمله على الإدلاء بمكنوناته والتأثير في الآخر بتغيير وجهته ولا يتأتى له ذلك إلا بتوظيف الحجاج في خطابه بغية الإقناع. فمثلا عندما يُتلفظ بـ **(الساء صافية)** فكل من طرفي الخطاب قد لاحظا أنّ الساء صافية، وقد يفقد الخطاب طبيعته الإخبارية وإن ظل محتفظا بمحتواه الإعلامي، ولكن الوظيفة الأساسية التي توجه الخطاب وجهة تأثيرية إقناعية هي المعنى الحجاجي الذي يسمح للمخاطب بإنتاج متواليات "الساء صافية لنخرج إلى النزهة" فهو يقدم من خلال خطابه حجة لصالح نتيجة ممكنة من قبيل إقناع المستمع بالذهاب إلى التنزه على شاطئ البحر وحمله على الحركة⁽²⁾.

" فالمخاطب ما لم ينقل إلى الغير ما يحمله على الحركة، فلا عمل لخطابه"⁽³⁾؛ أي لا معنى له لأن حقيقة الخطاب لا تتوقف عند حد الكلام من أجل الكلام وفي هذا الصدد يصرح **جان ميشال آدام**: "بأننا حينما نتكلم فنحن نسعى من جهة إلى حمل المخاطب على أن يتقاسم آراءنا أو التمثيلات المتعلقة بموضوع معين ونسعى من جهة أخرى إلى التأثير في المستمعين وحملهم على الاقتداء بأكبر عدد ممكن من آرائنا"⁽⁴⁾.

ولعل هذا ما حدا **بسعيد يقطين** على استعارة تعريف **إميل بنفينيست** للخطاب "بأنه كل تلفظ يفترض وجود متكلم ومستمع وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما"⁽⁵⁾؛ إذن مقصد المخاطب التأثير في المخاطب على نحو ما، ولتحقيق هذا الهدف **(المقصد التأثيري)** يجب اتباع وتطبيق استراتيجية من شأنها أن تضع المخاطب في المسلك المناسب للتلفظ بخطابه من أجل تنفيذ إرادته والتعبير عن مقاصده التي يود نقلها للطرف الآخر وتحقيق أهدافه من العملية التواصلية، وهذه الاستراتيجية تُعرف باستراتيجية الإقناع "ويعد الهدف الإقناعي من أهم الأهداف التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها، وبذلك يمكننا أن نصنف استراتيجية نسميها استراتيجية الإقناع، انطلاقا من أنّ المرسل يتوخاها لتحقيق مآرب كثيرة ويستخدم لذلك آليات متعددة"⁽⁶⁾.

(1) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006م، ص42، وينظر: أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، ضمن كتاب التحاج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق حمو الثقاري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 134، ط1، 2006م، ص73.

(2) ينظر: أبو بكر العزاوي، الحجاج والمعنى الحجاجي، ص73.

(3) طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2005م، ص248.

(4) J.M.Adam. les texts , types et prototypes, nothan, paris, 1992. P :103.

(5) سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص17.

(6) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، (المقدمة)، ص8.

ومن هذه المآرب إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمخاطب بغية التأثير فيه لإحداث تغيير على مستوى سلوك معين، وبالتالي الوصول إلى الغاية المتبتغة من ورائه؛ فالإقناع يرتبط بالحجاج فهذا الأخير هو الذي تتجسد فيه استراتيجية الإقناع، ويمارسان في كنف الخطاب، فهو الأرضية التي تهبئ لهم ظروف الاشتغال، وتعتمد على الحجاج بوصفه أداة ووسيلة لتحقيق تلك الغاية، وذلك لأن الحجاج يعرّف بأنه جمد إقناعي إحمائي يتمظهر في الخطاب ويحتل بعدا جوهريًا في اللغة، ويتأتى له ذلك بالحجج المثوثة فيه والتي تعني "الطرق التي يسلكها صاحب الحجة لإقناع السامع أو المخاطب واستمالتة والتأثير فيه، ودرجة هذا التأثير تختلف وفق الطرق والآليات المستعملة في الحجاج"⁽¹⁾.

والاستراتيجية الخطابية التي تتماشى مع الحجاج هي الاستراتيجية الإقناعية وتعتمد على آليات من أبسط درجاتها إلى أكثرها تعقيدا وتجريدا على حسب قدرة وإدراك المخاطب. "فالحجاج استراتيجية لغوية تتأسس تبعا لسياق الخطاب وحقله، فالمرسل أثناء التخاطب ينقل تصورات ومدركاته الموجودة في واقعه بهدف... التأثير في المرسل إليه، وهو بذلك يعمد إلى إقناعه قصد التغيير في بعض معارفه أو أفكاره... فيصبح الحجاج وسيلة لتحقيق هذه الغاية"⁽²⁾ التي قام من أجلها الخطاب.

وللتعمق أكثر في العلاقة الجامعة بين الخطاب والحجاج نورد حوارا من الحوارات التي أجريت مع رائد الحجاج اللغوي في الوطن العربي مع صدور كتابه الخطاب والحجاج لتسليط الضوء على مجموعة من القضايا والإشكالات التي عالجهها هذا الكتاب، وهذا نص الحوار⁽³⁾:

س: هل هناك علاقة وثيقة بين الخطاب والحجاج؟ وأين تتجلى حجاجية الخطاب؟

فكانت إجابة أبو بكر العزاوي على هذا النحو: نعم، هناك علاقة وثيقة بين الخطاب والحجاج، ونحن نطلق هنا من مسلمة مفادها أن كل النصوص والخطابات التي تنجز بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية. فالحجاج نجده في القصيدة الشعرية والمقالة الأدبية والخطبة الدينية والمحورة اليومية واللافتة الإشهارية والمفاوضات التجارية والأطروحات الجامعية والمناظرات الفكرية والندوات العلمية والرواية والمسرحية والخطاب السياسي والخطاب المسرحي والنص البصري وغيره. إذن كل الخطابات والنصوص حجاجية، لكن مظاهر الحجاج ودرجته تختلف من نص لآخر، فهناك فرق بالطبع بين القصيدة الشعرية ذات البعد الفني الجمالي ومرافعة المحامي ذات الطابع الدفاعي والقانوني.

(1) رضوان الرقي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، عالم الفكر، العدد 02، المجلد 40، أكتوبر، ديسمبر، 2011، ص 71.

(2) حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 72.

(3) ينظر: أبو بكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط 1، 2016م، ص 29.

فالخطاب هو مجموعة من الأقوال والجمل ومجموعة من العلاقات الدلالية المنطقية القائمة بينها، أو بتعبير حجاجي هو مجموعة من الحجج والنتائج التي تقوم بينها أنماط مختلفة من العلاقات، فالحجة تستدعي الحجة المؤيدة أو المضادة لها، والدليل يفضي إلى نتيجة والنتيجة تفضي إلى دليل آخر، وكل قول يرتبط بالقول الذي يسبقه ويوجه القول الذي يتلوه، وبعبارة أخرى، فإن الأقوال والجمل تقوم بينها علاقات منطقية ودلالية مثل السببية والاستنتاج والتعارض وكلها علائق حجاجية، ومجموع هذه العلاقات هو ما يكون البنية المنطقية للخطاب. وبذلك تختلف طبيعة الحجاج ودرجته بحسب نوع الخطاب؛ وهذا ما يجعله مجالاً خصباً للدراسات الحجاجية التي ما غدت تميز في مقارنتها بين خطابات سياسية أو أدبية أو فلسفية أو إخبارية أو دينية، بل إنه أصبح بفضل اجتهادات الدارسين مدار المقاربة الحجاجية التي توزعت بين المقاربة البلاغية الكلاسيكية والمقاربة المنطقية والمقاربة اللغوية.

ويمكن القول إن هذه المقاربات الحجاجية لا يكاد يخلو منها الخطاب الطبيعي بوجه عام. فقد تحيلنا الوظيفة التواصلية الإقناعية لخطاب ما إلى مدى توقع الحجاج في شتى أنواع الخطاب أو مدى حجاجية الخطاب بشتى المقاربات.

فالخطاب يحوي في نظامه حجاجاً؛ أي "إن الحجاج جنس خاص من الخطاب، يبني على قضية أو فرضية خلافية يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطاً منطقياً، قاصداً إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية"⁽¹⁾، هذه القضية الخلافية تضيء صبغة على العلاقة التخاطبية الحجاجية الاستدلالية التواصلية بين المخاطب والمخاطب وتعطي للخطاب ماهيته الحقيقية وهذا ما يثبت أنّ "الخطاب الحجاجي هو أولاً وبالأساس فكر الآخر وكلامه اللذين يتعارضان مع اعتقادي الخاص، ولأنتي أعارضه في نقطة ما يبدو لي خطابه مجانباً للحقيقة لا يرقى إلى اليقين بل يظل ضمن دائرة الممكن والمحتمل، ومن ثمة فهو خطاب يتأسس على الصراع ويتولد من رحم الاختلاف حول قضية ما، ويأتي الكلام تجسماً لهذا الصراع وذلك الاختلاف فتداخله بالضرورة تعددية بينة بين الوضع المتحدث عنه والمنطلق المتحدث منه بين منطلق الأنا ومنطلق الآخر"⁽²⁾.

و في شأن العلاقة بين الخطاب والحجاج طرحها طه عبد الرحمن طرحاً ملماً، ففسر الخطاب "بأنه ليس مجرد الدخول في علاقة تخاطبية مع الغير وإنما هي الدخول معه فيها على مقتضى الادعاء والاعتراض بمعنى

(1) محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع. ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الجزء الرابع الحجاج والمراس، إعداد وتقديم حافظ إسحاق علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010م ص5.

(2) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنينه وأساليبه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2، 2011م، ص 29.

أن الذي يحدد ماهية الخطاب إنما هو العلاقة الاستدلالية، وليس العلاقة التخاطبية وحدها، فلا خطاب غير حجاج، ولا مخاطب (بكسر الطاء) من غير أن تكون له وظيفة المدعي، ولا مخاطب (بفتح الطاء) من غير أن تكون له وظيفة المعترض⁽¹⁾ وهكذا يُثبت أن كل خطاب لابد أن يبني على حجج يعمل من خلالها المخاطب (المدعي) على إقناع المخاطب واستماتته، ومن حق هذا الأخير (المعترض) معارضة أو مشاطرة الرأي على الأقل وتفهم الغاية واستساعة الأطروحة.

إذن فالخطاب الحجاجي خطاب موجه للتأثير على آراء المخاطب وسلوكياته في قضية أو أطروحة معينة بغية إيضاح الحقائق وتوجيهه صوب الوجهة التي يرتضيها المخاطب ونجاح هذا الأخير في خطابه الحجاجي إنما هو وقف على أمرين:⁽²⁾

✓ طبيعة الحجج التي يأتي بها لدعم أطروحته.

✓ طريقة انتظام الحجج في الخطاب وكيفية عرضها على المخاطب.

وهذا ما يثبت أن الخطاب يستمد قوته من أمرين: البحث عن الحجة كقوة داعمة أو نافية من أجل تحقيق درجة أعلى من الإقناع، وطريقة الانتظام والعرض كقوة مؤكدة للأقوال، فالعلاقة بين الخطاب والحجاج تكمن في أن الخطاب وسيلة الحجاج وهو في آن واحد ممتناه، على اعتبار " أن الحجاج كامن في كل قول وفي كل نص وفي كل خطاب، ولا مفرّ للخطاب من الحجاج، فهذا الأخير يتولّى الاهتمام بربط العلاقات بين الأقوال في الخطاب"⁽³⁾.

وبما أنّ النص متضمن في الخطاب، والحجاج جنس خاص من الخطاب هذه العلاقة تقودنا إلى طرح تساؤل هل نحن أمام نص حجاجي أم خطاب حجاجي؟

نقول: إنّ النص الحجاجي هو ذلك النص الذي يَبُتُّ فيه المُحاجِج (المخاطب) أساليبه عاملاً على إثارة أفكار القارئ التي تتعلق بالموضوع الحجاجي ويكون النصّ بؤرة ومركز تجليات آليات ووسائل الإقناع وعليه نقول نص حجاجي إذا كُتِبَ بصدد إخضاع نص للتحليل ولاكتشاف البنيات والوسائل الحجاجية ونقول خطاب حجاجي بالنظر إلى عناصر الموقف الكلامي والهدف من الخطاب.

(1) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 226.

(2) ينظر: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 2001م، ص 94.

(3) محمد سعيد البقالي، نحو مقاربة حجاجية لغوية للخطاب كتاب " الخطاب والحجاج" لأبي بكر العزاوي أمودجا، ضمن كتاب الحجاج اللغوي، قراءة في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي، تنسيق حسن مسكين، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2017م، ص 131.

وإذا فصلنا بينهما من جانب الوظيفة التواصلية الإقناعية فلا إشكال أن نقول خطاب حجاجي أو نص حجاجي، لأنّ كلاهما ينتج لهدف التأثير على المخاطب، ويُنتجان بقصد من المخاطب في الخطاب ومن الكاتب في النصّ.

بناء على ما سبق، الحجاج يتمظهر في الخطاب، ولا يمكن أن يدرس إلا في مستواه، فالعلاقة الجامعة بينهما هي علاقة الاستلزام، فيستلزم من وجود الحجاج وجود الخطاب؛ فبتضافرهما تتحقق علاقة التكامل للوصول إلى تحقيق نتيجة الإقناع الذي قام من أجله الحجاج وتمت ممارستها في كنف الخطاب.

خلاصة الفصل:

بناء على ما سبق عرضه بالتحليل، لكل من الجهاز المفاهيمي للخطاب والعناصر المشكلة له والفاعلة فيه والمفعلة له التي تضيف عليه الخصوصية التواصلية التفاعلية، ورصد القوانين الواجب توافرها واحترامها التي تكفل تنظيم التفاعل الخطابي وتقنيته وفق منطق التخاطب والاستراتيجية التخاطبية والوسائل اللغوية المعتمدة فيها والتي تتماشى وفق هذا المنطق، توصلنا إلى مجموعة من النتائج أبرزها:

1- جاء الخطاب مساويا للكلام ولكن الكلام ليس بالضرورة خطابا، فالذي يضيف على الكلام صفة الخطاب ويحصر مجاله الدلالي الواسع هو سمة التنداوت وحصول الإفادة.

2- الخطاب وفق المنظور التواصلية يستلزم التنداوت؛ ذات منتجة للخطاب تُعنى بتبليغ الرسالة وذات مستقبلية للخطاب تُعنى بتأويله لحدوث التفاعل ضمن سياق يضمّه فتتولد عنه حركة الخطاب.

3- دراسة الخطاب دراسة واعية تتطلب المعرفة بكل العناصر المشكلة للخطاب والإمام بالسياق لأنه يؤدي دورا فعالا في إمطة اللثام عن معنى وخبايا الخطاب وإجلاء كنهه ومعرفة قصد المخاطب من خطابه، فهو مقياس يساعد لا محالة على فهم الخطاب لذا يتطلب من محله الإمام بكل المعطيات السياقية الخارجية الاجتماعية السياسية والنفسية والثقافية التي تولد في خضمها إنتاج الخطاب.

4- استمرارية الخطاب بين المخاطب والمخاطب ونجاحه يقتضي من كليهما مراعاة قوانين الخطاب المتواضع عليها، والتي تسعى إلى تنظيم وتقنين حدوث التلاقي والتفاعل، الالتزام بهذه القوانين يؤدي إلى بلوغ الغاية والقصد من الخطاب.

5- منطق التخاطب مبدأه المخاطب ومنتهاه المخاطب، فالمخاطب يدخل في علاقة خطابية مع المخاطب ويقوم ببناء مواضيع تفكير تكون مراجع مشتركة تتفاعل فيها النوات وليست رهينة ذاته فقط ولا تتوقف عنده فقط.

6- منطق التخاطب قائم على انتهاج استراتيجية خطابية تكون مُبرمجة مسبقا لإخراج عمل اللغة وتكون هذه الأخيرة مُشبعة بأهداف ومقاصد محددة أنفا.

7- اختيار استراتيجية معينة أو تداخل جميع أنواع الاستراتيجيات في وضعية تواصلية واحدة؛ إنما هو عائد للمخاطب الذي يركز عليه الأمر، فهو بمثابة اللاعب الذي يغير من سلوكه حسب وضعية

اللعب الممكنة، والمنوط باختيار استراتيجيته على حسب عامل المقاصد وعامل السلطة وملاءمتها وفق وضعية الموقف التواصلي.

8- من أبرز أنواع الخطابات الخطاب الحجاجي حيث يهدف المخاطب من خلاله إلى الحجاج بغية إقناع المخاطب بوجهة نظر ما وحمله على تغيير وضعه واستبدال موقفه الأصلي بموقف ثاني يدعو إليه المخاطب.

9- الحجاج شديد الصلة بالخطاب حيث يحاول فيه أحد الطرفين أن يؤثر على الطرف المقابل جنسا من التأثير يوجه به فعله أو يبث لديه اعتقاد أو يميله عنه أو يصنعه له صنعا عن طريق الخطاب فالحجاج لا يتجسد إلا من خلال الخطاب.

10- الحجاج يغطي كل مجالات الخطاب وأنواعه فهو يهدف إلى الإفهام والإقناع، فيعمد إلى دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم.

الفصل الثاني:

الحجاج - بين التأسيس والتأصيل -

1- الحجاج بين المفهوم اللغوي والتأصيل

الاصطلاحي في الفكر البلاغي الغربي

والعربي.

2- الحجاج وعلاقته التباينية وتقاطعاته المصطلحية.

3- بنية الحجاج.

4- السلام الحجاجية.

تمهيد:

بعد عرضنا لمفهوم الخطاب واستجلاء سماته العامة باعتباره الحقل الذي ينشئ فيه الحجاج ويستمد منه حدوده، مرجعياته وخصوصياته التواصلية، نتوقف الآن عند الحجاج ونضبط مفهومه لكونه يشكل ركاباً هائلاً من الكتابات والمرجعيات النظرية، تتجاوزه العديد من المجالات والتخصصات، " إذ نجده متواتراً في الأدبيات الفلسفية والمنطقية والبلاغية...، وفي الدراسات القانونية، والمقاربات اللسانية والنفسانية والخطابية المعاصرة"⁽¹⁾ حيث تسعى كلّها لضم الحجاج إلى مجالاته الخاصة والاستفادة من إمكاناته. وهذا ما جعل الحجاج يُطعم بمفاهيم ووظائف وتنظيرات مختلفة، ما زالت في تجديد مستمر⁽²⁾ لذا سنسعى إلى تحديد أطره وذلك بعرضه عرضاً يجلي سماته وأصالته الضاربة في جذور تاريخ الفكر البلاغي، وتشكلاته وتحققاته، وكيفية اشتغال آلياته المبنية للخطاب.

1- الحجاج بين المفهوم اللغوي والتأصيل الاصطلاحي في الفكرين البلاغي الغربي والعربي:

مما لا شك فيه أنّ التحديد والضبط المفاهيمي والتأصيل الاصطلاحي داخل أي مجال معرفي، يُعدُّ الخطوة الأولى التي تقود الباحث إلى امتلاك مفاتيح العلوم، " فلا يمكننا أن نفهم قيمة الأشياء التي نتحدث عنها قبل أن نستوعب حدها"⁽³⁾ ودقائقها وتفصيلها النظرية التأصيلية وتنشع بها لينعكس ذلك بالإيجاب على الجانب التطبيقي، لذا كان لزاماً علينا بدايةً أن نرسم معالم حدود المفاهيم اللغوية، والتأصيل الاصطلاحي والجوانب النظرية التي سنخوض فيها إجرائياً، وهذا يسمح لنا باستبقاء ما يتماشى وفق منظور دراستنا للمدونة؛ حتى نجعل جوانب البحث جلية واضحة.

قبل التطرق لمفهوم الحجاج لابد من الإشارة إلى أنه من المفاهيم المثيرة للالتباس ويعود ذلك إلى عدة عوامل أهمها⁽⁴⁾:

○ تعدّد مظاهر الحجاج وتنوعها (الحجاج الصريح، الحجاج الضمني...).

(1) محمد طروس، النظرية الحجاجية، من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2005م، ص6.

(2) ينظر: الحبيب أعراب، "الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر استقصاء نظري"، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد01، مجلد 30، سبتمبر 2001م، ص 100.

(3) شيشرون، الجمهورية (كتاب 1، باب 24، فقرة 38) نقلاً عن عبد الرزاق بثور، جدل حول الخطابة والحجاج، الدار العربية للكتاب، تونس، (د.ط)، 2008م، ص21.

(4) ينظر: الحبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ضمن مؤلف الحجاج - مفهومه ومجالاته- دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2010، ج3، ص30.

○ تعدّد استعمالات الحجج وتباين مرجعيّاتها: القضاء، الفلسفة، المنطق، التعليم، السياسة الدين التاريخ.

○ خضوع الحجج في دلالاته لتأويلات متجددة، وطوعية استعمالية.

هذا التعدد والتباين في مرجعيّات الحجج، جعل منه مصطلحا عائما يميّز بالانسيابية؛ مما شكّل في الوقت ذاته صعوبة وثناء تتجاذبه وتنتظر له جميع التخصصات وتشعب المفاهيم وتتداخل المرجعيّات، فما بالك إذا اجتمعت هذه المرجعيّات في لبّ مدوّنة واحدة كمدونة طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد فتتعدّد فيها القراءات والتأويلات المتشابكة مع المرجعيّات لتشكّل صعوبات على دارسها، إذ ينبغي أن يكون مطلعاً وملمّناً بهذه المرجعيّات، ليستطيع فكّ شفرات المدوّنة والتعامل معها ليتمكن من استنطاق مقاصدها.

1-1 المفهوم اللغوي للحجاج:

تجمع المعاجم اللغوية الأساسيّة في تعريفها للحجاج على ما جاء في لسان العرب لابن منظور ونورده فيما يأتي⁽¹⁾:

✓ " حاججته: أي غلبته بالحجج التي أدليت بها.

✓ الحجة البرهان أو ما دفع به الخصم، وجمع الحجّة حُجج وحجاج. ويقال: حاجه محاجة وحجاجا: أي نازعه بالحجة.

✓ الرجل المحجاج هو الرجل الجدل. التّحاجُّ هو التّخاصم.

✓ الاحتجاج، من احتجّ بالشيء أي اتخذ حجة. ويقال: أنا حاججته فأنا محاجة وحججه أي مغالبه بإظهار الحجة".

نلاحظ من خلال هذا التعريف أنّ لفظة الحجج تحمل في مضامينها الدلالية والمعنويّة مغالبة الخصم بالحجج في موقف تنازع وجدل، استدعى الإتيان بحجج من قبل المحاجج وإظهارها للبرهنة على صحّة موقفه الفكري أو السلوكي

ويقابل كلمة الحجج بالعودة إلى الأصول اللاتينية " كلمة (Argument) فهي من الفعل اللاتيني

(arguere) حيث تعني جعل الشيء واضحا، لامعا، ظاهرا. وهي من جذر إغريقي (argues) αργυρ

وبعني أبيض لامع"⁽²⁾.

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1419، 1999م، ج 3، ص 53-54، مادة (حجج).

(2) عبد الرزاق بتور، جدل حول الخطابة والحجاج، ص 27.

فالمعنى اللغوي اللاتيني للحجاج يبين بطريقة مضمرة أنّ الحجج أسهمت في وضوح الفكرة ولمعانها فالتعريف اللاتيني وقف على جوهر الحجاج وجعل الأمر واضحاً.

وفي اللغة الفرنسية تشير لفظة (**argumentation**) التي وردت في قاموس روبر (**Robert**) إلى عدّة معانٍ متقاربة، أبرزها⁽¹⁾:

■ استعمال الحجج.

■ فن استعمال الحجج أو الاعتراض بها في مناقشة ما.

■ مجموعة من الحجج تستهدف تحقيق النتيجة ذاتها.

ولا شك أنّ المعنى اللغوي للحجاج في اللغة الفرنسية لا يختلف جوهره عن معناه في اللغة العربية وذلك لاشتراكهما في المسوغات التي قام من أجلها الحجاج، وهي دفاع المحاجج عن صحة أطروحاته باستخدام حجج لتوضيح ما ذهب إليه وللوصول إلى النتيجة المتبتغة.

أما في اللغة الإنجليزية فتشير لفظة (**Argue**) إلى وجود اختلاف بين طرفين ومحاولة كلّ منهما إقناع الآخر بوجهة نظره، بتقديم الأسباب أو العلل (**Reasons**) التي تكون حجة (**Argument**) مع أو ضدّ فكرة أو رأي أو سلوك ما⁽²⁾.

المتتبع لهذه التحديدات المعجمية للفظّة الحجاج في كل اللغات التي سبق عرضها يجد أنّها لا تخرج في دلالتها عن حمل مضامين مخصوصة مستمدة من سياقها، والمتمثلة في: "التخاصم والتنازع والجدل والغلبة كعمليّات مأخوذة هنا بمعانيها الفكرية والتواصلية"⁽³⁾، لتحقيق نتيجة ذات أثر ملموس في هذا الموقف الفكريّ والتّواصلية يعمد فيه لاستعمال آليات دفاعاً عن صحّة أفكاره ومواقفه.

وهذا التتبع المعجمي يقودنا إلى محاولة تقصي المفهوم اصطلاحياً، والتأصيل له قصد الوقوف على مسار تطوره في الفكر البلاغيّ الغربيّ والعربيّ قديماً وحديثاً.

(1) voir :Le grand Robert, Dictionnaire de la langue française, T.1 ; Paris1989 , p :535.

(2) Longman, Dictionary of Contemporary English, 1989. نقلاً عن هاجر مدقن، الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، دراسة تطبيقية في كتاب (المساكين لـ الرافي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، تخصص الأدب العربي ونقده، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة ورقلة، 2003م، ص15.

(3) الحبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص 32.

1-2- التأسيس الاصطلاحي للحجاج في الفكرين البلاغي الغربي والعربي قديما وحديثا:

سنبداً بالتأسيس الاصطلاحي للحجاج في البلاغة الغربية القديمة، باعتبار المجال الجغرافي الغربي هو المكان الذي احتضن نمو نظريات الحجاج وانتشارها "ومن الطبيعي أن يكون الغرب هو المكان الذي ينمو فيه الحجاج فهذا العلم يحتاج إلى مناخ وبيئة واسعة للحرية. هكذا بدأ الحجاج في بلاد اليونان، عندما انتهى الاستبداد وظهر عصر جديد يستخدم الخطاب في حل قضاياها، مهما تعددت وتعددت، بعيدا عن منطق القوة"⁽¹⁾.

1-2-أ- التأسيس الاصطلاحي للحجاج في الفكر البلاغي الغربي قديما:

✓ عند أرسطو:

ارتبط الحجاج عند أرسطو قديما بفني الجدل والخطابة لما لهما من ممارسة قولية ذات أسلوب حجاجي متميز، وهذا التناسب الذي يعقده أرسطو بينهما يكمن "في كونها معا صناعتين للاستدلال: الخطابة صناعة تكشف عن طرق الاستدلال أمام جمع من الناس (في المحكمة أو في مجلس الشعب أو في تجمع احتفالي) والجدل صناعة تكشف عن طرق الاستدلال أمام مُحاور في قضية كئيبة تعالجُ بواسطة سؤال وجواب"⁽²⁾ تعكس حاجة المجتمع إليهما؛ "لأنهما قدرتان مشتركتان بين جميع الناس تمكّنان من الإدلاء بوجهة نظرهم في أية قضية تكون موضوع خلاف"⁽³⁾، فالتاس يشاركون بدرجات متفاوتة في كليهما ويحاولون نقد قول أو تأييده والدفاع عن أنفسهم أو الشكوى من الآخرين؛ "فنقد قول أو تأييده متعلق بالقدرة على الاستدلال في المنازعة الجدلية، والدفاع عن أنفسهم أو الشكوى من الآخرين تظهر في ممارسة الدفاع والاثم في المحكمة متعلق بالقدرة على ممارسة الاستدلال في الخطابة"⁽⁴⁾.

كما يُنظر للخطابة والجدل على أنّهما " قوتان لإنتاج الحجج"⁽⁵⁾ والوصول بواسطة هذه الحجج التي تمثل " التّوة المفهومية للحجاج"⁽⁶⁾ لإقناع المخاطب بوجهات النظر في أي موضوع كان للتأثير في الموقف الفكري

(1) فيليب بروتون، جيل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، ترجمة: محمد صالح ناجي الغامدي، قسم اللغات الأوروبية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، مركز النشر العلمي، المملكة العربية السعودية، ط1، 2011م، ص10.

(2) الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج، الأصول اليونانية، تقديم محمد العمري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2014م، ص184.

(3) المرجع نفسه، ص184.

(4) المرجع نفسه، ص184-185.

(5) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، ص17.

(6) عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، دراسة نظرية وتطبيقية، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2016م، ص65.

أو الانفعالي الفعلي، وبناء على هذا الاعتبار فالحجاج عند أرسطو لا يخرج عن حجاجين " الأول حجاج جدلي والثاني حجاج خطابي" (1)؛ فقد عرض في كتابه (الطوبيقا) الحجج الجدلي والذي مدار الأمر فيه قائم على "مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد" (2) أي إن "الجدلي أوثق صلة بالأمر الفكرية العقلية" (3) أي يفحص ويتفحص كل ما له علاقة بمضامين الأحكام والقضايا الفكرية ولا دخل "للحجاج الجدلي عند أرسطو بأخلاق القائل ولا استغلال لانفعالات المقول إليه" (4).

في حين إن الحجاج الخطابي من قبيل ما عرض له أرسطو في كتاب الخطابة "هو حجاج موجه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة في مقامات خاصة. والحجاج هنا ليس لغاية التأثير النظري العقلي وإنما يتعداه إلى التأثير العاطفي وإلى إثارة المشاعر والانفعالات" (5)؛ أي إن هذا الحجاج يستغل الأخلاق والطبائع والانفعالات ويسعى لتثبيت الحكم والدفع إلى الفعل، والاختلاف الدقيق بين الحجج الجدلي والخطابي يكمن في أن الحجج الجدلي تقوم حججه على الفحص النظري للأحكام بشكل ذهني مركّز ذي محاور ثنائية، في حين إن الخطابي تستند حججه على الانفعالات والأخلاق لتوجيه فعل جمع من الناس.

وحسب أرسطو يتوسل الخطيب في فن الحجاج الخطابي نوعين من الحجج لتحقيق الإقناع وقسمها قسمين: "حجج غير صناعية أو تصديقات* غير صناعية أو جاهزة، وحجج صناعية أو تصديقات صناعية أو غير جاهزة" (6) "فأما غير الصناعية وسمها بكونها تقع بغير صناعة ولا حيلة" (7) للخطيب فيها أي لا دخل له فيها وإنما تقع بأمور متقدمة سابقة وخارجة على يديه، مثل: "الشهود في القضية، والتعذيب والاتفاقات

(1) محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008م، ص52.

(2) عبد الله صولة، الحجج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص17.

(3) محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجج في البلاغة المعاصرة، ص52.

(4) هشام الربيعي، الحجج عند أرسطو، ضمن مؤلف أهم نظريات الحجج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية- تونس1، كلية الآداب منوبة، مجلد XXXIX، 1998، ص130.

(5) عبد الله صولة، الحجج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص18.

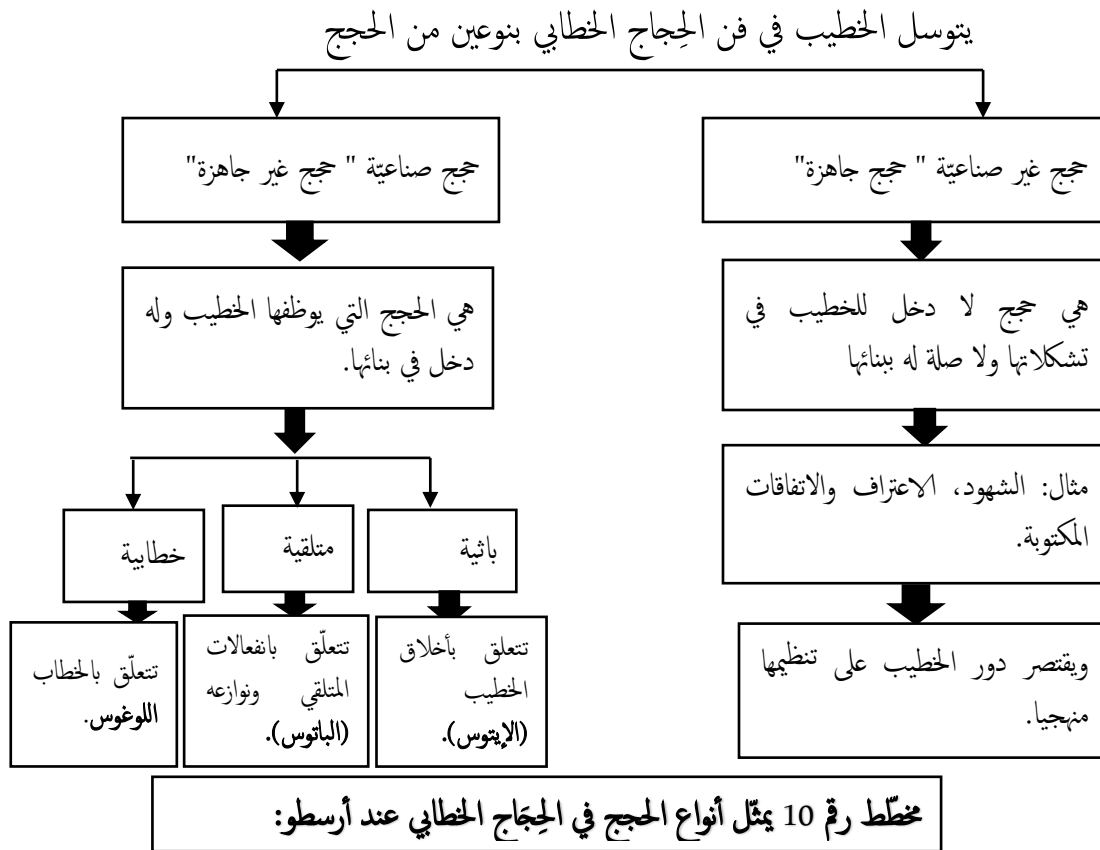
* حجج

(6) عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، دراسة نظرية وتطبيقية، ص66.

(7) عبد الجليل العشراوي، الحجج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012م، ص21.

المكتوبة" (1) أي "أنها حجج لا يُنشئها الخطيب وإنما يجدها جاهزة فيستعملها على أنحاء مختلفة" (2) بحسب مقصده من خطبته وكل ما يستطيع الخطيب إزاءها "هو ترتيبها وإبرازها عن طريق تنظيم منهجي" (3) وأما الحجج والأدلة الصناعية وهي "الحجج التي يوظفها الخطيب، فهي ثلاثة أجناس "باثية وملتقية وخطابية" (4) أي منها ما يتعلق بأخلاق الخطيب (الإيتوس)، ويميل المخاطب ونوازه (الباتوس) وبالخطاب (اللوجوس) أي الجانب العقلي واللغوي الذي يعكسه المحتوى القولي للخطاب، وما فيه من مقومات منطقية ذات رابط تعالقي، تواسنجي، استدلائي؛ وهذا الاستدلال المنطقي الكامن في اللوجوس يشترك فيه كل من الحجج الجدلي والحجاج الخطابي وإن اختلفت درجة قوته وضعفه في كل منهما؛ حيث أن منطق الحجج الخطابي "قد تم تبسيطه عن قصد وتكييفه حسب مستوى الجمهور" (5) على عكس الحجج الجدلي فمنطقة علمي دقيق موجه إلى مخاطب معين.

وبناء على ما سبق يمكن تلخيص أنواع الحجج عند أرسطو وفق المخطط الآتي:



(1) أرسطو طاليس، كتاب الخطابة، ترجمة إبراهيم سلامة، المكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط2، 1953م، ص 84.

(2) عبد الجليل العشراوي، الحجج في الخطابة النبوية، ص 21.

(3) عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، دراسة نظرية وتطبيقية، ص 66.

(4) المرجع نفسه، ص 84.

(5) المرجع نفسه، ص 89.

وتفسيرا لحجة الاقتصار على الفكر البلاغي الأرسطي دون سابقه- زينون الإيلي، والسفسطائيين سقراط، أفلاطون- لكونه ثار على المفاهيم القديمة* وأسس لبلاغة الخطاب الحجاجي الإقناعي تأسيسا شموليا مرنا؛ بإمامه بعناصر الخطاب الحجاجي على أساس أن إنتاج أو تلقي خطابا حجاجيا يقتضي إعداد حجج يتوافق فيها منطق منتج الخطاب (الإيتوس)، مع منطق متلقيه (الباتوس)، فتنوع مصادر حجج الإرث الأرسطي من حجج غير صناعية جاهزة إلى حجج صناعية مبتكرة، تنعكس على محتوى الخطاب اللوغوس وتعرض بشكل منطقي يضمن استمالة المخاطب وإقناعه، أمّا مرونته فتتجلى في قدرته على استيعاب جل الإسهامات الحجاجية الإقناعية البلاغية الغربية والعربية، فهو المرجع الأساس الذي ينهل منه من جاء بعده غربا أو شرقا. ونظرا للتأثر العربي بالطرح الأرسطي سنغني باقتفاء أثر أهم النتاج الحجاجي عند أقطاب الفكر البلاغي العربي القديم وكيف بسطوا مفهوم الحجاج في مصنفاتهم.

1-2-ب التأصيل الاصطلاحي للحجاج في الفكر البلاغي العربي قديما:

لقد ورد مفهوم الحجاج عند العرب قديما " بتسميات مختلفة تعود أساسا إلى منطلقات وتوجهات أصحابها، الذين اهتموا بهذا المجال نظرا لارتباطه الوثيق بالكلام، فقد قسموا الكلام إلى وجوه، وراعوا في ذلك مطابقتها لسياق استعماله، وتناسبه مع متلقيه"⁽¹⁾.

ومن هؤلاء البلاغيين الجهابذة الذين زخرت مصنفاتهم بهذا المجال نذكر:

الجاحظ (ت 255 هـ) في كتابه (البيان والتبيين) الذي أولى للحدث الكلامي فيه مكانة عظيمة، فهو " أول مفكر عربي نقف في تراثه على نظرية متكاملة تقرر أنّ الكلام وهو المظهر العلمي لوجود اللغة المجردة يُنجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعى فيه، بالإضافة إلى التاحية اللغوية المحضة، جملة من العوامل الأخرى كاللّسّام والمقام وظروف المقال، وكلّ ما يقوم بين هذه العناصر غير اللّغوية من روابط"⁽²⁾.

* اتخذ أرسطو من الليسي (le lycée) الذي أسسه بعد وفاة أستاذه أفلاطون فضاء لطرح تصوراتهِ المتحررة من آراء أستاذه، ومن ثم أرسى دعائم فلسفة خاصة به، فقد جعل أرسطو من البلاغة تقنية حجاجية إقناعية وبذلك أخذت بلاغته منحى مختلفا وانفصلت عن كل تلك التي سبقتها سواء بلاغة السفسطائيين، سقراط، أفلاطون- لأنها تقوم على السفسطة والتشكيك والمنهج المغالطي والمناورة الواهمة، واعتماد المثل العليا المطلقة، للتعقّق أكثر ينظر: هشام الربيعي، الحجاج عند أرسطو ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 86 إلى 159، وينظر: فيليب بروتون، جويل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، ترجمة: محمد صالح ناجي الغامدي، قسم اللغات الأوربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، مركز النشر العلمي، المملكة العربية السعودية، ط1، 2011م، ص 28-29، وينظر: جميل حمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، إفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط.)، 2014م، ص 29.

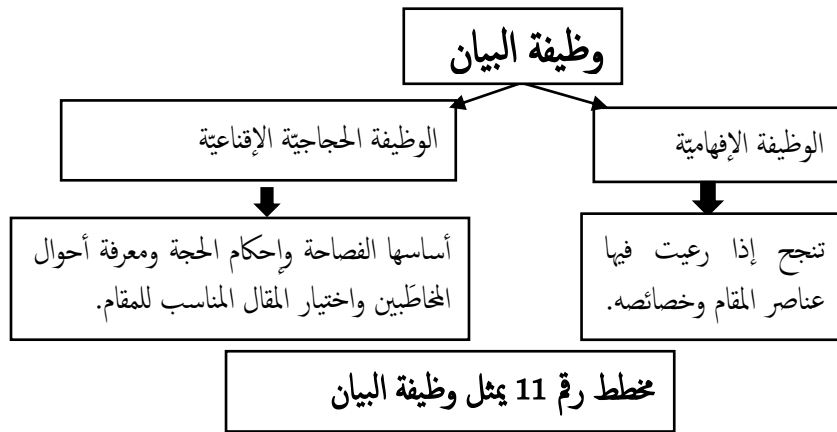
(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 81.

(2) محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 212.

ومن الجدير بالإلماع أنّ الحجاج عنده مطابق للبيان إذ يرى أن "مدار الأمر والغاية التي إليه يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام"⁽¹⁾.

تكتسب بلاغة الجاحظ بعدا توصليا، فالفهم والإفهام مرهون بالدخول في سياقات كلّ من المخاطب والمخاطب فتحقيق التواصل لا يتمّ إلا من وجه الفهم والإفهام، وهذا الأخير يتوقف على استحضار الآخر من جهة واعتبار الوظيفة التواصلية للقول من جهة أخرى "بهدف التقريب من الفهم وإظهار الخفيّ، وحلّ المنعقد وكشف الكامن في الصدور"⁽²⁾.

فالخطاب المبيّن حسب الجاحظ يُسهّل عملية الفهم على المخاطب "فبأي شيء بلغت الإفهام وأوصحتّ عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"⁽³⁾، وبذلك يكون المخاطب ناهض بوظيفة (بيانية) و(تبينية) بالكشف عما في النفس وتوضيحه للمخاطب، ولأجل أن يتحقّق البيان يُنيط الجاحظ السامع ووظيفة التبيين الذي يقتضيه التأمّل في المعنى لفهمه ويجعله شريكا للمخاطب في الفضل، إذ بدونه لا تتحقّق المقاصد التي يرمي إليها المخاطب، ولذلك أولى الجاحظ عناية خاصّة للمخاطب الذي أصبح محدّدا أساسا في العملية البيانية. وعليه ففجر الزاوية ومولد تضافر اللّحمة بين طرفي الخطاب يكمن في مركز البيان عند الجاحظ وهو "الفهم والإفهام، بالوسائل اللّغوية والإشاريّة خاصة، أي كل ما يحقّق الإقناع"⁽⁴⁾، ومنه فالبيان عنده لا يخرج عن معنيين اثنين هما الإفهام والإقناع، وهذا الأخير هو غاية الخطاب إذ به يتحول حياد المخاطب أو معارضته إلى تجاوب، وهذا التجاوب إذا رهين بمدى تحقّق مفهوم البيان الذي تتنازعه وظيفتان، وتفسير ذلك على النحو الآتي⁽⁵⁾



(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 76.

(2) عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، دراسة نظرية وتطبيقية، ص 119.

(3) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 76.

(4) ادريس جبري، سؤال البلاغة في المشروع العلمي لمحمد العمري، نحو بلاغة عامة، ضمن مؤلف البلاغة والخطاب، أبحاث ممددة للدكتور محمد العمري، إعداد وتنسيق محمد مشبال، دار الأمان، الرباط، ط1، 2014م، ص 268.

(5) ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 213.

يوضح المخطط رؤية الجاحظ للبيان من منظور وظيفي يجعل المقام وعناصره وخصائصه ومحدداته الداخلية والخارجية هو المحيط الذي يُنطلق منه لصياغة حجج مُحكّمة لتحقيق الإفهام*. وبهذا لا يخرج البيان عن معنيين اثنين هما الإقناع والإقناع، والسر في اهتمام الرجل بهذا المجال هو التزعة الاعتزالية فقد كانت من وراء تصدّره للدفاع عن العديد من أطروحاته، فانغمس في الإفهام، الجدل، الإقناع والمحاجة وردّ حجج الخصوم كيف لا وهو "رجل محاجة ومناظرة ومتكلم عارف بتصاريف الكلام ووجوه الاحتجاج"⁽¹⁾.

كما نجد ابن وهب (337 هـ) من خلال مُصنّفه (البرهان في وجوه البيان) يعقد مفهوم الحجاج بالجدل والمجادلة، ويبين بتعريف مفصل يكشف فيه عن فهم دقيق للجدل فيقول: "وأما الجدل والمجادلة فهما قول يُقصد به إقامة الحجة فيما أُخْتلِف فيه اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في المذاهب والديانات، وفي الحقوق والخصومات، وفي التسوّل والاعتذارات؛ ويدخل في الشّعر وفي التّثر"⁽²⁾، فالجدل "فيما يفهم من كلام ابن وهب خطاب تعليليّ إقناعيّ... ينبغي للمجيب إن سئل أن يُقنع، وأن يكون إقناعه الإقناع الذي يوجب على السّائل القبول"⁽³⁾ وذلك متوقف على مدى انتهاج المجيب لمسالك الإقناع والتأثير، وظفره بالحجّة أثناء الجدل "فلا يقبل قول أو يرفض إلا بحجّة، وفي هذا ما يؤكّد أنّ تصوره للحجاج أو الجدل في نظره قائم أساساً على الإقناع بالحجج العقلية"⁽⁴⁾.

وعليه فالجدل عنده قائم على إقامة الحجة في موضعها لحلّ الاختلاف والتّزاع بين الأطراف المتجادلة.

وقد قسّم الجدل إلى قسمين وهما:⁽⁵⁾

الجدل المحمود: يُقصد به الحقّ، ويستعمل فيه الصّدق، بغية الوصول إلى الصّواب.

الجدل المذموم: يُراد به المماراة والغلبة، وطلب الرّياء والسمعة، بغية تحقيق الباطل وركوب الهوى.

* إيضاح المعنى القائم في النفس حتى يدركه الآخر.

(1) عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، ص 117.

(2) ابن وهب (أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة عابدين، مصر، (د.ط.)، (د.ت.)، ص 176.

(3) محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الحجاج والمراس، عالم الكتب الحديث، إربد، ط 1، 2010م، ج 4، ص 8.

(4) عبد الله البهلول، الحجاج الجدلي، خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، دار كنوز المعرفة، عمان، ط 1، 2013م ص 143.

(5) ينظر: ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص 177 - 178.

"ومرجع هذا التقسيم الثنائي، فيما صرح به ابن وهب ما ورد في القرآن من آيات ذكر فيها الجدل ومشتقاته ومرادفاته، في معرض التهيء عنه أو الدعوة إليه. وقد جاء في القرآن مدح ما ذكرنا أنه محمود"⁽¹⁾، ومن هذه الآيات قوله عز وجل ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾⁽²⁾، وذم ما ذكرنا أنه مذموم ومنه قوله تعالى ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾⁽³⁾.

وحتى لا يقع المجادل في الجدل المذموم الذي يؤدي العداوة، ويورث الشقاوة "وضع ابن وهب جملة من الشروط الضابطة للجدل تقوم على اعتبار أخلاقي"⁽⁴⁾ تحمل المنضبط بها إلى السمو والرفعة والغلبة، "فإن استعملها المجادل وصل إلى الغاية، وإن لم يستعملها أكثر غلظه واضطرب عليه أمره"⁽⁵⁾ يمكن إجمالها في النقاط الآتية⁽⁶⁾:

- أن يجعل المجادل قصده الحق وبغيته الصواب.
- ألا يجادل ويبحث في الأوقات التي يتغير فيها مزاجه ويخرج عن حد الاعتدال، وأن يتعد عن العصبية لأنها تغلب على مستعملها فتبعده عن الحق وتصده عنه.
- أن يتجنب الضجر وقلة الصبر، لأن عمدة الأمر في استخراج الغوامض وإثارة المعاني الصبر على التأمل والتفكير.
- أن يكون منصفاً غير مكابر، فيطلب الإنصاف من خصمه ويقصده بقوله وحجته.
- ألا يعجب برأيه وما تسوله له نفسه.
- ألا يجيب قبل فراغ السائل من سؤاله ولا يبادر بالجواب قبل تدبره.
- يتجنب الجدل في المواضيع التي يكثر فيها التعصب لخصمه؛ فإنه لا يعدم فيها أحد شيين: إما الغيظ فتقتصر قريحته وإما الحصر فيعيا بحجته، وألا يستصغر وينتقص من شأن خصمه وألا يتهاون به.

(1) عبد الله البهلول، الحجاج الجدلي، خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، ص 142.

(2) سورة النحل، الآية 125.

(3) سورة الكهف، الآية 56.

(4) حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 83.

(5) عبد الله البهلول، الحجاج الجدلي، خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، ص 146.

(6) ينظر: ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص 188 إلى 193. للتعلم أكثر في شرح تفاصيل الجدل وآدابه عند ابن وهب ينظر:

عبد الله البهلول، الحجاج الجدلي، خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، من 141 إلى 158.

● أن يجتهد في تعلّم اللّغة.

فلا غرو إذن أن يكون الجدل عنده خطاباً ذا طابع إقناعيّ تعليليّ يتأسس على إقامة الحجّة لوجود علة؛ فالحجّة عنده هي " الوسيلة المتاحة في تحصيل المعرفة أو تحقيق الاعتقاد في التثبيت أو التّفي وفي تصديق المشتبه أو اكتشاف الباطل" (1)؛ فالتأظر في مشروعه " يجد لفظ الحجّة ومشتقاته الأكثر تواتراً في الجهاز المفاهيمي الذي توسله مما يصح معه أن يسمى بيانه بيان الحجّة" (2) " وقد أجمع العلماء " وذوو العقول من القدماء على تعظيم من أفصح عن حجّته، ويّين عن حقه، واستنقاص من عجز عن إيضاح حقه وقصر عن القيام بحجّته" (3)، وعلى هذا الأساس يكون حسب ابن وهب "قادح الجدل الاختلاف ومحركه الاعتراض ومساره السّليم طلب الحجّة والإقناع بالعقل" (4) وتجنب كل المسالك التي تؤدّي إلى المهالك وذلك بالتقيد بضوابط وقواعد وآداب الجدل.

أما حازم القرطاجني (ت 684هـ) فقد أورد في مصنّفه (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) الحجاج على أنّه وجه من أوجه الكلام، إذ يقول: " لما كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب، إما أن يرد على جهة الإخبار أو الاقتصاص، وإما أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال" (5).

فمشروع حازم البلاغي يقوم على ركيزتين أساسيتين هما: صناعة الشعر وصناعة الخطابة، فالأولى ترتكز على التّخييل في مقابل ارتكاز الثانية على الإقناع، " فإقناع الخصم يكون بإحدى الوسيّلتين: الاحتجاج أو الاستدلال" (6).

غير أنّ حازم يجعله الإقناع خصيصة الخطابة والتّخييل خصيصة للشعر، لم يمانع في وقوع شيء من الإقناع في الشعر أو شيء من التّخييل في الخطابة لأن الغرض في الصناعتين واحد ويكمن في قوله: "هو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحلّ القبول لتتأثر لمقتضاه، فكانت الصناعتان متآخيتين لآجل اتفاق المقصد والغرض فيهما، فلذلك ساع للشاعر أن يخطب لكن في الأقل من كلامه، وللخطيب أن يشعر لكن في الأقل من كلامه" (7).

(1) عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2013م، ص 73.

(2) المرجع نفسه، ص 73.

(3) ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، ص 188.

(4) عبد الله البهلول، الحجاج الجدلي، خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، ص 156.

(5) حازم القرطاجني (أبو الحسن حازم بن محمد الأنصاري القرطاجني)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، (د.ط.)، 1981م، ص 62.

(6) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 84.

(7) أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 361.

وعليه نستشف أن الحجاج عند حازم مرهون ببلوغ القصد للتأثير في الخصم وإقناعه، بغض النظر عن طبيعة بنية الخطاب، ولحدوث الإقناع يستلزم من المخاطب الاستناد في خطابه على إحدى الوسيلتين: الاحتجاج أو الاستدلال.

وعموما ما يمكن استخلاصه من تفحص مفهوم الحجاج في مصنفات كل من جهاذة الفكر البلاغي الغربي والعربي القديم، يُظهر أن الوعي ببلاغة الحجاج في مصنفات التراث العربي أمر لا يمكن إنكاره أو تجاهله بأي وجه كان، ولا سيما لما اكتنفت به هذه المصنفات من بيان و جدل و حجاج وإقناع، تبين مدى توظيفهم للحجاج في مؤلفاتهم، وأنه شكل بنية أساسية متضمنة في إبداعاتهم وإن اختلفت تسمياته، مما جعل لغة صوت العقل تحل محل لغة صليل السيوف هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان الإرث الأرسطي البلاغي الغربي القديم هو الملهم لانبعاث البلاغة من جديد، " فكان مصدرا لظهور آراء واتجاهات عند الغربيين في العصر الحديث" (1) إذ انطلقت منه وطوّرت " سعيا لبناء نظرية حجاجية متكاملة في مجالات تخاطبية متعددة" (2) وهذا ما سيفصل الحديث عنه في العنصر الموالي.

1-2-ج التأصيل الاصطلاحي للحجاج في الفكر البلاغي الغربي حديثا:

تمخض الحجاج عند بيرلمان وتيتيكا (Chaim Perlman et Lucie-Olbrecht Tyteca) عن جهود إعادة النظر في الإرث البلاغي اليوناني الأرسطي القديم وقراءاته قراءة جديدة، ميلاد بلاغة جديدة وتُعرّف بأنّها: " نظرية الحجاج التي تهدف إلى دراسة التقنيات الخطابية، وتسعى إلى كسب العقول وإثارة النفوس، عبر عرض الحجج" (3).

وعبر العنوان الفرعي "البلاغة الجديدة، لشايم بيرلمان (Chaim Perlman) ولوسي أولبريخت تيتيكا (Lucie- Olbrechts-Tyteca) الذي يروم جعل البلاغة علما مستقبليا هدفه تطوير المجتمع وتحليل الخطابات بالوقوف على خطتها الحجاجية المتأسسة عليها، التي تستمد خصائصها وسماها من الحقل الذي تتحقق فيه ويمنحها الشرعية؛ هذا الحقل يمّس الحياة من قيم وفكر وتفكير من أبسط درجاته إلى أكثرها تعقيدا (4).

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلياته ودمنة لابن المقفع، ص 90.

(2) المرجع نفسه، ص 90.

(3) صابر الجباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، سورية، دمشق، (د.ط.)، 2008م، ص 15.

(4) ينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 102.

فالبلاغة الجديدة لم تعد تهتم بالتنسيق اللفظي، بقدر ما أصبحت تهتم بالمضمون الفكري والبحث في الوسائل التي تجعل منه قوة تأثيرية، والغاية التي يرمي إليها الكتاب إخراج الحجاج من دائرة الخطابة والجدل وإبعاده عن تهمة المغالطة والمناورة، وتخليصه من صرامة الاستدلال وجعل قوامه المعقوليّة والحريّة. وبهذا ظهر الحجاج بصيغة جديدة في البلاغة الجديدة⁽¹⁾، ويمكن التمثيل لأفكارها التي أحدثت ثورة في الحجاج وفق الجدول الآتي:

تخليص الحجاج من:	الحجاج عندهما قائم:
الشكل والتنسيق والتزويق اللفظي، وتزيين الخطاب وتوشيته.	على إعطائه بعدا وظيفيا يؤهله للتغيير، فلا يقتصر على الأبعاد الجمالية فحسب، بل يتعداه أو بالأصح يولي الاهتمام بالمضمون الفكري، والبحث في الآليات التي تجعل منه قوة تأثيرية.
المغالطة والمناورة والتلاعب بالمشاعر والعقول، والدفع إلى القبول باعتبارية الأحكام ولا معقوليتها.	المعقوليّة والحريّة في التسليم بالآراء واستبعاد الاعتباطية في الأحكام واللامعقوليّة.
صرامة الاستدلال الذي يضع المخاطب في وضعيّة خضوع واستلاب.	الحوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف، وإبعاده عن لغة الإلزامية والتعصب.

جدول رقم 02 يوضح الأفكار التي قام عليها الحجاج عند كل من برلمان وتيتيكاه:

فالمؤلفان في البلاغة الجديدة " لم يعد يعنهما تكوين خطاب مقوّه (دراسة الخطاب المنطوق أمام حشد من الجمهور)، وإنما يعنيه فهم ميكانيزم التفكير، مما يعني قصد التّحول من مرحلة إنتاج خطابة رنانة تطرب لها الآذان وتتصدّع لها القلوب، إلى مرحلة تحليل خطابة مفكرة ومعللة ومبرهنة تميل إليها العقول فيستجيب لها السلوك"⁽²⁾؛ وما يعنهما هو بناء عالم منطقي متمكّن من آلية التفكير مستبعبدين لغة التنسيق والمغالطة وغير معتمدين على الفصاحة فقط.

لذا يُعرّفان الحجاج انطلاقاً من موضوعه وغايته:

(1) ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته من خلال " مصنف في الحجاج - الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه، ضمن مؤلف أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، ص 298.

(2) جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ط)، (د.ت)، ص 116.

فالتعريف الأول ينطلق من موضوع "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"⁽¹⁾؛ بمعنى "دراسة التقنيات الخطابية التي تمكّن من حثّ العقول على قبول الأطروحات التي تُعرض عليها للتصديق، أو تعزيز قبولها لها"⁽²⁾، أمّا الثاني يعتمد على الغاية فـ "غاية كلّ حجج أن يجعل العقول تُدعن لما يُطرح عليها أو يزيد في درجة ذلك الإذعان، فأجمع الحجج ما وُفق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه)، أو هو ما وُفق على الأقل في جعل السامعين مهيين لذلك العمل في اللحظة المناسبة"⁽³⁾، فهذا التعريف الذي قدمه كل من بيرلمان (Perlman) وتيتيكا (Tyteca) هو "تعريف بالغاية finalité والهدف but لا بالفن والتقنية"⁽⁴⁾ إلا أنّ امتلاك مهارتي الفن والتقنية يوصل بسهولة إلى تحقيق الهدف؛ فالتّمكّن من تقنية اختيار الحجج وعرضها في اللحظة المناسبة من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التسليم، وهو ما تَصَمَّنَه تعريفها الأول.

إنّ تكمن غاية الحجج في جعل العقل يدعن لما يُطرح عليه من قضايا فكرية، تزيد في درجة ذلك الإذعان إلى مستوى يبعث على العمل المطلوب وتحقيق الأهداف المبتغاة من خلال "درس التقنيات الخطابية الهادفة إلى إثارة الأذهان"⁽⁵⁾ وعلاقتها بغايته الحاجية التأثيرية؛ بمعنى أدقّ دراسة التقنيات الهادفة "إلى التأثير في الفرد في كليته، في عقله وسلوكه، وتؤدّي إلى نتائج عملية، إذ تدفع الفرد المتلقّي إلى القيام بسلوك محدّد أو الخضوع لسلوك غيره"⁽⁶⁾، وهذا ما يجعل الحجج عندهما قائماً على الربط بين التقنية والغاية، وقد أولى تحديدهما للحجج مكانة مميزة للإقناع "بأن جعل منه لبّ العملية الحاجية، كما اعتبره أثراً مستقبلياً يتحقق بعد التلطف بالخطاب لينتج القرار بممارسة عمل معين أو اتخاذ موقف سواء بالإقدام أو بالإحجام"⁽⁷⁾.

(1) Chaim Perlman et Lucie-OLbrechts- Tyteca, Traité de l' argumentation, 5 émé édition, Editions de l'université de Bruxelles 1992, p5.

(2) ليونيل بلنجر، الآليات الحجاجية للتواصل، ترجمة عبد الرفيق بوري، تقديم حافظ إساعيل علوي، ضمن مؤلف الحجج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010م، ج 5، ص 97.

(3) Chaim Perlman et Lucie-OLbrechts- Tyteca, Traité de l' argumentation op. cit.,5° éd.,p.59.

(4) عزّ الدين التاج، تداولية الضمني والحجاج، بين تحليل الملفوظ وتحليل الخطاب: بحوث ومحاولات، تقديم المنصف عاشور، مركز النشر الجامعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، (د.ط.)، 2015م، ص 24.

(5) محمد طروس، النظرية الحجاجية، من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص 44.

(6) المرجع نفسه، ص 45.

(7) عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، ص 158.

ولكن ليس المراد بالإقناع عندهما هو الإقناع الفكري الخالص؛ بمعنى تقبل العقل لما يُطرح عليه فقط بل الإقناع عندهما يهدف إلى الحث على الفعل أو الاستعداد له "وهذا ما يجعل وجهة الحجاج مستقبلية"⁽¹⁾ وتُجسد ذلك المدونة المدروسة للكواكبي لما تتمتع به من وجهة حجاجية ورؤية استشرافية للمستقبل.

كما يستند مفهوم الحجاج عندهما على الجدل والخطابة معا، "أي إلى صناعة الجدل من ناحية وصناعة الخطابة من ناحية أخرى، بكيفية تجعل الحجاج شيئا ثالثا لا هو بالجدل ولا هو بالخطابة لنقل معها إنه "خطابة جديدة"⁽²⁾، فأما أثر الجدل يكمن في التأثير الذهني في المخاطب وإذعانه لما يعرض عليه إذعانا نظريا مجردا، وأما الخطابة فتظهر من خلال إلحاحها على فكرة توجيه العمل والدفع إليه. وتكمن طرافة مفهوم الحجاج عند برلمان (Perlman) وتيتيكا (Tyteca) في جعل الجدل يخدم الخطابة، فهي غايته "فهو لها عماد وهي له امتداد"⁽³⁾، و على عكس ما عقده أرسطو في مصنفه الطويقا والخطابة اللذان كرسا فيهما التمييز التقليدي بين التأثير في الذهن (أي نظريا) وهذا هو موضوع الجدل، وبين التأثير في الإرادة (أي عمليا) وهذا هو موضوع الخطابة"⁽⁴⁾، وبوضعه للمصنفين يكون قد كرس لنظرية ثنائية تمييزية قائمة على التضاد في مفهوم الحجاج، ويرى برلمان (Perlman) وتيتيكا (Tyteca) أنّ هذه النظرية التمييزية بين التأثيرين الذهني والإرادي "تؤدي إلى تمييز مغلوط"⁽⁵⁾ يكمن وجه الغلط "في تصور الإنسان مركبا من ملكات بعضها منفصل عن بعض انفصالا تاما، العقل من ناحية والهوى من ناحية أخرى"⁽⁶⁾ وهذا التصور البلاغي القديم جعل من الإنسان مزيجا من القدرات المنفصلة عن بعضها البعض.

وقية تعريف برلمان (Perlman) وتيتيكا (Tyteca) للحجاج تكمن في القضاء على هذه الثنائية فعندهما كما هو واضح في التعريف الثاني أعلاه الذي عرّفاه انطلاقا من غايته- أنّ العمل الحاصل بواسطة الحجاج على صعيد العقل وهو عمل التأثير النظري والإذعان والتسليم (وهو غاية الجدل عادة) مؤد إلى العمل السلوكي وهو (غاية الخطابة)، وهكذا تكون قوى الإنسان من عقل وهوى متضامنة متفاعلة لا قوى منعزلاً بعضها عن

(1) محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 110.

(2) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 28.

(3) المرجع نفسه، ص 28.

(4) عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، ص 303.

(5) المرجع نفسه، ص 303.

(6) المرجع نفسه، ص 303.

بعض⁽¹⁾، "وهو ما يدعمه قولها منذ فاتحة كتابها بأنّ حجاجها أو خطابها الجديدة مرتبطة بالجدل والخطابة عند اليونان ولكنه ارتباط تجاوز الاتباع إلى الإبداع"⁽²⁾.

وبناء على ما سبق، يرى المؤلفان أن الحجاج غاية "إحداث التأثير العملي (Effets pratiques) الذي يمهّد له التأثير الذهني"⁽³⁾ فهما كل متكامل لا انفصال بينهما.

ويتميز الحجاج عند كل من بيرلمان وتيتيكاها بخمسة ملامح رئيسية⁽⁴⁾:

- 1- أن يتوجّه إلى مستمع.
- 2- أن يعبر عنه بلغة طبيعية.
- 3- مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.
- 4- لا يفترق تقدمه - تناميّه - إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.
- 5- ليست نتائجه ملزمة.

وفي إطار اهتمام الحجاج بالتواصل تم عرض نظرية بيرلمان (Perlman) وتيتيكاها (Tyteca) لأنها النظرية الأمثل التي تولي اهتماما كبيرا بعناصر التفاعل الخطابي الحجاجي، بغية بناء نموذج نظري قادر على توصيف الآليات الحجاجية المبنية للخطاب، وهو ما سيلقى اهتماما في الجانب التطبيقي، وذلك باستقراء انعكاسات الحجاج في كنف هذه النظرية، حيث تتضافر العناصر وتتفاعل ويتولد عن مصدرها الخطاب الحجاجي.

ومن خلال تقصي مبادئ النظرية البيرلمانية بالقراءة والتدقيق لما سبق يتبين أن الأطر الحجاجية عند بيرلمان (Perlman) وتيتيكاها (Tyteca) - تمثل في العلاقات الثنائية القائمة بين الحجاج والبلاغة، الحجاج والاستدلال، الحجاج والخطابة، ثم الحجاج والجدل، وذلك في إطار عملية إقامة الدليل والبحث عن آليات حصول الاقتناع بالتحرك من أجل إنجاز الفعل المقصود مما نتج عن ذلك تباينات وتقاطعات مصطلحية.

(1) ينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 29.

(2) المرجع نفسه، ص 29.

(3) المرجع نفسه، ص 303.

(4) محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 108.

خالف كل من أنسكومبر (Anscombre) وديكرو (Ducrot) الطرح الذي قدمه كل من شايم بيرلمان وتيتيكا، وعدّا الحجج بنية لغوية؛ في نظريتهما* وقد تحدثا عن ذلك في مؤلفهما المشترك، الحجج في اللغة «Largumentation dans la langue» فالحجج عندهما "كامن من حيث بنيته في اللغة ذاتها كما دل عنوان كتابهما لا فيما يمكن أن ينطوي عليه الخطاب من بني شبه منطقية أو شكلية أو رياضية" (1) كما سيفصل في مبحث أنواع الحجج عند برلمان وتيتيكا .

من هذا المنطلق أولت هذه النظرية اهتماما كبيرا بدور اللغة -بوصفها نظاما دالا- في الحجج؛ فقد بين أنسكومبر (Anscombre) وديكرو (Ducrot) أن اللغة حجاجية في ذاتها ولا تحمل فقط معلومات وتعبرا "ولكن تحتوي في نفسها وبصرف النظر عن استعمالها في السياق على عناصر حجاجية بحتة" (2)، وهي موجودة في اللغة وليست نتيجة عن تفاعل العناصر الخطابية التداولية والسيانطيقية وتكمن في مستوى بنية اللغة، وتؤدي دورا توصليا انطلاقا من بنية اللغة في حد ذاتها، فتواصلية وحجاجية عناصرها محتواة في بنيتها بمعنى "إن الباحثين درس الحجج في نطاق دراسة اللغة لا في البحث عما هو واقع خارجها" (3).

والحجج عندهما يكون "بتقديم المتكلم قولا (ق1) يفضي إلى التسليم بقول آخر (ق2)، إن القول الأول (ق1) يمثل حجة ينبغي أن تؤدي إلى ظهور القول (ق2)، ويكون القول الثاني (ق2) هذا قولا صريحا أو ضميا، إذن فالحجج عند أنسكومبر (Anscombre) وديكرو (Ducrot) هو إنجاز لعملين هما عمل التصريح بالحجة من ناحية وعمل الاستنتاج من ناحية أخرى، سواء كانت النتيجة مصرّحا بها أو مفهومة من القول الأول (ق1)" (4)

ومثال ذلك: الحجج جميل، فلنخرج للترهة
ق1 ق2

* هذه النظرية وضع أساسها كل من أوزفالد ديكرو وأنسكومبر منذ سنة 1973م، وهي نظرية تهتم بالوسائل اللغوية وإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوفر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجمه ما، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية، ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006م، ص 14.
(1) عبد الله صولة، الحجج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص33.
(2) كورنيليا فون راد-صكوحى، الحجج في المقام المدرسي، تحت إشراف فريق البحث في البلاغة والحجج برئاسة حمادي صمود وحدة البحث في تحليل الخطاب، منشورات كلية الآداب منوية، (د.ط)، 2003م، ص 32.
(3) أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجج، الأحمديّة للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2007م، ص 9.
(4) عبد الله صولة، الحجج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص33.

إذا نظرنا في هذه الجملة سنجد أنها تتكون من القول الأول (ق1) والمتمثل في (الجو جميل) الذي يمثل حجة تم تقديمها لتؤدي إلى نتيجة مسطرة ومقصودة أنفاً، والتي تتجسد في القول الثاني (الخروج إلى التنزه). إذن "جمال الجو يدعو ويدفع إلى التنزه، ويعتمده المتكلم لإقناع مخاطبه بضرورة الخروج إلى التنزه... فالتكلم يقدم هذا العنصر باعتباره حجة ودليلاً لصالح النتيجة المقصودة"⁽¹⁾. ثم يضيفان على "أنه بالإمكان أن يكون (ق2) هو النتيجة ضمنياً لكن بشرط أن يكون التوصل إلى هذه النتيجة سهلاً يسيراً والمثال على ذلك هذا الحوار:

- هل ترغب في مرافقتي لشاهد هذا الشريط السينمائي؟
- لقد شاهدته.

حيث يكون الجواب بـ لقد شاهدته دليلاً موصولاً إلى الجواب [الضمني] بـ لا⁽²⁾ هذه النتيجة الضمنية يستنتجها المخاطب "اعتماداً على سياق الخطاب"⁽³⁾، إذن الحجة قد تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق والشئ نفسه بالنسبة للنتيجة والرابط الحجاجي الذي يربط بينهما ويمكن أن نبين هذا على الشكل الآتي⁽⁴⁾:

- ✓ أنا متعب، إذن بحاجة إلى الراحة.
- ✓ أنا متعب، أنا بحاجة إلى الراحة.
- ✓ أنا متعب.
- ✓ أنا بحاجة إلى الراحة.

فإذا قارنا بين هذه الأقوال سنجد أنه تم التصريح بالحجة والرابط والنتيجة في المثال الأول وأضمر الرابط في المثال الثاني، أما المثال الثالث فلم يصرح فيه إلا بالحجة، والنتيجة مضمرة يتم استنتاجها من السياق، ونجد عكس ذلك في المثال الرابع حيث ذكرت النتيجة وأضمرت الحجة.

(1) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 18.

(2) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 34.

(3) حمدي منصور جودي، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفع، ص 92.

(4) ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 18.

إذن "الحجج عندهم هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثل الحجج في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي تستنتج منها"⁽¹⁾.

ومما سبق، بين أصحاب هذه النظرية أن الهدف من إنتاج هذه الأقوال والحجج هو تقديم نتيجة معينة دون غيرها بقصد "التوجيه، إذ يرى أن غاية الخطاب الحججي تتمثل في أن تفرض على المخاطب نمطا من النتائج باعتباره الوجهة الوحيدة التي يمكن للمخاطب أن يسير فيه"⁽²⁾.

وقد أقرّوا "بسلطة الخطاب الحججي فهو خطاب يسد المنافذ على أي حجاج مضادّ فيحرص على توجيه المتلقي إلى وجهة واحدة دون سواها"⁽³⁾ وبذلك ننتهي إلى ميزتين أساسيتين تميّزان هذه النظرية وهما التأكيد على الوظيفة الحججية للبنى اللغوية وإبراز سمة الخطاب التوجيهية، ودليل ذلك ترابط الأقوال يعكسه "ترابط حججي لأنه مسجل في أبنية اللغة بصفته علاقات توجيه القول وجهة دون أخرى وتفرض ربطه بقول دون آخر"⁽⁴⁾، والوظيفة الحججية عندهم تكمن في التأثير الموجه "فحينما نتكلّم إنما نروم، في العادة، التأثير في هذا السامع أو مواساته أو إقناعه أو جعله يأتي عملا ما، أو إزعاجه أو إحراجه وغير ذلك"⁽⁵⁾، وكل هذه العمليات اللغوية "تحمل بصفة ذاتية وجوهية (وظيفة حجاجية)؛ أي إن هذه الوظيفة مؤشّر لها في بنية الأقوال نفسها"⁽⁶⁾ التي تتابع لتنتج تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب ليحدث من خلالها التأثير الموجه للحجاج.

ويستخلص من فحوى الحجج عند كل من أنسكومبر (Anscombre) وديكرو (Ducrot):

✓ إنّ الحجج قائم في جوهر اللغة ومسجل في أبنيتها الذاتية، وهذا ما ترتب عنه استبعاد كل ما هو خارج عن نظام اللغة وهذه الأخيرة تحيل على ذاتها فتعكس عملية قولها بحيث يكون معنى القول هو: "ما ينقله من وصف وتمثيل لعملية قول ذلك القول"⁽⁷⁾.

✓ النتيجة الضمنية يستنتجها المخاطب اعتمادا على سياق بنية الأقوال اللغوية.

(1) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 16.

(2) سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه، ص 23.

(3) المرجع نفسه، ص 24.

(4) شكري المبخوت، نظرية الحجج في اللغة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 352.

(5) عبد الله صولة، الحجج في القرآن، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 36.

(6) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 8.

(7) شكري المبخوت، نظرية الحجج في اللغة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 352.

من خلال العرض التأصيلي لمفهوم الحجاج عند أقطاب الفكر البلاغي الغربي الحديث، يظهر تباين وتنوع في المنطلقات والأسس التي تقوم عليها كل نظرية. هذا الاختلاف جعل مفهوم الحجاج متعدد الرؤى والارتباطات العلائقية، نتج عنها تباينات وتقاطعات مصطلحية ثنائية بين الحجاج والبلاغة، الحجاج والاستدلال، الحجاج والخطابة، الحجاج والجدل، لذا سنغنى بالبحث في الفروق الجوهرية بين هذه العلاقات الثنائية التي أفرد لها مبحث خاص معقود على الحجاج وعلاقته التباينية وتقاطعاته المصطلحية.

بعد تقصي مفهوم الحجاج في الفكر البلاغي الغربي الحديث سنغنى باقتفاء مفهومه في مصنفات أقطاب الفكر العربي الحديث في المبحث الآتي:

1-2-3- التأصيل الاصطلاحي للحجاج في الفكر البلاغي العربي حديثاً:

تميّز الفكر العربي بآراء مختلفة بين العلماء والباحثين حول مفهوم الحجاج، وهذا الاختلاف راجع لتوجهات ومنطلقات كل باحث في هذا الشأن، والبارز في ذلك ثلاث اتجاهات: أولها فلسفي يمثله طه عبد الرحمن وثانيها بلاغي خطابي يمثله محمد العمري، وثالثها لغوي يمثله أبو بكر الغزاوي⁽¹⁾.

تفردت نظرة طه عبد الرحمن للحجاج بطابع فلسفي منطقي، فقد عقد باباً في كتابه اللسان والميزان وسمه بالخطاب والحجاج وتتجلى نظريته في أن "الأصل في تكوثر الخطاب هو صفة الحجاجية، بناء على أنه لا خطاب بغير حجاج"⁽²⁾، "ومفهوم التكوثر عند طه عبد الرحمن فعل مرتبط بمقاصد الخطاب"⁽³⁾ التي يوجهها طرفاً الخطاب والبارز فيها قصدان هما قصد الادعاء وقصد الاعتراض؛ وكل طرف منوط بقصد فأما قصد الادعاء فهو "الاعتقاد الصريح للخطاب لما يقول من نفسه وتام الاستعداد لإقامة الدليل عليه عند الضرورة إذن فالمدعي هو عبارة عن المخاطب الذي ينهض بواجب الاستدلال على قوله"⁽⁴⁾، وأما قصد الاعتراض فهو منوط "بالمخاطب الذي ينهض بواجب المطالبة بالدليل على قول المدعي"⁽⁵⁾.

وبناء على هذين القصدتين في الخطاب يتبلور مفهوم الحجاج عند طه عبد الرحمن فقد عزّفه انطلاقاً من هذين المبدأين إذ يقول: "حد الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"⁽⁶⁾ فالمخاطب مطالب بإقامة الدليل والحجة في خطابه ليبرر صحته دعواه، وأما المخاطب فله

(1) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 84.

(2) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 213.

(3) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 84.

(4) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 226.

(5) المرجع نفسه، ص 226.

(6) المرجع نفسه، ص 226.

الحق في الاعتراض على ما يتأسس عليه حجج المخاطب لقبول دعواه⁽¹⁾، وامتناع المخاطب عن حقه في الاعتراض " يجعله إمّا دائم التسليم بما يدّعيه المخاطب، فلا سبيل إلى تمحيص دعاويه، وإما عديم المشاركة في مدار الكلام"⁽²⁾، فالاعتراض إذا أبداه المخاطب يستفز الناطق (المخاطب) للتدليل أكثر على صحة منطوقه. و"بين هذين القصدتين (الادعاء والاعتراض) ينشأ حوار بين طرفي الخطاب، وهو من أهم خصائص الحجاج عند طه عبد الرحمن"⁽³⁾؛ وقد أولى عناية بالمنهج الكلامي في ممارسة الحوار من زاوية نظرية الحجاج والمنطق الحواري الحديث في كتابه أصول الحوار وتجديد علم الكلام⁽⁴⁾.

هذا وقد استعرض في كتابه اللسان والميزان أنواع الحجج وأصنافها وركز على السلم الحجاجي بوصفه عمدة في الحجاج⁽⁵⁾.

هذا الاتجاه الأول يعكس الرؤية الفلسفية التي يمثّلها طه عبد الرحمان ويظهر ذلك جلياً في مصنّفاته التي زخرت بالكثير من الآراء العقلية المنطقية التي مكنته من أن يكون مرجعاً للكثير من الدارسين للحججاج، وبهذا تصدرت مؤلفاته الموقع الأهم على خريطة الدراسات الحجاجية العربية.

أما الاتجاه الثاني فتجسد في المشروع البلاغي الخطابي الذي شيّدته محمد العمري مزواجا بين التراث والحداثة فمنطلقاته "مستمدّة من الفكر الأرسطي لبلاغة الخطاب"⁽⁶⁾ وبلاغة الجاحظ، وارتكز عليهما لبناء صرح بلاغي حدائثي جديد؛ فهو بهذا يبشّر عصيانه أمام التراثيين الكسالي والحداثيين على حد سواء ويقطع بذلك خرافة الانفصال بين التراث والحداثة، يقول محمد العمري "مادام أنه لا يمكن أن نقرأ القديم إلا من خلال أسئلة عصر القراءة، أي العصر الحديث، ولا يكتمل فهم الظواهر الإنسانية الحديثة إلا بمعرفة أصولها وارهاساتها القديمة والعقل هو المحك، وهذا لا يقبله من حرّمهم الله من نعمته، فأين توجد القطيعة في الدرس البلاغي؟ البلاغة الجديدة هي بلاغة أرسطو والجاحظ"⁽⁷⁾.

(1) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 85.

(2) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 226.

(3) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 85.

(4) ينظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000، ورقة الغلاف الخارجي الخلفي.

(5) أمينة رقيق، بلاغة الخطاب المكتوب، دراسة لتقنيات الحرف واللون والصورة في خطاب الدعاية التجارية، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علوم اللسان العربي، إشراف الأستاذ الدكتور محمد خان، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكرة 2013، ص 93. للتعمق في فهم القضايا ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 254-277-304.

(6) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 86.

(7) محمد العمري، أسئلة البلاغة، في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 2013، ص 283.

إذن البلاغة الجديدة لمحمد العمري تزوج بين التراث والحداثة؛ ومن ثمراته الطيبة المبكرة كتاب بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجاً، "ركز فيه الباحث على البعد الحجاجي للخطابة العربية، استلهاماً لتنظيرات أرسطو وبيلمان الخطابية، وبيان الجاحظ"⁽¹⁾، فالبعد الحجاجي عنده يتجلى في الإقناع الذي هو غاية الخطاب البلاغي، فحد البلاغة عنده هي "علم الخطاب الاحتمالي الهادف إلى التأثير والإقناع"⁽²⁾.

ويمثل الاتجاه الثالث رائد الدراسات الحجاجية اللغوية أبو بكر العزاوي، بحكم تتلمذه على يد أوزفالد ديكرود* و"إنجاز أطروحة متميزة باللغة الفرنسية، تعد من الأطاريح الرائدة في الحجاج اللغوي بإشراف العالم اللغوي أوزفالد ديكرود"⁽³⁾ واطلاعه الواسع على النظريات الغربية التي انعكست على اسهاماته الحجاجية دون تقليد ويظهر ذلك جلياً في دراساته ومؤلفاته ومنها: اللغة والحجاج، الخطاب والحجاج حوار حول الحجاج... "فمدخله للدراسات الحجاجية ليس المنظور المنطقي والفلسفي أو المنظور البلاغي بل نظرية الحجاج في اللغة التي اقترحها وطورها أوزفالد ديكرود"⁽⁴⁾، والتزم بها في إطار مشاريعه المنجزة وحاول تطويرها تطبيقياً. ويعدّ كتابه اللغة والحجاج، الخطاب والحجاج لبنتين هامتين في صرح نظرية الحجاج اللغوي لما لهما من أسس معرفية وتصورات منهجية سنغني بتقديم إطلالة على مضمونها.

كتابه الأول اللغة والحجاج جاءت فصوله الأربعة موضحة لخصيصة العنوان ودراسة علاقة اللغة بالحجاج فقد أفرد فصله الأول للتعريف بمفاهيم مركزية في نظريته؛ وهذا " إجراء إبستمولوجي يتوخى منه إثبات الحصيلة المعرفية الخاصة بهذا الحقل وتعميق الجهاز المفاهيمي الذي يتم الاشتغال وفقه ضمن دائرة الحجاج في

(1) ادريس جبري، سؤال البلاغة في المشروع العلمي لمحمد العمري نحو بلاغة عامة، ص 277.

(2) محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 2005، ص 6.

* أوزفالد ديكرود بالفرنسية (Oswald Ducrot)؛ ولد عام 1930، لساني فرنسي وأحد أبرز المساهمين في الدراسات المتعلقة بالتداوليات والتلفظ ونظرية الحجاج.

(3) حسن مسكين، الدكتور أبو بكر العزاوي، رائد الحجاج اللغوي في العالم العربي، ضمن مؤلف الحجاج اللغوي، قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي، تنسيق حسن مسكين، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2017م، ص5.

(4) عبد اللطيف عادل، المشروع الحجاجي للدكتور أبي بكر العزاوي، ضمن مؤلف الحجاج اللغوي، قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي، تنسيق حسن مسكين، ص65-66.

اللغة أولاً، وضمن الحجاج في الخطاب ثانياً⁽¹⁾، وحاول الإحاطة بـ "الحجة، النتيجة، الروابط والعوامل الحجاجية، التوجيه، السلم الحجاجي"⁽²⁾.

وقدم في الفصل الثاني دراسة دقيقة لنماذج من الروابط الحجاجية منها (بل، لكن، حتى) لكثرة ورودها واستعمالها في الخطاب العادي؛ هادفاً إلى إبراز جوانب من استعمالها الحجاجية، وخصص الفصل الثالث للحديث عن الاستعارة والحجاج هادفاً إلى مقارنتها من منظور حجاجي، وأثار في الفصل الرابع موضوع سلطة الخطاب وربطها بقوة الكلمات⁽³⁾.

أما في كتابه الخطاب والحجاج، فقد انتقل بالحجاج من مستوى حجاجية الأقوال والجمل إلى حجاجية الخطابات المختلفة؛ وبذلك يعتبر الكتاب "لبنة أساسية في الدراسات الحجاجية وإضافة نوعية انتقلت من حجاجية الجملة إلى حجاجية الخطاب بما هو المجال الرحب للحجاج"⁽⁴⁾ وبوصفه المحضن الذي يشمل طرائق اشتغاله وتظهر فيه وجوه استعماله⁽⁵⁾، وغايته من كتابه "تطوير النظرية الحجاجية وتوسيع مجال تطبيقها ليشمل مختلف التصوص الدينية والأدبية والسياسية والتاريخية والصحفية والإشهارية"⁽⁶⁾.

وحرى بنا أن نومي إلى تمكّنه من عبور مستوى التنظير إلى التطبيق واستنبات نظرية الحجاج للغة الأوزفالدية في اللغة العربية واستطاع التفوق في بيان أهمية التحليل الحجاجي للخطابات بمختلف أنواعها "عاملاً على توسيع مجال النظرية الحجاجية وتطويرها عمماً وقفت عنده مع أستاذه أوزفالد ديكر"⁽⁷⁾ بتطبيقها إجرائياً على أربعة نماذج هي الخطاب القرآني، الخطاب الشعري، الخطاب المثلي، والخطاب الإشهاري. توصل من خلال مقارنته لهذه الخطابات أنّ الحجاج كامن في اللغة، ولا محالة منه في الخطاب واستناداً إلى فكرة مفادها أن الحجاج لا يتصل بضرب مخصوص من الخطابات بل يشمل كلّ ضروب الخطاب، "وظواهر اللغة

(1) محمد سعيد البقالي، نحو مقارنة حجاجية لغوية للخطاب كتاب الخطاب والحجاج لأبي بكر العزواي أمودجا، ضمن مؤلف الحجاج اللغوي، قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزواي، تنسيق حسن مسكين، ص 132-133.

(2) أبو بكر العزواي، اللغة والحجاج، ص 9.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 9، وينظر: أبو بكر العزواي، الخطاب والحجاج، ص 9.

(4) فضيل ناصري، الحجاج من اللغة إلى الخطاب قراءة في أعمال أبو بكر العزواي، ضمن مؤلف الحجاج اللغوي، قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزواي، تنسيق حسن مسكين، ص 185.

(5) ينظر: أبو بكر العزواي، الخطاب والحجاج، ص 122.

(6) المرجع نفسه، ص 15.

(7) رشيد شبيخ، سمات التجديد في المشروع الحجاجي للدكتور أبو بكر العزواي، ضمن مؤلف الحجاج اللغوي، قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزواي، تنسيق الدكتور حسن مسكين، ص 126.

بشكل أو بآخر⁽¹⁾ التي يجسدها الخطاب وبعد صفة جوهرية قائمة في بنية اللغة وأنسجتها. وهذا تكون كل الخطابات المنجزة بواسطة اللغة الطبيعية حجاجية، وعليه فالحجاج حسب أبو بكر العزاوي ظاهرة لغوية نجدها في كل قول وفي كل أنواع الخطابات.

وعموما ما يمكن أن نستخلصه من تفحص المفهوم التأصيلي للحجاج عند أقطاب الفكر البلاغي الغربي والعربي الحديث أنهم جعلوا الحجاج آلية تستنطق بها مختلف الخطابات على اختلاف ضروبها ووقفوا على كيفية اشتغال الخطاب الحجاجي وعملوا على "أجراء التقنيات الحجاجية وجعلها عدة يسهل تشغيلها"⁽²⁾ فكلّ فسر كيفية اشتغاله بواسطة آليات وأدوات إجرائية تختلف حسب طبيعة المقاربة، وكل مقاربة لها آلياتها الحجاجية الاقناعية التي تشتغل وفقها؛ فهي الكيفية بتحقيق المقاصد التي قام من أجلها الخطاب، وإن تباينت هذه الآليات في طريقة اشتغالها إلا أنها تتقاطع في الغاية التي قامت من أجلها، كما تعنى باستخراج المسكوت عنه والوقوف على جوهر كنهه الحجاجي.

وبناء على ما سبق، نتوصل إلى مقاربة مفاهيمية نروم من خلالها إلى تقديم تعريف شامل، جامع ومانع للاختلاف، يلمّ بمختلف الرؤى والمفاهيم للتخلص من التظرة التفاضلية والبلبلية المفاهيمية؛ فالحجاج ما هو إلا دراسة لأحوال المخاطبين وكلّ السياقات والظروف المحيطة بهم؛ بمعنى الدخول في سياقاتهم واختيار أفضل السبل لمخاطبتهم حجاجيا، وبلورتها في قالب لغوي يعكس حمولة هذه السياقات؛ فالقالب اللغوي ما هو إلا "نشاط كلامي يتحقّق في الواقع وفق معطيات مُعيّنة من السياق"⁽³⁾، وهذا ما يجعل الحجاج لا يخرج في كونه "استراتيجية لغوية تكتسب أبعادها من الأحوال المصاحبة للخطاب"⁽⁴⁾.

2- الحجاج وعلاقته التباينية وتقاطعاته المصطلحية (الحجاج تباينات أم تقاطعات مصطلحية؟):

من خلال تتبعنا للمفهوم التأصيلي للحجاج في الدراسات العربية والغربية، تبين لنا أن هنالك من وضع مفهوم الحجاج موضع الجدل ومنهم من جعله مرادفا للإقناع، ومنهم من عقّده بالبلاغة، هذا التباين في زاويا النظر- كما سبق وأشرنا- جعل من مفهوم الحجاج مفهوما متعدّد الرؤى والارتباطات العلائقية تولدت عن

(1) محمد مشبال، مفهوم الخطاب من منظور حجاجي، ضمن مؤلف الحجاج اللغوي، قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي، تنسيق حسن مسكين، ص 39.

(2) فيليب بروطون، الحجاج في التواصل، ترجمة محمد مشبال، عبد الواحد التهامي العلمي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2013م، ص 16.

(3) عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2003م، 120، نقلا عن حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 93.

(4) المرجع نفسه، ص 93.

هذه الرؤى تقاطعات مصطلحية تلتقي حيناً وتفترق أحياناً أخرى؛ فلا يفتأ الواحد منا يتعثر أو يكاد يقع في شرك تعدد هذه المصطلحات التي تهدد فهمه واستيعابه لهذا المفهوم، ومن بين مجموعة المصطلحات التي تتداخل وتتباين مع مصطلح الحجاج من حيث مضامينها ووظائفها الدلالية، نذكر:

2-1- الحجاج والبلاغة:

ليس هدفنا الوقوف على التعاريف الكثيرة التي تسم كل من البلاغة والحجاج، وتبين جزئياتها ومشاربها لكن هدفنا هو البحث وسط كل ذلك على مواضع تعالق البلاغة بالحجاج، وعن مواضع انفصالها*.

البلاغة "بلغت الغاية إذا انتهت إليها وبلغتها غيري، ومبلغ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته، فسميت بلاغة لأنها تُنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه"⁽¹⁾ ولا تتوقف الغاية في إفهام السامع بل تقصد "التأثير في اعتقاده وتوجيه سلوكه"⁽²⁾ وبهذا تُعدّ البلاغة "علم الخطاب الاحتمالي المؤثر"⁽³⁾. فالبلاغة بهذا المعنى "خطاب على خطاب، أي هي بمثابة اللغة الواصفة التي تتخذ الخطاب الطبيعي موضوعاً لها، ولكن ليس الخطاب هنا مجرد وصف كلام أو أداء فكرة، بل أيضاً إحداث تأثير، وحثّ على فعل"⁽⁴⁾ والخطاب البلاغي لا يقف عند حدّ الوصف والتصنيف، وضمان الفهم والتواصل، بل يتجاوز ذلك إلى التأثير والإقناع بالحمل على الفعل والحثّ عليه.

تبيّن هذه التعاريف نقاط التقاء البلاغة مع الحجاج فغاية تداخلها واتحادها إفهام المخاطب، وإقناعه بالحجج والأساليب المناسبة للمقام، واستمالتة والتأثير فيه، "تكون البلاغة في جوهرها حجاجاً، ويكون الحجاج أساس البلاغة ومرادفها"⁽⁵⁾.

فتتقاطع البلاغة مع الحجاج، وتُمُدّه بالقول البليغ الذي تتداخل مقتضياته مع ملامح الحجاج، وسنسعى لتوضيح التداخلات بين البلاغة والحجاج في الجدول الآتي، نذكر منها:⁽⁶⁾ (ما يقابل البلاغة في الجدول اجتهاد شخصي).

* للتعلم في فهم تذبذب العلاقة بين البلاغة والحجاج ينظر: فيليب بروطون، جويل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، ترجمة محمد صالح ناجي الغامدي، ص 15.

(1) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، ص 6.

(2) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 38.

(3) محمد مشبال، البلاغة والخطاب، ص 280.

(4) المرجع نفسه، ص 284.

(5) عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، دراسة نظرية وتطبيقية، ص 19.

(6) ينظر: المرجع نفسه، ص 16.

البلاغة	ما يقابلها في الحجج
✓ الإفهام في البلاغة ألا يؤق السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤق الناطق من سوء فهم السامع وهو شرط يجعل الإفهام شرط البلاغة الأول، ويعلي من الوظيفة التواصلية والتداولية للبلاغة.	✓ المعرفة المشتركة بين المتخاطبين هي الأساس الموجّه في اختيار الحجج التي تتفق وطبيعة العقول المخاطبة، بل ويتوقف عليها نجاح عملية إفهام المخاطب للمخاطب.
✓ حسن المعرض: يقول أبو هلال العسكري: " البلاغة ما تبلغ به قلب السامع فتمكّنه في نفسه كتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة" ⁽¹⁾ .	✓ فحسن المعرض في الحجج يقابله اختيار مقدمات وعرضها حسب ما هو مقبول عند المخاطب، فبناء الحجج يكون على أساس المقبولية والتدرج في عرضها، كما هو بديهي ومعروف ولا خلاف فيه بين طرفيه.
✓ البصر بالحجّة: " البلاغة هي البصر بالحجة والمعرفة بمواقع الفرصة" ⁽²⁾ .	✓ يجب أن يؤق بالحجّة في الوقت المناسب ليكون لها أثر فعال.
✓ في التمدّج البلاغي للتواصل " يحتلّ متلقي الخطاب المقام الأوّل دون منازع" ⁽³⁾ .	✓ في النموذج الحججّي الاحتواء التام للمخاطب من قبل مخاطبه أمر ضروري.
✓ المناسبة: وهي مناسبة المقال للمقام ومطابقتها لمقتضى الحال فمدار " الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم" ⁽⁴⁾ .	✓ معرفة مختلف الأوضاع المقامية والإلمام بمجمل كفاءات الدّات الثقافية والأيدولوجية والتفسيّة التي يصاغ بحسبها الخطاب الحججّي.
✓ مجال البلاغة هي " الخطاب الاحتمالي المؤثر" ⁽⁵⁾ .	✓ مجال الحجج محتمل وتناججه غير ملزمة تسعى لتحقيق التأثير والإقناع.

جدول رقم 03 يوضح التداخلات بين البلاغة والحجج

اهتمّ القدماء قبل المحدثين بإشكالية العلاقة القائمة بين البلاغة والحجج، فالقدايم لم يخطئوا حين جمعوا بينهما في تعريفاتهم، فلا مفرّ للحجج من البلاغة، لأنها توفرّ للقول جماليّة قادرة وإذا أضيفت إليها الحجج أمكن للمخاطب تحقيق غايته في قيادة المخاطب وتوجيه سلوكه، فالحجج لا غنى له عن الجمال؛ لأن المعنى يزداد اقناعاً إذا تزوج بالجمال، فالوسائل البلاغية التي تحفل بها الخطابات تمثل كلّها عاملاً مهمّاً يرفد عملية الحجج ويتمّي قدرة المخاطب على الإقناع⁽⁶⁾.

(1) أبو هلال الحسن العسكري، كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، ص 10.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 88.

(3) هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ترجمة وتعليق محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط.)، 1999، ص 24-25.

(4) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 93.

(5) هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ص 24.

(6) ينظر: سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه، ص 120 إلى 122.

وهو ما وظّفه الكواكبي في مدوّنته مستندا على الوسائل البلاغية المزوجة بين جانب الجمال والإمتاع بغية الإقناع ونضرب مثلا لتوضيح الصورة "ويعلم من نفسه، أنّه الغاصب المتعدّي، ويضع كعب رجله على أفواه الملايين من النَّاس يسدّها عن التّطرق بالحقّ والتّداعي لمطالبته"⁽¹⁾.

تتموضع الكناية في قوله: يضع كعب رجله على أفواه الملايين من النَّاس يسدّها عن التّطرق بالحقّ وهي كناية عن صفة التّكليل بالنّاس لممارسة أنواع التّعذيب والتّعسف عليهم بغية التّحكم فيهم لسدّ أفواههم عن قول الحقّ أو المطالبة بحقوقهم، وفي الأصل سدّ الأفواه يكون باليد لكنه ذكر كعب الرجل، وهذه حجة على ممارسته لجبروته باحتقاره لرعيّته وهذا حال المستبدّ.

فالكواكبي استعمل هذه الحجة في شكل كناية للوصول إلى الغاية المنشودة في وصف حال المستبدّ مع رعيّته لتقريب المخاطب من هذا المشهد الاستبداديّ الذي يترتب عنه عدم خوف المستبدّ من رعيّته وممارسة كلّ أشكال الإهانة والاحتقار بحكم رُضوخهم له، فقد تمّ اعتماد آلية الكناية للإبانة عن المعنى بصور جالية تساهم في عملية إفهام المخاطب فتؤدّي بذلك وظيفة إمتاع وإقناع للأذهان محدثة أكبر أثر في النفس بعملها على تنشيط آليات الفهم والتأويل عند المخاطب وإيقاظ نفسه الآية التي تآبى عيشة الذل، وتدفعه إلى التحرك لتغيير واقعه المرير.

وهذا ما يجعل الحجاج ترسانة من الأساليب والأدوات يتمّ اقتراضها من البلاغة فمن اليسير الحديث عن اندماج الحجاج مع البلاغة في كثير من الأساليب، ومن مصلحة الخطاب الحجاجي أن يقوي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية التي تُظهِر المعنى بطريقة أحلى وأوقع في النفس⁽²⁾؛ فتؤدّي بذلك وظيفة تأثيرية إقناعية.

نخلص إلى أنّ الحجاج البلاغي هو حجاج موجه للقلب والعقل معا، إذ يجمع بين المضمون العقليّ للحجة وصورها البيانية، فوراء كلّ بلاغة حجاج، والعكس صحيح، لأنّ مدار ذلك هو الإغراء والجذب قصد الإمتاع والإقناع.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2013م، ص29.

(2) صابر الحباشة، التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 2008م، ص50.

ورغم هذا التداخل والتقاطع في المفاهيم بينهما إلا أنّ هنالك تباينا وحدا يفصلهما، فقد تفرقت البلاغة وتنفصل عن الحجاج في خطابات معيّنة بحسب غايتها، والمخطط الآتي يوضح ذلك:

ليس كل خطاب بلاغيّ حجاجي بالضرورة.

الحجاج



البلاغة

مخطط رقم 12 يوضح موضع تباين البلاغة عن الحجاج

شرح المخطط:

ليس كل خطاب بلاغيّ حجاجي بالضرورة؛ تشكل هذه النقطة الحدّ الفاصل بين البلاغة و الحجاج فبعض الخطابات البلاغية تعجّ بظواهر بيايئة لا تخرج عن كونها " ظواهر تحسينية تنحصر في غاية التحسين والتزيين"⁽¹⁾ وتوشية الخطاب وتميجه اللفظي، وليس من ورائها أيّ غاية تأثيرية، ولا " ترتبط بالمتكلمين ومقاصدهم وأهدافهم الحجاجية، وإنما يهدفون من خلال توظيفها في خطاباتهم إلى إظهار تمكّنهم من اللغة فالسياق هنا هو سياق الزخرف اللفظي والتفنّن الأسلوبيّ وليس سياق التواصل والتخاطب"⁽²⁾ والشاهد الشعري المنسوب لـ " الوأواء الدمشقي " يوضح ذلك: (من البسيط)⁽³⁾

" فأمطرث لؤلؤا من نرجيس وسقث * وزدا وعصث على العناب بالبرد "⁽⁴⁾

يتضح من خلال الشاهد أن الوأواء الدمشقي لا يهدف إلى التأثير في المخاطب، أو إلى تحقيق غايات حجاجية، بل يظهر براعته في وصفه لمعشوقته وهي تبكي، بتنميق خطابه بزخرف الألفاظ والإسراف في توظيف فاخر البيان والتأنق به، حين شبّه دموعها (لؤلؤا) وعينيها (نرجسًا)، وخديها (وردًا)، وشفتيها (عنابا) وأسنانها (بردا) أي ثلجا.

وبحسب ما ورد فالبلاغة قد تؤثر وتستميل وتمتع، ولكنها لا تقنع إلا إذا تلاحمت مع الحجج. " صحيح أنّ البلاغة تشكل إمبراطورية واسعة على - حدّ تعبير بيرلمان- والحجاج ما هو إلا رافد من روافد هذه

(1) عيد بلبع، السياق وتوجيه دلالة النص، مقدمة في نظرية البلاغة النبوية، دار بلنسية، مصر، ط1، 2008، ص 221.

(2) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 109.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 109.

(4) أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني المشهور بالوأواء الدمشقي، الديوان، تحقيق سامي الدهان، دار صادر، بيروت، ط2، 1414هـ،

1993م، ص 84.

الإمبراطورية"⁽¹⁾ لذلك لا يجوز اختزال البلاغة في الحجاج، وهذا يوضح إمكانية وجود بلاغة غير حجاج باعتبارها " فنُّ التعبير الجميل أو آلية للفصاحة المهمة بالشكل فقط"⁽²⁾.

وفي مقابل هذا الطرح المبين أعلاه، نشر أوليفي روبول (Olivier Robol) مقالا معاكسا لهذا الإشكال بعنوان هل يوجد حجاج غير بلاغي مفاده " أننا لن نبحث عن جوهر البلاغة لا في الأسلوب ولا في الحجاج بل في المنطقة التي يتقاطعان فيها بالتحديد، بعبارة أخرى ينتمي إلى البلاغة بالنسبة إلينا كل خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب، كل خطاب تحضر فيه الوظائف الثلاث، المتعة والتعليم، والإثارة مجتمعة متعاضدة، كل خطاب يقنع بالمتعة والإثارة مدعّمتين بالحجاج"⁽³⁾ بطبيعة الحال المنطقة التي يتقاطعان فيها هو الخطاب؛ فكل خطاب اشتمل على هذه الوظائف فهو حجاج بلاغي باستناده إلى الصور التي تسهل الحجاج فهي نفسها تشارك فيه⁽⁴⁾، فيؤدّي بذلك قوة تأثيرية جمالية، إقناعية.

صفوة القول إنّ انفصال البلاغة في بعض الخطابات عن الحجاج وتوقعها على ذاتية أساليبها التحسينية ليس في صالح البلاغة لأنّ ذلك من شأنه أن يعقدها بفنّ التنبق والحداع اللفظي، والبلاغة وفق هذا التصور "شيء مناقض للحقيقة وللأخلاق"⁽⁵⁾؛ بيد أن اقترانها بالحجاج يربطها بفضاء التواصل والحوار البناء، فيجعل البلاغة بذلك "فضاء للتفاوض حول العادل في مقابل الظالم..."⁽⁶⁾، كما أنّها تقدم للحجاج عنصر الإمتاع وتهدف إلى تحقيق غاية التأثير والجمال، أمّا الحجاج فيهدف إلى تحقيق الإقناع بمخاطبة عقل الإنسان المفكر الذي يتفحص الفكرة التي تستقر فيه يقينا.

إذن باقترانها تتحقّق غاية التأثير في المخاطب وإقناعه، "باعتباره ذهن وعاطفة (عقلا وقلبا) لكسب تأييده"⁽⁷⁾ وذلك "بالتوجه إلى عقله ووجدانه، أي باستخدام الحجج العقلية والعاطفية وتعزيزها بوسائل جمالية تكون في خدمة الإقناع"⁽⁸⁾، ولا مناص من الاعتراف أنّ البلاغة بلا حجاج مغلوب على أمرها والحجاج دون

(1) الحبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص 46.

(2) فيليب بروتون، جليل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، ص 15.

(3) أوليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي، ترجمة محمد العمري، ضمن كتابه البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005م، ص 22.

(4) ينظر: محسن الزكري، الحجاج والتداول، في البلاغة العربية القديمة عند محمد العمري، ص 294.

(5) محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2017م، ص 35، ص 35.

(6) المرجع نفسه، ص 32.

(7) الحبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، عناصر استقصاء نظري، ص 46.

(8) محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، ص 29.

بلاغة مسلوب الإمتاع، فالتعلق بينهما رياضة بديعة لتبادل الأفكار وتمكين للغاية الإبداعية لاحتواء كل منهما على أساليب الإقناع والإمتاع لما يهبه هذا الأخير للحجاج من بعد تخيلي ذي قوّة "في استحضار الأشياء ونفوذ في إشهادها للمخاطب، كأنّه يراها رأي العين"⁽¹⁾، وهذا كله يسهم في تقوية المعنى وتوكيده في عقل المخاطب ونفسه.

2-2 الحجاج والتواصل:

نبين العلاقة التقاطعية أو التباينية بين الحجاج والتواصل، انطلاقاً من موقفين:

الموقف الأول: يمثله كلٌّ من طه عبد الرحمن، وأبو بكر العزاوي وتتجلى رؤيتهما في أنّ الحجاج والتواصل متداخلان متكاملان، فلا استغناء لأحدهما عن الآخر؛ بل ينعدم أحدهما لانعدام الآخر؛ حيثما وجد خطاب اللّغة والتواصل فتمّ حجاج.

يرى طه عبد الرحمن أن التواصل يدلّ على معاني ثلاثة متمايزة فيما بينها:

أحدها، نقل الخبر ويصطلح على تسميته بالوصل ويفيد معنى الجمع بين طرفين بواسطة أمر مخصوص فالوصل لا يكون إلاً بواصل، والوصل هنا هو بالذات الخبر.

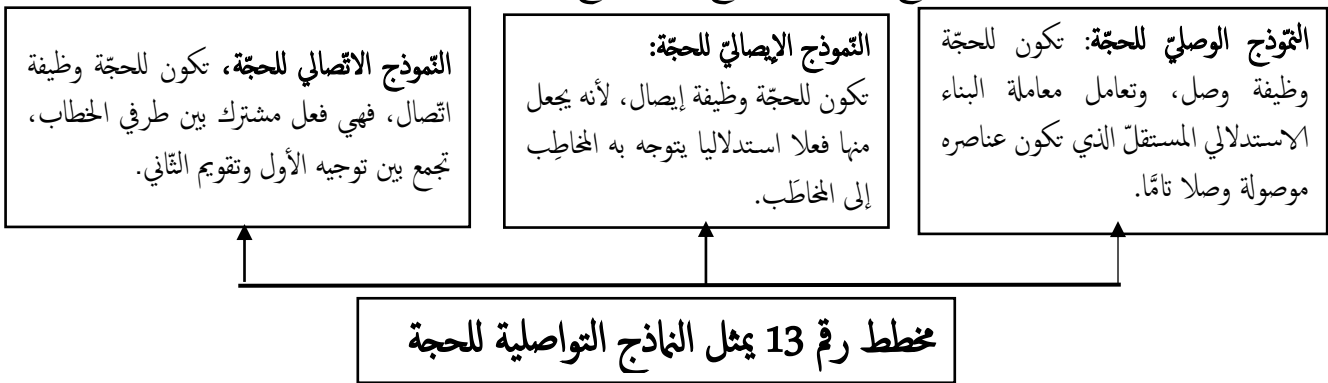
والثاني، نقل الخبر مع اعتبار مصدره (المخاطب)؛ ويطلق على هذا النوع من النقل اسم الإيصال.

والثالث، نقل الخبر مع اعتبار مصدره واعتبار مقصده؛ ويسمى هذا النوع من النقل باسم الاتصال⁽²⁾.

هذه الدلالات الثلاث، الوصل والإيصال والاتصال، تظهر تلازماً بين الحجاج وعملية النقل أو التواصل

وهذا ما قال به طه عبد الرحمان: " لا تواصل باللسان من غير حجاج، ولا حجاج بغير تواصل"⁽³⁾.

وبحسب الرؤية السابقة، فكلّ حجاج تواصل والتمّوج الآتي يوضّح العلاقة بينهما وهي:⁽⁴⁾



⁽¹⁾ طه عبد الرحمن، أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 38، للتعلم في فهم العلاقة بين البلاغة والحجاج ينظر: أمال يوسف

المغاسي، الحجاج في الحديث النبوي، دراسة تداولية، الدار المتوسطة للنشر، الجمهورية التونسية، ط1، 2016م ص 39 إلى 41.

⁽²⁾ ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 254.

⁽³⁾ المرجع نفسه، ص 254.

⁽⁴⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص 255-256.

غير أنّ رؤية طه عبد الرحمن تحصر التّواصل والحجاج في مضائق النّسق اللّغوي، التي تتسع انطلاقاً من النّظر إلى التّواصل على أنّه قد يكون نسقاً لغويّاً أو غير لغويّ، والحجاج هو الآخر يكون بوسائل لغويّة وأخرى غير لغويّة، لذا يعيد أبو بكر العزاوي صياغة هذه المقولة على النّحو الآتي: " لا تواصل من غير حجاج ولا حجاج بغير تواصل."⁽¹⁾

وقد علّق عليها قائلاً "الحجاج مرتبط بكلّ أشكال التّواصل، ومنه الخطاب البصريّ والصّورة الإشهارية بل الصّورة والأيقون بشكل عام، والتّواصل قد يكون باللّغة أو بغير اللّغة، والحجاج هو الآخر قد يكون لغويّاً أو غير لغويّ، وإذا كنا نتواصل حتى بالصورة الإشهارية التي لا تتضمن أي نص لغوي بمعنى أنّها تشمل فقط الأيقونات واسم المنتج وتتواصل معها، فهناك تعبير وفهم وإدراك وخطاب وتواصل إذا كان الأمر كذلك فهناك أيضاً إقناع وحجاج وتأثير"⁽²⁾

وعليه يكون الحجاج متداخلاً مع كافّة أشكال التّواصل، وهذا ما يعزز التّصوّر العام للحجاج عند العزاوي الذي يشدّد على شموليته، وعلى أنّ الخطاب بمختلف أنواعه وأنماطه ذو طابع حجاجي بامتياز⁽³⁾.

إذن لم يعد الحجاج محصوراً في أنواع خطائية معينة، بل أصبح ملازماً لكل الخطابات التي يتواصل بها النّاس في أمور دنياهم؛ فالرجل عندما يحاول إغراء الفتاة الجميلة، وصاحب المطعم عندما يغري زبائنه ويقنعهم بما يعرضه عليهم من وجبات، وصاحب منتج عندما يروج لسلعته ويقنعهم بفوائدها اعتماداً على نسق الصورة والأسّاذ عندما يسعى إلى إقناع تلاميذه، والمثقف عندما يروم إقناعنا بصحة رؤاه...، كلّ هؤلاء يستخدمون في تواصلهم الحجاج ويمارسون فنّ الإقناع⁽⁴⁾.

حسب هذا الموقف نفهم أنّ المخاطب لا يهدف إلى التّواصل مع المخاطب لمجرد التّعبير أو الإخبار أو الإعلام، بل يسعى للتأثير فيه ودفعه إلى اتخاذ موقف من القضية التي تشكل موضوع التفكير، فيغدو بذلك الحجاج دافعاً للتّواصل.

إذن فالهدف من الحجاج هو التّحكم في آلياته وتوظيفها في النّسق اللّغوي وغير اللّغوي لأجل التّواصل وتبادل الآراء وتحقيق الإقناع، من هنا تنبثق أهميته "بوصفه الأداة الأكثر إنسانيّة في تواصل الأفراد داخل المجتمع وتواصل الشّعوب داخل هذا العالم الذي يحتويهم"⁽⁵⁾، وأن يعرف الواحد منّا كيف يُحاجج ليس من

(1) أبو بكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2016م، ص95.

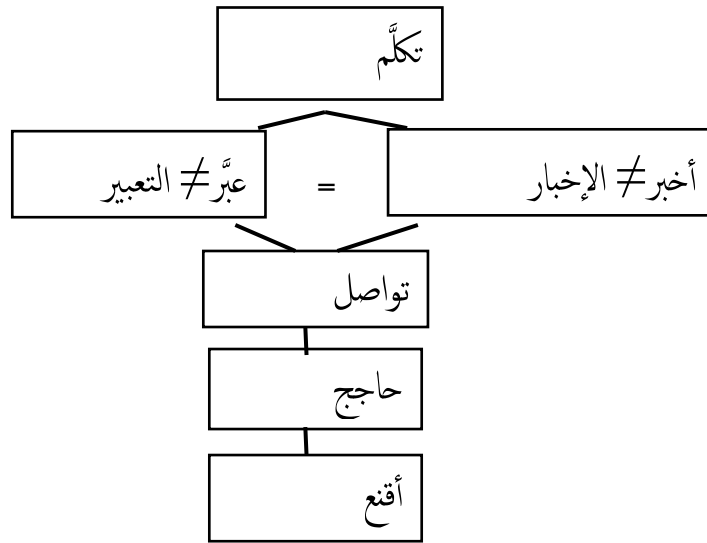
(2) المرجع نفسه، ص 95-96.

(3) ينظر: أحمد القصور، تجليات تطوير النظرية الحجاجية وتوسيع مجالات تطبيقها في دراسات أبو بكر العزاوي، ص 196-197.

(4) ينظر: فيليب بروتون، الحجاج في التّواصل، ص 9.

(5) المرجع نفسه، ص 10.

قبيل الترف الزائد بل هو ضرورة، أفلا يعد افتقاد هذه المهارة في التواصل، أحد المنابع المتواترة الكبرى للمساواة الثقافية التي تضاف إلى اللامساواة الاجتماعية وتعززها⁽¹⁾ أفلا يعد إذن العجز في توظيف الحجاج في التواصل لأجل الإقناع، أحد الأسباب الكبرى لتولد المشاكل المؤدية لإقصاء الفرد؟. والمشاكل التي تؤدي إلى ذلك هي رهبة الكلام في حضور الجمهور، وغالبا ما تكون متولدة من القلق المرتبط بالموقف الحجاجي. وهذا ما يجعل الحجاج في الحقيقة مرتبطا بجمع من الأفعال الإنسانية (تكلم، عبّر، أخبر، تواصل حاجج أقنع). فعدد من مقامات التواصل تسعى إلى حمل المخاطب على تبني سلوك ما أو مشاطرة رأي معين.



مخطط رقم 14 يمثل المقامات المتنوعة للتواصل = الحجاج⁽³⁾:

وما يستخلص من هذا المخطط أنّ الكلام (إخباراً أو تعبيراً) يُعنى بالتواصل لغرض الحجاج لتحقيق الإقناع؛ فعلم التواصل يهتم بصياغة الرسائل ونقلها، وتقصي دلالتها وتأويلها حجاجياً، فالحجاج يحدث داخل الموقف التواصلّي الذي تجسده هذه الأفعال المتصمّنة بين طرفي الخطاب والمؤيدة بالرأي لغرض الإقناع وبيان ذلك في المثال الآتي:

مخاطب يعبر عن رأيه ويتواصل به مع المخاطب بخصوص شخص (س)، فهو لا يقصد من رسالته مجرد التعبير أو نقل وجهة نظره عن الشخص (س)؛ ولا أدلّ على ذلك من ذكر صفات وسلوكيات (س) فهي بمثابة حجج، يتمّ من خلالها تغيير أو تعديل أو تدعيم رأي ووجهة نظر المخاطب التي تكوّنت عن (س) وقد

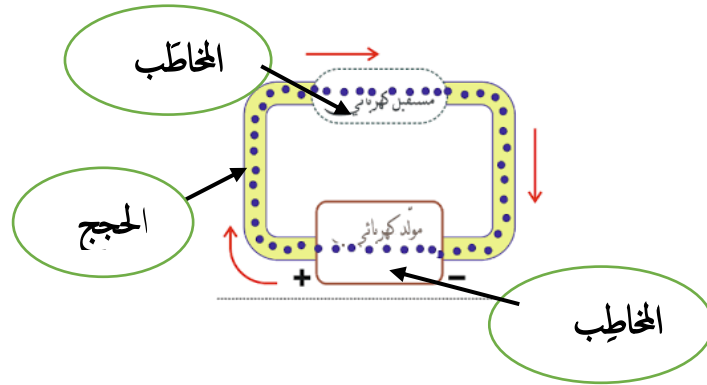
⁽¹⁾ فيليب بروطون، الحجاج في التواصل، ص 17.

⁽³⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص 18-19.

استعملت كلمات (تغيير، تعديل، تدعيم) لتوضيح هذا المثل التّصوّري من منطلق اعتبار أنّ المخاطب لديه خلفيّة مسبقة عن (س) يراد تغييرها أو تعديلها أو تدعيمها.
نمثّل للموقف التّواصلي الحجاجي بدارة كهربائية:

الرمز النظامي	العنصر الكهربائي	عناصر التواصل الحجاجي
$\begin{array}{ c } \hline + \\ \hline \end{array} \begin{array}{ c } \hline - \\ \hline \end{array}$	البطارية (المولد الكهربائي).	المخاطب.
\otimes	المصباح الكهربائي (المستقبل الكهربائي).	المخاطب.
—	أسلاك التوصيل.	الحجج
$\bullet\text{---}\bullet$	القاطعة الكهربائية	بداية التواصل

جدول رقم 04 يمثل تصور الموقف التواصلي للحجاج



مخطط رقم 15 يمثل تصور الموقف التواصلي للحجاج.

فكلّما كان مقدار قيمة طاقة المولّد الكهربائي كبيرة، كلّما انعكس ذلك على مستوى توجّه المصباح، انعكس هذا التّصور على الموقف التّواصلي الحجاجي، فكلّما امتلك المخاطب طاقة تواصلية (حجج قوية) كلما انعكس ذلك على قابلية اقتناع المخاطب بصحة دعواه، ونقيض ذلك كلّما امتلك المخاطب طاقة تواصلية ضعيفة (حجج ضعيفة) كلّما قلّ الاقتناع أو انعدم.

يتقاطع الحجاج والتواصل في عدّة مواضع، وهي كالآتي:

✓ الخصوصية الجوهرية للحقل التواصلي تؤهله لأن يكون الفضاء الذي يحتوي الحجاج ويتطور فيه بتطور صيغ التواصل و"القيم التي لها أهمية كبرى في الحجاج، جعلت منه مادة حيّة" (1)، إذن

(1) فيليب بروطون، الحجاج في التواصل، ص 34.

يندرج الحجاج في المثلث التقليدي مخاطب، خطاب، مخاطب الذي تدرسه علوم التواصل بأشكالها المختلفة⁽¹⁾.

- ✓ كلُّ من التواصل والحجاج يرميان إلى نقل رسائل لغويّة، اجتماعيّة، ثقافيّة.
- ✓ إنّ التواصل حجاج، والحجاج ترجمة للموقف الفكريّ التواصليّ المدافع عنه.
- ✓ يُنظر للتواصل من خلال الديناميّة الاجتماعيّة التي توطّره، بوصفه حاملاً لرهانات معيّنة يُضفي عليها الحجاج سمة التّحقيق الفعلي والتّثبيت، ومن بين الرّهانات التي يشترك فيها الحجاج ويسعى إلى صقلها من خلال الموقف التواصلي⁽²⁾:

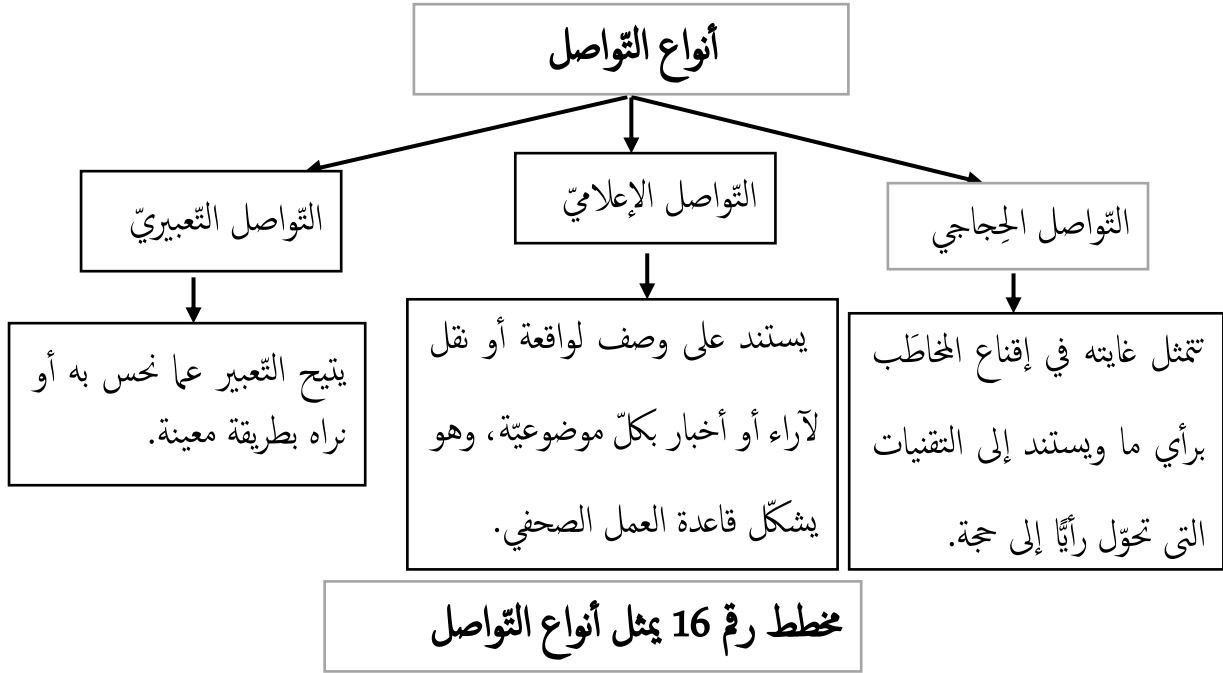
- الرّهان العلائقيّ، والمتعلّق بتشكيل وتفعيل العلاقات والرّوابط بين الأفراد.
 - الرّهان المعياريّ ويرتكز على تنظيم العلاقات نفسها.
 - رهان التّعبئة والتّحسيس ويستهدف التأثير على الغير.
- ✓ تداخلهما في عدّة مبادئ تشكّل حقل اشتغالهما نجد: مبدأ (اللافرديّة، التفاعل، المرونة السياق).
- بناء على ما سبق الحجاج يعني التواصل وفق فهم لخصوصية الآخر في غيريته واختلافه وتفاعله ومحاوله إقناعه وتغيير وجهه نظره وفق سياقه، "بوصفه كتلة لامتدادات سوسولوجيّة وثقافية... (الانتماءات الأيديولوجية والطّبقيّة والسياسية)"⁽³⁾ فهو بناء تواصليّ تفاعليّ تقاطعيّ بين العوالم الذهنيّة التداوتية والسياسيّة فيشكل بذلك الميكانيزم الذي بواسطته توجد العلاقات الإنسانيّة وتتطوّر.
- إذن حسب هذا الموقف لا يمكن الفصل بين التواصل والحجاج، فهما متداخلان لأنّهما وجهان متضامنان فكلُّ منهما يسعى لخلق تفاهم بين الذوات في إطار اجتماعي محدّد، فيتمّ بمقتضاها تبادل المعلومات والآراء والأفكار والخبرات لغاية الإقناع وتكوين العلاقات.
- ولكن هذا الموقف بإقراره علاقة التّكامل والتّداخل بين التواصل والحجاج وجعل قيمة التّواصل مرهونة بوجود الحجاج قد وقع في مطبّ المغالاة؛ فالتسليم بأنّه لا قيمة للتّواصل بغير حجاج فيه نوع من التّزمّت وإقصاء لأنواع التّواصل الأخرى.

(1) ينظر: فيليب بروطون، الحجاج في التواصل، ص 20.

(2) ينظر: مصطفى العمراني، التواصل نماذج ورهانات، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2016م، ص 70 إلى 73.

(3) المرجع نفسه، ص 74، للتعقّق أكثر في فهم علاقة التواصل بالحجاج، ينظر: زكرياء السرتي، الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر ص 73 إلى 79.

الموقف الثاني: يرى بأنه ليس كلّ موقف تواصلٍ ذي طبيعة حجاجية؛ فالتواصل يتباعد عن الحجاج لكونه أعمّ منه وليس موازيا له، فالحجاج نوع من أنواع التواصل إلى جانب التواصل التعبيري والإخباري، فمقام التواصل هو الذي يحيلنا إلى نوع التواصل، والمخطط الآتي يوضح ذلك:⁽¹⁾



ولتقصّي أوجه التباين بين التواصل الحجاجي والتواصل الإعلامي نورد الخطاطة المعيارية التي شاعت في البحوث الإعلامية والتواصلية لصاحبها شانون (shannon)، والتحديث الذي أضافه عليها فيليب بروتون (Philippe Breton) تقوم خطاطة شانون على⁽²⁾:

المرسل ← الرسالة ← المرسل إليه بمفهومه السلبي الخطي.

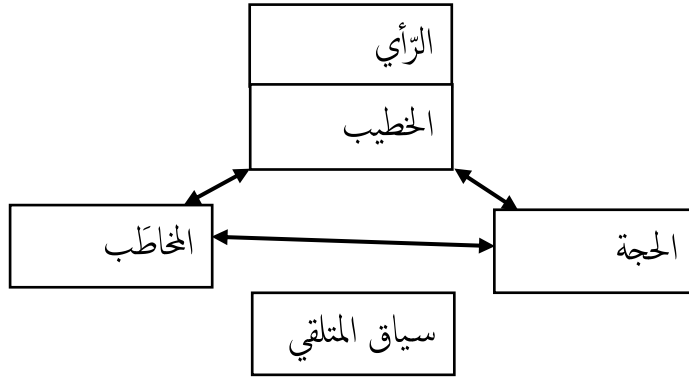
هذه الخطاطة "تطبّق جيّداً في حالة إذاعة الخبر، إلا أنها لا تطبق كما هي على فعل الحجاج، ونقل خبر عبر القناة يختلف في طبيعته عن تشكيل رأي ونقله نحو المخاطب. ويلزمنا في حالة الحجاج أن نفكر في خطاطة ملائمة للتواصل"⁽³⁾ وهو المنوال الذي انطلق منه فيليب بروتون (Philippe Breton) وخصّه بتحديثات. فم يمكن التحديث الذي أضافه فيليب بروتون (Philippe Breton) على هذه الخطاطة لتصبح ملائمة للحجاج؟

(1) ينظر: فيليب بروتون، الحجاج في التواصل، ص 138-139.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 34.

(3) المرجع نفسه، ص 35.

إذن الغرض من إقامة الخطاطة التّواصلية في المجال الإعلامي هو: إذاعة الخبر لمن يتلقّاه دون أن ينتظر المذيع ردة فعل من جمهوره، فالمخاطب المذيع يرمي إلى نقل الأخبار إلى غيره، وأمّا المخاطب المحاجج يتجاوز نقل الأخبار إلى نقل الآراء وإقناع الآخرين بتبنيها، وتوضيح ذلك في خطاطة التّواصل الحجاجي لفيليب بروتون (Philippe Breton)⁽¹⁾:



مخطط رقم 17 يمثل خطاطة التّواصل الحجاجي

شرح وتعليق على خطاطة التّواصل الحجاجي:

رأي الخطيب: ينتمي رأيه إلى مجال المحتمل، وقد يكون رأياً يتعلّق بأطروحة أو قضية أو دعوى أو وجهة نظر... إلخ، ويحصّل أن يشكّل الخطيب رأياً حول موضوع ما، ولا يسعى إلى إلزام الآخرين باعتقاده، أمّا إذا سعى إلى إيصال رأيه إلى غيره عليه أن يُخرجه إخراجاً حجاجياً، لأنّ الرّأي وحده لا يكفي فهو في ذاته ليس حجّة بالقوّة.

الخطيب: وهو المحاجج الذي يحاجج إمّا لنفسه وإمّا لغيره، فيكون بذلك عقد التّواصل بينهما صريحاً؛ ومثال ذلك المحامي الذي يرافع لصالح موكله.

الحجّة: وهي التي يدافع بها الخطيب عن رأيه أو دعواه، ويقدمها كتابياً على شكل رسالة (كتاب، نص عبارة) أو شفويًا بصفة مباشرة أو غير مباشرة (بواسطة الراديو، أو الهاتف)، أو بواسطة الصورة.

المخاطب: هو الطرف الآخر الذي يريد المخاطب إقناعه بالرّأي المقترح.

سياق التلقي: تمثّل مجموعة الآراء التي يتقاسمها طرفا الخطاب وتمثّل مقدمة لفعل الحاجة، ومنتظر منها أن تؤدي دوراً في استقبال الحجج سواء بالرفض أو القبول من طرف المخاطب.

⁽¹⁾ فيليب بروتون، الحجاج في التّواصل، ص 36.

وعليه فالتواصل الحجاجي يهدف إلى إقناع المخاطب بأهمية أو صحة رسالة المخاطب باستعمال حجج بيّنة تضمن هذا الغرض، ليختلف بذلك عن باقي أنواع التواصل الأخرى في الوسائل والأهداف.

وما يمكن أن يقال في علاقة الحجاج بالتواصل إنّ الحجاج يشكّل دعامة من الدعومات الكبرى التي يتأسس عليها عالم التواصل، ولكن التسليم بأنّه لا وجود لتواصل بغير حجج فيه إقصاء لأنواع التواصل الأخرى، ويبقى الميدان الحاسم الذي يفصل في علاقة التواصل بالحجج علاقة تباين أم تقاطع هو السياق الإجرائي.

2-3 الحجاج والجدل:

يتداخل مصطلح الحجاج مع الجدل، ويستعمل أحدهما مرادفاً للآخر، فحري بنا التفريق بينهما من ناحية الاستعمال برصد مواضع التقاطع والتباين.

فقد جاء الجدل مرادفاً للحجج في كثير من المعاجم اللغوية والمصنّفات؛ فالجدل عند صاحب معجم لسان العرب يقوم "على مقابلة الحجّة بالحجّة"⁽¹⁾ إذن فهو مرادف للحجج في كونه خصومة قائمة على إيراد الحجّة، يقول في مادة (حجج) "وهو رجل محجّج أي: جدلٌ والتعاجُّ: التخاصم"⁽²⁾.

وأما في المصنّفات؛ فقد تتبّع عبد الله صولة تصوّر بعض القدماء للحجج في مصنّفاتهم وخلص إلى أنهم كانوا يستعملون الحجج والجدل باعتبارهما مترادفين، فالباغي مثلاً سَمّى كتابه المنهاج في ترتيب الحجج لكنّه نعته في المقدمة بأنّه كتاب في الجدل، وحدّ الجدل عنده تردّد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه، وهو ما يرجّح أن الحجج مرادف عنده للجدل، وفي كتب علوم القرآن مثل: البرهان في علوم القرآن للسيوطي، استُعمل اللفظان على سبيل التّرادف عدّة مرّات واستعمله السيوطي مرادفاً للمذهب الكلامي أيضاً واستمرّ القول بترادف المفهومين في بعض الدراسات الحديثة كما هو في كتاب **مواقف الجدل والحجج في القرآن الكريم** لهادي حمو الذي أشار إلى ترادفهما صراحة⁽³⁾.

إلّا أن اعتبار القدماء وبعض المحدثين الحجج مرادفاً للجدل ومراوحتهم بينهما في الاستعمال واستخدامهم أحدهما مرادفاً للآخر "يضيق مجال الحجج ويغرقه في الجدل"⁽⁴⁾، فالحجج أوسع من الجدل فكل جدل حجج وليس كل حجج جدل. فهو القاسم المشترك بين الجدل والخطابة، ومن ثمّ يمكن القول إنه يوجد على الأقل حججين، حجج جدلي وحجج خطابي من قبل ما عرض له أرسطو في كتابيه على الترتيب الطويقا والخطابة فالحجج الجدلي يقوم على مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد، وتمثله في التراث العربي

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج 2، ص 212 (مادة جدل).

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص 54، مادة (حجج).

(3) ينظر: عبد الله صولة، الحجج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 12 إلى 15.

(4) المرجع نفسه، ص 15.

الإسلامي مناظرات علم الكلام، وتجتهد كتب علوم القرآن في استخراجها ودرسه تحت عنوان (جدل القرآن) أو المذهب الكلامي في القرآن أو (الاحتجاج النظري في القرآن)، أما الحجج الخطابي فليس لغاية التأثير العقلي وإنما يتعداه إلى التأثير العاطفي وإلى إثارة المشاعر والانفعالات⁽¹⁾.

وهذا ما يؤكد اختلافهما في المجال، فمجال الحجج الجدلي فكري خالص يُعنى بمناقشة القضايا التي تتطلب رجاحة عقل وإعمال فكر، أما مجال الحجج الخطابي فمجاله توجيه الفعل.

هناك اختلافات بين مرتكزات الحجج في الجدل ومرتكزاته في الخطابة، فهي "عقلية خالصة في الجدل فلا يخاطب المحتج لقضية أو موقف أو رأي في متلقيه سوى العقل، في حين تكون في الخطابة عاطفية بالأساس، فهو ضرب من التأثير العاطفي يصل أحيانا كثيرة حد الإثارة والتحريض"⁽²⁾، وقد يجتمعان في قالب واحد فيأخذ الحجج من الجدل طابعه الحوارية العقلية " المنطلق من وضعيات ومسائل معينة، كما يأخذ من الخطابة كفاءات لتقديمها للحجج وترتيبها ومزجها بين الإقناع والاستمالة والتأثير"⁽³⁾.

وهذا ما يجعل الجدل شكلا خاصا من الحجج، أما الحجج بمعناه الخاص الذي يقتربه أكثر من الخطابة فهو وإن اشترك مع الجدل في ارتباطها بمجال المنازعة والمغالبة ومقابلة الحجة بالحجة في مخاطبة الغير واعتمادها على مقدمات محتملة، وفي تشابه آليات الاستدلال فيهما، فإن بينهما فروقا: فالاستدلال الجدلي يستهدف الحقيقة فتكون نتائجه أقرب إلى اليقين من نتائج الحجج، فيراهن على الإقناع الذهني ويميل إلى اعتماد الأدلة العقلية، مما يجعله متسما بالصرامة وخاضعا لضوابط منطقية، بينما قصد الحجج توجيه المخاطب نحو فعل أو ترك، فغايتها عملية غير إلزامية، ولذلك يوظف الإمكانيات الهائلة للغة الطبيعية المتسمة بالمرونة والالتباس فيزج بين الإقناع والاستمالة والتأثير⁽⁴⁾، وفي هذا جمع بين الحجج الجدلي والحجج الخطابي.

صفوة القول إن الحجج أوسع في دلالاته من الجدل؛ " فإذا كان الجدل يمثل القسم الإقناعي من الخطاب، فإن الحجج هو جوهر الخطابة باعتبارها فن الإقناع"⁽⁵⁾ وهو بذلك أعم من الجدل، فيكون كل جدل حجاج والعكس ليس صحيحا.

رغم هذه الاختلافات التي تعترضها إلا أن الجدل محتوى في الحجج، وهذا الأخير باحتوائه للجدل يروم تحقيق الإقناع والتأثير والاستمالة معا، فالجج لا يستغني عن الجدل الذي يحقق الإقناع للتغلب على الخصم

(1) ينظر: عبد الله صولة، الحجج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 17-18.

(2) سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه، ص 18.

(3) عبد العالي قادا، الحجج في الخطاب السياسي، ص 46.

(4) ينظر: عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع دراسة نظرية وتطبيقية، ص 24.

(5) سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه، ص 54.

بالحجة العقلية، فهي الأجدى مع حدة المخاصمة ومنه لا غنى للحجاج عن الجدل، فالجدل وسيلة الحجاج ومطيته لتزويد الخطاب بالحجج العقلية الخالصة.

4-2 الحجج والبرهان والاستدلال:

يُطعم مفهوم الحجاج بمفاهيم مصطلحية منطقية تتقاطع معه حيناً وتتعارض معه أحياناً أخرى من بين هذه المصطلحات البرهان والاستدلال، لذا سنغنى بتتبع مواضع الفصل والوصل بينها ونحدد الإطار العام الذي تنبثق منه.

من بين دلالات الجذر اللغوي (ح، ج، ج) " البرهان والحجة ما دفع به الخصم"⁽¹⁾ ويعرّف البرهان "بأنه الحجة الفاصلة بينة، يقال: بَرَهَنُ يَبْرَهُنُ بَرَهْنَةً إذا جاء بِحُجَّةٍ قاطعة لِلدَّخْتِصم، فهو مُبْرَهُنٌ...، وقد بَرَهَنَ عليه: أقام الحجة"⁽²⁾.

يقع كلٌّ من البرهان والحجاج في كثير من المواضع مترادفين وغالبا ما ينوب أحدهما عن الآخر ويستعملان بصفتهما مصطلحا واحدا، ويؤديان وظيفة واحدة وهي الدفاع عن موقف ما لكسب قضية والتغلب عن الخصم؛ أي إنَّ "الحجاج هو أن تستدلَّ على ما تقوله، أن تقترح على الآخرين رأيا، مقدّما إليهم حججا كافية للالتزام به"⁽³⁾، وحرّي بالذكر في هذه النقطة "أنَّ بعض الباحثين ينظرون لمفهوم الاستدلال والحجاج كمترادفين على أساس أنَّ الحجاج مجموعة من المقدمات التي نستدلُّ منها على نتيجة ثبت صحّة ما ندعيه"⁽⁴⁾.

فإذا كانت الدلالات اللغوية واصطلاحات بعض الباحثين تُخلط بين مفهوم الحجاج والبرهان والاستدلال، وتدرج مفهوم الحجاج بمعنى البرهان والاستدلال ولا تميّز بينها تمييزا دلاليا وظيفيا، " فإنَّ عددا من الباحثين وأهل النظر في المجالات الفلسفية واللسانية والتداولية أحوًا على وجوب الفصل بين الحقل الخاصة بكلّ مفهوم على حدة"⁽⁵⁾ رغم كون الاستدلال من المفاهيم العابرة للاختصاصات والعلوم وفروعها في

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص 53(مادة حجج).

(2) المصدر نفسه، ج1، ص 394 (مادة برهن)

(3) زكرياء السرتي، الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، ص 76.

(4) أكرم صالح محمود خوالدة، اللغة والتفكير الاستدلالي، دار حامد، الأردن، ط1، 2016م، ص 284.

(5) زكرياء السرتي، الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، ص 24.

مختلف المنظومات العلمية والثقافية؛ إذ إنه يتصل بجدول لغويّ ثريّ تستعمله كل الاختصاصات من قبيل الدليل والّلزوم والاستنتاج والتبرير والاستنباط والبرهان والقياس والحجّة، فيها يعقل العقل أوابد الظواهر⁽¹⁾. إذن فهو مفهوم عام، سنتقضى أوجه الاختلاف فيه من زاوية المنطق الصوري والطبيعي فالاستدلال في المنطق الصوري تفكير عقلي بواسطته يتم إنتاج العلم وهو لا ينطلق من فراغ بل من معارف سابقة أهمّها المبادئ والتعريفات والمُسلّمات الشائعة، واهتمّ أرسطو بصور الاستدلال وقسمه إلى نوعين؛ الاستدلال المباشر قوامه استخراج قضية جديدة من قضية واحدة فقط، دون الاستعانة بأيّ حدّ يتوسط بين القضية والنتيجة، أمّا الاستدلال غير المباشر قوامه التّأليف بين قضيتين أو أكثر، تنشأ عنها بالضرورة نتيجة، ومن صور هذا النوع الاستدلال القياسيّ حيث يعرّفه أرسطو بأنّه قول مؤلّف من قول إذا سلّم بها، يلزم عنها بالضرورة قولاً آخر، فهو استخلاص حكم من حكم آخر، أو عدّة أحكام استخلاصاً تلزماً به الضرورة المنطقية⁽²⁾.

ويعدّ "البرهان نمط من أنماط الاستدلال يميّز بخاصية اليقين والقطعية والتّيقين، حيث ينتهي البرهان في الأصل إلى مجال الاستدلالات الاستنباطية المنطقية والرياضية".⁽³⁾ ويعرّفه "المنطقيّون بأنه قياس مؤلّف من مقدّمات يقينية تؤدي إلى نتائج لازمة عنها في حين يعرّفه الرّياضيّون بأنّه ما يثبت قضية من مقدّمات مسلم بها"⁽⁴⁾، وبالمقابل تتضح "حقيقة الاستدلال في منطق الخطاب الطبيعي أن يكون حجاجياً لا برهانياً صناعياً"⁽⁵⁾.

فهذه التّقطة تبين موضع التّمايز بين الحجاج والبرهان وتكشف عن طبيعة الاستدلال في منطق الخطاب الطّبيعي؛ "الذي ينجز باللغة الطّبيعية ويكون الحامل له هو الخطاب الطّبيعي ومن أبرز أنماطه الحجاج"⁽⁶⁾ وهذا الأخير "لا يفيد اليقينية والقطعية التي يتسمّ بها البرهان"⁽⁷⁾؛ لأنّه يتعلق بالخطاب الذي يتطور شيئاً فشيئاً ويرتبط بالمقاصد والسياقات، ويشير "أوزفالد ديكرود إلى أنّ الخطاب الطّبيعيّ بخلاف الأنساق

(1) ينظر: شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، دار المعرفة للنشر كلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة، وحدة البحث في تحليل الخطاب، ط1، 2006م، ص 17.

(2) ينظر: رضوان الرقي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، عالم الفكر، العدد 02، المجلد 40، أكتوبر، ديسمبر، 2011، ص 78.

(3) أمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي، ص 27.

(4) عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، ص 20.

(5) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 65.

(6) أبو بكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، ص 22.

(7) رضوان الرقي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص 74.

الصورية الصناعية، لا يصرح بكلّ مقدماته المنطقية وعض أن تكون موضوعاته التي يعبر عنها محددة تحديدا نهائيا كالبراهين الرياضية، فإنها تتحدد شيئا فشيئا مع تطوّر الخطاب، إنها موضوعات رخوة في مقابل موضوعات المنطق الرياضي الصلبة⁽¹⁾ ومنه فالاستدلال الذي يتماشى مع موضوعات الخطاب الطبيعي استدلال حجاجي*، أما "مجال الاستدلال الصوري** الرمزي هو اللغات الاصطناعية"⁽²⁾ التي يتماشى معها الاستدلال البرهاني.

إذن يرتبط الاستدلال الحجاجي بالخطاب الطبيعي أو اللغات الطبيعية، بينما يستعمل الاستدلال البرهاني في اللغات الصناعية الرمزية*.

وهذا ما يحدو بنا إلى تفصي أوجه التباين والتمايز بين الاستدلال الحجاجي والاستدلال البرهاني وتبيان معالم التعارض القائم بينهما ومجال اشتغال كلّ منهما وفق ما حدده المشتغلون بالحجاج ويبدو التمييز بينهما واضحا في تعريف الحجج عند طه عبد الرحمان بأنه "فاعلية تداولية جدلية"⁽³⁾، وهذه الفاعلية تنعدم في الاستدلال البرهاني، مما يجعل جهد المحاج في الاستدلال الحجاجي قائم على إدراك جانبيين اثنين:⁽⁴⁾

1- جانب تداولي، طابعه الفكري مقامي واجتماعي يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف

مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى إنشاء معرفة موحّمة بقدر الحاجة.

2- جانب جدلي، يلتزم فيه بصور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة لتحقيق الإقناع.

فإدراك المشارك في العملية الحجاجية للجانب التداولي الجدلي، يحتم عليه القيام بسلسلة من

الاستدلالات المباشرة لما هو معروف متداول في البرهنة العلمية، و"هكذا تبنى الانتقالات فيه، لا على صور

⁽¹⁾ رضوان الرقي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص 80.

* يندرج في لغة طبيعية ويروم الإقناع بقضايا لا يمكن الحسم فيها والتيقن من صحتها، ولكن يمكن تصديقها في سياقات تواصلية ملموسة، ينظر: محمد مشبال، في بلاغة الحجج، نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، ص 35.

** الاستدلال الصوري يروم بلوغ الحقيقة خارج أي سياق تواصل اجتماعي ملموس، ينظر: المرجع نفسه، ص 35.

⁽²⁾ أبو بكر العزاوي، من المنطق إلى الحجج، ص 22.

* اللغات الاصطناعية موضوعة لتلبية الحاجات والضرورات العلمية، فهي تعد صياغة المعارف والمعلومات، وكذا مجرد وسيلة للحساب (وهو ما يمكن أن تقوم به الآلة)، الموضوعات المرتبطة بها إما فارغة (أي تحصيل حاصل) وإما محددة بشكل كلي منذ البداية، بخلاف اللغات الطبيعية التي هي وسيلة للحوار ووسيلة لإبداع المعارف وتمثيلها، والتي يتم إنشاء موضوعاتها أثناء الحوار وداخل السياق. ينظر:

أبو بكر العزاوي، من المنطق إلى الحجج، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2016م، ص 18-19.

⁽³⁾ طه عبد الرحمن، أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 65.

⁽⁴⁾ ينظر: المرجع نفسه، ص 65.

القضايا وحدها كما هو شأن البرهان، بل على هذه الصور مجتمعة إلى مضامينها أيًا اجتماع⁽¹⁾ فالآليات الاستدلالية التي ينطوي عليها الخطاب الطبيعي العادي " ليست لإتقنيات حجاجية وجدلية وميزة كل قول حجاجي أنه يزواج بين الصورة والمضمون لتحقيق الإقناع عكس البرهان الذي يستغني عن المحتوى"⁽²⁾. وهذا يؤكد أن البرهان آتية استدلالية ضيقة الأفق مقارنة بالحجاج، وهذا ما أثبتته طه عبد الرحمن في دعوته للتخلص من الإطلاقيّة البرهانية الأرسطية في الخطاب الطبيعي والتي تتلخص في القول "إمكانية كل دعوى صحيحة أن تحظى بإثبات قطعيّ مستندًا إلى أدلة العقل الخالص في مسلكه البرهاني الخالي من كل تأثير مضموني ومن كل توجيه معنوي"⁽³⁾.

فهو لا يهتم بالتأثير في المخاطب ولا بإقناعه أو دفعه إلى العمل، على غرار أنواع الخطابات الطبيعية التي تعمل على التأثير فيه؛ ولما كانت الفلسفة والآداب خطابات طبيعية، لا يفيدتها تقليد أهل البرهان في صنع استدلالات صورية، لا هي ترتقي إلى البرهان الرياضي، ولا تهتدي إلى التوجيه العملي، بل تحتاج إلى انتهاج مسالك الحجاج، لأنه الكفيل في مجال التداول ومقتضياته التفاعلية بتحصيل الإقناع والدفع إلى العمل⁽⁴⁾؛ لأن الخطابات الطبيعية الحجاجية غنية وقابلة للتطور والتداول عكس الاستدلالات البرهانية الضيقة.

إذن لا غنى للمحاجج في الخطاب الطبيعي عن انتهاج مسالك الحجاج، وهذا الأخير لا يستغني عن الاستدلال ولكن ليس الاستدلال البرهاني الصّارم، وإنما الاستدلال الحجاجي الذي يزود المحاجج بالمنهجية أو الطريقة العقلية التي ينبغي أن يسلكها لأجل إرساء حقيقة في صورة إثبات أو نفي أطروحة أو قضية ما وما يقتضيه ذلك من مختلف العمليات العقلية المنطقية⁽⁵⁾.

وتتحقق الاستمالة في الحجاج عموماً باستدلال منطقيّ قابل للاختيار من قبل المتلقّي، ليأتي اختياره اختياراً واعياً وعاقلاً؛ إذ تظهر العقلانية في اختيار مقدمات تتماشى مع طبيعة المخاطب وعرض الحجج وترتيبها للوصول إلى نتائج احتمالية قابلة للاختيار من قبله، وهذه السمة تنعدم في الاستدلال البرهاني "فهو ينطلق من مقدمات أو معطيات عقلية غير اختيارية منطقية قابلة للحساب الآلي الصوري "ينتقل فيه الفكر من أشياء مُسلّم بصحتها إلى أشياء أخرى ناتجة عنها بالضرورة وتكون جديدة عن الأولى"⁽⁶⁾ فتكون صحيحة يقينية

(1) فيليب بروطون، الحجاج في التواصل، ص 65.

(2) رضوان الرقي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص 81.

(3) المرجع نفسه، ص 81.

(4) ينظر: المرجع نفسه، ص 81.

(5) ينظر: المرجع نفسه، ص 67.

(6) المرجع نفسه، ص 75.

لا مجال للشكّ فيها، كما أنّها صارمة لا ترتبط بقصد المخاطب عكس الاستدلال الحجج "فهي تأخذ صبغة تداولية ترتبط فيها المعايير بالمعاني والسياقات بالمقاصد"⁽¹⁾ وهي بذلك تختلف عن طريقة الاستدلال البرهاني. إذن يرتبط الاستدلال الحجج بالمتاح بينا يرتبط الاستدلال البرهاني باليقين؛ فالاستدلال الحجج يرتبط "بمقدمات لا تفضي بالضرورة إلى نتائج حتمية مما يجعله قابلاً للتقضى أو الدحض، ويجعل من إمكانية التسليم بالمقدمة المعطاة أمراً نسبياً بالنسبة للمخاطب"⁽²⁾؛ بمعنى المقدمات التي ينطلق منها الاستدلال الحجج هي عبارة عن آراء لا تفضي بالضرورة إلى نتيجة حتمية، في حين نجد أن مقدمات البرهان إثباتات صادقة تسمح بالوصول عبر الانتقالات الاستدلالية إلى نتائج حتمية ضرورية منطقية خلافاً للاستدلال الطبيعي الحجج الذي يتطلب حسب ما أكده شكري المبخوت "الوصول إلى نتائج ليس من الضروري أن تكون صالحة منطقياً بقدر ما يطلب منها أن تكون ناجحة مستجيبة لأهداف التخاطب والتعامل الاجتماعي"⁽³⁾.

في حين الاستدلال البرهاني هو أن تستنبط من المقدمات نتائج تفضي إليها تلك المقدمات ضرورة دون أي لبس، فهم يسعون إلى شكلنة الأنظمة بصرف النظر عن محتوياتها، وليس الاستدلال الطبيعي الحجج من هذا القبيل، فالحقيقة فيه ليست مضمونة لا ولا هي واحدة أو ضرورية أو مفارقة ومتعالية وموضوعية شأنها عند المناطقة، إنّما الحقيقة في الحجج نسبية وهي مرتبطة بالمقام⁽⁴⁾.

والجدول الآتي يحدد التباين والتعارض في مجال وطبيعة اشتغال كل منها بشكل ملخص، وهو كالآتي⁽⁵⁾

الاستدلال البرهاني:	الاستدلال الحجج:
منطق صوري لا يقبل اللبس (برهنة تحليلية).	مسار حوارى يستخدم أحكام القيمة (برهنة جدلية).
مساره عقلي يخاطب الإدراك.	هدفه الإقناع على أسس عقلية.
برهنة لا شخصية وهي ملزمة.	برهنة شخصية (موجهة إلى طرف ما ليست ملزمة).
مجاله اليقينات.	مجاله الرأي والممكن.
حجة واحدة يمكن أن تكون قاطعة.	الحجج فيه تكون كثيرة نسبياً.
جمهور كوفي.	جمهوره خاص ويقصد به جمهور كوفي، يُعني بالبحث عن الأفضل.

جدول رقم 05 يحدد التباين والتعارض في مجال وطبيعة اشتغال كل من الاستدلال البرهاني والاستدلال الحجج

(1) رضوان الرقي، الاستدلال الحجج التداولي وآليات اشتغاله، ص 80.

(2) أمال يوسف المغامسي، الحجج في الحديث النبوي، دراسة تداولية، ص 27.

(3) شكري المبخوت، الاستدلال البلاغي، ص 21.

(4) ينظر: عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 300، وينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجج، دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011م، ص 14.

(5) عبد الله صولة، الحجج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 31.

والجدير بالذكر أن أوزفالد ديكرود قد ميّز بين الاستدلال البرهاني والاستدلال الحجاجي مُركّزاً على وجه الاختلاف بين التّسقين: إذ إنّها "يتعلقان بنظامين مختلفين بشكل كامل، نظام ما نسميه عادة المنطق مثلاً ونظام ما سأطلق عليه الخطاب، لا يؤلّف الاستدلال، القياس المنطقي مثلاً، خطاباً بالمعنى القويّ الذي أمّنه لهذا اللفظ. فالأقوال التي يتألّف منها هذا الاستدلال مستقلة بعضها عن بعض، بحيث يكون كل قول منها معبراً عن قضية معينة، أي محدداً حالة (أو مجموع حالات) حقيقة أو مفترضة لهذا العالم. لهذا لا يكون تسلسل الأقوال، في استدلال ما، مؤسساً على الأقوال ذاتها لكن على القضايا المتضمنة فيها، على ما تقوله أو تفترضه حول العالم"⁽¹⁾.

لتوضيح الفرق بين أنواع المقدمات والاستدلالات، نأخذ الاستدلال التالي⁽²⁾:

كل إنسان فان.

زيد إنسان.

زيد فان.

إن النتيجة التي يؤدي إليها الاستدلال نتيجة حتمية ضرورية، لأن الأمر يتعلق هنا باستدلال منطقي صوري ملزم، استدلال برهاني أو بعبارة أدق بقياس منطقي (syllogisme) أما إذا أخذنا استدلالات أخرى من قبيل:

الجو غائم، سينزل المطر

زيد مجتهد، إذن سينجح في الامتحان.

فسنجد أنها تندرج في الحجاج أو الاستدلال الطبيعي، والنتيجة الواردة في هذين المثالين، نتيجة احتمالية ووجود الغيوم في السماء شرط كاف فقط لتحقيق النتيجة (نزول المطر) ولا يمكن اعتباره شرطاً ضرورياً والشيء نفسه بالنسبة إلى المثال الثاني، فالاجتهاد غالباً ما يؤدي إلى النجاح، ولكنه ليس شرطاً ضرورياً وكاف، والنتيجة هنا متوقعة ومحتملة فقط، وقد يكون الاحتمال قوياً أو ضعيفاً بحسب قوة الحجة أو ضعفها. فكم من مجتهد خانه الحظّ أو أفرط في الاجتهاد والعمل فأصيب بالعياء والإرهاق فرسب في الامتحان، وكم من متقاعد أسعفه الحظّ فنجح، وهذا ما يجعلنا إزاء استدلال طبيعي لا تكون نتائجه ضرورية ولا حتمية. أما النتيجة الواردة في القياس المنطقي السالف الذكر فإنها حتمية ضرورية، وكون زيد إنساناً شرطاً ضرورياً وكافاً لتحقيق النتيجة (زيد فان)، والعلاقة بين القضيتين هي علاقة استلزام منطقي.

⁽¹⁾ زكرياء السرتي، الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، ص 27.

⁽²⁾ أبو بكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، ص 19-20.

إذن يتسم الاستدلال بمزايا التنوع والتباين التي تسمح بانتقاء ما يشاكل الخطاب الطبيعي، وتحديد بشكل دقيق ما ينتسب إلى المنطق، ومن ثم معرفة العلاقة بين الحجاج والاستدلال، خصوصا إذا علمنا أن الاستدلال أنواع، فهناك الاستدلال المباشر والاستدلال غير المباشر، الاستدلال الاستقرائي أو الاستنباطي، الاستدلال الحجاجي والاستدلال البرهاني⁽¹⁾.

نخلص مما تقدم إلى أن:

✓ لفظ الاستدلال هو المصطلح الأعم الذي يشملها جميعها، " فكل حجاج استدلال، وليس كل استدلال حجاجا، وكل برهنة أو استنباط وقياس تعتبر استدلالا والعكس غير صحيح"⁽²⁾؛ بمعنى كل برهان استدلال، كل قياس استدلال، كل حجاج استدلال... وهكذا دواليك، والعكس غير صحيح فليس كل استدلال حجاج، وليس كل استدلال قياس، ولا كل استدلال برهان؛ لأن هنالك أنماط عديدة من الاستدلال لا تقتصر على نمط واحد وقانون واحد؛ فعلاقة كل نمط من أنماط الاستدلال بالاستدلال علاقة خاص بعام، فمجال الاستدلال يتسع ليشمل كل التخصصات فلسفة، أدب، منطق، رياضيات... فتندرج فيه كل المصطلحات على اختلاف جذرها اللغوي وقانون اشتغالها والتخصص الذي يحتويها.

✓ فالاستدلال الحجاجي هو خاصية مباطنة للخطاب الطبيعي، لا اللغات الاصطناعية والرمزية مثل المنطق، فالحجاج يختص بالخطابات الطبيعية التي تتسم بالخصوبة والمرونة والالتباس والتداول والتفاعل الاجتماعي بسبب غناها النحوي والمعجمي والدلالي، والتي تعنى بتحديد قيمته وتفتح له المجال لتعدد القراءات على عكس القضايا البرهانية الصارمة التي تقوم على الصورية والصرامة ولا تقبل التأويلات.

✓ الاستدلال البرهاني متعلق بالأنساق الصورية الصناعية، أي الأنساق الرمزية، ولا تقاس قيمة البرهان برأي أو موقف الآخر منه، بل قيمته مباطنة له، فهو يؤدي دورا فعالا في بناء العلوم كالرياضيات والفيزياء.

(1) ينظر: أبو بكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، ص 23.

(2) المرجع نفسه، ص 22.

✓ الاستدلال الحجاجي مغاير للاستدلال البرهاني الذي "يجح إلى اللزوم المنطقي في إطار اليقينية"⁽¹⁾ وينطلق من مقدمات تستلزم بالضرورة نتائج حتمية خلافا للاستدلال الحجاجي الذي يقوم "على منطلقات غير يقينية"⁽²⁾ تكون نتائجها احتمالية.

✓ الاستدلال البرهاني يهتم بترتيب الحقائق، عكس الحجج الذي يهتم بترتيب القيم المتعلقة بالمحدد والمحتمل⁽³⁾.

✓ الاستدلال البرهاني وقابليته الرمزية أنسب للمنطق الرياضي دون غيره وقد يصاغ في قالب لغوي، فهل يظلّ بذلك مختلفا عن الاستدلال الحجاجي أو يتقارب منه؟

يمكن القول إنّ البرهان يفيد من الحجج لصياغة استدلالاته في قالب لغوي، لكن الحجج ليس هو البرهان؛ فالعبارات التي ترد فيها المصوغات البرهانية توجد مستقلة عن بعضها، وتتأسس فيما بينها على أساس علاقات وقوانين صورية لا تراعي معاني هذه العبارات ومحتواها، ولا إحالتها الخارجية حيث يتم الانتقال بين العبارات وفق نسق صوري بحت، أما الحجج فتتعلق بالمفوضات فيه يستجيب لاعتبارات داخلية محضة، مرتبطة بطبيعة ومعنى المفوضات، ويستجيب كذلك للظروف السياقية والمقامية التي تمنحه طبيعته الحجاجية.

✓ "الحجج لا يقاس بمقياس الصواب والخطأ، وإنما بمعايير القوة والضعف والنجاح والفشل والكفاية وعدم الكفاية، لأنّ غايته ليست الصواب والصحة كما في البرهان، بل التأثير"⁽⁴⁾.

✓ يتميز الاستدلال البرهاني باستقلاله التام عن الذات الإنسانية وما يتعلق بها، أما الاستدلال الحجاجي يتم في سياق تداولي تفاعلي، تقتضي تفاعل الذوات.

✓ 5-2 الحجج والإقناع والاقناع:

من مقاصد الخطاب الحجاجي التأثير والاستمالة، انطلاقا من القضية الخلافية بين طرفي الخطاب لذا يعد الإقناع ضرورة منهجية يتطلبها الحجج، لأنه مرتبط بالسياق وبالمخاطب في الوقت ذاته، فهو محاولة

(1) عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، ص 22.

(2) المرجع نفسه، ص 22.

(3) ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجج، إفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)، 2006م، ص 125.

(4) الحبيب أعراب، الاستدلال الحجاجي، ص 54، للتعلم أكثر في الاختلاف بين البرهان والحجج ينظر: صابر الحباشة، التداولية والحجج، مداخل ونصوص، ص 69، وينظر: عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، ص 19-22.

واعية من المخاطب للتأثير فيه انطلاقاً من الاستراتيجية الحجاجية المعتمدة⁽¹⁾، لذا يعرف الإقناع بأنه "محاولة واعية للتأثير في السلوك، أي أنه فعل مقصود، يتطلب تقنيات وكفايات عالية للتأثير في المتلقي"⁽²⁾ أي إنّ الإقناع يرتبط بقصدية المخاطب ويسعى لدفع المخاطب لفعل معين أو لتغيير سلوك أو معتقد، ويتحقق هذا باعتد كفايات عالية وتقنيات من "الحجج التي تتلاءم مع سياق الخطاب ومع طبيعة المرسل إليه، فيتحقق بالتالي اقتناعه بمقاصد المرسل، لأنّ الاقتناع مرتبط بهذا المرسل إليه وهو فعل الأثر الناجم عن عملية الإقناع"⁽³⁾، متى توافرت الظروف وتهيأت من لدن المخاطب (المقنع) لتحقيق غاية الوظيفة الحجاجية وهي "حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع"⁽⁴⁾.

إذن لا وجود للاقتناع دون وجود للإقناع، فلا معنى للحجاج الذي غايته الإقناع إذ لم يحصل اقتناع المخاطب بالحجج المقدمة من قبل المخاطب لأن شرط عملية الإقناع هو اقتناع الطرف الثاني بفحوى الخطاب الحجاجي.

كما أنّ الفرق بين الإقناع والاقتناع يكمن في ترتّب الثاني عن الأول، وهذه النقطة الفارقية التراتبية هي التي اقتنعنا و عملنا بها في دراستنا وليس العكس؛ أي ترتب الإقناع عن الاقتناع* - ومما زادنا اقتناعاً تأملنا للبنية الصرفية للمصطلحين-، لأنّ الإقناع من الفعل المزيد المتعدي أقنع، فهو فعل واقع من فاعل على مفعول به. فإذا استجاب المستهدف بالإقناع يكون قد اقتنع؛ أي تحقق له الاقتناع الذي هو مصدر الفعل اللازم اقتنع، ومن البديهي أن يكون الاقتناع هو الغاية النهائية للحجاج التي يتوصل إليها عن طريق آليات الاقتناع وبمزيد من التأمل نجد الاقتناع هو غاية الإقناع، ونوضح هذه المفاهيم الثلاثة وفق تصوّرنا في المخطط الآتي:

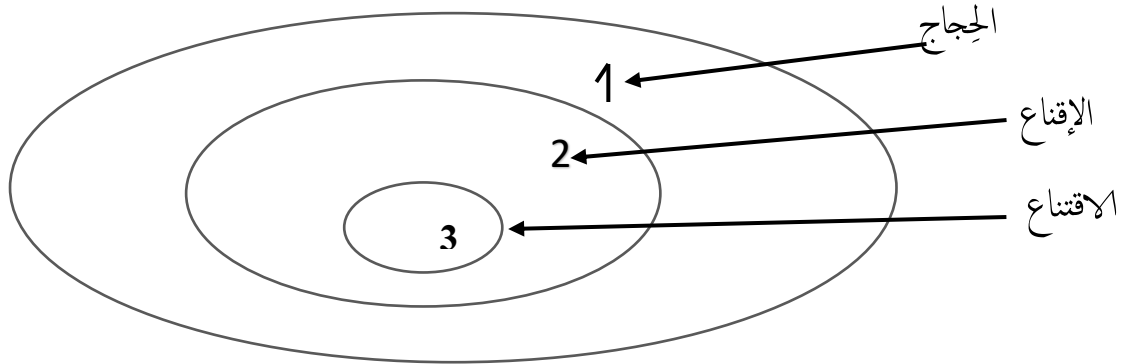
(1) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 95.

(2) أمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي، دراسة تداولية، ص 30.

(3) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 96.

(4) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بينته وأساليبه، ص 21.

* باعتبارهم الاقتناع بوابة الإقناع، لكونه إذعان نفسي وحالة من اليقين للمخاطب، كما هو الأمر حينما يقول "أنا مقنع... " واقناعي هو أن..."، وحسب هذا الطرح المعارض لتصورنا فإنّ الإقناع عندهم موجه نحو أنت، في حين أن الاقتناع هو موجه نحو أنا، فهم يستعملون قوة الاقتناع للمخاطب كمرحلة أولية وكاستراتيجية لاستمالة الآخر إلى اعتقاده. (ينظر: باتريك شارودو، حول الإقناع في الخطاب السياسي، ترجمة محمد الولي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، ملف عدد البلاغة والخطاب السياسي، العدد 6، 2015م، ص 87-88).



مخطط رقم 18 يوضح ترتيب مفاهيم الحجج، الإقناع، الاقتناع وفق تصورنا

يبد أن كلاً من بيرلمان وتينيكاه قد ذهبا مذهباً آخر في التفريق بين الإقناع والاقتناع، مما يرجح كفة التركيز على الجانب الاستراتيجي في استعمال الاقتناع بدلا من الإقناع؛ فالباحثان يجعلان الاقتناع هو غاية الحجج وأساس هذا الترجيح هو ارتباط الاقتناع بما هو عقلي على اعتبار أنه إذعان نفسي مبني على أدلة عقلية. على خلاف الإقناع الذي قد يرتبط بما هو ذاتي وضيق لا يعتد به في الحجج عندهما؛ على اعتبار أنه يسمح للمخاطب باستعمال الخيال والعاطفة في حمل الخصم على التسليم بالشيء، مما لا يدع مجالاً لإعمال العقل وحرية الاختيار⁽¹⁾ فالإذعان عندهما يكون بواسطة الاقتناع الذي يتيح حرية الاختيار على أساس عقلي، وهذا ما جعلهما يقسمان الحجج بحسب نوع الجمهور إلى نوعين "حجج إقناعي ويرمي إلى إقناع الجمهور الخاص، وحجج اقتناعي يهدف إلى أن يسلم به كل ذي عقل"⁽²⁾.

وهذا التفريق بين الإقناع والاقتناع لا يتوافق وقناعتنا الفكرية، فنحن لا نفصل بين الإذعان العقلي والعاطفي الوجداني باعتبار أن المخاطب يعتمد في إقناعه للمخاطب على المزاوجة بين الآليات العقلية المنطقية والبحث، كما يعتمد على الآليات البلاغية وهذه الأخيرة تسعى إلى استمالة المخاطب "وتحقيق التأثير البلاغي بالتوجه إلى عقله ووجدانه؛ أي باستخدام الحجج العقلية والعاطفية، وتعزيزها بوسائل جمالية تكون في خدمة الإقناع"⁽³⁾ وتفريقهما بين الإقناع والاقتناع يؤكد لنا ما استخلصه محمد مشبال حين وسم نظريتهما باعتبارها

(1) ينظر: عبد الله صولة، الحجج أطرها ومنطقاته وتقنياته، ص 300-301.

(2) المرجع نفسه، ص 301.

(3) محمد مشبال، في بلاغة الحجج، نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، ص 29.

نظرية في البلاغة الجديدة ولكنها "لم تسفر عن وفاء حقيقي للبلاغة بما هي نظرية في الفعل الخطابي بمكوناته الشاملة، إذ رجحاً كفة اللوجوس على باقي المكونات التي ظل حضورها باهتا في مصنفاته"⁽¹⁾.

وإن تفاوتت الآليات المنطقية في الاستعمال وكانت الغلبة للجانب العقلي على الحساب العاطفي في نظرية بيرلمان، إلا أننا نسلم أن الإقناع يشمل الآليات العقلية المحضة والآليات البلاغية التي تزوج بين الجانب العقلي والعاطفي لتحقيق الاقتناع. وطرحنا هذا يتجسد في عنوان أطروحتنا الموسومة بالخطاب الحجاجي وآليات الإقناع بدلا من آليات الاقتناع لكون مدونتنا لا تقتصر فقط على الآليات العقلية البحتة.

هذا فيما يخص النقاط الفارقة بين الإقناع والاقتناع من وجهة نظر الباحثين وعلى حسب وجهة نظرنا وطرحنا الفكري، وباعتبار الإقناع هو الوجه الآخر للحجاج ومرادفه الذي يحقق الغاية القصوى للحجاج وهي حدوث الاقتناع؛ وهذا الأخير متوقف على ممارسة سلطة الإقناع المرهونة بمدى توافر الشروط اللازمة لنجاح الخطاب الحجاجي، فكلما توافرت هذه الشروط كلما امتلك الحجاج قدرة أكبر على الإقناع وبالتالي حصول الاقتناع.

وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على أن مصطلحي الحجاج والإقناع متكاملان متلازمان في أي خطاب من أجل تحقيق الاقتناع، وأن الحجاج لا ينفك عن الإقناع فهما يقتربان من بعضهما البعض إلى حدود التداخل وذلك أن أحدهما هو غاية الآخر والثاني هو وسيلة الأول في بلوغ غايته القصوى.

وهذا ما يبيّن لنا أن هدف المخاطب من خطابه الحجاجي، ليس إبراز قوته الاستدلالية واللغوية أو إيهام المخاطب فقط بل إن خطابه غائي موجّه " غايته إقناع المتلقي بما يحمله من أفكار وما يعرضه من مواقف أو إغرائه بهذه الأفكار وتلك المواقف ليحدث في نهاية المطاف أثرا واضحا في المتلقي، لا من حيث أفكاره فحسب بل من حيث مواقفه وما قد يكون له من سلوك واقعي ملموس"⁽²⁾ وهنا يتجلّى الأثر الناجم عن الإقناع وهو الاقتناع ويمكن قياسه من خلال سلوكياته.

إذن فالإقناع ومن ثمّ الاقتناع هما غايتنا الحجاج، وإن تدرّجت هذه الغاية بينهما بين غاية أولية مبدئية يجسدها الإقناع ويتولى تحقيق الغاية القصوى النهائية للحجاج المتمثلة في الاقتناع؛ فالإقناع هو الأثر المتولد عن التلّفظ، والآلية التي يتم بواسطتها اقتناع المخاطب بمقاصد المخاطب، لذا يقول ظافر الشهري بأنّ "الغرض التداولي من الحجاج هو تحقيق الإقناع"⁽³⁾ لحصول الغاية القصوى وهي الاقتناع.

(1) محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 35.

(2) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بينه وأساليبه، ص 35.

(3) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 456.

وبهذا الطرح يكون هناك تداخلا وتقاطعا وثيقا بين هذه المفاهيم والمصطلحات، إلا أنّ عددا من الباحثين حاولوا وضع بعض الفروق بين الحجاج والإقناع، نوّصّحها فيما يأتي:

✓ الحجاج هو محاولة المخاطب إقناع المخاطب، أما الإقناع فهو محاولة المخاطب إقناع نفسه بما يعتقد لينقله إلى المخاطب ويثبتته في ذهنه أو معتقده أو سلوكه⁽¹⁾ ليوصله إلى الاقتناع.

✓ وتجدر الإشارة إلى أن هناك اختلافا آخر جوهريا وهو أنّ النص الخطابي نصّ إقناعي ولكنّه ليس نصّا حجاجيّاً؛ وهذا يعني أنّ كل خطاب حجاجي هو إقناعي بالضرورة، والعكس غير صحيح؛ فكلّ خطاب إقناعي لا يمكن اعتباره خطابا حجاجيا، وسبب ذلك راجع إلى ارتباط الإقناع بأنواع أخرى من الخطابات، منها الخطاب السردّي والخطاب الوصفي⁽²⁾.

خلاصة القول إنّ غاية الحجاج هي الإقناع، وغاية الإقناع ومنتهاه هو حصول الاقتناع، فهذه العلاقات التداخلية الوظيفية بين الحجاج والإقناع والاقتناع تظلُّ أقوى من التباينات التي تعترضهم؛ فالتداخل والتكامل والتوازن بينهم يتجلّى في اشتراكهم وظيفيا في رسم غاية الحجاج وهي الاضطلاع بدور ريادي قيادي ينشد التغيير والتطوير في أفكار المخاطب ومواقفه، وبلوغه لهذه الغاية ما هو إلا دليل على وجهة الحجاج المعتمد وتلاحم العلاقة الوظيفية الغائية بينهم، وهذا التلاحم يتيح للحجاج الربط بين الكلمة والفعل "إذ حين يضطلع الكلام بوظيفة الحجاج يصبح محرّكا للفعل، صانعا للرأي والفكرة والموقف"⁽³⁾.

استنتاج:

نستنتج ممّا سبق أنّ هناك عددا من المصطلحات التي تدور في فلك الجهاز المفاهيمي للحجاج، والتي كان لا بدّ من الوقوف عندها لرصد علاقتها التباينية وتقاطعاتها المصطلحية، حتّى يتحدد مفهوم الحجاج بصورة أوضح ونلّم بكل ما يحتويه جُِبُّ هذا المصطلح.

وقد تبين أنّ الحجاج يتقاطع مع مصطلحات عدّة (البلاغة، التواصل، البرهان، الاستدلال، الجدل والإقناع والاقتناع) ويتباين معها أحيانا أخرى فلا هو مفهوم بلاغيّ خالص، أو منطقي بحت، و" لا هو

(1) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 99.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 96، للتعلم أكثر في الحدود الفاصلة بين الحجاج والإقناع ينظر: عبد الجليل العشراوي، الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، ط 1، 2012م، ص 31.

(3) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنينه وأساليبه، ص 78.

مفهوم ذاتي انطباعي خال من التعليل، بل هو جماع أدوات من الإقناع⁽¹⁾، ملاك الأمر فيه: "دراسة مجمل التقنيات... الباعثة على إذعان السامع أو القارئ"⁽²⁾.

كما يمكن إرجاع هذا التعدد في المصطلحات التي تعتريه وتتقاطع وتباين معه لكونه تنازعه عدّة حقول وظيفية، "فهناك حجاج خطابي (بلاغي) وحجاج قضائي (قانوني) وحجاج فلسفي"⁽³⁾ فأصبح مصطلح الحجاج عامًا بينها، لتشعب الاستعمالات الواسعة له، فللمفهوم الحجاجي أكثر من سياق يستعمل فيه مما نتج عن ذلك "علاقات معقدة ومتجددة سواء مع البلاغة الكلاسيكية والحديثة أو مع اللسانيات"⁽⁴⁾ فكلُّ منها بصفة عامة يستعمل الحجاج وإن اختلفت أنواعها للبرهنة على صحّة قضية أو توجيه الحجاج والفعل في هذا المخاطب انطلاقًا من بنية حجاجية، ويظهر تفصيل هذه البنية في المبحث الموالي:

3-بنية الحجاج:

3-1 مكونات الحجاج :

يتأسس الخطاب الحجاجي في شكله الرئيسي على مكونات ستة، هي⁽⁵⁾:

- 1- **الدّعى:** تمثل نتيجة الحجاج ومقصد المخاطب من حجاجه وتستهدف استمالة المخاطب، قد تذكر الدعوى صراحة أو بطريقة ضمنية.
- 2- **المقدمات:** تمثل معطيات الحجاج، وهي مجموعة المسلمات والوقائع والحقائق والافتراضات والقيم، الهرميّات والمواضع التي يؤسّس المخاطب على منوالها حججه، وينبغي لهذه المقدمات أن ترتبط بالدّعى ارتباطاً منطقيًا حتى تصلح لتدعيمها.
- 3- **التبرير:** بيان للمبدأ العام الذي يبرهن على صلاحية الدعوى وفقاً لعلاقتها بالمقدمات.
- 4- **الدّعامة:** هي جوهر الحجاج، إذ تمثل مجموع الأدلة والحجج والشواهد التي تدعم صحّة الدعوى؛ فتجعل المقدمات والتبريرات أقوى مصداقية عند المخاطب ممّا يدفعه إلى تقبلها والافتناع بها وبالتالي العمل وفقها.

(1) أمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي، دراسة تداولية، ص 32.

(2) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 8

(3) الحبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، عناصر استقصاء نظري، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الحجاج وحوار التخصصات، ج3، ص 33.

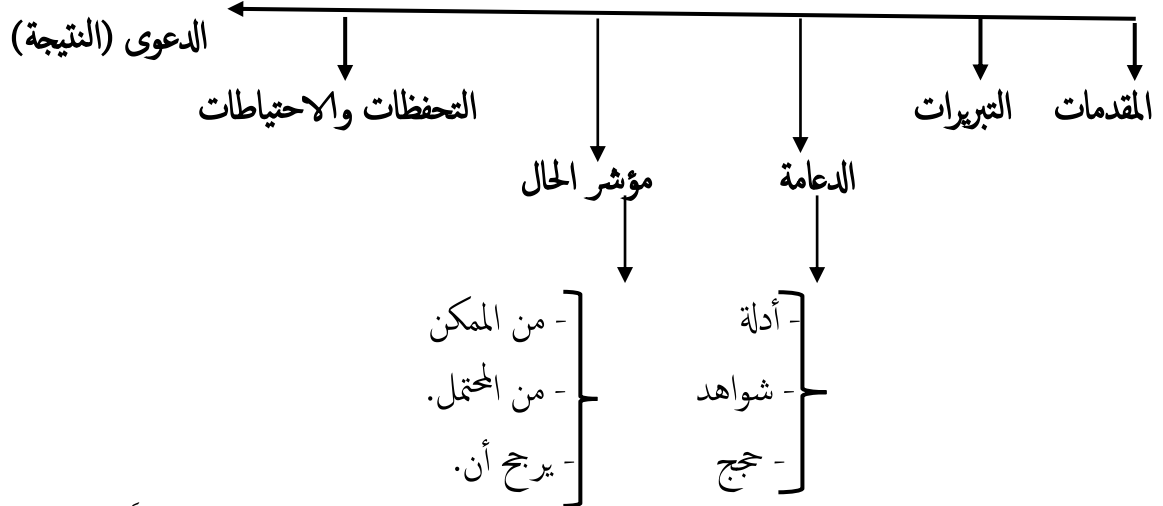
(4) المرجع نفسه، ص 33.

(5) ينظر: محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الحجاج والمراس، ج4، ص 5، وينظر: حمدي جودي منصور، الحجاج في كتيبة ودمنة لابن المقفع، ص 105.

5- مؤشّر الحال: كل ما يقدّم من تعبيرات تُظهِر مدى قابليّة الدّعاوى للتطبيق، نحو من الممكن، من المحتمل على الأرجح.

6- التحفظات والاحتياطات: وهي الاحتمالات والاحترازمات التي يضعها المخاطب في حسابه أثناء المحاجة لتقدير ردود الأفعال للمخاطب تجاه النتائج المقصودة.

ويمكن تمثيل مكوّنات الحجاج وفق الشكل الآتي⁽¹⁾:



والجدير بالذكر أنّ المخاطب ينتقي مقدماته من " مجموع اعتقادات مستمعه، ومجموع مُسلّماته وقناعاته"⁽²⁾ فيعوّل على تسليم المخاطبين بها ويتوسّلها منطلقاً لحججه ويسعى إلى صياغة الحجج بطرق وجيهة وترتيبها ترتيباً يضمن لها التّجاعة التّفاعليّة، فبمقدار نجاعتها تتحقّق مصداقية المقدمات وصحّة نتائجها والعكس غير صحيح وبذلك يعد " انتقاء المقدمات ضروريّ وأساسي في عملية الحجاج، إذ لا بدّ للمحتجّ لفكرة أو موقف أن يكتيف مقدماته مع أهداف خطابه، فيكون الانسجام والتناغم المقنع"⁽³⁾ وهذا التناغم يؤدي إلى إقناع المخاطب واستمالته والتأثير فيه.

المُحاجج أن ينتقي المقدمات التي تتلاءم وطبيعة المخاطب، ومع السياق المحيط بالخطاب الحجاجي ويجنّد لذلك أنواعاً من الحجج يستند عليها لتدعيم مقدماته ولتحقيق الغاية من خطابه، وسنسلط الضوء على أنواع الحجج في المبحث الموالي.

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفع، ص 110.

(2) الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2014م، ص 49.

(3) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيتة وأساليبه، ص 185-186.

2-3 أنواع الحجج:

سنعتمد في تصنيف أنواع الحجج وفق منظور كل من (بيرلمان) و(تيتكاه) في كتابهما الموسوم بـ: "مصنّف في الحجج الخطابية الجديدة"، على اعتبار أنّ هذا التصنيف "أقرب إلى المنطق والشّمولية كما يقدم الفروقات بينها ويحدد المنطلقات التأسيسية لهذه الحجج أثناء بناء الحجج، علماً أنّ هذا التصنيف يدرج الحجج في ثلاث مجموعات كبرى تنجزاً بدورها إلى أنواع فرعية من الحجج"⁽¹⁾، ستعرض بالتفصيل من جانبها النظري، أمّا استنطاق جانبها التطبيقي فسيجسد حين نتطرق إلى مدوّنة هذه الدراسة، وهذا بيان أنواع الحجج وفق المنظور المذكور آفاً:

1-2-3 الحجج شبه المنطقية:

هي الحجج التي أخذت من المنطق بنيتها وقبولها للصياغة المنطقية؛ وافتقرت عنه في كونها غير ملزمة "أي أنّها لا تلزم المرسل إليه بدعوى ونتيجة الحجج"⁽²⁾ كما هو الحال في الحجج المنطقية "التي تجبر المرسل إليه على تقبل النتيجة"⁽³⁾، وتستمدّ "الحجج شبه المنطقية قوتها الإقناعية من مشابهتها للطرائق الشكلية والمنطقية والرياضية في البرهنة"⁽⁴⁾ وهذا ما يمنحها قالباً منطقيّاً شكليّاً، تجمع فيه "المعطيات وتكيف، فتجعلها شبيهة باستدلال منطقي صارم، فما يميزها إذن حقيقتها اللاشكليّة التي تجتهد في كونها شكلية أو تعدّل وتبدّل لتكون كذلك"⁽⁵⁾ من خلال اعتمادها على البنى المنطقية، مثل التناقض، والتّمائل التعديّة، كما تعتمد أيضاً على العلاقات الرياضية مثل علاقة الجزء بالكلّ وعلاقة الاحتمال، ولهذا تنقسم الحجج شبه المنطقية إلى قسمين أساسيين هما:

1-1-2-3 الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية: ومن أشكالها:

1-1-2-3-أ- التناقض وعدم الاتفاق أو التعارض:

إن المقصود بالتناقض في الخطاب الحجاجي هو عدم الاتفاق، إذ يقدم الحجاج "أطروحة ما مبينا أنّها لا تتفق مع أخرى"⁽⁶⁾؛ ويُعتمد هذا النوع من الحجج من أجل إبراز قضيتين متناقضتين في خطاب ما إحداها

(1) حمدي منصور جودي، الحجج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 111.

(2) المرجع نفسه، ص 111.

(3) المرجع نفسه، ص 104.

(4) عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطلقاته وتقنياته، ص 325.

(5) سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي القديم، ص 191.

(6) Reoul(O): Introduction à la rhétorique ; théorie et pratique ; presse universitaire de France, 1999 ;p174.

صحيحة والأخرى خاطئة، لدفع المخاطب إلى الميل للصحيحة وإقصاء الخاطئة، وبالتالي يصل إلى النتيجة المرجوة من الحجج، فيتحقق بذلك مبدأ الاستمالة والإقناع⁽¹⁾.

نوظف هذا النوع من الحجج في أغلب الحالات في إطار منهجية الدحض من خلال إبراز التناقض وعدم الاتفاق في أطروحة الخصم " اعتماداً على القانون المنطقي القائل إنه لا يمكن أن يكون شيئاً وضده"⁽²⁾

✓ ومن ذلك قول أحدهم- محتجاً لضرورة صفح المخاطب وحلمه- " فعياذاً بالله أن يسفك بك دم وميتك بسببك محرم، أو يهلك بطلبك مسلم، وأنت العالم بأمر الله، والقائم بسنة رسوله، والحاكم بما يرضاه والعاصم بتنزيهه، والمقتدي بسبيله، والمهتدي بدليله"⁽³⁾

فالمخاطب في هذا السياق احتجّ لدعواه بإبراز عدم الاتفاق بين البطش وسفك الدماء، وما يتصف به المخاطب من علم واتباع لأوامر الله وسنة نبيه، فيضعه بين أمرين متناقضين فيفتد بذلك القضية الأولى (البطش وسفك الدماء)؛ لأنّ ذلك يتناقض مع صفاته، ومن ثمّة إقناعه بضرورة الصفح والحلم.

3-1-1-2-3 ب - التمثال والحدّ في الحجج:

يقوم هذا النوع من الحجج على مبدأ التمثال " إذ يعتمد المحتج لفكرة إلى التعريف وضبط الحدود"⁽⁴⁾ بين العنصر المعرف والعنصر المعرف إلا أنّ ما يقدمه من تعريفات " لا تنتمي البتّة إلى نظام شكلي بل تدعي قيامها بدور الضبط والتحديد رغم افتقارها إلى الدقّة والوضوح"⁽⁵⁾ "فالمخاطب يقصد الاستعانة بالتعريفات وضبط الحدود في طريقتها الشكلية لتقويم المفاهيم تقوياً إيجابياً أو سلبياً في ذهن المخاطب ودفعه إلى إعمال الفكر فيما يُعرض عليه لتقبّله أو ردّه، تبعاً للقيمة الدلالية لتلك التعريفات من باب تحصيل الحاصل"⁽⁶⁾.

ومثال ذلك: الدّنيا هي الدّنيا، فهذا التعريف يفتقر إلى الدقّة والوضوح، فقد يفهم المخاطب من الدنيا على أنّها الحياة بناسها وملذّاتها ومشاكلها وأحداثها، كما قد تحيل على الخداع والإغراء والفتنة.

(1) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 112، وينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجج في البلاغة المعاصرة، ص 128.

(2) كورنيليا فون راد- صكوحى، الحجج في المقام المدرسي، ص 24.

(3) عبد العالي قادا، الحجج في الخطاب السياسي، ص 186.

(4) سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه، ص 200.

(5) المرجع نفسه، ص 200.

(6) حمدي منصور جودي، الحجج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 113.

إذن من يسمع هذه العبارة أو من يقرؤها هو الذي يعطيها كلّ مرّة التأويل المناسب، بمعنى أنّ دلالتها الحجاجية لا تتحدّد إلا في مقام بعينه وهو الذي يعطي لها دلالتها المخصوصة⁽¹⁾

3-1-2-3-1 ج الحجج القائمة على العلاقة التبادلية:

تعالج الحجج القائمة على العلاقات التبادلية "وضعيتين إحداها بسبيل من الأخرى معالجة واحدة"⁽²⁾، بسبب علاقة التماثل المضمرة بينهما؛ وهذه العلاقة تؤدي إلى تطبيق قاعدة العدل والتي تقتضي معاملة واحدة لكائنات أو وضعيات مُندرجة ضمن مقولة واحدة⁽³⁾.

ويعتمد المخاطب هذا النوع من الحجج لقلب وجهات النظر، أو التناظر العكسي؛ ليوجه المخاطب إلى المقصود من خطابه، ويحقّق بذلك العدل، تبعاً للسياق المحيط به. ويمثل عبد الله صولة لهذا بمقولة تعتمد فكرة التناظر العكسي: "أحلال عليكم حرام علينا"⁽⁴⁾ فالمخاطب هنا يقصد إقامة العدل بين أمرين متماثلين من خلال الموازنة بين الحجج العكسية المتناظرة.

3-1-2-3-2 د حجة التعدية:

هي من العلاقات الشكلية شبه المنطقية التي "تقوم على أساس علاقات معينة بين أطراف متعددة"⁽⁵⁾ وتعتمد الإجراء الاستنتاجي في الانتقال من طرف إلى آخر، فهي خاصية "تتّصف بها ضروب من العلاقات التي تتيح لنا أن نمزج من إثبات أن العلاقة موجودة بين (أ) و (ب) من ناحية وبين (ب) و (ج) من ناحية أخرى هي علاقة واحدة، وإلى استنتاج أنّ العلاقة نفسها موجودة بالتالي بين (أ) و (ج)"⁽⁶⁾ ومن ضروب العلاقات التي تقوم على خاصية التعدية بين أطراف متعدّدة نذكر علاقات التساوي والاستلزام. ويمكن تمثيل علاقة التساوي بين الأطراف وفق المعادلة التالية:

$$أ = ب \text{ و } ب = ج \text{ إذن } أ = ج$$

وتمثيل ذلك في الآتي:

(1) ينظر: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجج عند شاييم بيرلمان، ص 64، وينظر: عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 328.

(2) عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 328.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 328، للمزيد ينظر: علي الشبعان، الحجج والحقيقة وآفاق التأويل، بحث في الأشكال والاستراتيجيات، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص 140-142.

(4) عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 328.

(5) حمدي منصور جودي، الحجج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 113.

(6) عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 329.

السخط = الغضب، الغضب = الغيظ، إذن السخط = الغيظ

أ = ب، ب = ج، إذن أ = ج ومنه يكون ب وسيطا بين أ و ج

2-1-2-3 الحجج شبه منطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية:

يعتمد هذا النوع من الحجج شبه المنطقية على قواعد رياضية "تشكل خلفيتها العميقة ونسيجها الداخلي بل تؤسس طاقتها الحجاجية وتعدّ معينها الإقناعي"⁽¹⁾ وتستند على الاستدلال والاستنتاج للوصول إلى النتائج المقصودة ومنها:

2-1-2-3-أ إدماج الجزء في الكل:

يقوم هذا النوع من الحجج على مبدأ رياضي يتمثل في "أنّ ما ينطبق على الكلّ ينطبق على الجزء"⁽²⁾ لأنها تقوم في جوهرها على رؤية كميّة. كما أنّ الكلّ يحتوي الجزء وتبعاً لذلك فهو أهمّ منه، ولذلك تعدّ قيمة الجزء مناسبة لما تمثله بالنسبة إلى الكل⁽³⁾.

وإنّ هذا النوع من الحجج يقوم على إدماج الجزء في الكل باعتبار أنّ الأول مندمج في الثاني، "والحكم العام مختصّ بهذا الكلّ لينسحب بعدها على الأجزاء المكوّنة له، وفي الحجاج تعكس هذه الحجّة رغبة المرسل في استدراج المرسل إليه إلى المقصود بحدّ ذاته، انطلاقاً من اتفاق مسبق حول قضية كلية لا تعارض فيها بينهما، ومن ثمة ينسحب ذلك الاتفاق إلى الأجزاء المقصودة لإقناع المرسل إليه."⁽⁴⁾

ومثال ذلك تلك القاعدة الفقهية المعتمدة في تحريم الخمر (ما أسكر كثيره فقليله حرام)، فالحكم العام كان بتحريم الخمر انطلاقاً من الإكثار منه، ليستنتج تحريمه أيضاً وإن قلّ شربه أي قام بدمج الجزء الكميّ وهي شربة الخمر في الكلّ الكميّ الخمر الكثير.

2-1-2-3-ب تقسيم الكلّ إلى أجزائه المكوّنة له:

تفيد الحجج الرامية لتقسيم الكلّ إلى أجزائه التي يتكوّن منها أنّنا نسلم، سلفاً، بأنّ الكلّ موجود فتقوي حضوره بواسطة التصريح بالحديث عن أقسامه أو أجزائه المكوّنة له⁽⁵⁾؛ فحين يتخذ المُحاججُ مقدّمة مفادها أنّ: المدينة منهارة، عليه أن يُعيد أحياءها وشوارعها المتضررة، كي يزيد لها حضوراً في ذهن المُخاطب، وإذا

(1) سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي بينه وأساليبه، ص 203.

(2) عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 330.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 330، وينظر: سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي بينه وأساليبه، ص 210 - 211.

(4) حمدي منصور جودي، الحجج في كلفة ودمنة لابن المقفع، ص 115.

(5) ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجج، دراسات وتطبيقات، ص 48.

ادّعى المُحاجج أنّ التّولة متخلّفة فعليه أن يُعدّد مجالات الحياة والقطاعات التي تشهد بفكرة التخلّف، فتراه يُجمل القول ثمّ يقسّمه إلى أجزاء، وكلّما بسّط الحجج في تلك الأجزاء كلّما اقتنع المخاطب بتخلّف الدولة.

3-2-1-2-3 حجة المقارنة:

يقوم هذا النوع من الحجج "على مقارنة الحقائق فيما بينها، لا من أجل الحكم بالتشابه أو الاختلاف بينها، وإنما بغرض تقديم حجة على حكم ما، إنها إذن مقارنة دقيقة تقابل بين مصطلح وآخر"⁽¹⁾؛ فالمُحاجج هنا يقوم بفحص التشابهات أو الاختلافات ليكشف للمخاطب شيئاً آخرًا يريد إقناعه به؛ "ويفتح حقل استثماراته ويخرجه إلى العالم بنظرة ضيقة جدًا نحصرها في قطبين اثنين، هما الشّيء المقارن والشّيء المقارن به"⁽²⁾ والغاية من هذه المقارنة استدراج المخاطب إلى الاختيار الأمثل عن طريق اعتماد "استعمال أسماء التفضيل (أكثر من، أقل من)؛ [...] وينبج عن هذه المقارنة ذات الطابع الإثباتي أحكامًا قيمية، كمقدمة لحالة عدم التوازي التي تقضي أحد طرفي المقارنة، وتبرز الخيارات الإيديولوجية للخطيب الذي يرمي إقناع المخاطب"⁽³⁾ وحسب وجهة نظرنا تنجح عملية المقارنة إذا نجح المُحاجج في اختيار مصطلحاتها، إذ بها تتحدّد القوة الإقناعية للحجة، انطلاقًا من رسمها لموضوع الشّيء المقصود، بالنسبة للأشياء الأخرى، ولهذا ينبغي أن يحظى اختيار مصطلحات المقارنة بعناية كبرى لأنها تؤدّي دورًا أساسيًا في فعالية الحجة.

ومثال ذلك: ما جاء في نصّ الأم مدرسة حيث قارن قاسم أمين العناية الجسديّة للأطفال بالعناية النفسية التي هي أصعب حسب ما يرى "وإذا كانت وقاية الطّفل من الأمراض مما يحتاج إلى معلومات كثيرة فالوقوف على غرائز الطّفل الطيبة وغرس الصّفات الحميدة في نفسه يحتاجان إلى معارف أدقّ ومعلومات أوفر"⁽⁴⁾.

3-2-1-2-3 د حجة الاحتمال:

يتأسس هذا النوع من الحجج "على حظوظ المرء في تحقيق أمر ما أو إنجاز حدث معين أو اتخاذ موقف محدد"⁽⁵⁾ من خلال ترجيح الغالب من القضايا المدرجة في الحجج؛ إذ يترك مجال التّرجيح في هذا الأمر للمخاطب كي يربط الواقعي بالمحتمل من تلك القضايا، وغاية ذلك استمالتة إلى النتائج الحجاجية المرجوة

(1) فضيلة قوتال، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، ص 178.

(2) المرجع نفسه، ص 179.

(3) المرجع نفسه، ص 182.

(4) كورنيليا فون راد-صكوحى، الحجج في المقام المدرسي، ص 21.

(5) سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي القديم، ص 213.

على أساس أنها تعبير صريح منه عن قناعاته وأفكاره التي اعتمدها في مجال التّرجيح تبعاً للسياق المحيط بالحجاج، وما يفرزه من قرائن مساعدة على التّرجيح⁽¹⁾ والمثال الآتي يوضح ذلك:
إنّ شهادة الرّجل أصوب من شهادة الرّجلين.

فالواقع قد ينفي هذه الحجّة؛ لأنّ شهادة الرجلين أعدل وأقرب إلى اليقين والصّدق من شهادة الرجل الواحد؛ فإذا زاغ أحدهما عن الطريق السويّ أرشده الآخر، لكنّ من باب الاحتمال والتّرجيح في سياقات معيّنة، قد تكون شهادة الرجل المتصف بأخلاقه ومروءته وشهامته أصدق من شهادة مائة رجل.

2-2-3 الحجج المؤسّسة على بنية الواقع:

تمثّل الحجج القائمة على بنية الواقع المجموعة الثّانية من أنواع الحجج، وهي عكس سابقتها لا تعتمد على المنطق بل على ما يقدّمه الواقع من تفسير وتوضيح قائم على العلاقات الرّابطة بين عناصره بوصفها خبرات وتجارب سابقة، يمكن أن تكون نقطة انطلاق ناجحة للعملية الحجاجيّة، يوظّفها المخاطب " للربط بين أحكام مُسلم بها كبنية واقعيّة لا مجال للشكّ فيها، وأحكام غير مُسلم بها يسعى الخطاب إلى تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة مُسلمًا بها"⁽²⁾ عند المخاطب بسبب اتصالها بالأحكام السّابقة المتفق عليها، " فلا يمكن أن يسلم بأحدها دون أن يسلم بالآخر"⁽³⁾.

ويأخذ الترابط بين هذه الأحكام إمّا شكل الاتّصال التّتابعي ويكون " بين ظاهرة ما وبين نتائجها أو مُسبباتها"⁽⁴⁾، وإمّا شكل الاتّصال التّواجديّ كحجة " بين شخص وأعماله."⁽⁵⁾ كما أنّ الفرق الأساسي بين الاتّصال التّتابعي والاتّصال التّواجديّ يكمن في أنّ التّرتيب الزّمني أساسيّ في الأول ثانويّ في الثّاني⁽⁶⁾ ومن أنماط الاتّصال الحجاجيّ بين ما هو كائن وما سيكون من أحكام نذكر:

1-2-2-3 وجوه الاتّصال التّتابعي:

1-2-2-3 أ الحجّة السّببيّة:

(1) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 115.

(2) عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 331.

(3) محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجج في البلاغة المعاصرة، ص 130.

(4) عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 332.

(5) المرجع نفسه، ص 332.

(6) ينظر: المرجع نفسه، ص 332

حدّ هذه الحجّة "أنها الحجّة التي يحصل بها تقويم عمل ما أو حدث ما باعتبار نتائجها الإيجابية أو السلبية"⁽¹⁾، وتقوم على أساس تتابع وتسلسل الأحداث الواقعيّة التي يربط بينها رابط سببي، يصل بين الحجّة والنتيجة المقصودة، من أجل التأثير في المخاطب وتوجيهه إلى سلوك معيّن، "من خلال تبيين هذه النتيجة في ذهنه وجعلها مطابقة لحقائق الواقع، عن طريق استدلال حجاجي مباشر، يربط بين الحجّة ثمّ النتيجة، أو بين النتيجة ثمّ الحجّة"⁽²⁾.

وللحجّة السببية ثلاثة ضروب من الحجاج⁽³⁾:

1- ربط تتابعي بين حدثين برابط سببي (حجّة ونتيجة)، نحو:

اجتهد ← فنجح

حجّة ← نتيجة

2- حجاج يربط بين وقوع حدث ما (نتيجة) وسبب حدوثه (حجّة)، نحو:

نجح ⇒ لأنه مجتهد.

نتيجة ⇒ حجّة.

3- حجاج يربط من باب الاحتمال بين حدث منجز (حجّة) وبين ما يفضي إليه (نتيجة) مثل:

هو مجتهد ← فسينجح

حجّة ← نتيجة

3-2-2-1-ب الحجّة الغائيّة: (وتندرج ضمنها حجّة التّبذير، حجّة الاتّجاه)

يتأسس هذا النوع من الحجج على العلاقة القائمة بين الوسيلة والغاية، "ففي سياقات تواصلية معيّنة يضطرّ المخاطب أثناء حجاجه إلى جعل النتيجة غاية ما يصبو إليه، متحجّجا في ذلك بالضرورات السياقية التي تدفع إلى هذه النتيجة"⁽⁴⁾ ممّا يضع المخاطب في موقف التّسليم بتلك الحجج، وإن تعارضت مع مبادئه وتوجّهاته؛ وذلك من خلال انتهاج المخاطب نهج التبرير للسلوك الذي يتبعه بكونه وسيلة في سبيل الوصول إلى الغاية المنشودة وبالتالي جعل المخاطب يقتنع ويميل إلى الأخذ بتلك الحجج لتقبّل النتائج.

(1) عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، ص 333.

(2) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 116.

(3) المرجع نفسه، ص 110، وينظر: عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، ص 332، وينظر: محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ص 130.

(4) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 117.

يظهر هذا الضرب من الحجج في "شعر الصعاليك الذين لا يجدون حرجا في الإغارة على القبائل والقوافل وفي سفك الدماء وسبي النساء والنهب والسلب، هم يررون هذا النهج الذي يتبعون وذاك السلوك الذي يسلكون بكونه وسيلة لغاية سامية هي تحقيق العدالة الاجتماعية بتوزيع عادل للثروات فيعمدون جميعا إلى حجة واحدة هي القول بأن الغاية تبرر الوسيلة"⁽¹⁾.

واعتبار الغاية تعود إليه حجة أخرى هي حجة التبذير (أو ما يطلق عليها حجة التبديد) تتأسس هذه الحجة على التابع والاستمرارية بين الأقوال والأفعال "دون اعتماد على السببية"⁽²⁾.

ويتجسد فحواها في قولنا "بما أننا شرعنا في إنجاز هذا العمل وصحينا في سبيله بما لو أعرضنا عن تمامه لكان مضیعة للمال وللجهد فإنه علينا أن نواصل إنجازنا"⁽³⁾؛ ومعنى ذلك: بما أننا سبق أن بدأنا عملاً تجشمتنا لأجل إنجازنا تضحيات ستذهب هباء إن استسلمنا وتقاوسنا عن مواصلة الجهد لإتمامه فينبغي أن نواظب على العمل في نفس الاتجاه لبلوغ الغاية التي نرمي إليها.

وفي السياق ذاته تلوح حجة أخرى هي حجة الاتجاه وتقوم في جوهرها على مبدأ التحذير من السير في اتجاه معين لأنه قد يوصل المخاطب إلى غير ما يرجو وخلاف ما يأمل؛ أي إنه يقوده إلى غاية لا ينشدها وإلى نتيجة يتحاشى حدوثها⁽⁴⁾ كالتحذير "من مغتة اتباع سياسة المراحل التنازلية كقولنا إذا تنازلت هذه المرة وجب عليك أن تتنازل أكثر في المرة القادمة والله أعلم أين ستقف بك سياسة التنازل هذه؟"⁽⁵⁾ ففي هذا المثال يدعو المخاطب المخاطب إلى إعادة هيكلة حساباته وبرمجتها وإقناعه بعدم التنازل بداية لأنه لو تهادى في هذا التنازل سيصل إلى نتائج وخيمة لا تحمد عقباه، وبالتالي ضرورة تغيير مسار النتيجة التي تتوقف على مدى تغيير اتجاه سلوكياته.

أو التحذير من مغتة انتشار ظاهرة ما مما يسمى حجة الانتشار أو حجة العدوى ومثل لها بالمثل القائل "من سرق بيضة سرق ثورا"⁽⁶⁾، ونحو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "مثل الجليس الصالح والسوء

(1) سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي القديم، ص 221.

(2) عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، ص 171.

(3) عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 333.

(4) ينظر: سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي القديم، ص 225.

(5) عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 333.

(6) عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، دراسة نظرية وتطبيقية، ص 171.

كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْدِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَحِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَبِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَحِدَ رِيحًا حَبِيثَةً⁽¹⁾.

ومن هذه الأمثلة يظهر لنا أنّ استعمال هذا النوع من الحجّة يكثر خاصّة في القضايا الأخلاقية، لأنّ النزاع فيها خطير، يؤدّي إلى انتشار الفعل وتفاقمه وتوسّعه وصعوبة التّحكّم فيه.

3-2-2-2-2-2 وجوه الاتّصال التّواجديّ:

3-2-2-2-3 أ حجة الشّخص وأعماله:

تؤدّي هذه الحجّة دورا هاما في الحجاج انطلاقا من تداخل العلاقة بين الذات وصفاتها وأفعالها فيعمد المحاجج إلى ربط العمل بصفات صاحبه وأفعاله بغية استمالة المحاجج وإقناعه؛ لأنّ الحجاج قد "يربط العمل بصاحبه، ويعيننا على فهم عمله، وعلى إمكان تقويمه"⁽²⁾ وذلك عن طريق "تحديد العلاقة بين ما ينبغي أن نعتبره جوهر الشّخص وبين أعماله التي هي تجلّيات ذلك الجوهر"⁽³⁾؛ التي توفرّ لدينا أفكارا وآراء ومعارف سابقة كونها حول صاحب العمل فيُسهّل ذلك في تحديد المقاصد والغايات الحجاجية، ممّا يسهّل عمليّة إقناع المخاطب ويزيد من نسبة اقتناعه وقيامه بفعل معيّن.

كما أنّ هذه العلاقة الاتّصالية التّواجدية بين الشّخص وأعماله لا يتبع الحجاج فيها "مسار عمل شخص فقط، وإنّما يتبع فيها أيضا مسار شخص - عمل، وهو ما أسماه برلمان "التّداخل بين العمل والشّخص"⁽⁴⁾. إذ إنّ هذا التّداخل قائم على الرّبط بين الشّخص بوصفه جوهرًا، وأعماله التي يتمظهر من خلالها فوجود الشّخص يتجلى من خلال أعماله، وهذه الأعمال تعكس صورته وصفاته ومسار شخصيته، ولهذا فتمّ تداخل بين الشخص وأعماله، فينشأ بذلك اتّصال تواجدي عكسي بينهما، يتحرّك في اتجاهين متعاكسين من الشّخص إلى أعماله، ومن أعماله إلى شخصه، ومثال ذلك:

✓ من يؤلّف كتابا فلسفيا لا يكون إلاّ ذكيا، هذا الخطاب يحتوي على حجة توضح لنا أنّ الحكم على شخص من خلال أعماله وتقويم ذكائه، وهو الشّيء الجوهريّ الذي يتّصف به ويتجلى في عمله.

(1) أخرجه البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي (ت256هـ)، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1

1422هـ، كتاب الذبائح والصيد، باب: المسك، رقم الحديث 5534، ج7/ ص 96.

(2) عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، ص 334.

(3) المرجع نفسه، ص 334.

(4) المرجع نفسه، ص 334.

✓ من أضرَم في نفسه النَّار، وأحرق منزله لا يمكن إلا أن يكون مجنوناً. الجنون جوهر وأعمال إضرام النَّار في النَّفس وحرق المنزل تجليات للشَّخص، أو الشَّخص في جوهره مجنون وأعماله تلك تجليات لذلك.

3-2-2-2-ب حجة السُّلطة:

يستمدُّ هذا النوع من الحجج قوته الإقناعية من هيبة المخاطب ونفوذه، وتتعدَّد مصادر وأشكال هذه السُّلطة، فقد تكون " الإجماع أو الرَّأي العام أو العلماء أو الفلاسفة أو الكهوت أو الأنبياء وقد تكون هذه السُّلطة غير شخصية مثل الفيزياء أو العقيدة أو الدين أو الكتاب المقدَّس وقد يعتمد في الحجج بالسُّلطة إلى ذكر أشخاص معيَّنين بأسمائهم على أن تكون سلطة هؤلاء جميعاً معترفاً بها من قبل جمهور السامعين في المجال الذي ذكرت فيه"⁽¹⁾، وليس بالضرورة أن تكون حجة السُّلطة تستند إلى شخص ذي سلطة ما فحسب، بل يمكنها الاستناد إلى مؤسسة رسمية: قانونية، قضائية، تشريعية، تنفيذية، علمية... إلخ، تعنى بإصدار منشورات تستعمل كحجة قاطعة.

" ويكون هذا النوع من الحجج أقرب إلى البرهنة واليقين على أساس أن مرجعيتها أمر لا جدال فيه"⁽²⁾. فحينما يستدلُّ المخاطب في مجتمع مُسلم مثلاً بالقرآن الكريم أو بالحديث النبوي الشريف فإنه يضع المخاطب أمام نص لا اجتهاد فيه، ممَّا يدفعه إلى تقبل النتائج المقصودة من الحجج. إذن يؤدي هذا النوع من الحجج القائمة على بنية الواقع دوراً كبيراً في الخطاب الحجج، ويتيح للمخاطب استقراء حججه من الواقع " باعتباره أساس البناء وقاعدة التقويم"⁽³⁾، فالمخاطب يقتنع ويدعن للوقائع والأحداث وبفضل ما تقدّمه أنواع هذه الحجج بشقيها التَّباعي والتَّواجدي، والفرق الأساسي بين هذين الشَّقَّين يكمن في أن التَّرتيب الزمني الأساسي في الأول وثانوي في الثاني، فينتج عن التَّرتيب التَّزامني الأوَّل علاقة تتابعية، في حين يركز الثاني على العلاقة التَّواجدية.

فصفة التَّزامن التَّباعي والتَّواجدي التي تميز بها هذه الحجج القائمة على بنية الواقع من شأنها أن تجعل الخطاب الحجج " أنجع وأقدر على الفعل في المتلقِّي والتأثير فيه كلما انغرس مراجعته في الواقع وتنزلت عنصره فيما حدث وما يحدث"⁽⁴⁾.

(1) عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 335.

(2) حمدي منصور جودي، الحجج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 118.

(3) علي الشعبان، الحجج والحقيقة وآفاق التأويل، ص 149.

(4) سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي القديم، ص 214.

3-2-3 الحجج المؤسّسة لبنية الواقع :

تقابل الحجج السابقة القائمة على بنية الواقع صنفاً آخر من أنواع الحجج يقبل التقنية نوعاً ما، لأنّها "لا تتأسس على معطيات الواقع، ولا تقوم على حقائقه وفرضياته، وإنّما تتدخل في عملية البناء"⁽¹⁾ فتؤسس واقعا جديداً وتبنيه، فمنتهى "الحجاج التّاجع بناء واقع جديد يقنع به المحاج جمهوره ويرسم من خلاله معالمه الرؤيويّة وهيئاته التّصوريّة"⁽²⁾ أو يكشف عن علاقات خفيّة بين عناصر هذا الواقع ومكوناته من خلال "جملة من الوسائط وجمع من الحالات الخاصّة"⁽³⁾ كاستحضار الأمثلة والاستشهادات وإنّما بواسطة التمثيل الذي يصنع واقعا وهمياً يستميل المخاطب حسّ القارئ ومخيلته معاً، وهذا من شأنه أن يمضي بالفعل الحجاجيّ إلى أقصى مراتبه تأثيراً وتوجيهاً؛ لأنّ هذه الحجج "تعمل على نقل التّصوّرات والمدركات التي تُسهم في وضع حدود الواقع المقصود"⁽⁴⁾.

تتأسس الحجج المؤسّسة لبنية الواقع على صنفين من أنواع الحجج هما:

3-2-3-1 الحجج المؤسّسة بواسطة الحالات الخاصّة:

يستدلّ المحاجج أحيانا لدعواه بحالة مفردة معزولة يؤسّس عليها حكماً يسعى إلى تعميمه وتوسيعه فيبرر العام انطلاقاً من الخاص ليتأسّس الواقع "على ظاهرة مفردة يتمّ توسيعها، بحيث تصبح حالة عامّة لا مجرد حالة خاصّة ثمّ الانطلاق منها وبناء الواقع عليها"⁽⁵⁾.

ومن بين هذه الحالات الخاصّة المثال، الشاهد، القدوة والقُدوة المضادة.

أ- **المثال: (lexemple)** يقدّم المثال ما يمكن أن يكون حالة خاصّة نسعى من خلالها إلى تعميم الحكم وإنشاء القاعدة؛ فينطلق المحاجج من ذكر مثال كحالة خاصّة، ويسمح الاتّفاق حوله بإسقاطه على حالات خاصّة مشابهة ليُساعد على تأسيس قاعدة عامّة مُبرهنة.

ب- **الشاهد:** قول يستعمل لتعزيز فكرة أو رأي و "يكتسب أهمّيته من علاقة المشابهة التي يخلقها بين الواقعة أو الحدث وبين ما يستحضره، إذ يمكن للشاهد أن يكون أداة لإثارة تصديق الواقعة التي يساق من أجلها"⁽⁶⁾.

(1) حمدي منصور جودي، الحجج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 119.

(2) علي الشبعان، الحجج والحقيقة وآفاق التأويل، ص 165.

(3) المرجع نفسه، ص 165.

(4) حمدي منصور جودي، الحجج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 120.

(5) سامية التريدي، الحجج في الشّعر العربيّ بينه وأساليبه، ص 243.

(6) فضيلة قوتال، محاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2017، ص 347.

ولابدّ من الإشارة إلى تعدّد الترجمات المقدمة لهذا المصطلح الذي قدّمه بيرلمان وهو *l'illustration* إذ قابله بعضهم بالشاهد كما فعل علي الشعبان في (كتابه الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل)، وقسّمه إلى الشاهد القرآني، الشاهد الحديثي، الشاهد الشعري والتاريخي⁽¹⁾.

أما عبد الله صولة فقد ترجم هذا المصطلح بالاستشهاد وميّز بينه وبين المثال إذ اعتبر " أن الاستشهاد يؤتى به للتوضيح، في حين إن المثال يؤتى به للبرهنة ولتأسيس القاعدة"⁽²⁾. وعلى العموم فإنّ المثال يسبق القاعدة في حين إنّ الاستشهاد يلحقها لتقوية الحجّة⁽³⁾، فالوظيفة الحجاجية للشاهد تكمن في تقوية الفكرة وتأييد حضورها وإعطائها صفة الشرعية.

ج- القدوة والقدوة المضادة: (النموذج والتمّوج المضاد*)

نقصد بالنموذج أن يكون شخص ما قدوة، يقتفي الآخرون سلوكه، ويُؤسّس قواعد سلوكية عامّة ينسج الناس على منوالها، مثل: الأنبياء، العلماء، القادة، الزعماء، والمشاهير... إلخ، وحجّة النموذج هذه تتضاد مع حجّة عكس النموذج التي تدعو إلى كسر النموذج والانفصال عنه⁽⁴⁾.

فيشترط في النموذج أن تكون له هبة في ذاته أو يصنعها له المخاطب من خلال اللّغة بتقديمه في صورة فاتنة مغرية تدفع المخاطب إلى الاقتداء به، وعكس ذلك في النموذج المضاد إذ يحرص على تقديمه في صورة تؤدّي إلى التفور منه.

3-2-3 الحجج المؤسسة بواسطة التمثيل:

يتأسس هذا النوع من الحجج على التخييل؛ إذ يحتاج الأمر معيّن عن طريق "علاقة الشبه التي تربطه بأمر آخر فندخل بذلك مجال التشبيه أو الاستعارة، أو ما عالجته الفلاسفة تحت عنوان القياس الشعري"⁽⁵⁾. ويقوم هذا القياس على "استدلال مباشر تتحكم فيه القدرة والكفاية الذهنية للمرسل إليه أثناء الحجاج"⁽⁶⁾ مع العلم أن القياس في شكله الصريح يبني على مقدمتين كبيرى وصغرى يقودان إلى استنتاج⁽⁷⁾ على عكس

(1) ينظر: علي الشعبان، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، ص 168 إلى 175، وينظر: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شايم بيرلمان، ص 84.

(2) عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 337.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 337.

* عكس النموذج

(4) ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، ص 55-56.

(5) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بينه وأساليبه، ص 252.

(6) حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 121.

(7) ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بينه وأساليبه، ص 253.

القياس الشعري الذي يكتفى فيه "بالاستنتاج الذي يخفي مقدمتين وذاك طبيعي لأنّ الشكل الصريح يهدم طاقة الاستعارة أو التشبيه الاليجائية ويهدّد بشكل قاطع قدرة الصورة على الفعل والتأثير"⁽¹⁾.

إن الحجاج الذي يعتمد على حجة التمثيل سواء كان تشبيها أو استعارة يمثلان ضربا من القياس يؤثر في المخاطب فتسليمه بصحة المقدمتين الكبرى والصغرى يدفعه إلى التسليم بالاستنتاج، "وذلك التسليم يتأتى من المقاربة بين معطيات وبنى مختلفة في ذهن المرسل إليه، وعن طريق عمليات ربط ذهنية استنتاجية تصبح هذه المعطيات أو البنى في مجال واحد وحول قضية واحدة، وهذا هو وجه الإقناع في الحجج التي تتأسس بواسطة التمثيل"⁽²⁾. علما أن العلاقة التي يتم استنتاجها "ليست علاقة تشابه بل تشابه علاقة"⁽³⁾ ولتوضيح هذه الحجة نسوق الشاهد القرآني الآتي:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾⁽⁴⁾.

ويضرب الله تعالى مثلا للمشركين في اتّخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون ويحتمون بهم في الشدائد، فشبهه حالهم بحال بيت العنكبوت في ضعفه ووهنه الذي لا يغنيها عن شيء عند حاجاتها إليه، فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم أولياؤهم الذين اتّخذوهم من دون الله بشيء، لو كانوا يعلمون ذلك ما اتّخذوهم أولياء، فعلاقة البنية الأولى بالثانية ليست علاقة تشابه بين الحالتين، وإنما تشابه العلاقة بينهما، فليس القصد تشبيه المشركين بالعنكبوت؛ وإنما تشبيه علاقة المشركين بأولياؤهم، بالعلاقة بين العنكبوت وبيته. ومدار التمثيل تبيان الاشتراك في الاعتصام بالوهن، وهذا لن يجديهم نفعاً، فالعلاقة على هذا الحال هي (انعدام المنفعة) وهذا المقصود بحكم التمثيل.

وتفصيل صياغة التماثل أننا نجد في هذه الآية الكريمة أربعة عناصر ممتثلة في الآتي: أ= المشركون، ب= أولياؤهم، ج= العنكبوت، د= بيته.

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بينه وأساليبه، ص 253.

(2) حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 121.

(3) عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 339.

(4) سورة العنكبوت، الآية 41.

والعلاقة بين هذه العناصر لا تجمع بينهما " علاقة تشابه" بل "تشابه علاقة"، وذلك أن علاقة [أ] بـ [ب] أي علاقة المشركين بأوليائهم يعبدونهم ويعتصمون بهم تشبه علاقة [ج] بـ [د] أي علاقة العنكبوت ببيتها تبنيه وتعتم به من المعتدي ولكن هذا الاعتصام لن يجديه نفعاً.

كيف ينبغي أن نستخدم التمثيل في الحجاج؟⁽¹⁾

يظهر الدور الحجاجي للتمثيل بأنه يفتح المجال للموضوع المطروح بواسطة الحامل المتضمن فيه ويديره في إطاره المفهومي ويوضح بنيته (الموضوع)؛ فعلى المحاجج أن يدرك التفاعل بين أطراف التمثيل (الموضوع والحامل / الممثل له والممثل)، وتقوى حجاجية التمثيل من خلال: إيجازه وكثافته واندماج أحد عناصر الموضوع مع أحد عناصر الحامل، ويستعير أحدهما صفات الآخر، وكلما تجذرت الاستعارة أو التمثيل الاستعاري* ورسخت في جماعة لسائتة ما كلما ألفها الناس وغدت صورة نمطية يُسهل قبولها والتسليم بها وأصبحت مادة ثقافية وعرفية مُندسة في البنى اللغوية.

خصصنا الحديث في هذا المبحث على أنواع الحجج الاتصالية دون الانفصالية*؛ لكون هذا النوع من الحجج تأتي متضافرة متصلة مُترابطة تُشكل بنية الخطاب الحجاجي، لتحقيق غاياته المتمثلة في استمالة وإقناع المخاطب؛ لأنَّ المخاطب لا يقتصر في حجاجه على استعمال نوع واحد من الحجج على حساب الأنواع الأخرى " وإنما ينوع ويعدّد في ذلك، حتى تصبح هذه الحجج المتضافرة، بنية حجاجية عامة تحقق الهدف"⁽²⁾ وتعكس عقلانية المحاجج بخلاف الحجج الانفصالية التي تقوم على الفصل بين المفهوم الواحد ويتوسّل المحاجج لأجل

⁽¹⁾ ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، ص 60-61، للتعمق في فهم التمثيل ينظر: محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، ص 99-106. ميلود نزار، آليات الحجاج في الخطاب الأدبي عند المُعزّلة، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللسانيات، إشراف الأستاذ الدكتور السعيد هادف، كلية اللغة والأدب العربيّ والفنون، جامعة باتنة-1- الحجاج لحضر، باتنة، 2017، 2018م، ص 283.

* ينظر: الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص 92 إلى 95.

* تتمثل دور الفصل الحجاجي بواسطة الطرائق اللغوية والكتابية في حمل القارئ على تمثيل مظهرين اثنين الشيء الواحد، مظهر زائف خداع براق من حيث أنه أول ما تصادفه الحواس ويراه الفكر ومظهر هو الحقيقة عينها، وطريقة الفصل هذه لا تعين القارئ على تمثيل حقيقة الأشياء فحسب بل تدعوه بالحاح إلى معانقتها فهي الحقيقة، وإلى ترك غيرها باعتباره الزيف. ينظر: ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي في كتاب " الإمامة والسياسة لابن قتيبة، دراسة تداولية، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه العلوم في اللغة، إشراف الأستاذ الدكتور السعيد هادف، جامعة الحاج لحضر، باتنة، قسم اللغة العربية وآدابها، 2009، 2010م، ص 97.

⁽²⁾ حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 122.

ذلك تعابير لغوية تفصل بين المفاهيم نحو: ظاهري / حقيقي، كذا/ ليس كذا، وجمل اعتراضية نحو: إن صح هذا التعبير، وبعض الأفعال نحو: يزعم، يتوهم⁽¹⁾.

هذه العبارات والأفعال والجمل الاعتراضية، تُقوم بمهمة الفصل داخل المفهوم الواحد بين ظاهره الذي يسمُّه الزيف وحقيقته التي ليست له، فيصبح المفهوم الواحد ذا حدّين متنافرين ومتعارضين. والمثال الآتي يوضح هذا النوع من الحجج:⁽²⁾

كقول قائل: إن طالبا لا يعرف منهجية إعداد بحث التخرج ليس طالبا. نتبين من هذا المثال أن المُحاجج لجأ إلى إعادة تعريف الطالب واستبعاد تعريف آخر، يراه زائفا متوسلا فصل الحقيقة (ليس طالبا) عن الظاهر الزائف (الطالب في عومه) فجاء هذا التعريف يزعم تقديم المفهوم الحقيقي للطالب.

إذ إن استخدام هذا النوع من الحجج الانفصالية في الخطاب يجعل المُحاجج عُرضة للنقد والاعتراض من طرف المخاطب؛ لأنه أحدث فصلا حجاجيا، بحكمه هذا، فيشعر المخاطب بعدم نجاعة حجاجه، ولهذا يشترط **بيرلمان وتيتيكاه** في هذا السياق، شرطا مفاده: على الخطاب التّاجع أن يتجنّب ضروب الفصل التي يمكن للمخاطب أن ينتبه إليها، وخصوصا إذا ظهرت القطيعة بين الظاهر والحقيقة وهذا من شأنه أن يضع الخطاب على محوري المعقول واللامعقول والمنطقي واللامنطقي⁽³⁾؛ وكل ذلك من شأنه أن يتيح للمخاطب بأن يحكم على خطاب المُحاجج بالتناقض والاعتراض ثمّ الرّفص، وهذا ما جعل عبد الرحمن الكواكبي يستبعدا في مدونته لأنها تسم الخطاب بالطابع غير العقلانيّ بفصلها بين المفهوم الواحد، ويستبقي على الحجج الاتصالية المشكلة لبنية الخطاب الحجاجي إذ أنها تُضفي على الخطاب الطابع العقلانيّ بما تحمله بنتها من علاقات اتصالية توضع على تراتبية، وهذا ما سنتّصّى أثره في المبحث الموالي.

3-3-السلام الحجاجية:

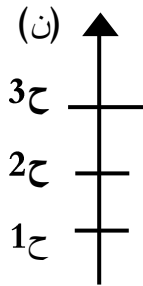
تقوم نظرية السلام الحجاجية على مبدأ التدرّج القائم بين الأقوال وتوجيه الحجج في علاقتها بالنتائج حيث إذا كانت مجموعة الأقوال تمثّل حججا تدعّم نتيجة واحدة، فإنّ هذه الحجج تتفاوت من حيث القوّة والضعف. وكذلك من حيث "خضوعها لمبدأ الصدق والكذب، فالمرسل ينظم حججه أثناء التّواصل وفق

(1) ينظر: عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 345.

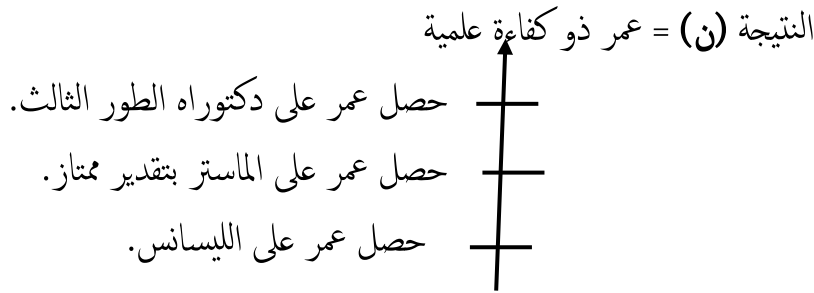
(2) ينظر: ميلود نزار، آليات الحجج في الخطاب الأدبيّ عند المعتزلة، ص 285.

(3) ينظر: عبد الله صولة، الحجج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 348.

ترتيب تتحكّم فيه معطيات متعدّدة، منها مرتبة المرسل وطبيعة المرسل إليه، والسّياق المحيط بالخطاب الحجاجي⁽¹⁾؛ لهذا يعرف السُّلم الحجاجي بأنّه "علاقة ترتيبية للحجج"⁽²⁾، ويمكن أن نرّمز لها كالاتي⁽³⁾:



ترمز (ن) إلى النتيجة المقصودة من الحجاج، أما (1ح، 2ح، 3ح) فترمز إلى الحجج المعتمدة أثناء الخطاب لتخدم النتيجة (ن)، ويمكن توضيح ذلك كما يلي:



فن خلال هذا المثال التوضيحي نجد ترتيباً في استعمال الحجج (1ح، 2ح، 3ح) وفق سُّلم حجاجي تصاعدي يؤدي إلى النتيجة (ن)؛ فلما كان كل من (1ح، 2ح، 3ح) حججا تستلزم نتيجة واحدة، فقد استحققت أن تدخل في مجموعة تدليلية واحدة، تسمى بـ الفئة الحجاجية، وكلّ فئة حجاجية تتحدّد بنتيجتها المشتركة، وعلى هذا تكون الفئة الحجاجية (1ح، 2ح، 3ح) مقيدة بالنتيجة (ن) وهي نتيجة مضمرة تتمثل في أن عمر ذو كفاءة علمية.

والملاحظ أنّ هذه الحجج المثبتة للنتيجة الواحدة لا تتعدّد فحسب، بل إنّها تتفاوت في قوتها الحجاجية بحيث يعلو بعضها على بعض، منشئة بذلك ما يدعى بـ السُّلم الحجاجي، فمثلاً الحجة (3ح) أقوى حجية من (2ح)⁽⁴⁾.

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 99-100.

(2) سمو النقاري، التّحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 134، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2006م، ص 59.

(3) المرجع نفسه، ص 59، وينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 100.

(4) ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 276.

إذن فعندما "تقوم بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجية ما، علاقة ترتيبية معينة، فإن هذه الحجج تنتمي إزاء ذلك إلى نفس السُّلم الحجاجي، فالسُّلم الحجاجي هو فئة حجاجية موجّهة"⁽¹⁾. وهذا ما جعل طه عبد الرحمن يعرّف السُّلم الحجاجي بأنه "مجموعة غير فارغة من الأقوال مزوّدة بعلاقة ترتيبية"⁽²⁾ وقيد اشتغاله بشرطين:

أ- "كلّ قول (حجّة) يقع في مرتبة ما من السُّلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه"⁽³⁾؛ ففي المثال التوضيحي السابق نلاحظ أنّ (ح1، ح2 ح3) تتساند جميعا لإثبات النتيجة ن، وتترابط فيما بينها بعلاقة الاستلزام، بحيث تستلزم الحجّة ح3 الحجّة ح2، وتستلزم الحجّة ح2 الحجّة ح1، ويبدو واضحا أنّ حصول عمر على الدكتوراه هي أقوى الحجج أو الأدلة على كفاءته العلمية، ونيله للدكتوراه مبني على نيله لما دونها حسب ما تقتضيه الأنظمة، لذلك فإنّ الحجّة (ح3) تستلزم ما دونها من الحجج.

ب- "كلّ قول كان في السُّلم دليلا على مدلول معيّن، وكان ما يعلوه مرتبة دليلا أقوى عليه"⁽⁴⁾؛ واعتمادا على المثال السابق نجد أنّ قوّة الدليل تزداد كلّما تصاعد ترتيب الحجج، فحجة حصول عمر على الليسانس تعلوها حجّة حصوله على الماجستير، وتعلو كلا الحجّتين السابقتين حجة أقوى منها ممثلة في كفاءة عمر العلمية واستحقاقه لشهادة الدكتوراه.

إذن كل الحجج (ح1، ح2، ح3) تربطها فيما بينها علاقات استلزام لخدمة نفس النتيجة، وإن تفاوتت فيما بينها من ناحية القوّة والضعف، فإنّها تعبر عن اختيار المخاطب الذي يعتبرها بمثابة أدلة مناسبة تخدم هدفه الذي يسعى إلى تحقيقه.

هذا ما يجعل الإقرار بعلاقة التلازم في عمل المحاجّة بين القول الحجّة ونتيجته هو المحرك الذي تنطلق منه نظرية السُّلم الحجاجي باعتبار أنّ هذا التلازم لا يتحقق إلا من خلال ربط الحجّة بنتيجتها، "سواء كانت هذه النتيجة صريحة أو ضمنية تلمس من سياق الخطاب"⁽⁵⁾.

(1) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 21.

(2) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 277.

(3) المرجع نفسه، ص 277.

(4) المرجع نفسه، ص 277.

(5) حمدي منصور جودي، الحجج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 101.

وعليه فإن المخاطب في الخطاب الحجاجي يضطلع بدور "من يلزم المخاطب باستخلاص صنف معين من النتائج"⁽¹⁾ باعتقاد سلم حجاجي يكون "بمنزلة دعامة استدلالية لغرضه الذي من أجله كانت العملية التخاطبية والحجج التي يوردها لن تكون على درجة، بل تختلف وتتفاوت فيما بينها وفق القوة والضعف"⁽²⁾ ففي المثال التوضيحي السابق يتبين لنا أن حجة (حصول عمر على اليسانس) لا يعني بالضرورة حصوله على شهادة الدكتوراه، إلا أن حجة (حصول عمر على الماجستير بتقدير ممتاز) تزيد من قوة الحجة الأولى على اعتبار أنها تأتي بعدها مباشرة، وهذه الحجة تزيد من قوة الحجة التي تعلوها، والتي ترد في أعلى درجات السلم الحجاجي وهي (حصول عمر على دكتوراه الطور الثالث) باعتبارها أقوى حجة على كفاءة عمر العلمية وتفوقه إذن هذه الحجج متصافرة ومرتبة ترتيباً تسلسلياً تصاعدياً تؤكد نتيجة مضمرة واحدة، وتمثل في كفاءة عمر العلمية.

والجدير بالإلماع أن السلم الحجاجي يتأسس وفق ثلاثة قوانين* وهي:

1- قانون التقي:

مقتضى هذا القانون "إذا كان قول ما "أ" مستخدماً من قبل متكلم ما ليخدم نتيجة معينة، فإن نفيه "أي - أ" سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة"⁽³⁾ بمعنى أن "نفي الحجج المستعملة في سلم حجاجي ما، يؤدي بالضرورة إلى عكس النتيجة المتوصل إليها في ذلك السلم الحجاجي"⁽⁴⁾

(1) أوزفالد ديكر، السلام الحجاجية، ترجمة صابر الحباشة، ضمن مؤلف الحجج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، نصوص مترجمة، ج5، ص 70.

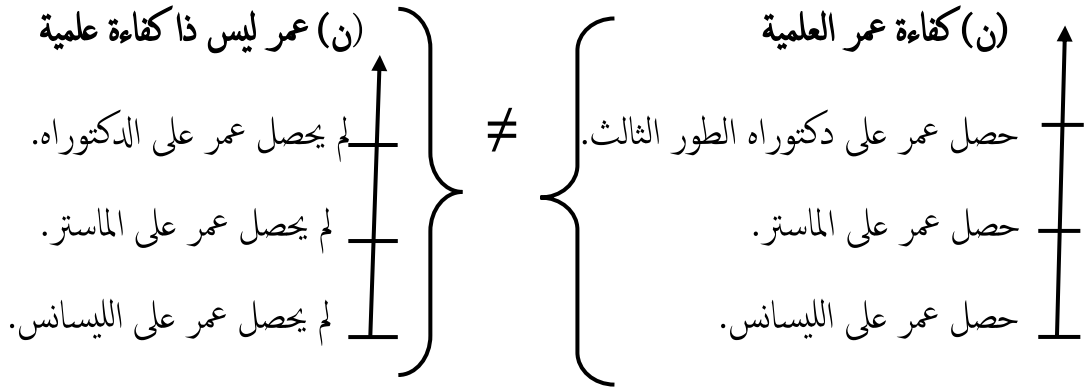
(2) رضوان الرقي، الاستدلال الحجاجي وآليات اشتغاله، ص 95.

* للتعلم أكثر في فهم هذه القوانين مع التمثيل ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار كنوز المعرفة، عمان، ط2، 2015م، ص 285 إلى 294.

(3) قدور عمران، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، ص35. وينظر: حمو النقاري، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص60.

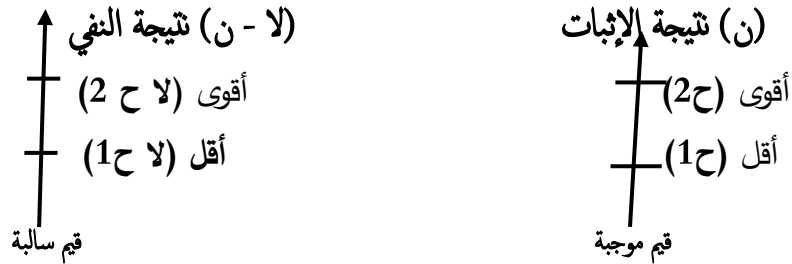
(4) حمدي منصور جودي، الحجج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 103.

ويمكن التمثيل لذلك وفق هذا المثال:

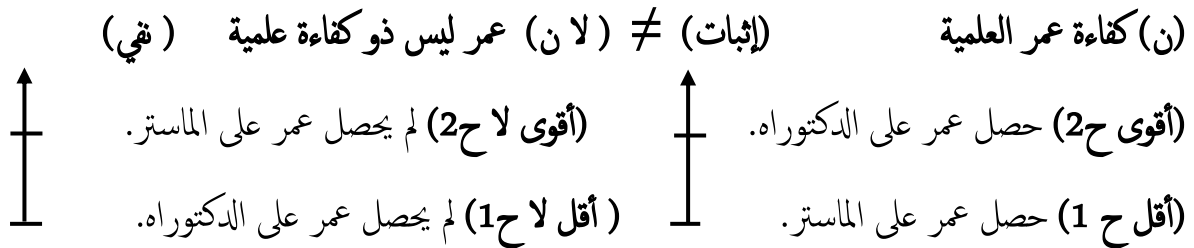


2- قانون القلب:

يرتبط هذا القانون أيضا بالتقي، ويعدّ متممًا للقانون السابق. ومفاد هذا القانون " أنّ السُّلم الحجاجي هو عكس سلم الأقوال الإثباتية"⁽¹⁾، ويتجسّد هذا القانون في الشكل الآتي:⁽²⁾



علمًا أنّ (لا) تمثل مجال نفي الحجج المستعملة للوصول إلى النتيجة، فالحجّة (ح2) أقوى من الحجّة (ح1) في نتيجة الإثبات (ن)، وهذا يستلزم بالضرورة أن تكون الحجّة (لا ح2) أقوى من الحجّة (لا ح1) في نتيجة النفي (لا ن) "ويمكن التعبير عن هذه الفكرة بصيغة أخرى فنقول: إذا كانت إحدى الحجّتين أقوى من الأخرى في التّدليل على نتيجة معينة، فإنّ نقيض الحجّة الثانية أقوى من نقيض الحجّة الأولى في التّدليل على النتيجة المضادة"⁽³⁾. ولتوضيح القانون نضرب المثال الآتي:



(1) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 22.

(2) حمدي منصور جودي، الحجج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 103.

(3) سمو النقاري، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 61.

فحصول (عمر على الدكتوراه) أقوى حجة على مكانته العلمية من حصوله على الماستر في حالة الإثبات في حين أن عدم حصوله على الماستر هو الحجة الأقوى على عدم كفاءته من عدم حصوله على شهادة الدكتوراه مما يدعم النتيجة المضادة وهي عدم كفاءته العلمية.

3- قانون الحفض:

يرى ديكرُو أنّ قانون الحفض يمثّل الفكرة التي ترى أنّ التقي اللغوي الوصفيّ يكون مساويا للعبارة **moins que** يعني **أقلّ من** فعندما تستعمل جملا من قبيل الجوّ ليس باردا فنحن بنفينا برودة الجوّ يعني أننا استبعدنا التّأويلات التي ترى أن البرد قارس وشديد أيّ إنّه دون الثلج أو المتجمّد، وسيؤول القول إلى أنّ الجوّ قد يكون دافئا أو حارّا⁽¹⁾.

فتطبق هذا القانون من قبل المخاطب يُسعه في أن يستبعد التّأويلات الواردة الأخرى، وللتوضيح

نورد هذين المثالين:

المثال الأول:

أ- الجوّ ليس باردا.

ب- إذا لم يكن الجوّ باردا فهو دافئ أو حارّ.

المثال الثاني:

أ- زيد ليس ناجحا.

ب- إذ لم يكن زيد ناجحا فهو راسب.

إذن في هذا المثال الثاني استبعدنا كلّ التّأويلات التي ترى أنّ زيدا ناجح، وسيؤول القول إلى أنّ زيدا

راسب.

ولعل هذا ما أدّى بطله عبد الرحمن إلى اقتراح صياغة تقريبية لهذا القانون نورد مقتضاها "أنّه إذا صدق

القول في مراتب معيّنة من السلم، فإنّ تقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها"⁽²⁾.

والمثال الآتي يوضح ذلك⁽³⁾:

أ- عمر ليس نبيل الأخلاق.

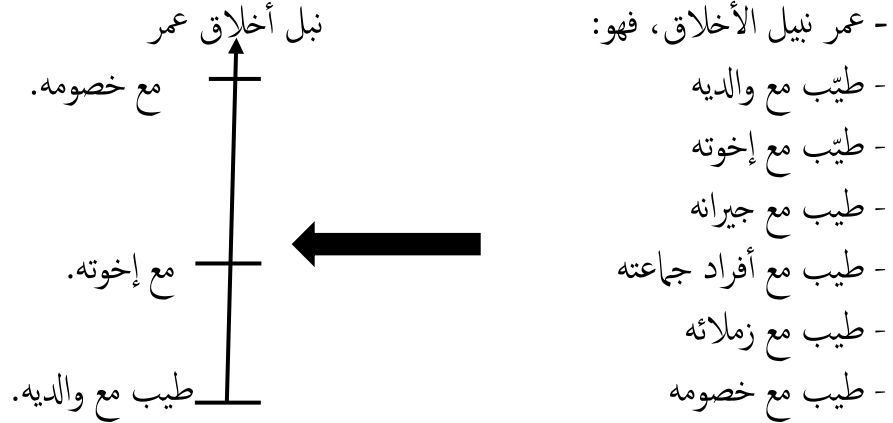
ب- فإذا لم يكن عمر نبيل الأخلاق، فهو ذميم الأخلاق.

(1) voir: Oswald Ducrot, les échelles argumentatives, les édition de minuit, France, 1980.p 31

(2) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 277.

(3) ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 503.

وبما أنّ الحجج الإثباتية لا تقع في نفس السُّلم الحجاجي مع الحجج المناقضة (المنفية) يجب على المخاطب أن يختار حججه التي تنتسب إلى سلم واحد، بما يضمن له التّدليل على قصده، وعدم تناقضها، بل وليؤكد كلُّ منها ما قيل قبلها، أو ما هو مضمّر في درجات السلم لمدلول واحد، ولذلك فإنّ المخاطب يبدأ بأدناها مرتبة فيرتب حججه في سلمية واحدة، مثل:



فهذه كلّها حجج، يؤكد كلّ منها نبل أخلاق عمر، ورتبها المخاطب وفق درجات قوتها على المدلول، فبدأ بأقلّها دلالة، إذ تعدّ طيبته مع والديه من واجباته، وهكذا تتعالى الحجج ليضيف كلّ منها مبرراً أقوى لوصف عمر بالطيبة، فالحجة الأعلى هي الحجة الأقوى في دلالتها على طيبة عمر؛ فطيبته مع خصمه أقوى دلالة على نبل أخلاقه من طيبته مع زملائه، وطيبته مع زملائه أقوى دلالة على نبل أخلاقه من طيبته مع أفراد جماعته وهكذا. وهذا فكل دليل يستلزم منطقياً ما تحته من أدلة.

والجدير بالإشارة أنّ هذه السّلام الحجاجية لها علاقة بقوانين الخطاب (قانون الملازمة، مبدأ الصدق الشمولية، الإخبارية)، "فهذه القوانين مجتمعة ومتضاربة تحقق الغاية من الخطاب، وبخاصة الخطاب الحجاجي"⁽¹⁾؛ إذ تساعد على ترتيب الحجج من أجل استمالة المخاطب والتأثير فيه، من خلال التّناجج الصّريحة أو الضمنية "وانطلاقاً من التّناجج الحجاجية الضمنية وغير المصرّح بها يبرز مفهوم تداوئي متعلّق بالخطاب وبالبيانات تأسيسه فهو ممتثل فيما يعرف بمتضمنات القول **Les Implicites** "وهو مفهوم تداوئي إجرائي يتعلّق بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب"⁽²⁾ "تتحكّم فيها السياقات المختلفة للخطاب. وتقوم متضمنات القول على أساس استنتاجات ذهنية لدى أطراف الخطاب، والاستنتاج هو قضية ضمنية، بإمكاننا أن

(1) حمدي منصور جودي، الحجج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 107.

(2) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان ط1، 2005م، ص 30.

نستنبطها من القول ونستنتج محتواها الجانبي بتركيب معلومات ذات أوضاع مختلفة تتعلق بالبنى اللغوية وبسياق الخطاب⁽¹⁾. وتتجسد متضمنات القول بوصفها مفهوما تداوليا في نمطين، وهما:

1- الافتراض المسبق: *présupposition*

يعدُّ الافتراض المسبق من بين أهمِّ الوسائل التي يركز عليها التّواصل اللّساني، فهو يمثّل مجموعة من المعطيات والافتراضات، التي تشكّل خلفيات مشتركة ينطلق منها طرفي الخطاب، وهذه الخلفيات هي بمثابة الدّعم التي يركز عليها الطرفان في نجاح عملية التواصل، "و هي محتواة ضمن السّياقات"⁽²⁾.
ترجمها العلامات اللغوية للخطاب، والمثال الآتي يوضّح ذلك:

✓ أغلق الباب.

ففي هذا الخطاب افتراض مسبق مضمونه أنّ الباب مفتوح، "وتلفظ المرسل بهذا الملفوظ يستدعي من المرسل إليه كفاية وقدرة على الاستنباط والاستنتاج لما كان عليه الحال قبل الخطاب"⁽³⁾ وهذا ما يجعل الافتراض المسبق ضروريًّا لنجاح كل تواصل خطابي.

2- القول المضمّر: *Sous- entendu*

هو النمط الثّاني من متضمنات القول "ويرتبط بوضعيّة الخطاب وبسياقه وبالأحوال المصاحبة له"⁽⁴⁾ على عكس الافتراض المسبق الذي يُحدّد على أساس معطيات لغوية دلالية يتضمّنهما القول.
فالقول المضمّر بمفهوم أوركيوني (*Orecchion*) هو القول الذي يحتمل معنى آخر إلى جانب المعنى الصّريح، يمكن التّعرف على هذا المعنى بمعرفة بعض المعطيات والأحوال المصاحبة لسياق الخطاب⁽⁵⁾، وهذا ما جعل أوركيوني (*Orecchion*) تعرّفه بأنّه "كتلة المعلومات التي يحتويها الخطاب، ولكن تحقيقتها في الواقع يبقى رهن خصوصيات سياق الحديث"⁽⁶⁾.

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 107.

(2) مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية"، ص 31.

(3) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 107.

(4) المرجع نفسه، ص 108. وينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية"، ص 32.

(5) ينظر: ذهبية سمو الحاج، التعدد الصوتي من خلال السخرية في المنظور التداولي، ص 257، الصادرة من الموقع الإلكتروني:

revue.ummo.dz/index.php/khitab/articl/view file/700/539. في سنة 2009.

(6) C.K.Orecchioni, l'implicite, Armand Colin, Paris, 1986, p 39.

إذن يستنتج المخاطب القول المضمر بناء على قدرته وكفاءته الذهنية والتواصلية في الكشف عن المعنى وفص غشاء المحتوى القابع وراء ما يتلقّظه أو يكتبه المخاطب مستندا على الأحوال المصاحبة لسياق الخطاب، ومثال ذلك الخطاب التالي⁽¹⁾:

✓ إنَّ السماء ممطرة.

يستنتج المخاطب من هذا الخطاب بأنَّ المخاطب يطلب منه المكوث في البيت، أو التريث حتى يتوقف المطر، أو الإسراع إلى قضاء حاجاته قبل فوات الآوان، أو عدم نسيان مظلته عند الخروج. وقائمة التؤوليات والاستنتاجات مفتوحة ومتعدّدة، تعود إلى السياقات التي ينجز ضمنها الخطاب وإلى قدرة المخاطب على استنتاجها اعتمادا على كفاءاته.

وما يمكن أن يقال فيما يتعلق بالخطاب الحجاجي وبناء السّلام الحجاجيّة إنّ قوانين الخطاب ومتضمنات القول تعكس رغبة المخاطب في استمرار خطابه، وتؤسّس لاستنتاج النتائج الحجاجيّة من المخاطب، باعتداده على قدرته وكفايته الذهنية والمامة بمعطيات الحجاج وسياقه التّواصليّ وبخاصة إذا كانت تلك النتائج الحجاجيّة ضمنية غير مصرّح بها، وهذا ما يستلزم من المخاطب ترتيب حججه وفق معطيات تلك القوانين الخطائية⁽²⁾.

نستخلص من عرضنا لبنية الحجاج من خلال نظريّة **شايم بيرلمان وتيتيكاه** ودمجها وتوجيهها ودعمها بنظرية السّلام الحجاجية **لأوزفالد ديكرور** رغم الاختلاف المنطلقات القاعدية والمشارب التّأسيسية واللّبنات التي تقوم عليه كلّ نظرية؛ إلا أننا حسب وجهة نظرنا نعتبرهما مكملين لبعضهما البعض، فإذا كانت الأولى تهتمّ بتشكيل بنية الحجاج انطلاقا من بنى شبه منطقية أو شكلية أو رياضية فضلا عن استعمالها السياقية. فإنّ التّظرية الثانية تهتمّ بترتيب وتنظيم الحجج على اختلاف أنواعها المشكّلة لبنية الخطاب وفق سلّم حجاجي بغية إيصالها للمخاطب لاستمالته والتأثير فيه.

(1) ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة " الأفعال الكلامية"، ص 32.

(2) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 108.

خلاصة الفصل:

من خلال ما سبق التطرّق إليه حول تفصّي مفهوم الحجاج في كلّ من البلاغة الغربيّة والعربيّة ورصد علاقاته التباينية وتقاطعاته المصطلحيّة، وكذا تحديد بنية الحجاج، وأنواع الحجج المشكّلة لهذه البنية والسلم الحجاجي الذي يُعنى بترتيبها وتنظيمها وفق سلميّة، يمكن أن نستخلص مجموعة من التّأجّج الجزئيّة المتولدة عن هذه المباحث، وهي كالآتي:

1- الحجاج مصطلح عامّ تتنازعه وتتجاذبه عدّة حقول؛ فهناك حجاج خطابي بلاغي، حجاج قضائي، حجاج فلسفي، وحجاج منطقي ...، فيتولّد عن هذا التجاذب تقاطعات وتباينات مصطلحية تشكّل الجهاز المفاهيمي للحجاج.

2- للتخلص من التّظرة النفاضلية المفاهيميّة التي صبغت الحجاج وتولدت عن أقطاب الفكر البلاغي الغربيّ والعربيّ قديما وحديثا، نتوصّل إلى مقارنة مفاهيمية ذات طابع شامل ومانع للاختلاف يجمع مختلف الرؤى والمفاهيم ويتمثّل في أن الحجاج ما هو إلاّ استراتيجية لغويّة تكتسب أبعادها من السياقات المحيطة بالخطاب.

3- الحجاج يتقاطع مع البلاغة والتّواصل، ومع البرهان والاستدلال، والجدل والإقناع والاعتناع ويتباين معهم أحيانا أخرى فلا هو مفهوم بلاغيّ خالص، ولا هو مفهوم منطقيّ بحت، بل هو جملة من آليات الإقناع وملاك الأمر فيه: دراسة مجمل التقنيات... الباعثة على إذعان المخاطب.

4- المُحاجج ينتقي المقدمات التي تتلاءم وطبيعة المخاطب، ومع السّياق المحيط بالخطاب الحجاجي ليضمن استمراريّة الخطاب الحجاجيّ ويجتدّد لذلك أنواعا من الحجج يستند عليها لتدعيم مقدّماته فبمقدار نجاعتها تتحقّق مصداقية المقدمات وصحة نتائجها والعكس غير صحيح.

5- لا يقتصر المخاطب في حجاجه على استعمال نوع واحد من الحجج بل يعدّد ذلك، فتتضافر هذه الحجج فيما بينها لتشكّل بنية حجاجيّة عامة لتستميل المخاطب وتعمل على إقناعه مع مراعاة جلّ الأحوال والسيّاقات المصاحبة للخطاب.

6- يعتمد المخاطب إلى استعمال الحجج الاتصالية (الحجج شبه المنطقية، الحجج المؤسّسة على بنية الواقع الحجج المؤسّسة لبنية الواقع) دون الانفصاليّة لأنّها تضيي على الخطاب الطّابع العقلاي بما تحمله بنيتها من علاقات اتصالية تلازمية، وتعكس عقلاية المُحاجج، بخلاف الحجج الانفصالية التي تقوم على الفصل بين المفهوم الواحد، وتجعل المُحاجج عُرضة للنقد والاعتراض من طرف المخاطب؛ وتسم حجاجه بالطّابع اللّامنطقي فيشعر المخاطب بعدم نجاعة حجاجه.

- 7- وصول هذه الحجج للمخاطب يقتضي وضعها وفق تراتبية في السلم الحججي تبعا لمستواه وقدراته الذهنية.
- 8- السّلام الحجاجية لها علاقة بقوانين الخطاب (قانون الملاءمة، مبدأ الصدق، الشمولية، الإخبارية) ومتضمنات القول، إذ تساعد على ترتيب الحجج والوصول بالمخاطب إلى استنتاج النتائج الضمنية أو الصريحة من أجل استماتته والتأثير فيه ودفعه إلى التسليم والافتناع بهذه النتائج.
- 9- التطرق لبنية الحجج من خلال نظرية شايم بيرلمان وتيتيكاه ودمجها وتوجيهها ودعمها بنظرية السلام الحجاجية لأوزفالد ديكرورغم الاختلاف في المنطلقات القاعدية والمشارب التأسيسية واللبنات التي تقوم عليها كل نظرية. إلا أننا حسب وجهة نظرنا نعتبرهما متكاملين؛ فإذا كانت الأولى تهتم بتشكيل بنية الحجج انطلاقاً من بني شبه منطقية أو شكلية أو رياضية فضلاً عن استعمالها السياقية، فإن النظرية الثانية تهتم بترتيب وتنظيم الحجج على اختلاف أنواعها المشكّلة لبنية الخطاب وفق سلم حججي بغية إيصالها للمخاطب لاستماتته والتأثير فيه.

الفصل الثالث:

بنية الخطاب الحجاجي في طبائع

الاستبداد ومصارع الاستبعاد:

1- عناصر التفاعل الخطابي في طبائع الاستبداد
ومصارع الاستبعاد.

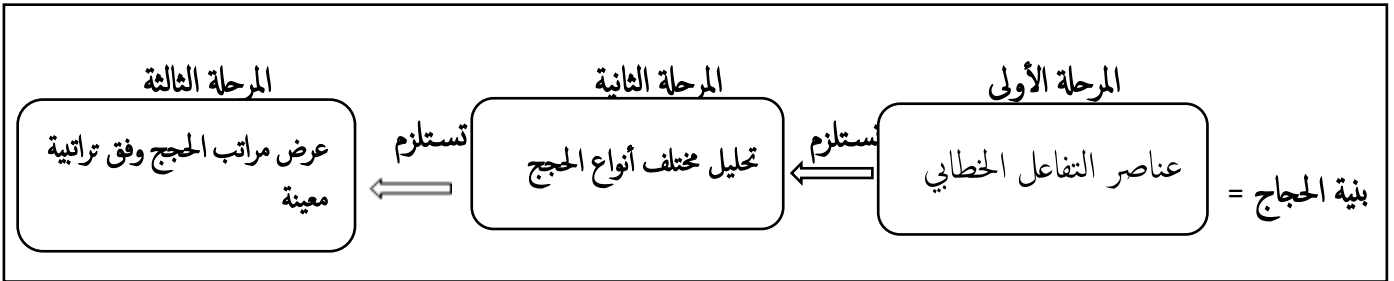
2- أنواع الحجج في طبائع الاستبداد ومصارع
الاستبعاد.

3- السلاسل الحجاجية في طبائع الاستبداد ومصارع
الاستبعاد.

4- سر الرؤية الاستشراقية في طبائع الاستبداد
ومصارع الاستبعاد.

تمهيد:

إنّ الخوض في مسألة بنية الخطاب الحجاجي في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) يستلزم منا النظر في عناصر التفاعل الخطابي والتعرف على كل ما يخص المتخاطبين، والسياقات التي تولد في خضمها إنتاج الكتاب، بغية الوقوف على مدى إسهام هذه العناصر في تشكيل بنية الحجاج كمرحلة أولى تستوجب ممّا التدقيق في المرحلة الثانية المرتبطة بتقصي طبيعة أنواع الحجج الموظفة فيه لغاية الإقناع، تليها مباشرة المرحلة الثالثة المتعلقة بمراتب الحجج وفق السلام الحجاجية. وبهذا تُحدد بنية الحجاج في الكتاب وفق ثلاث مراحل ويمكن توضيح ذلك وفق المخطط الآتي:



مخطط رقم 19 يوضح مراحل تشكل بنية الحجاج في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

وهذا ما سنتقصي طبيعته في المباحث الآتية:

1- عناصر التفاعل الخطابي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد:

لا شك أنّ دراسة عناصر التفاعل الخطابي تستلزم منا التوقف عند أقطاب العملية التواصلية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد والإلمام بمعرفة كل ما يخص:

✓ المخاطب "عبد الرحمن الكواكبي" وتقصي نشأته وتكوينه وارتداد ذلك على فاعلية خطابه الحجاجي.

✓ من هو المخاطب الواقعي والمفترض الذي يستهدفه الكواكبي؟

✓ ما هي الظروف التي تولد في خضمها إنتاج الكتاب؟.

✓ كيف انعكست هذه الظروف على خصائص أسلوب لغته؟

وكل هذه الأسئلة تعتبر بمثابة إحالات مرجعية، تمكن القارئ المحلل من فهم واستنباط مقاصد المخاطب من خطابه واستنطاق البنية المعمول بها لتحصيل الإقناع، فكلما توافرت للمحلل معلومات تخص الأقطاب التي

تشكل عناصر التفاعل الخطابي، كلما امتلك القدرة أكثر على فهم الخطاب وكيفية تشكل بنينه الحجاجية وتجديد الآليات اللازمة لاستنطاق كنه الخطاب* وفق ما يتماشى وطبيعته.

1-1 عبد الرحمن الكواكبي 'المخاطب':

يعدُّ الكواكبي من رجالات الإصلاح ورواد النهضة العربية في القرن التاسع عشر، الذين -رغم قلة كتاباتهم- أسهموا بعمق في طرح قضايا التغيير وأسباب التخلف، ووضعها موضع مُساءلة خصوصاً عبر كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ويعدُّ هذا العمل "صورة لصاحبه، ولا يندد الخطاب عن هذا الحكم بوصفه عملاً، فذات المخاطب سمة تميّز خطابه عن خطابات مماثلة...، فيغدو الخطاب سمة شخصية تبلور في ظاهره وفي باطنه"⁽¹⁾.

ولفحص خطاب الكواكبي حرّي بنا أن نبتدئ بتقصي نشأته وتكوينه اللذين سوف يسهمان في الكشف عما يثوي وراء خطابه من تقنيات حجاجية صبغت مواقفه وتجلّت في خطابه ويهدف من خلالها إلى إقناع المخاطب ودفعه إلى العمل، فمن هو الكواكبي؟

" مفكر وعلامة سوري رائد من رواد التعليم ومن رواد الحركة الإصلاحية العربية وكاتب ومؤلف ومحامي وفتية شهير"⁽²⁾ ولد بجلب في 23 شوال سنة 1271هـ 1854م وهو " ينتسب لأسرة حلبيّة عريقة تلقى تعليمه فيها كما يتعلم أبناء عصره في مدرسة الأسرة (المدرسة الكواكبية) بحفظ القرآن وتعلم اللغة والدين والفقه، ولميل في نفسه للمعلومات الدقيقة، اهتم بدراسة الرياضيات والعلوم الطبيعية وعند بلوغه سن المراهقة رحل إلى أنطاكية لإكمال تعليمه وكان يتقن إلى جانب اللغة العربية اللغتين التركية والفارسية"⁽³⁾. لقت عائلته بال الكواكبي نسبت إلى جدهم "لأنه كان مبدأ أمره حدّاداً يعمل بالمسامير الكواكبية"⁽⁴⁾.

أسس عدة جرائد سلكت مسلكاً حراً في معالجة القضايا العامة والتنديد بالظلم والدفاع عن حقوق الضعفاء أولها الجريدة الرسمية الفرات، إلا أن هذه الجرائد لم تكن إلا خادمة لمطالب السلطة، فاتجه إلى

* لأن المدونة هي التي تحيل المحلل إلى استنطاق الآليات المكتنزة داخلها، لا إسقاط آليات لا تتلاءم وطبيعتها.

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية، ص: 69.

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2013م، ص 173.

(3) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم محمد خالد، موفم للنشر، 1991م، (المقدمة، ص8)

* في المعجم أن الكوكب هو المسمار أو بريق الحديد وتوقده جمعه الكواكب، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص 190.

(4) سامي الدهان، نوابغ الفكر العربي 23، دار المعارف، القاهرة، ط5، (د.ت)، ص 13.

تأسيس صحيفة خاصة باسم صديقه الشهباء التي لم تستمر طويلاً ثم أسّس الاعتدال، وتعطلت هي الأخرى فالسلطة لم تستطع تحمل جرأته في النقد بعد تعطل هاتين الصحيفتين الواحدة تلو الأخرى لسلوكهما مسلكتاً حراً في معالجة القضايا. انكب على دراسة الحقوق حتى برع فيها، ومكّنه ذلك من تقلد عدة مناصب فشغل منصب عضو فخري في لجنة امتحان المحامين، وكذا عُيّن قاض شرعيّ في إحدى قرى الجزيرة قرب الفرات وكان المغزى من تعيينه إبعاده عن حلب التي قضى فيها معظم حياته⁽¹⁾.

"وقد أظهر خلال هذه المناصب والمراتب كفاية في الإدارة وتعففاً عن المال وإخلاصاً للمصلحة، وحباً للشعب ودفعاً للظلم وثورة على الاستبداد، ونقضا لأحكام الفوضى والرشوة. فهزّ الحكام الذين كانوا يرون في الشعب مطيئاً لشهواتهم. وموضعا للاستغلال والرشوة، وجلب المال، فتألّموا لوجوده وغضبوا لصراحته ومساغبه في تبصير الشعب بأفاتهم"⁽²⁾ فكادوا له المكائد.

وبعد أن أحس أن السلطة تقف في وجه طموحاته انصرف إلى العمل بعيداً عنها فاتخذ مكتباً للمحاماة، كان يستقبل فيه سائر الفئات ويحصل حقوق المتظلمين عند المراجع العليا، وقد كان يؤدي عمله في معظم الأحيان دون أي مقابل مادي حتى اشتهر بـ: "أبي الضعفاء".

فقد أيقن الكواكبي أنه لا يمكن القيام بأي إصلاح في ظل نظام الحكم الاستبدادي؛ ولذا قرّر مغادرة حلب متوجهاً إلى مصر هروباً من الاستبداد الذي عرفته البلاد في عهد السلطان "عبد الحميد الثاني"* كما أنه غادر مصر متوجهاً إلى السودان فالحبشة ثم سواحل أفريقيا الشرقية حتى جزيرة زنجبار، ثم سواحل آسيا الغربية حتى بلاد الهند ماراً بجنوب الجزيرة العربية، وعند العودة أتجه نحو مكة المكرمة في موسم الحج، وقد زار كذلك شبه الجزيرة العربية في رحلتين منفصلتين، تمكّن من خلالها على الاطلاع على أوضاع المسلمين بالاتصال بأهلها وشخصياتها العلمية والدينية؛ وهذا ما زاد في تعميق ثقافة الكواكبي وثراء فكره الذي يتجلى

(1) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم محمد خالد، (المقدمة، ص 8-9).

(2) سامي الدهان، نوابغ الفكر العربي 23، عبد الرحمن الكواكبي، ص 27.

* السلطان عبد الحميد الثاني هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، حكم دولة متزامية الأطراف متعددة الأعراق بدهاء، وحكم هذه الإمبراطورية التاسعة مدة 33 عاماً حكماً فردياً ديكتاتورياً، كانت كلمته هي الأولى والأخيرة، اضطهد الأحرار وقتل بعضهم وطارد البعض الآخر، ولم يسلم منه إلا من خضع له، ما يحسب له أنه وقف ضد الأطماع الاستعمارية الغربية لاقتسام تركة رجل أوروبا المريض، ينظر:

في إنتاجه المتميز بالعمق والواقعية؛ لأنّ هذه الرحلات كانت بمثابة البحث الميداني في أحوال المسلمين وجمع المادة اللازمة لإنجاز أعماله من خلال المعلومات التي كان يدونها⁽¹⁾.

وقد تتلمذ الكثيرون على يديه، وكان واحداً من أشهر العلماء، وقد أمضى سنين حياته مُضلياً وداع إلى النهوض والتقدم بالأمة العربية ومقاومة الاستبداد العثماني، منادٍ بإقامة خلافة عربية تحل محل الخلافة العثمانية، وهو الأمر الذي ضاق به السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ذرعاً⁽²⁾.

ألّف العديد من الكتب التي تحوي عصارة فكره النيّر إلى جانب طبائع الاستبداد منها " أم القرى كما ألّف العظمة لله وصحائف قريش، وقد فُقدَ مخطوطان مع جملة أوراقه ومذكراته ليلة وفاته"⁽³⁾ وما ينبغي الإشارة إليه أن كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد كان خلاصة "بحث ثلاثين عاماً"⁽⁴⁾ كما ذكر في مقدمة كتابه.

وقد دفع الكواكبي الثمن غالياً لاسيما على كتاب طبائع الاستبداد حيث توفي في القاهرة "متأثراً بسم دُسّ له في فنجان القهوة مساء يوم الخميس 14 يونيو عام 1902م، الموافق 5 ربيع الأول 1320هـ"⁽⁵⁾ ودفن فيها، وقد رثاه الكتاب والمفكرون والشعراء ونقش على قبره بيتين لحافظ إبراهيم يقول فيهما (من الطويل):

"هَذَا رَجُلٌ الدُّنْيَا هُنَا مَهْبَطُ التُّنَى *** هُنَا خَيْرٌ مَظْلُومٌ هُنَا خَيْرٌ كَاتِبٌ

قَفُّوا وَأَقْرُؤُوا أُمَّ الْكِتَابِ وَسَلِّمُوا *** عَلَيْهِ فَهَذَا الْقَبْرُ قَبْرُ الْكَوَاكِبِيِّ"⁽⁶⁾

ولم تتوقف الأقلام -منذ وفاته- عن الحديث فيه، فتعددت أقوال وشهادات نفر من العلماء المعاصرين له والدارسين لفكره، حيث قال فيه رشيد رضا "رجل عظيم من رجال الإصلاح الإسلامي وعالم من علماء العمران وحكيم من حكماء الاجتماع البشري"⁽⁷⁾.

وقال فيه الأستاذ محمد كرد علي "كان كبيراً في همته، كبيراً في علمه، لم يكن متعصباً يأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على السواء، لأنه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة"⁽⁸⁾.

(1) ينظر: عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم محمد خالد، ص 60.

(2) عبد الرحمن الكواكبي- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، الصادرة من الموقع الإلكتروني / <https://ar.wikipedia.org> بتاريخ 10/12/2016.

(3) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم محمد خالد، ص 176.

(4) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 18.

(5) سامي الدهان، نوابع الفكر العربي 23، عبد الرحمن الكواكبي، ص 31.

(6) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 176.

(7) سامي الدهان، نوابع الفكر العربي 23، عبد الرحمن الكواكبي، ص 34.

(8) المرجع نفسه، ص 34.

و "قد نقل إلينا من صفاته أنه ما توانى في أمر بدأ فيه ولا تضجر ولا تملل... بحيث كان الناظر إليه لأول وهلة يقرأ في جبهته أمارات العقل والخبرة الطويلة والعلم الوافر... ونقلت المقتطف أنه كان واسع المادة بعيد غور العقل يتكلم عن رويّة ولا ينطق عن هوى"⁽¹⁾.

وقال فيه الأستاذ أحمد أمين: "نزبه النفس لا يخدعها مطمع ولا يغريها منصب، شجاع فيما يقول ويفعل مها جرت عليه شجاعته من سجن وضياع مال وتشرد... يأبى الخضوع لأهل المجد الباطل"⁽²⁾.

نستشف من تتبع مسيرة حياة الكواكبي أنه لم يرض عيشة الهوان في ظل نظام الحكم العثماني الاستبدادي وشن عليه حرباً ضروساً بتفعيل كفاءاته الثقافية، الاجتماعية والسياسية داخل خطابه، ولعل من أهم كفاءاته التي جعلت خطابه مؤثراً، نذكر:

✓ الكواكبي موسوعي الثقافة، متبحر ومدقق في علوم القرآن والسنة وعلم الاجتماع وفنون الاقتصاد ومسائل العمران والتاريخ والرياضيات والعلوم الطبيعية والإنسانية؛ وهذه العلوم جسدت ذاته وتقوّت بها ملكاته في ميدان الخطاب الحجاجي.

✓ رصّنته العلمية وثقته بنفسه ويظهر ذلك في قوله: " فلا أتمنى العفو عن الزلل؛ إنما أقول: هذا جهدي وللناقد الفاضل أن يأتي قومه بخير منه."⁽³⁾

✓ توالى عليه مكائد سياسة الحكم العثماني الظالمة التي تعرض لها وكانت سبباً في رحيله.

✓ كثرة أسفاره وتنقله في البلدان وإطلاعه على أحوالها وأحوال أهلها مما زاد في توسع ثقافته وحضور حجته مما مكّنه من دراسة طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.

✓ أخذ الكواكبي بعين الاعتبار أن المخاطب طبقات، وجسد ذلك في خطابه فقد وجه خطابه إلى كافة الطبقات مخاطباً الخاصة كالسلطان المستبد، رجال الدين، العلماء، والعامّة كالفلاحين والمزارعين فقد كان "يخاطب الناس على قدر عقولهم؛ فهو سياسي محنك مع الساسة، وعمراني اجتماعي مع علماء العمران، وعالم ديني مع علماء الدين، وتاجر مع التجار، وزارع مع المزارع، وصانع مع الصناع، وعامل مع العمال، وكبير مع الكبراء"⁽⁴⁾.

(1) سامي الدهان، نوابغ الفكر العربي 23، عبد الرحمن الكواكبي، ص 35.

(2) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، موسوعة أحمد أمين الإسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص 249.

(3) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم، عمار علي حسن، ص 19.

(4) سامي الدهان، نوابغ الفكر العربي 23، عبد الرحمن الكواكبي، ص 35.

✓ انطلق الكواكبي في تصوير خطاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) من العالم الحسي المؤلف للمخاطب مشخصاً آهاته أخذاً بعين الاعتبار مجمل مرجعيته وسياقته وكفاياته وأحواله الذهنية النفسية الاجتماعية، الثقافية، والسياسية، إذ دون الإلمام بهذه الخلفيات لا يمكن أن يلتقي خطابه النفاذ إلى عالم المخاطب.

فتعددت ذات الكواكبي في خطابه بين الزعيم الوطني الذي ضرب لنا أروع الأمثال في التضحية الوطنية، والسياسي الواعي الذي يفكر بكل شيء ويخوض في كل دقيقة من دقائق الحكم والسيادة فكتب لأتمته كتاب السياسة مشرق النواحي واضح المعالم لا التواء فيه ولا محاباة، وهو المصلح الاجتماعي الواصف علل المجتمع وأدوائه المشخص لأوجاعه، وخير كاتب أديب ألمعي صور عصره وما يصطرع فيه من أهواء فأرسل من نفسه صيحات مدوية بقلم بارع سريع التأثير عميق المدى.⁽¹⁾

هذه الذوات لا تتطلب الذات الناقلة بمفردها، وإنما تتطلب الذات المبلّغة التي تأخذ باطن الأقوال تلميحا وتجوذاً، فضلاً عن ظاهرها فذوات الكواكبي تستدعي أكثر من "مجرد ذات ناقلة وإنما هو ذات مبلّغة أي ذات لا تقصد ما تظهر من الكلام فقط، بل تجاوزه إلى قصد ما تبطن فيه"⁽²⁾ وتجلت ذاته الفاعلة وذاته المتعاملة في الذات المتخلّقة دون الذات المتأدّبة التي يهيمها تحقيق مصلحتها الشخصية ونيل طلبها عاجلاً دون آجل؛ فهذه الذات تتباعد وذات الكواكبي المتخلّقة التي تأخذ بالفعل القولي بأجل الانتفاع به، خدمة لمقام الغير، وقياماً بشروط الإنسانية فضلاً عن عاجله وهذا ما خطه ونادى به الكواكبي الأديب الوطني، السياسي والاجتماعي بروحه ووجدانه طيلة صفحات سفره الخالد.

وخلاصة القول إن الكواكبي تنوعت ثقافته ما بين دينية لغوية، نفسية، تاريخية، اجتماعية سياسية وعلمية، فبقدر ما امتلك من ثقافة امتلك من حجاج يروم من خلالها تغيير العقول وحثها على التجديد من خلال النهوض بالمؤسسات الفاعلة في المجتمع ونفض غبار الذل والاستبداد فكان قلمه كالسيف المسلول في وجه أعداء الحرية والأمة العربية، وذلك ما انعكس على خطابه الحجاجي الذي يعكس بعد غور عقله باستعماله الحجة الدامغة التي تسعى إلى تنوير العقول ولا تُبلى بمرور العصور.

(1) ينظر: سامي الدهان، نوابع الفكر العربي 23، عبد الرحمان الكواكبي، ص 69 إلى 72.

(2) طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، ص 216.

2-1 المخاطب:

يشكل المخاطب أحد أهم عناصر التفاعل الخطابي الحجاجي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد فلا يكتمل المفهوم التداولي للخطاب ولا يكون له معنى إلا بوجوده فهو المنوط "بفك التسنين"⁽¹⁾ استنادا على " ثقافته التداولية وثقافته الموسوعية وأحواله التي ينفرد بها عن غيره"⁽²⁾ إلا أنّ دوره لا يقتصر على مجرد فك التسنين في الخطاب الحجاجي؛ لأن المخاطب لا ينحصر دوره في "التبليغ الذي يقتضي من المتلقي مجرد فك الرموز بواسطة اللغة ليكون الفهم بل يقوم في الفعل في هذا المتلقي"⁽³⁾ وإقناعه بوجهة نظره ليغير فكره وسلوكه ومن ثم واقعه، وقد يتجاوز المخاطب الواقعي الفعلي* إلى "من هم أبعد منه أي متلقين محتملين آخذا بعين الاعتبار آفاق انتظارهم ومختلف اعتراضاتهم الممكنة"⁽⁴⁾ المتخيلة المواكبة لكل زمان ومكان وهذا ما يعبر عن كفاءة الكواكبي التداولية برؤية استشرافية.

جدير بنا في هذا المقام أن نتساءل من هو المخاطب الواقعي الذي يستهدفه الكواكبي فعليا وهل تجاوزه إلى مخاطب مفترض (متخيل غير فعلي)؟ أو بصيغة أخرى هل بتوجهه إلى متلق مفترض (متخيل غير فعلي) يهدف إلى إقناع متلق فعلي؟

خاطب الكواكبي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد متلق مفترضا (متخيلا غير فعلي) وهي الإنسانية العاقلة المفكرة والتي قد تتمثل في شخص "الحاكم الذي يريد أن يتجنب الوقوع في فخ الاستبداد والمحكوم الذي يسعى إلى طريقة لمقاومة ومناهضة ومناقضة الاستبداد"⁽⁵⁾ فشخص بخطابه مكامن الداء ووقف على وصف أدوى أدواء الاستبداد فجاء خطابه شاملا لكل طبقات المجتمع دون أن يقصد بها مخاطبا فعليا أو ظلما أو حكومة بعينها وهذا ما أورده بقوله:

(1) حسن بدوح، المحاوره مقارنة تداولية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012م، ص 33.

(2) سامي الدهان، نوايح الفكر العربي 23، عبد الرحمان الكواكبي، ص 35.

(3) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنينته وأساليبه، ص 32.

* هو المخاطب الفعلي المحصور في سياق زمكاني محدد.

(4) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنينته وأساليبه، ص 34.

* هو المخاطب الذي يضعه المخاطب نصب عينيه عندما ينج خطاب، وهو في حقيقة الأمر متلقي غير فعلي ولكنه يمت بصلة إلى الواقع الذي يعيشه المخاطب زمانا ومكانا فكلما كانت الصورة المتخيلة قريبة إلى الواقع كان الخطاب أكثر ناجعة ونافذا إلى عالم المخاطب.

(5) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 15.

"أنا لا أقصد في مباحثي ظلما بعينه ولا حكومة ولا أمة مخصصة وإنما أردت بيان طبائع الاستبداد وما يفعل وتشخيص مصارع الاستعباد وما يقضيه ويمضيه على ذويه"⁽¹⁾ أي إنَّ الكواكبي يخاطب البشرية جمعاء بكل أصنافها وهذا ما يؤكد "إطلاقيه مبادئه وكونية آرائه وإنسانية نزعتة"⁽²⁾ وفيما يأتي تمثيل من المدونة لأصناف المتلقي المفترض الذي خاطبه الكواكبي:

المتلقي المفترض	خطاب الكواكبي
الإنسان	"كيف ينبغي للإنسان العاقل أن يعاني إيقاظ قومه، وكيف يرشدهم إلى أنهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الذل والسفالة، فيذكرهم ويحرك قلوبهم ويناجيهم وينذرهم" ⁽³⁾ .
الحكومة المستبدة	"الحكومة المستبدة تكون طبعا مستبدة في كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفراش، إلى كناس الشوارع، ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقتة أخلاقا" ⁽⁴⁾ .
المستبد وأعدائه	"المستبد لا يخرج قط عن أنه خائن خائف محتاج لعصاة تعينه وتحميه، فهو ووزراؤه كزمرة لصوص رئيس وأعدوان" ⁽⁵⁾ .
فقهاء الاستبداد	"جاء فقهاء الاستبداد بتقديس الحكام عن المسؤولية حتى أوجبوا لهم الحمد إذا عدلوا وأوجبوا الصبر عليهم إذا ظلموا، وعدوا كل معارضة لهم بغيا يبيح دماء المعارضين" ⁽⁶⁾ .
العوام	"العوام [...] قد يصل مرضهم العقلي إلى درجة قريبة من عدم التمييز بين الخير والشر في كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية، [...] فينصاعون بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين أيدي الذئاب." ⁽⁷⁾

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 19.

(2) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه، ص 33.

(3) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تحقيق وتقديم عمار علي حسن، ص 130.

(4) المصدر نفسه، ص 69.

(5) المصدر نفسه، ص 70.

(6) المصدر نفسه، ص 42.

(7) المصدر نفسه، ص 92.

<p>"جعلن نصيبهن هين الأشغال بدعوى الضعف، وجعلن نوعهنّ مطلوباً عزيزاً بإيهاً العقّة، وجعلن الشجاعة والكرم سيئتين فيهنّ محمدتين في الرجال."⁽¹⁾</p> <p>"فما بال الرّجل منكم يضع نفسه مقام الطفل الذي لا ينال حاجته إلا بالتذلل والبكاء، أو موضع الشيخ الفاني الذي لا ينال حاجته إلا بالتملق والدعاء"⁽²⁾.</p>	<p>النساء والرجال</p>
<p>"لا لا يطلب الفقير معاونة الغني، إنما يرجوه ألاّ يظلمه ولا يلتمس منه الرحمة، إنّما يلتمس العدالة، [...] إنّما يسأله ألاّ يميتته في ميدان مزاحمة الحياة"⁽³⁾.</p>	<p>الفقير والغني</p>
<p>"يعيش العامل ناعم البال يسرّه النجاح ولا تقبضه الحيبة، إنّما ينتقل من عمل إلى غيره، ومن فكر لآخر، [...] ويكون فرحاً فخوراً نجح أو لم ينجح، لأنه برئ من عار العجز والبطالة"⁽⁴⁾.</p>	<p>العامل</p>
<p>"يعيش خاملاً خامدا ضائع القصد، حائراً لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته ويدرج أيامه وأعوامه كأنه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب"⁽⁵⁾.</p>	<p>أسير الاستبداد</p>
<p>"أناشدكم الله يا مسلمين: أن لا يغترّكم دين لا تعملون به وإن كان خير دين، ولا تغرّركم أنفسكم بأنكم أمة خير أو خير أمة، وأتم المتواكلون المقنصرون على شعار لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ونعم الشعار شعار المؤمنين، ولكن أين هم؟ إني لا أرى أمة تعرف حقاً معنى لا إله إلا الله، بل أرى أمة خبلتها عبادة الظالمين"⁽⁶⁾.</p>	<p>المسلمون</p>
<p>"يا قوم: وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين، أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين... فيقول عقلاً ونا لمثيري الشحنة من الأعاجم والأجانب: دعونا ندبر حياتنا الدنيا، ونجعل</p>	<p>الناطقين بالضاد من غير المسلمين.</p>

(1) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تحقيق وتقديم عمار علي حسن، ص 77.

(2) المصدر نفسه، ص 134.

(3) المصدر نفسه، ص 78.

(4) المصدر نفسه، ص 112.

(5) المصدر نفسه، ص 113.

(6) المصدر نفسه، ص 138.

<p>الأديان تحكم في الأخرى فقط دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي فلتحيا الأمة فليحيا الوطن، فلتحيا طلقاء أعزاء" (1).</p>	
<p>"حكام الله من السوء فخرجو لكم أن تنشأوا على التمسك بأصول الدين، ... وتتبعوا سنن النبيين فلا تخافوا غير الصانع الوازع العظيم، وأن تعلموا أنكم خلقتم أحرارا لتموتوا كراما فاجهدوا على أن تحيوا... حياة هنية يتسنى فيها لكل منكم أن يكون سلطانا مستقلا في شؤونه لا يحكمه غير الحق، وولدا بارا لوطنه لا يبخل عليه بجزء من فكره ووقته وماله، ومجبا للإنسانية" (2)</p>	<p>ناشئة الأوطان</p>

جدول رقم 06 يوضح أصناف المخاطب المقترض الذي خاطبه الكواكبي

لم يذكر الكواكبي في خطابه أي إثبات يؤكد أن خطابه مبعوث لمخاطب معين بل خاطب أسماء أصناف عامة من المجتمع كما هو مبين في الجدول أعلاه صالحة لمخاطبتها في كل زمان ومكان دون أن يتعرض لمخاطبين فعليين في زمانه، "وقد أخذ عليه أنه نظري فحسب لم يدعم كتابه بمشاهداته وهي كثيرة، فلم يبسط فيه حال بلاد الشام، ولم يضرب أمثلة صريحة عن العثمانيين وتسلطهم على العالم العربي، ولم يتطرق إلى الأشخاص لذلك كان في نظر الكثيرين خياليا بعيدا عن الواقع" (3) بمخاطبته لمتلقي مقترض (متخيل غير فعلي). ومن مسوغات تجاوز الكواكبي للمخاطب الواقعي الفعلي إلى مخاطب مقترض:

✓ **التويه:** للتملص من مسؤولية الخطاب وعدم تحمل تبعات خطابه.

✓ **النقد والإصلاح والتغيير:** ألف الكواكبي كتابه لنقد واقع نظام الحكم العثماني الاستبدادي في شتى مجالات الحياة، وانتهج في ذلك نهج الغموض والتلميح تحسبا من اضطهاد العثمانيين معتمدا في ذلك على الاستشهاد من التاريخ الإسلامي والأوروبي ومن الطبيعة وعلم الاجتماع، دون أن يأتي على ذكرهم قصد تسليط الأضواء على مظالم عاصرها بل وكان من ضحاياها، لتتوير وإصلاح أفكار الناس وتجديدها ولم يكن نقده موجها لإصلاح السلاطين العثمانيين وإرجاعهم إلى جادة الصواب بقدر ما

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تحقيق وتقديم عمار علي حسن، ص 139.

(2) المصدر نفسه، ص 142-143.

(3) سامي الدهان، نوابع الفكر العربي 23، عبد الرحمن الكواكبي، ص 52-53.

كان يرمي إلى إقامة خلافة عربية إسلامية على طراز حكومة النبي العربي والخلفاء الراشدين لتكون البديل للتخلص من الاستبداد وتحقيق النهضة.

✓ **الديمومة والاستمرارية:** مخاطبة مخاطب مفترض من شأنه أن يجعل "الحجج تزداد قوّة وألقا كلما افترضت جمهوراً من المتلقين أوسع وأخذت على عاتقها إقناعهم بطريقة أرقى وأفضل" (1)؛ وهذا ما أضفى على خطابه صفة الديمومة والاستمرارية الزمكانية وجعله يتجاوز حدود الأطر السياقية.

✓ **الحجاج:** يهدف من خلال مخاطبة مخاطب مفترض إلى إقناع مخاطب واقعي فعلي والتأثير فيه بالحجج "لتغيير معتقداته وأفكاره تجاه ما يراه في واقع المجتمع وشؤون السياسة" (2).

وهذا ما يجعل من المخاطب المفترض (المتخيل غير الفعلي) مخاطب مائل في كل زمان ومكان ويكون صورة طبق الأصل على واقع المخاطب الواقعي الفعلي المضمحل بين السطور الذي يهدف الكواكبي إلى إقناعه وتغيير معتقداته.

فمن هو المخاطب الواقعي الفعلي الذي استهدفه الكواكبي فعلياً في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد؟ الكواكبي لم يستلهم طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد من أمور خيالية بل انطلق في تصوير خطابه من واقع معيّنته الشخصية لحكومة السلطان عبد الحميد الثاني الذي فرض على رعيته حكماً فردياً قاسياً ازدادت حدته يوماً بعد يوم حتى وصف بأنه "أكبر مجرم سفك في هذا العصر" (3).

فلم يتردد الكواكبي في الكشف عن سيرته مع بعض الوصوليين من أتباعه كأمثال **أبو الهدى الصيادي*** وكيف أطلق العنان لعقولهم وأيديهم في تحريف الدين وسهل لهم الاتجار به والتعامل بالترابا وبناء الملاهي والحانات والتعدي على الحقوق العامة بغصب أموال الضعفاء وترهيبهم بنشر الخوف في أوساطهم وإفساد أخلاقهم.

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بينه وأساليبه، ص 35.

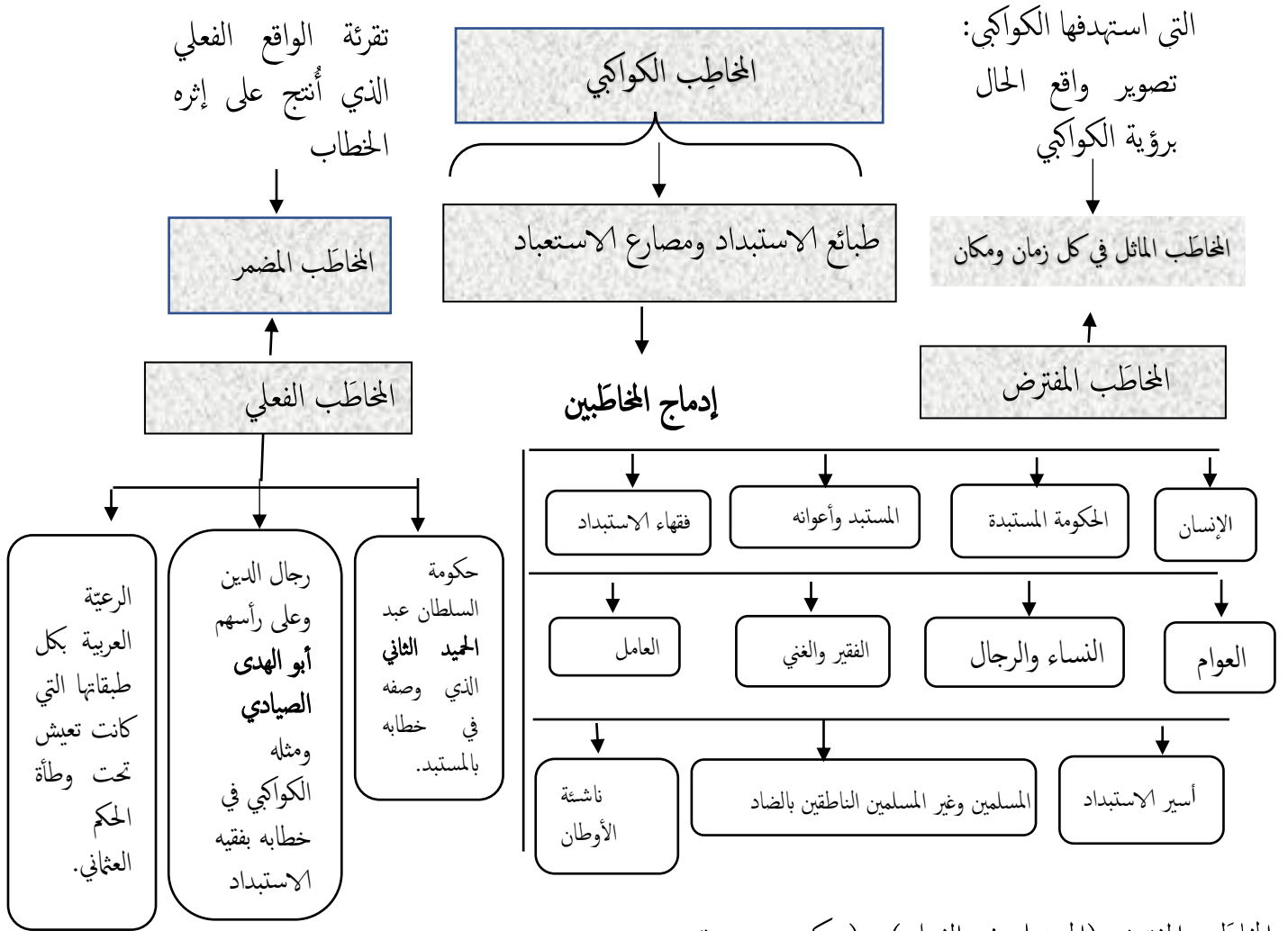
(2) حمدي منصور جودي، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفع، ص 142.

(3) محمد عمارة، الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، دار الشرق، بيروت، ط1، 1414هـ، 1993م، ص 871.

* أبو الهدى الصيادي شخصية صوفية، اعتلت أعلى المناصب في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، تولى منصب شيخ الإسلام ومسؤول القضاء، وقيب الأشراف وأغدق عليه السلطان الأموال والأوسمة والمناصب ودعمه بالنفوذ المطلق، اشتهر بالكذب، الخداع واختراع الأحداث والشخصيات وكان نموذجاً لفكرة العصور الوسطى المتخلفة وأداة للتنكيل بالمجدين والثوار من أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي، للتعلم ينظر: محمد عمارة، العرب والتحدي، دار علم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، إشراف أحمد مشاري العدواني، (د.ط)، 1980. ص 179، وينظر: أبو الهدى الصيادي في آثار معاصريه الصادرة من الموقع الإلكتروني:

الفصل الثالث: بنية الخطاب الحجاجي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

فقرارة خطاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد وفق سياق إنتاجه يميلنا إلى مدلولات باطنية تكشف عن المخاطب الواقعي الفعلي الذي استهدفه الكواكبي وهو الحكومة العثمانية المستبدة التي ركبت "مراكب الرشوة واللذة والمعاصي، وحكموا بالجواسيس والعيون، وتسلبوا على أموال التجار والفقراء وظلموا القانون، وخرقوا الدستور وتجاهلوا قيمة العرب فاخترعوا الألفاظ في تحقيرهم."⁽¹⁾، فشن عليهم الكواكبي حرباً ضروساً بقلمه بغية توعية العرب وإقناعهم بضرورة التغيير وإيجاد البديل. وفيما يأتي تمثيل لأصناف المخاطب



المخاطب المفترض (المتخيل غير الفعلي) = (يعكس سيرورة الخطاب برؤية استشرافية تتجدد في كل زمان ومكان)

المخاطب الفعلي = المخاطب المضمر = (المستفز لإنتاج

المخاطب المفترض (المتخيل غير الفعلي) = صورة طبق الأصل عن المخاطب الواقعي الفعلي.

مخطط رقم 20 يوضح المخاطب المفترض (المتخيل غير الفعلي) والفعلي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

(1) سامي الدهان، نوابع الفكر العربي 23، عبد الرحمن الكواكبي، ص 6.

ما نستشفه من المخطط المبين أعلاه أن خطاب الكواكبي موجه لكل من المخاطبين، فالملتقي يمكن أن يحمل الخطاب على المحملين معا، والأمر متوقف على ما فهمه بشرط أن يكون سياق كل منهما واضحا أو محتملا.

3-1 الظروف التي تمخض عنها إنتاج الكتاب:

يتعين ألا يقتصر النظر في خطاب الكواكبي أو تحليله بمعزل عن معرفة السياق الخارجي لإنتاجه، إذ لا يمكن أن يتم إنتاج الخطاب دون أن يكون مسبقا بفحص بنى المجتمع وفق معرفة عميقة ومتأصلة بسياقاته السياسية الاجتماعية والثقافية، " إذ لا تتوافر المعارف إلا ضمن سياق ملموس، بل تغدو المعارف هي معارف ذلك المجتمع... التي تؤثر في تكوين الخطاب وفي إنتاجه"⁽¹⁾

لذلك جاء تأليف هذا الكتاب في ظروف سياسية، اجتماعية وثقافية سائد في تلك الفترة، فكان دعوة إصلاحية في البحث عن البديل ونقد لاذع لسياسة لا يؤمن فيها المرء على ماله، نفسه، وحرية، فإن أي فهم لخطاب لغوي معين لا يمكن تحقيقه إلا إذا قمنا بتقصي مختلف هذه الظروف التي جعلت ذات الكواكبي تولد لنا خطابا مؤثما بمختلف المعارف والتجارب الإنسانية؛ فالإلمام بها هو امتلاك للأداة الإجرائية الفاعلة بكل المستويات الدلالية والتداولية في تحليل الخطابات والوصول إلى محاصرة معناها من كل جانب، بحيث يمكن للمتلقي المحلل من خلالها النفاذ إلى فكر المخاطب والتمكن من فك الشفرات والرموز التي تكتنف خطابه وفهمه وفق قالب الذي شكله؛ لذا وجب علينا أن نقف موقف الواصف للظروف السياسية، الاجتماعية والثقافية التي عاصرها الكواكبي وتمخض عنها إنتاج الكتاب:

1-3-1 الظروف السياسية⁽²⁾:

عاشت الشعوب العربية تحت وطأة سياسة العثمانيين وجور حكمهم واستخفافهم بالشعوب المحكومة واحتقارهم حتى شاع في العرب أن الأمر صائر إلى قتل قوميتهم ومحو لغتهم وتشنيع تاريخهم وإفساد أخلاقهم وأسرفوا في سجنهم وتعذيب أحرارهم وإفقار شعوبهم، وسلب أملاكهم واستقلالهم بالحكم وفرضه بالقوة على سكان البلاد، وإحكام السلطة الدينية في خدمة السلطة السياسية لأغراض سياسية استبدادية.

هذا فيما يخص أهم الممارسات السياسية الشنيعة التي حكم بها العثمانيون وسلطوها على رقاب الشعوب لأسرهم واستعبادهم، أما الظروف الاجتماعية التي أوجدها المستبدون وسعوا إلى استمرارها حتى يدوم حكمهم فهي لا تقل دناءة عن الظروف السياسية وهذا ما سنبينه في العنصر الموالي:

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية، ص 87.

(2) ينظر: سامي الدهان، نوابغ الفكر العربي 23، عبد الرحمن الكواكبي، ص 5-6.

1-3-2 الظروف الاجتماعية⁽¹⁾:

تقلبت الأمة الإسلامية خلال حضارتها الطويلة على نظم الحياة المختلفة، فأخذت بأساليب الأمم المحتلة في كثير من جوانبها، ولكنها عاشت فيما يبدو على طبقات اجتماعية متباينة فيها: السلطان، الأمراء، الوزراء، الوجهاء، وعامة الشعب. وظلت كذلك حتى كان أواخر القرن التاسع عشر، حين اشتدّ التباين بين الحاكم والمحكوم، "وزاد الفقر وطغى المحتكرون وفسدت الأخلاق... وبغى الغني على الفقير، وسخره لأمره، وجعله مستعبدا له، وسلبه أعزّ ما لديه"⁽²⁾، وانتسب الناس إلى فئات متباينة يرجون عندها الخير في الحل والعقد من ولاية وزعماء ورجال الدين، وطغت الفئة الأخيرة ومالت إلى استغلال مكاتها فكانت صوفية زائفة حيناً وكان أنصاف المتعلمين والمنعمين. وأصبح التدين تجارة وزعامة ووساطة، فولدت البدع والخرافات، وضل الناس في دروب الجهل والعقيدة لا يجدون السبيل الحقّ والطريق السويّ.

واستهان الناس بالمبادئ في سبيل الوصول إلى الأهداف الزائلة وكل هذه الظواهر الاجتماعية والأخلاق المتردية من شأنها أن تضع الرعيّة في أسفل الدركات فتقوى بذلك شوكة المستبد وأعوانه فيبسط سلطانه ويدوم حكمه. ولا يتوقف التردّي عند الظروف الاجتماعية بل يشمل الظروف الثقافية ولعل تردّي الأول متولد عن الثاني، وتفصيل ذلك في الآتي:

1-3-3 الظروف الثقافية⁽³⁾:

كان الشرق العربي في أواخر القرن التاسع عشر على حال لا تحمد من ضعف الثقافة، فقد أجمعت جل المصادر التاريخية التي وصفت تلك الفترة التي عاش فيها الكواكبي على أن درجة التخلف، الانحطاط، والجهل قد بلغت النهايات القصوى، ولم يعد هناك علماء ومفكرون إلاّ قليل منهم، وقلت الرغبة في البحث والتنقيب عن الحقائق، وقد زار السائح الفرنسي **ميسيو فولني (Volney)** مصر وبلاد المشرق العربي، وخاصة الشام ثم كتب رحلته وضمنها وصفا للحالة الفكرية والعلمية في هذه البلاد فقال: "إن الجهل في هذه البلاد عام شامل مثلها في ذلك مثل سائر البلاد التركية، يشمل الجهل كل طبقاتها، ويتجلى في كل جوانبها الثقافية من أدب وعلم وفن"⁽⁴⁾.

(1) ينظر: سامي الدهان، نوابع الفكر العربي 23، عبد الرحمن الكواكبي، ص 7-8.

(2) المرجع نفسه، ص 48.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 9-10.

(4) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 6.

فلما قامت الإرساليات الأجنبية في هذه الربوع حركت جوانب من البحث جديدة، ومسائل من الدرس كانت مجهولة، فلامست عقول المتحررين، وأيقظت النفوس الكبيرة، فنشط العقلاء إلى العكوف عليها ومدارستها ونقلها وزادها ما نهضت به مصر على يد الأزهر وصحف المصريين في مقالات جريئة، تتعلق بالإنسان وكرامته المواطن وحقوقه، والعربي وحرية، وتسربت هذه الصفحات سرا إلى الأيدي المرتعشة والقلوب الخائفة لأن السجن كان أقل عقابا لقراءة الآثار الخطيرة، والنفي كان أقل جزاء لتملك هذه القنابل المحرقة.

وعلى إثر توالي هذه السياقات السياسية، الاجتماعية والثقافية أكتوت الشعوب بالاستبداد والاستعباد وخارت قواها من فساد نظام واستبداد حكام وفوضى أحكام، فأقبل دعاة الحرية والنهضة من زعماء الفكر في الشرق وخاصة في مصر يصفون آلام الشعوب العربية تحت وطأة العثمانيين وينادون بالإصلاح ويطلبون بنزع الاستبداد ومحو الاستعباد، وبأن يقف أديعاء الدين عند حدود الدين الصحيح فلا يستغلون العامة ولا يستأثرون بأوقاتهم في سبيل رسوم لا تنفع ووعظ لا يرفع، فاستجابت لها القلوب وراحت ترقب الخلاص على أيديهم وتتلقف آثارهم وتتبع مقالاتهم وترى فيهم موضع الأمل ومحط الرجاء وتعجب بشجاعاتهم.

فقد كان منهم في كل قطر مشعل ينير فني الأفغان ظهر جمال الدين الأفغاني (1839- 1897) وفي مصر محمد عبده (1849- 1905) وفي سوريا كان عبد الرحمن الكواكبي (1854- 1902) أحسوا بالوضع الذي انتهى إليه العالم الإسلامي، ورأوا أن لا بد من رابطة سياسة تمسك بهذه الأمة العريقة وتعيد إليها سمعتها وتهض بالشرق وتحرق طاقاته ولكن كلاً منهم نظر إلى العلاج والطريقة من زاويته الخاصة فكانت نظريات في الخلافة الإسلامية جديدة بالتحليل والنظر*؛ فالأفغاني مثلاً كان ثوريا يرى الثورة هي الوسيلة الأجدى في بلوغ الغاية التي حددها كاستراتيجية لشعوب الشرق في ذلك الحين فكانت معالجته للمسائل "معالجة تائر تخرج من فمه الأقوال نارا حامية"⁽¹⁾؛ فهو يدعو الشعب لانتزاع حريته بالثورة؛ ويحدد أن طريقها لا بد وأن يكون مخصصا بالدماء.

بينما نجد الأستاذ الإمام محمد عبده ينفر من هذا الطريق الثوري؛ فلقد كان إصلاحيا يرى أن التدرج في الإصلاح هو الطريق الأضمن في تحقيق هذه الغاية، فالترقية والتعليم والاستنارة الفكرية عنده هي السبيل

* للتعق في فهم هذه النظريات ينظر: أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث حيث عرض لهذه النظريات وقلب فيها وجوه النقد والنظر.

(1) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 278.

الوحيد لبلوغ غاية الشرق في التحرر الفكري والتحرير السياسي⁽¹⁾ في حين كانت معالجة الكواكبي " للأمر معالجة طبيب يفحص المرض في هدوء، ويكتب الدواء في أناة"⁽²⁾.

هكذا اتحدت الغايات النظرية لزعماء النهضة واختلفت بها السبل الموصلة إلى هذه الغايات، وبالذات سبل الوصول إلى التحرر السياسي لشعوب الشرق، فرآها الأفغاني الثورة ورآها محمد عبده التربية والتعليم... وحاول الكواكبي الجمع بينها بادئاً بالإصلاح وصولاً للثورة المخططة وهذا ما يجعل منه "أقرب إصلاح إلى معسكر الثوار وأن منهجه في التفكير إنما كان منهج الإصلاح الثوري"⁽³⁾ فهو "لم يكن من أنصار الثورات العفوية والتمردات غير المدروسة وإنما أكد على أنه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ما يستبدل به الاستبداد"⁽⁴⁾

نستشف مما سبق أن الكواكبي جاء متأخراً قليلاً عن هذه الكوكبة من العلماء؛ لهذا استطاع أن يستوعب ما قالوه وما طرحوه من أفكار وأن يستفيد منها في كتابه فكلهم فهموا بدرجات مختلفة الثراء الفكري الذي زخر به الفكر العربي الإسلامي في مواضيع العدل، المساواة، والشورى ووظفوها في نقد الاستبداد السياسي بسبب طغيان الجانب القومي والاستبدادي لسياسة عبد الحميد الثاني، إلا أنهم لم يكونوا يمثل وضوح الكواكبي في حملته العنيفة ضد كل مظهر يشتم منه رائحة الاستبداد.

فالكواكبي -دون معاصريه- فهو الذي لم يمثل فقط روح هذا الميراث الفكري والحضاري بل أضاف إليه وواءم بينه وبين سياقات عصره والعصر الحديث، حيث عالج قضايا الساعة ومشكلات الحياة المعاصرة على ضوء كليات التراث العربي الإسلامي، وما اطلع عليه من الكتب في المكتبة الكواكبية لاسيما في التاريخ والاجتماع والفلسفة والسياسة واللغة والأدب، وعلى جل المدارس الفكرية الغربية " وخاصة بمونتسكيو* (Montesquieu) في كتابه روح القوانين وما ترجم إلى اللغة العربية في ذلك الوقت"⁽⁵⁾ وما استقصاه في رحلاته.

نهدف من خلال هذه المقاربة السياقية - الخارج اللغة النصية- إلى البحث عن الحقائق والظروف السياسية، الاجتماعية، الثقافية التي انعكست على أسلوب لغته ودفعت به للإجادة فجاء كتابه "عميقاً في معناه

(1) ينظر: محمد عمارة، شخصيات لها تاريخ، دار السلام للطباعة والنشر، ط1، 1429هـ، 2008م، ص 189.

(2) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص 278

(3) محمد عمارة، شهيد الحرية ومجدد الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2007، ص 216.

(4) محمد عمارة، شخصيات لها تاريخ، ص 186.

* شارل لوي دي سيكوندا المعروف باسم مونتسكيو (18 يناير 1689 - 10 فبراير 1755)، فيلسوف فرنسي صاحب نظرية فصل السلطات الذي تعتمده غالبية الأنظمة حالياً. ينظر الموقع الإلكتروني: مونتسكيو ويكيبيديا الموسوعة الحرة ar.wikipedia.org/wiki

(5) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم محمد خالد، ص 11.

ومبناه، قويا في حجته، شاملا في طرحه، واضحا جليا في مساره، ناصعا في برهانه، سلسا في منطقته⁽¹⁾ يجسد العلاج لآهات المجتمع.

4-1 لغة خطاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد:

صوّر الكواكبي سياقات عصره وما يضطرب فيه من نزعات بلغة متينة لم تصطنع قبله لرسم آلام الأمة وأمراضها وأدويتها وعلاجها؛ فأسلوبه يمتاز بتسلسل العبارة، وبصدق التصوير وعمق التفكير، وانقياد الفكرة إلى أعمق مداها، فكأن الكلمات قطعة من نفسه، تثير الهمم وتوقظ الشعور، أخذ " بيانه من مدرسة القرآن وأسلوب الحديث لكثرة ما حفظ في صباه ووعى في شبابه من هذين الينبوعين الثريين"⁽²⁾، فجاء بيانه بعيدا عن إطالة الجمل مجافيا للتكلف والصناعة المستهجنة.

فالقارئ لكتابه يجد لذة في استقراء جملة واستنباط معانيه؛ فكل جملة فيها وحدة كاملة للمعنى بها رأي سديد وحكم مصنوعة بعناية ومنحوتة بروية ولعل مرد ذلك امتياز أسلوب لغة كتابه بخصائص⁽³⁾:

✓ توسل الأسلوب العلمي، المختصر، المفيد، المباشر في تأليف طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد حيث قال في مقدمته: "وقد تخيرت في الإنشاء أسلوب الاقتضاب، وهو الأسلوب السهل المفيد الذي يختاره كتاب سائر اللغات، ابتعادا عن قيود التعقيد وسلاسل التأصيل والتفريع"⁽⁴⁾.

ولكنني لا أتفق مع تصريحه هذا إذ إن استخدامه للرمز التاريخي وللمجاز جعل أسلوب لغته ذات أسلوب عميق ومركب يجمع سعة الخيال وطرافة الفكرة وروعة البيان الذي يعتمد على توليد المعاني واعتصار الأفكار مما يحتاج إلى معاناة وجهد في إدراك مقاصده.

✓ تقديم الحجج التي يهدف من خلالها إلى التأثير والإقناع.

✓ أسلوب لغته يجسد موضوعية التجربة التي يكتب فيها سواء أكانت سياسية، دينية، اجتماعية، لهذا تتجلى فيها مدى أصالته وسعة ثقافته، وصدق عاطفته وعمق خبرته بالحياة.

✓ " أنكر التمثل بالشعر في كل صفحة، وتضمن الآيات بكل مناسبة"⁽⁵⁾.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 14.

(2) سامي الدهان، نوابغ الفكر العربي 23، عبد الرحمن الكواكبي، ص 73.

(3) ينظر: هاجر مدقن، الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1434هـ، 2013م، ص 103-

104.

(4) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 19.

(5) سامي الدهان، نوابغ الفكر العربي 23، عبد الرحمن الكواكبي، ص 45.

✓ الاتكاء على التراث الإسلامي والعربي، فهو يقتبس من القرآن والحديث الشريف وأمثال العرب والكتب التاريخية العربية والمترجمة، أضاف إليها كتابها ما خبر من حال الشعوب الإسلامية، فأعمل فيها الفكر وأشرك فيها العقل والعاطفة⁽¹⁾ فمقالته كانت تضم مواقف إسلامية ونظرات إصلاحية. وخلاصة ما يمكن قوله إن لغة طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد جاءت في أساليب مختلفة ترتفع طورا إلى ذروة البيان وتنخفض طورا إلى درجة المقالة العادية؛ وهذا ما جعل كتابه يخاطب كافة طبقات المجتمع بلغة تكتنف بمختلف الآليات - التي سنعرضها لاحقا في الفصل الرابع- تحمل فكره ويتوسل بها لإقناع المخاطب باختلاف شخصيته السوسيو لغوية.

1- 5 المنطلقات الفكرية العامة للحجاج وأهم تصوراتها في فحوى الكتاب:

(كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) مجموع مقالات سياسية يربطها موضوع واحد يتمثل في الاستبداد وتأثيره على عدد من المجالات يقول الكواكبي في تقديمه للكتاب " في زيارتي هذه لمصر نشرت في بضع جرائدها مقالات سياسية تحت عناوين الاستبداد وما تأثيره على الدين، على العلم، على التربية على الأخلاق، على المجد، على المال...إلى غير ذلك. ثم في زيارتي إلى مصر ثانية أجبْتُ تكليف بعض الشبيبة فوسَّعتُ تلك المباحث خصوصا في الاجتماعات كالتربية والأخلاق، وأضفت إليها طرائق التخلص من الاستبداد، ونشرت ذلك في كتاب سمَّيته (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)"⁽²⁾. ويقول الكواكبي في عرضه لغرض هذا الكتاب "أردت بيان طبائع الاستبداد وما يفعل، وتشخيص مصارع الاستعباد وما يقضيه ويمضيه على ذويه... ولي هناك قصد آخر وهو التنبيه لمورد الداء الدفين، عسى أن يعرف الذين قضوا نحبتهم، أنهم هم المنتسبون لما حلَّ بهم، فلا يُعْتَبَون على الأغيار ولا على الأقدار، إنَّما يُعْتَبَون على الجهل وفقد الهمم والتَّوَكُّل... وعسى الذين فيهم رمق من الحياة يستدركون شأنهم قبل الممات"⁽³⁾.

وقد جاء الكتاب في مقدمة وثمانية فصول، بسط في المقدمة مصادره*، وعرّف الاستبداد كمنطوة لبحوثه لكونه المحور الرئيس الذي تدور عليه فصول الكتاب، ليتفرع كل فصل إلى متلازمات ثنائية يصاب بها

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 45.

(2) المصدر نفسه، ص 18-19.

(3) المصدر نفسه، ص 19.

* كان مطلعا على مؤلفات سياسية أخلاقية ككليلة ودمنة، ومحزرات سياسية دينية كنهج البلاغة وكتاب الخراج، وعلى ما ألف في السياسة ممزوجا بالأخلاق كالترازي والغزالي، والعلائي، وممزوجا بالأدب كالمعزي، والمتنبي وهي طريقة العرب، وممزوجا بالتاريخ كابن خلدون وابن بطوطة وهي طريقة المغاربة وعلى ما ألفه المتأخرون من أهل أوروبا ثم أمريكا وكذلك المتأخرين من الشرقيين، فقد وجد

الواقع عليهم الاستبداد، إذ المستبدُّ بهم لا يبرأهم الكواكبي من الاستبداد الواقع عليهم، تحدث عن جوانب مختلفة وعن علاقة الاستبداد بها وتأثيره فيها، ثم توصل إلى كيفية التخلص من هذا الاستبداد، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

- (1) **فصل الاستبداد والدين:** بحث الكواكبي في العلاقة القائلة إن الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني أو مسير له، وفندها عن الإسلام بفضحه للممارسات والمقتبسات الخاطئة والتأويلات البعيدة عن جوهر القرآن التي مارسها المستبدون وشركاؤهم باسم الدين، ويبيّن بالحجج أنها أمهات للاستبداد وسلاسل للاستعباد أفستت الإسلام وأشقت الإنسان وأبعدته عن عظمة القرآن ومعرفة ما فيه من معجزة وإعجاز علمي.
- (2) **فصل الاستبداد والعلم:** رسم الكواكبي الصراع الدائم بين الاستبداد والعلم.
- (3) **فصل الاستبداد والمجد:** بيّن بالحجج كيف يغالب الاستبداد المجد ويفسده ويقم مقامه التمجيد.
- (4) **فصل الاستبداد والمال:** كشف عن الممارسات الاستبدادية المالية الشنيعة التي يقوم بها المستبد وشركاؤه من إسراف وادخار واحتكار وربما وغضب ما في أيدي الضعفاء لتستحكم قبضتهم في الأموال وليختل نظام الثروة فتفاوت الأوقات ويسهل استعباد الناس وإذلالهم، كما وصف العلاج الذي قرره أصول الشريعة الإسلامية لتوزيع المال وحفظه بعيدا عن هذه المعاملات.
- (5) **فصل الاستبداد والأخلاق:** بسط أثر الاستبداد في إفساد أخلاق الناس.
- (6) **فصل الاستبداد والتربية:** بيّن علاقة الاستبداد بالتربية واستحالة التوافق بينهما لكونهما متعاكسين في النتائج فكل ما تبنيه التربية يهدمه الاستبداد ويقضي عليه بقوته.
- (7) **فصل الاستبداد والترقي:** عرض تأثير فعل الاستبداد في الترتي وكيف يجوله إلى تسفل وانحطاط وفناء ويبيّن دور الحكماء في رفع الضغط عن العقول لتنتقل في سبيلها نحو التّم، وراح يرسم خطبا مثالية في إثارة الشعور وإيقاظ الهمم وهداية أبناء الشعب لكسر قيود العبودية والاستنارة بالعلم في سبيل الترتي.
- (8) **فصل الاستبداد والتخلص منه:** ختم بوضع مقترح للتخلص من الاستبداد وإيجاد الترياق له في شكل مباحث تفيد الراعي الذي يريد أن يتجنب الوقوع في فخ الاستبداد، ويزود الرعيّة بطرق مقاومة المستبدين ومناهضتهم. تتم المنطلقات الفكرية عن فكر الكواكبي الثاقب الذي ينفذ إلى حقائق الأمور ويوضح الأفكار والتأثيرات بتحليل عميق صائب لميكانيكيات الاستبداد منددا بنتائج المدمرة في كافة ميادين الحياة ليجلي كل دفين مستور، وينفي كل فهم سقيم، ويخلص من التفسير العقيم؛ لذلك لا يصح قراءة هذا الكتاب إلا

من التّرك كثير من منهم أحمد جودت باشا، والمؤلفون من العرب قليلون والذين يستحقون الذكر منهم: خير الدين باشا التونسي، للتعلم في مصادره ينظر: عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 21-22.

كاملا فبعضه يضيف إلى بعضه، يكمل ناقصه ويجلي غامضه، ويحيب على استفهاماته وفي كل ذلك كان سلاحه الحجة الدامغة بمختلف أنواعها التي تزيد الأمر بيانا بغية إقناع المخاطب بما يرمي إليه من مقاصد وأهداف أخلاقية، تربوية، وإصلاحية لشؤون المجتمع والسياسة التي من أجلها وضع الكتاب. بعد تقصي المرحلة الأولى المتمثلة في مدى إسهام عناصر التفاعل الخطابي في تكوين بنية الحجاج في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد)، نتوقف عند المرحلة الثانية المتعلقة بتحليل مختلف أنواع الحجج المبتوثة في كل فصوله، وهذا ما سنتطرق إليه في هذا المبحث؛ لأن القيام بتحديد نوع الحجة كفيل بتوضيح مقاصد الكواكبي، وكذا القضية التي يريد عرضها، إضافة إلى قدرته على التأثير في المخاطب، وتوجيهه إلى فعل معين، تبعا لطبيعة ونوع الحجة المعتمدة أثناء الحجاج⁽¹⁾.

وبالنظر إلى الجانب الحجاجي الوارد في (كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد)، نجد أن الحجج قد تنوعت وتفرعت تبعا لمقاصد ذلك الكتاب، فنتيجته العامة تمثلت في معارضة الكواكبي للنظام الاستبدادي للسلطان عبد الحميد الثاني في شؤون السياسة والدين والعلم والمجد والمال والأخلاق والتربية، ومحاولة التخلص من هذا النظام الاستبدادي وتنبيه الرعية بمكامن الداء، دونما جهر بهذه النتيجة، معتمدا في ذلك على طريقة غير مباشرة تعتمد التلميح والتضمين، ولغاية تحقيق هذه الطريقة يعتمد الكواكبي إلى انتقاء الحجج التي تؤدي دور التلميح والتضمين، حتى تساعد على الانتقال مما يُعرض إلى ما هو مقصود.⁽²⁾

وعلى هذا الأساس فإنّ الحجج المختارة على اختلاف أنواعها أثناء الحجاج لها ارتباط وثيق بالنتائج المقصودة، لهذا يستلزم تمييزها عن النتيجة بإشارة خاصة، تتمثل في وضع خطين أسفل النتيجة (==)، أما الحجة فيدل عليها خط أسفلها (—)⁽³⁾، وتفصيل ذلك وفق الآتي:

2- أنواع الحجج في طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد :

تعددت وتنوعت الحجج الواردة في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد) وهي كالاتي:

1-2- الحجج شبه المنطقية: تنقسم الحجج شبه المنطقية إلى قسمين أساسيين هما:

1-1-2 الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية:

إنّ الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية جاءت في (كتاب طبائع الاستبداد ومصارع

الاستبعاد) في أشكال متعددة مما تطلب منّا الفصل فيها كلّ على حدة:

(1) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 189.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 189.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 190.

2-1-1-أ حجة التناقض وعدم الاتفاق أو ما يسمى " التعارض ":

عمد الكواكبي في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد) إلى استعمال قضيتين متناقضتين يستحيل الوصل بينهما فلا يجتمعان مطلقاً؛ إذ ليس هناك إمكانية لتحقيق القضيتين معاً. فأحدهما صحيحة والأخرى خاطئة، ويهدف من خلال هذا الاستعمال إلى وضع المتلقي أمام الأمرين المتناقضين ليدفعه إلى إعمال المنطق "وتقبل الصحيح من الأمرين المتناقضين ورفض الخاطئ منها"⁽¹⁾ لغاية إقناع المتلقي ودفعه لتقبل النتائج الحجاجية بإعمال الفكر والمنطق، وتحديد الصحيح من القضايا المعروضة عليه⁽²⁾. فلا يمكن لأي قضية أن تحمل قيمتي الخطأ والصواب معاً، ولكن من المستحيل ألا تتخذ إحدى القيمتين؛ "وعليه فإن الاحتمال الوحيد المقبول هو إما (أ) وإما (ب) مع استبعاد كل من لا (أ) ولا (ب)، (أ) و(ب) معاً"⁽³⁾. سنغنى باستنطاق نماذج لحجة التناقض وعدم الاتفاق مع تبيان مدى تأثيرها في مخاطب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد)، ومن هذه النماذج:

✓ " الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنَّما يقاوم باللين والتدرُّج "⁽⁴⁾.

في فصل (الاستبداد والتخلص منه) يحتج الكواكبي في مبحث السعي لرفع الاستبداد بحجة عدم مقاومة الاستبداد بالشدة وهو نقيض اللين والتدرج، فيضع المتلقي أمام الأمرين المتناقضين؛ أولهما (أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة) وثانيهما (يقاوم باللين والتدرُّج) فيدفعه إلى دحض القضية الخاطئة وتقبل القضية الصحيحة المتمثلة في مقاومة الاستبداد باللين والتدرج وإقناعه بالعمل وفقها.

✓ " هل خلق الله لكم عقولا لتفهموا به [ها] كل شيء أم لتهملوه [ها] كأنه [ها] لا شيء "⁽⁵⁾.

يخاطب الكواكبي في فصل (الاستبداد والترقي) القوم ويضعهم أمام المتناقضين؛ إذ إن الله خلق لهم عقولا ليفهموا بها كل شيء إلا أنهم أهملوها كأنها لا شيء. يهدف الكواكبي إلى تنفيذ هذه القضية الخاطئة ودفعهم إلى إعمال عقولهم في ملكوت السماوات والأرض من باب اللوم الإرشادي.

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كتيبة ودمنة لابن المقفع، ص 190.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 190-191.

(3) فضيلة قوتال، حجاجة الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، ص 53.

(4) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد، تقديم عمار علي حسن، ص 162.

(5) المصدر نفسه، ص 132.

والواقع أن الحجج القائمة على عدم الاتفاق "تقود أحيانا كثيرة إلى الإضحك إذ إنها توقع بالخصم وتهدم ما يبنيه بالخطاب بل تجعل كلّ الوضعية مضحكة حين تبرز العبثية وتوغل في تصوير المفارقة الصارخة لذلك يقترن هذا الصنف من الحجج بالسخرية"⁽¹⁾ على نحو ما جاء في خطاب الكواكبي:

✓ "المستبد في لحظة جلوسه على عرشه ووضع تاجه الموروث على رأسه يرى نفسه كان إنسانا فصار إليها. ثم يرجع النظر فيرى نفسه في نفس الأمر أعجز من كلّ عاجز وأثمة ما نال ما نال إلا بواسطة من حوله من العوان، فيرفع نظره إليهم فيسمع لسان حالهم يقول له: ما العرش؟ وما التاج؟ وما الصولجان؟ ما هذه إلا أوهام في أوهام. هل يجعلك هذا الريش في رأسك طاووسا وأنت غرابا؟ أم تظن الأجار البراقة في تاجك نجوما ورأسك سماء؟ أم تتوهم أنّ زينة صدرك ومنكبيك * أخرجتك عن كونك قطعة طين من هذه الأرض؟ والله ما يمكنك في هذا المقام وسلطك على رقاب الأنام إلا شعوذتنا وسحرنا وامتهاننا لديتنا ووجداننا وحياتنا لوطننا وإخواننا فانظر أيها الصغير المكبر الحقير الموقر كيف تعيش معنا"⁽²⁾.

الكواكبي قد بنى حجته في التقليل من شأن المستبد على انتفاء التوافق بين مظاهر أجهته وبين حقيقته الزائفة، وقد جاءت الطاقة الحجاجية مرفودة بضرب من التهمك، يعرض المستبد للسخرية ويجعله في وضع لا يؤهله حتى لحكم نفسه، بغية كشف حقيقته للمخاطب وإقناعه بمجاهته واحتقاره.

✓ "ربما يغتر المطالع كما اغتر كثير من المؤرخين البسطاء بأن بعض وزراء المستبد يتأوهون من المستبد ويتشكون من أعماله ويجهرون بملامه، ويظهرون لو أنّه ساعدهم الإمكان لعلوا وفعلا وافتدوا الأمة بأموالهم، بل وحياتهم، فكيف والحالة - هذه - يكون هؤلاء لؤماء؟... لا يغترّ العقلاء بما يتشدق به الوزراء والقواد من الإنكار على الاستبداد والتفلسف بالإصلاح وإن تلهّفوا وإن تأفّوا، ولا يندعون لمظاهر غيرتهم وإن ناحوا وإن بكوا، ولا يثقون بهم ولا بوجوداتهم مهما صلّوا وسبّحوا، لأنّ ذلك كلّه ينافي سيرهم وسيرتهم، ولا دليل على أنّهم أصبحوا يخالفون ما شبّوا وشابوا عليه، هم أقرب أن لا يقصدوا بتلك المظاهر غير إقلاق المستبد وتهديد سلطته ليشاركهم في استئثار دماء الرعيّة"⁽³⁾.

يكشف الكواكبي عن حقيقة الوزراء بتبيان التعارض بين أقوالهم وأفعالهم ليجعلهم عرضة للهزاء في أعين الرعيّة؛ وذلك بالنظر إلى المقام الخارجي؛ إذ إن الكواكبي يعمل على تبيان التعارض بين أقوال وزراء

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنينه وأساليبه، ص 198.

* المنكب: الكتف.

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 68.

(3) المصدر نفسه، ص 71.

المستبد وأفعالهم الدينية التي تتنافى مع سيرتهم وإظهار ما لا يبطنون وإدعائهم بأنه لو ساعدتهم الإمكان لعملوا وفعلوا وافتدوا الأمة بأموالهم، وهذه القضية خاطئة سعى الكواكبي إلى تفنيدها باعتبارها واقعة في التعارض بين مقالهم ومقائمهم، ويروم من خلال هذا التعارض إقناع الرعية العاقلة بعدم الوثوق بوزراء المستبد لأنهم لئام لا يهتمهم إلا نهب أموالها والتنكيل بها.

هذا النوع من الحجج قد يتخذ شكلا آخر في الاستعمال يقوم على المقابلة بين فكرة ما ونتائجها العملية الإيجابية وبين الفكرة المراد دحضها وتبيان نتائجها السلبية نحو قول الكواكبي:

✓ " يا قوم: حاكم الله، قد جاءكم المستمتعون من كل حذب ينسلون فإن وجدوكم أيقاظا عاملوكم كما يتعامل الجيران ويتعامل الأقران، وإن وجدوكم رقودا لا تشعرون سلوا أموالكم وزحموكم على أرضكم وتحيلوا على تدليلكم وأوثقوا ربطكم واتخذوكم أنعاما، وعندئذ لو أردتم حراكا لا تقوون، بل تجدون القيود مشددة والأبواب مسدودة لا نجاة ولا مخرج" (1).

فالسباق إرشادي ينصح فيه الكواكبي القوم ويبرز حاجاتهم إلى الانتباه؛ إذ إن المستمتعون متى وجدوا القوم أيقاظا عاملوهم كما يتعامل الجيران ويتعامل الأقران، ويحذرهم من التغافل الذي يترتب عنه نتائج سلبية تكمن في سلب أموالهم ومزاحمتهم على أرضهم واستعبادهم وإذلالهم.

✓ " نعم، لا يقتضي أن يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع أو الصنعة المفيدة بذلك الجاهل النائم في ظل الحائط ولا ذاك التاجر المجتهد المخاطر بالكسول الخامل، ولكن العدالة تقتضي غير ذلك التفاوت، بل تقتضي الإنسانية أن يأخذ الراقي بيد السافل، فيقرّبه من منزلته ويقاربه في معيشته ويعينه على الاستقلال في حياته" (2).

يضع الكواكبي المتلقي أمام المتناقضين؛ إذ يقر بأن العدالة تقتضي أن لا يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع بذلك الجاهل النائم في ظل الحائط، ولا تقتضي أن يتساوى التاجر المجتهد المخاطر بالكسول الخامل، وفي الوقت ذاته يلح بأن العدالة تقتضي أن يأخذ الراقي سواء أكان عالما أو تاجرا بيد ذاك السافل الجاهل أو التاجر الكسول حتى يقرّبه من منزلته ويقاربه في معيشته ويعينه على الاستقلال في حياته. يسعى الكواكبي إلى تفنيد القضية الأولى وإقناع المخاطب بضرورة الابتعاد عن الغطرسة في العلم وأن لا ينظر نظرة الاحتقار للجاهل بل الأمر يتطلب مساعدة الراقي للسافل حتى يعم التقارب والإصلاح كافة طبقات المجتمع.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 133.

(2) المصدر نفسه، ص 78.

نستنتج من خلال تحليل حجة التناقض وعدم التوافق في مدونة (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد) أنها جاءت في صورة أشكال متعددة لأغراض محددة تشترك في عملية تنفيذ القضية الخاطئة وترجيح القضية الصحيحة المراد إقناع المخاطب بها وتمثيل ذلك وفق المخطط الآتي:

تقوم على إظهار التناقض بين قضيتين إحداهما صحيحة والأخرى خاطئة.

لغاية هدم الأطروحة الخاطئة وإقناع المخاطب بتبني الأطروحة الصحيحة وتأتي في صور متعددة، وهي:

المقابلة:

هذا النوع من الحجج قد يتخذ شكلاً آخر في الاستعمال يقوم على المقابلة بين فكرة ما ونتائجها العملية الإيجابية وبين الفكرة المراد دحضها وتبيان نتائجها السلبية.

السخرية:

وأخذت شكلين؛ أولهما توضح مواطن الهزء في علاقة الشكل الحقيقي الخفي بالمقام وتوغل في تصوير المفارقة الصارخة لتجعل القضية المتحدث عنها ممزأة ومسخرة. والثاني: الهزء الذي مجاله المقال في علاقته بالمقام، فإذا حصل التعارض بين أقوال وأفعال الخصم جعله (الكواكبي) المخاطب موضعاً للسخرية.

أطروحتان متناقضتان:

قد يعرض أطروحتين متناقضتين ويظهر عدم التوافق بينهما فيدفع المخاطب إلى تنفيذ الخاطئة واختيار الأطروحة الصحيحة، وقد يعمد إلى إظهار التعارض في موقفه بين آرائه بهدف كسب المتلقي المعارض له بتبني حجته ولكن يستدرك عليها بهدمها بعرض الأطروحة النقيض لها.

مخطط رقم 21 يوضح حجة التناقض وعدم الاتفاق في طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد.

يسعى الكواكبي من خلال استعمال هذا النوع من الحجج وتمثيلها في صور مختلفة إلى وضع المخاطب أمام متناقضات ليصل بالمنطق إلى تقبل الصحيح ورفض الخاطئ منها، وهذا ما عمد إليه بغية محاربة الفتور في تفكير الناس ودفعهم لتقبل واستنباط نتيجة الحجاج بإعمال الفكر.

1-1-2 ب حجة التماثل والحدّ في الحجاج:

عمد الكواكبي إلى توظيف هذا النوع من الحجج القائمة على تعريف المفاهيم رغبة منه في توضيح مفهوم موضوع ما للمخاطب، بغرض التوافق معه "على أسس مشتركة بهدف إقناعه بشكل أفضل"⁽¹⁾؛ فسعى من خلال خطابه إلى تقديم تعريفات تتمحور حول موضوع الاستبداد وعلاقته بمجالات متعددة لترسيخها وتمكين المخاطب من معرفتها من جهة، ومن جهة أخرى لأن "التعريف يمارس سلطته لكونه صعب التنفيذ"⁽²⁾؛ إذ إن

(1) فضيلة قوتال، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، ص 66.

(2) المرجع نفسه، ص 67.

الكواكبي استثمر بدهته وبساطته لإقناع المخاطب بما يليه، ولا يخلو فصل من فصول كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد) من هذا النوع من الحجج نورد منها:

✓ "الاستبداد لغة هو: غرور المرء برأيه، والأنفة عن قبول التصيحة، أو الاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة... الاستبداد في اصطلاح السياسيين هو: تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة ولا خوف تبعه... أما تعريفه بالوصف فهو: أن الاستبداد صفة للحكومة المطلقة العنان فعلا أو حكما التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية ولا عقاب محققين" (1).

✓ "المجد هو إحراز المرء مقام حب واحترام في القلوب، وهو مطلب طبيعي لكل إنسان، لا يترفع عنه نبئ أو زاهد، ولا ينحط عنه دني أو خامل" (2).

هذه الأمثلة وغيرها تعتمد على تعريف المفاهيم من قبل المخاطب من أجل توضيحها للمخاطب ومن ثم إقناعه بما يصبو إليه، فالفهم طريق الإقناع لا محالة لأن أهم عناصر الحجاج هو الفهم والإفهام، فلا يمكن أن يكون هناك إقناع ما لم يمكن هناك فهم للخطاب، وهذا ما يقوم به التعريف فهو يقوم بتوضيح وتحديد ماهية الشيء بتعريف حده ومن ثم إقناع المخاطب بالمقاصد التي وُظف من أجلها.

كما يرمي الكواكبي من خلال توظيف هذا النوع من الحجج إلى دفع المخاطب إلى تقويم المفاهيم تقويما إيجابيا أو سلبيا "تبعاً لقدراته الذهنية وللقيم الدلالية التي تقدمها تلك الحجج" (3) من قبيل تحصيل الحاصل في مقامات بالغة الخصوصية؛ لأنه لا يمكنه استنباط "دلالاتها الحجاجية إلا في مقام بعينه فهذا المقام هو الذي يعطي لهذه العبارات دلالتها المخصوصة" (4).

ومن حجج التماثل التي وظفها الكواكبي في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد) نسوق الناذج الآتية:

✓ "والنتيجة أن وزير المستبد هو وزير المستبد" (5).
هذا التعريف يفتقر إلى الدقة والوضوح فقد يفهم المخاطب من وزير المستبد أنه ذلك المتخلق بالخير حقيقة، وبالشر ظاهرا فيخدع المستبد بأعماله ولكنه في حقيقته يودّ نصره الأمة وإفقادها من الاستبداد كما

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد، تقديم عمار علي حسن، ص 25-26.

(2) المصدر نفسه، ص 59.

(3) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 193.

(4) عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، ص 45.

(5) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد، تقديم عمار علي حسن، ص 71.

قد يميل إلى اللئيم الأعظم في الأمة الذي يريد بها كل سوء ولا يمكن أن تتوفر فيه خصال التقوى والعدل الحكمة، المروءة، والشفقة. فهو يعلم أن الأمة تبغضه وتمتته وتتوقع له كل سوء، فهو حريص على بقاء الاستبداد مطلقا وعلى موازنة المستبد ليشركه في استدرار دماء الرعية والتنكيل بها لتبقى يدها مطلقتان في الأموال. يهدف الكواكبي من خلال هذه الحجة إلى دفع المخاطب إلى تقويم مفهوم وزير المستبد تقويما إيجابيا أو سلبيا، إلا أن الكواكبي يقصد من خلال هذه العبارة التقويم السلبي للوزير لينبه الرعية بحقيقته ويدفعهم إلى النفور منه وعدم الوثوق به، وهذه الدلالة الحجاجية نستنبطها من العبارات السياقية الواردة بكثرة في خطاب الكواكبي نذكر منها "الوزير الأعظم للمستبد هو اللئيم الأعظم في الأمة"⁽¹⁾ وأيضا قوله: "أليس هو عضوا ظاهر الفساد في جسم تلك الأمة"⁽²⁾.

✓ "والحاصل أن المجد هو المجد محبب للنفوس، لا تفتنا تسعى وراءه وترقى مراقبه، وهو ميسر في عهد العدل لكل إنسان على حسب استعداده وهمته، وينحصر تحصيله في زمن الاستبداد بمقاومة الظلم على حسب الإمكان" ⁽³⁾.

فللدعوة إلى أن يعيش الإنسان حياة طبيعية شريفة وللاحتجاج لوجوب السعي لنيل المجد يؤكد الكواكبي أن المجد قيمة ثابتة لا تتغير في النفوس فيعرف المجد بالمجد وهو تعريف يسعى إلى ترك الأثر في نفس المخاطب وإقناعه بضرورة العمل لتحصيله كيفما كانت الأوضاع.

✓ "أما أهل الشرق فهم أديبون، ويغلب عليهم ضعف القلب وسلطان الحب والإصغاء للوجدان، والميل للرحمة ولو في غير موقعها، واللطف ولو مع الخصم." ⁽⁴⁾

نلاحظ في هذا المثال أن كلمة (أديبون) غير دقيقة الدلالة، فقد تدل على الأشخاص الذين يمتلكون الشجاعة الأدبية ومستعدون للدفاع عن حقوقهم بقوة القول دون خنوع أو إذعان، كما أنها قد تحيل على معنى الأشخاص ذوي الحس المرهف الذين يغلبون لغة المشاعر على لغة العقل، إلا أن المخاطب انطلاقا من تقصي دلالة الكلمة في العبارة يجد أن المقصود ما دل على الرحمة ولو في غير موضعها للوصول به إلى استنباط النتيجة وهي معرفة السبب من وراء تأخر الشرقيين وإقناعهم بضرورة التغيير لتغيير أوضاعهم.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد، تقديم عمار علي حسن، ص 70.

(2) المصدر نفسه، ص 72.

(3) المصدر نفسه، ص 61.

(4) المصدر نفسه، ص 103.

نستنتج أنّ الكواكبي وظف حجة التماثل والحد في الحجاج لترسيخ مفاهيم الموضوع المعرف وتوضيحها في ذهن المخاطب ليتمكن من تقويمها تقويماً سلبياً أو إيجابياً حسب دلالتها السياقية التي تزيل عنه الغموض وتقصي الدلالات الخاطئة، فيصبح الخطاب قابلاً للفهم والإبلاغ واستنباط النتائج المراد إقناع المخاطب بها على أرضية بنائية مفهوماتية.

2-1-1 ج الحجة القائمة على العلاقة التبادلية:

تتأسس هذه الحجة على تطبيق مبدأ العدل بين وضعيتين أو ملفوظين متماثلين، وإن بطريقة غير مباشرة، والغاية من ذلك أثناء الحجاج هو وضع المخاطب "بين أمرين يشدان انتباهه وتركيزه ويوجهانه إلى المقصود من الحجاج، معتمداً في ذلك على السياق المحيط"⁽¹⁾ بغية "معالجة وضعيتين إحداهما بسبيل من الأخرى معالجة واحدة"⁽²⁾؛ إذ قد تقابل هذه المعالجة بين الوضعيتين بحجج عكسية أو عن قلب وجهات النظر. وتوضيحا لهذه القضية نسوق نماذج من الحجج القائمة على العلاقات التبادلية التي تم توظيفها في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وهي كالآتي:

✓ "ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الوهم، لو درى الصغير بوهمه، العاجز بوهمه، ما في النفس الكبير المتأله من الخوف منه لزال الإشكال وقضى الأمر الذي فيه تشقون"⁽³⁾.

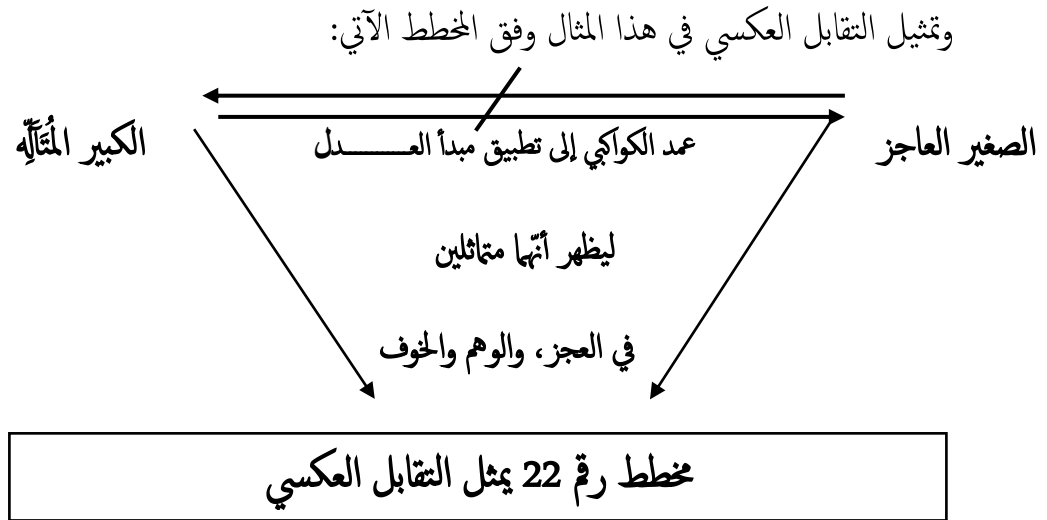
ماثل الكواكبي بين وضعيتين متعاكستين، وضعية الصغير الواهم بالعجز، ووضعية الكبير الذي يدعي الألوهية؛ فعالج هاتين الوضعيتين المتعاكستين معالجة واحدة فساوى بينهما في الأوهام ليصل بالمخاطب إلى إقامة مبدأ العدل وليعامل هذا الكبير الذي يدعي الألوهية معاملة واحدة لأنه لا يقل شأناً عنه، فما يتبادر إلى ذهن الصغير العاجز من هواجس يتبادر إلى ذهن الكبير، فالعلاقة بينهما علاقة تبادلية في الهواجس، يرمي الكواكبي من خلال استعمال حجة التقابل العكسي بينهما إلى تمثيل مفارقة غير مرغوب فيها، تصدم المخاطب بحدة، فهي تقابل حالة الصغير العاجز بحالة أخرى للكبير المتأله⁽⁴⁾ حتى يظهر خطأ التصور لإحدهما التي لا تعدو أنّ تكون مساوية للأخرى، وبالتالي إقناع المخاطب بكسر حواجز التفاوت وهواجس الأوهام التي تولد الخوف وتشقي الأفراد وتبين أنهم سواسية وليس بينهم إلا برزخ من الوهم، وهو الأمر الذي أراد الكواكبي تنفيذها عن أذهان مخاطبيه.

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلياته ودمنة لابن المقفع، ص 195.

(2) عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 328.

(3) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 134.

(4) ينظر: فضيلة قوتال، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، ص 106.



✓ " فالمستبدون يتولاهم مستبد، والأحرار يتولاهم الأحرار، وهذا صريح معنى: كما تكونوا يُولَى عليكم"⁽¹⁾.

في هذا النموذج نجد أنّ الوضعيتين المتعاكستين في خطاب الكواكي هما: تولي المستبدين على المستبدين وتولي الأحرار على الأحرار. وجسد هذا التماثل العكسي نتيجة الحجاج التي توصل إليها الكواكي في هذه الحكمة التي درجت على ألسنة الاجتماعيين والمؤرخين، ومفادها كما تكونوا يُولَى عليكم فكل سلطان من طينة الرعيّة إن أحسنت أحسن سلاطينهم تولي أمورها بإحسان وإن استبدت الرعيّة بعضها ببعض تولاهها سلاطين مستبدون.

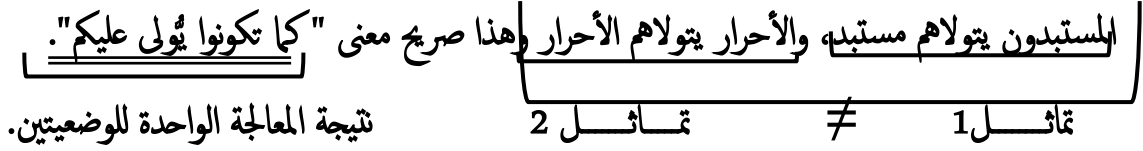
في هذا المثال حجج عكسيّة ودعوة إلى تطبيق قاعدة العدل " التي تقتضي معاملة واحدة لكائنات أو وضعيات داخلية في مقولة واحدة"⁽²⁾؛ فليس من حكمة الله العظيم وعدله أن يُولي الأشرار على الأخيار ولا الأخيار على الأشرار، كلّ يُولي على من كان من جنسه، ويُعامل على حسب ما يتعامل به مع غيره ليصل المخاطب إلى المقصود وهو أن ينتبه إلى صنعة أعماله التي إن صلحت صلح وُلّاته وإن فسدت فسدت وُلّاته، " ولكن يكفي أن يشكك المرء في هذا التماثل لتنهار الحجّة"⁽³⁾ أو يكفي أن يستدلّ المعارض برعيّة حرة صلح صنيع أعمالها ولكن تولّاه مستبد ليجرّد الحجّة من طاقتها الحجاجية.

(1) عبد الرحمن الكواكي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 32.

(2) عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته، ص 328.

(3) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص 202.

وتمثل الوضعيتين المتماثلتين وفق المخطط الآتي:



نتيجة المعالجة الواحدة للوضعيتين.

بين 1 و2 تماثل عكسي

تحتكم كلاً الوضعيتين إلى مبدأ منطقي هو التبادلية أي معاملة طرفين متماثلين المعاملة ذاتها.

الرعية الحرة تتعامل فيما بينها بالعدل والرحمة والمشاورة والعزة والشرف والتعاون.

الرعية المستبدة تتعامل فيما بينها بالظلم والقهر والغصب.

علاقة تبادلية

يُولَى اللهُ عليهم رَاعٍ يعاملهم بالمثل.

علاقة تبادلية

يسلط اللهُ عليهم رَاعٍ مستبد يعاملهم بالمثل

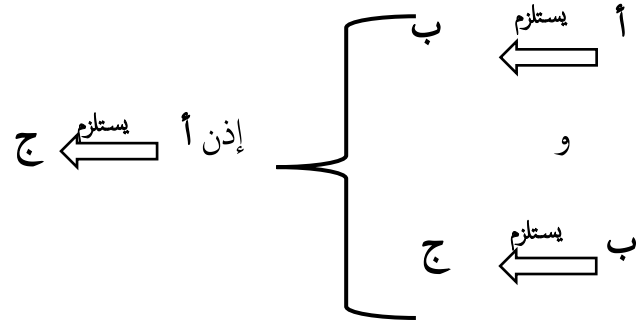
مخطط رقم 23 يمثل نموذج من الوضعيتين المتماثلتين:

2-1-1-2 حجة التعديّة:

تتأسس هذه الحجة على العلاقات الشكلية شبه المنطقية التي تسمح لنا بالمرور من العلاقة بين أ وب وبين ب وج إلى العلاقة بين أ وج باعتماد الإجراء الاستنتاجي الذي يتجسّد غالباً في شكل "مقدمة كبرى تليها مقدمة صغرى تؤديان إلى نتيجة نهائية. وتهدف هذه الآلية الاستنتاجية في حجة التعديّة إلى إشراك ذهن المتلقي للوصول إلى النتيجة الحجاجية المرجوة انطلاقاً من تسليمه بصحة المقدمتين الكبرى والصغرى"⁽¹⁾.

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 197.

ويمكن تمثيل ضرب من ضروب العلاقات التي تقوم على خاصية التعدية بعلاقة الاستلزام التي تجمع بين هذه الأطراف وفق المخطط الآتي:⁽¹⁾



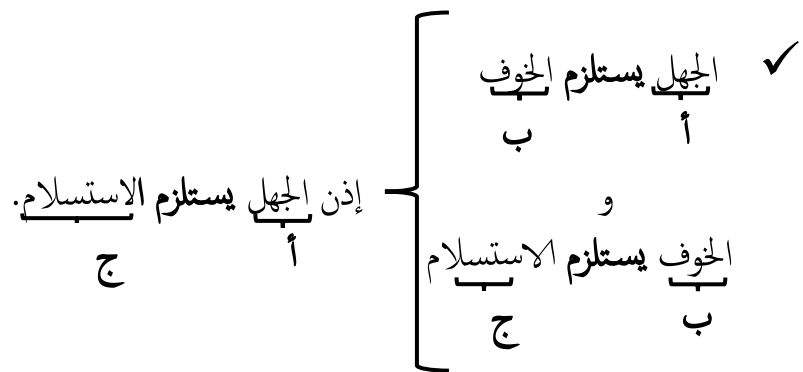
مخطط رقم 24 يوضح علاقة الاستلزام في حجة التعدية

هذا المخطط سنعمد عليه في تحليل نماذج من حجج التعدية الواردة في (كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وتفصيل ذلك كالآتي:

وينتج مما تقدم أنّ بين الاستبداد والعلم حرباً دائماً وطراداً مستمراً: يسعى العلماء في تنوير العقول ويجهّدون المستبدّ في إطفاء نورها، والطرفان يتجادبان العوام. ومن هم العوام؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا استسلموا، كما أنّهم هم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا"⁽²⁾.

يمكن تمثيل حجج التعدية في خطاب الكواكبي وفق المخطط الآتي:
الاستبداد + العلم = قطبي صراع متنافرين يتجادبان العوام بنوعين، وينتج عن هذا التجاذب علاقة تعدية تجمع بين هذه الأطراف.

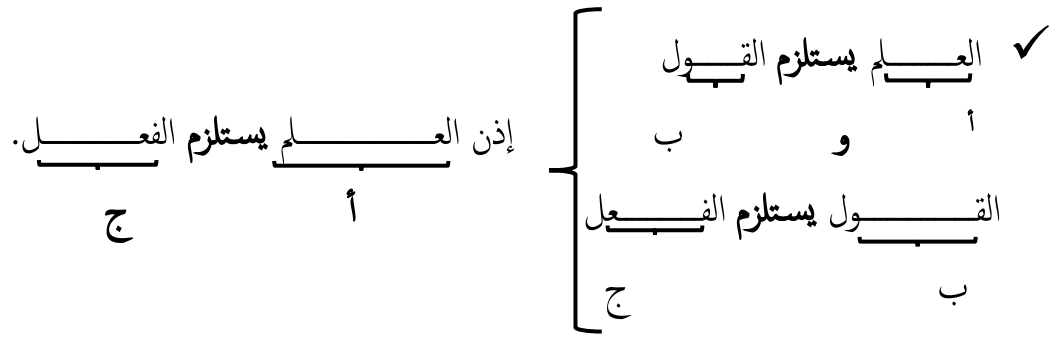
العوام 1:



(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 114. وينظر: محمد الوالي، الحجاج مدخل نظري تاريخي، ضمن مؤلف الحجاج، مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران، ط1، 2013م، ص 87.

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 53.

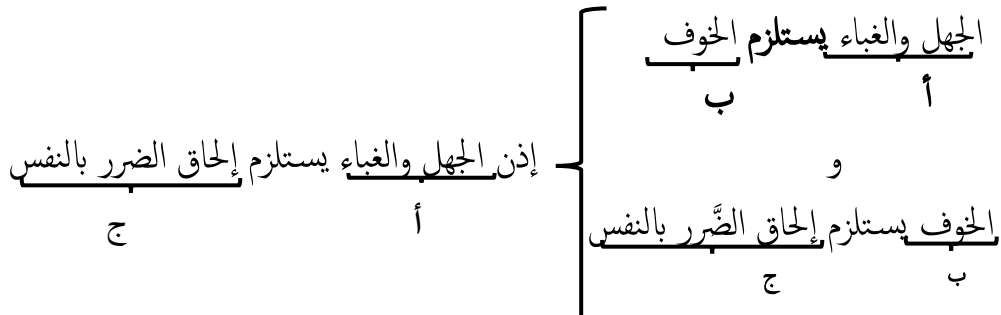
العوام 2:



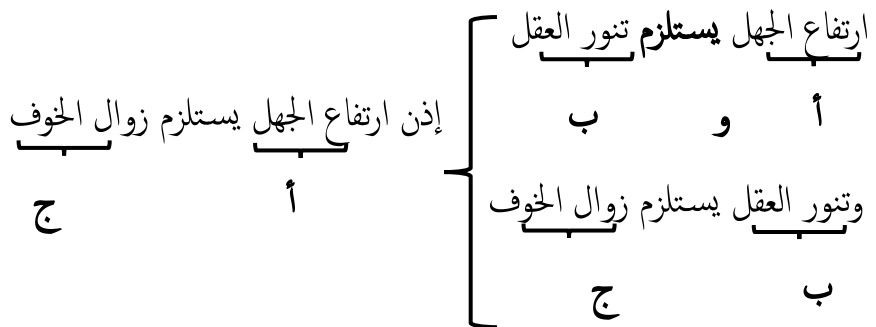
✓ " والحاصل أنّ العوام يذبحون أنفسهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة، فإذا ارتفع الجهل وتنوّر العقل زال الخوف، وأصبح الناس لا ينتقدون طبعاً لغير منافعهم، كما قيل: العاقل لا يخدم غير نفسه، وعند ذلك لا بد للمستبد من الاعتزال أو الاعتدال" (1).

تتجسد العلاقات في هذه الحجة وفق الآتي:

✓ " والحاصل أن العوام يذبحون أنفسهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة"



✓ " فإذا ارتفع الجهل وتنوّر العقل زال الخوف"



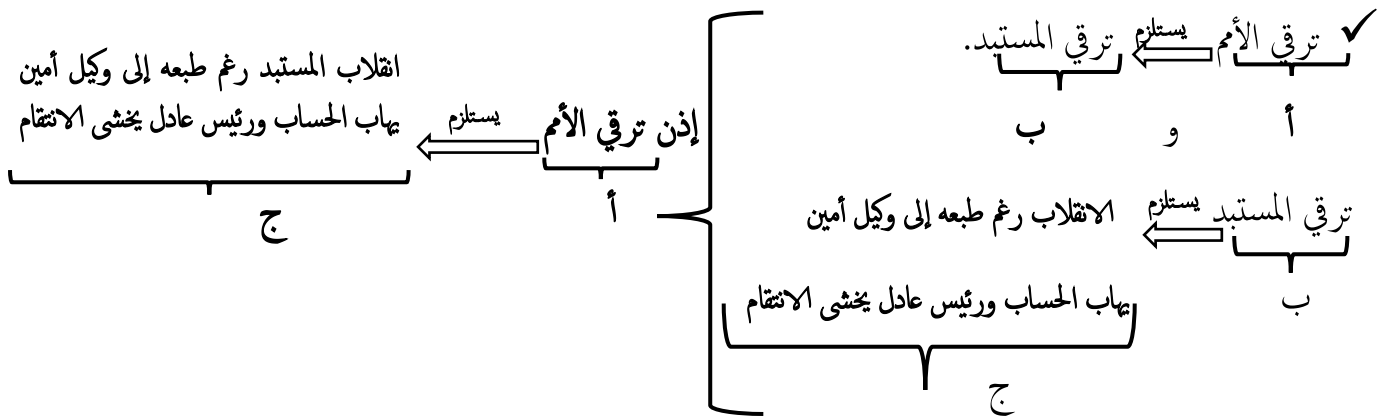
(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 53-54.

ويمكن جمع ما سبق من حجج ونتائج للوصول إلى استنتاج النتيجة النهائية التي تجمع بين هذه العلاقات التي يود الكواكبي إقناع المخاطب بها وفق الخطوات الآتية:

- أ) الجهل والغباء $\xrightarrow{\text{يستلزم}}$ الخوف $\xrightarrow{\text{يستلزم}}$ إلحاق الضرر بالنفس.
- ب) ارتفاع الجهل $\xrightarrow{\text{يستلزم}}$ تنور العقل $\xrightarrow{\text{يستلزم}}$ زوال الخوف.
- والتحول من الوضع (أ) إلى الوضع (ب) $\xrightarrow{\text{يستلزم}}$ من المستبد الاعتزال أو الاعتدال.
- الوضع (ج)

✓ "وكم أجبرت الأمم بترقيها المستبد اللئيم على التزقي معها والانقلاب - رغم طبعه - إلى وكيل أمين يهاب الحساب ورئيس عادل يخشى الانتقام"⁽¹⁾.

وتمثيل العلاقة بين أطراف هذه الحجة وفق المخطط الآتي:



2-1-2 الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية:

2-1-2-1 إدماج الجزء في الكل:

يقوم هذا النمط من الحجج على إدماج الجزء في الكل باعتبار أنّ ما ينطبق على الكل من أحكام وسمات ينطبق بالضرورة على أجزائه المكوّنة له؛ "لأن الجزء يعدّ قيمة مناسبة داخل الكل، فالحكم الذي يُطلق على هذا

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 54.

الكلّ يمكن سحبه ليطلق على الجزء، وغاية هذا النوع من الحجج أثناء الحجاج هو توجيه المتلقي واستدراجه إلى المقصود من نتائج الحجاج، فاعتقاد المتلقي بالحكم الموجّه إلى الكلّ لا يمنعه من أن يعتقد الجزء منه⁽¹⁾

وبهذا تصبح حجة إدماج الجزء في الكلّ أقرب إلى مدارك المخاطب ولها أكبر الأثر في التأثير فيه وإقناعه.

ولتوضيح هذا النوع من الحجج نسوق نماذج من (كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) فيما يأتي:

✓ " هذا القرآن الكريم إذا أخذناه وقرأناه بالتّروي في معاني ألفاظه العربية وأسلوب تركيبه القرشي مع تفهم أسباب نزول آياته وما أشارت إليه، ومع التّبصّر في مقاصده الدقيقة وتشريعه السامي... فحينئذ لا نرى فيه من أوله إلى آخره غير حكم يتلقاها العقل بالإجلال والإعظام."⁽²⁾

هذا النوع من الحجج كما سبق وذكرنا يقوم على مبدأ رياضيّ هو " أنّ ما ينسحب على الكلّ ينسحب على الجزء من هذا الكلّ"⁽³⁾.

تبرز هذه الحجة أنّ كل القرآن الكريم هو حكم يتلقاها العقل بالتعظيم والتبجيل؛ وهذا لاشتغال كل جزء وكل فاصلة وكل حرف وكل جملة على حكم أسرة فيها من الحلاوة والإعجاز والانسجام والبراعة وسمو المعاني ما حير عقول بلغاء العرب وفضاحل اللغة، فالناظر في القرآن حق النظر يرى أنّه لا يكلف الإنسان قط بالإدعان لشيء فوق العقل بل لا بد من إعماله والنظر في كل صغيرة وكبيرة لاستنباط مقاصده؛ إذ يعتبر أفضل صارف للفكر عن الوقوع في مصائد المخزّفين تحقيقاً للحكمة الإجمالية التي أنزل من أجلها والمتمثلة في هداية النّاس إلى الطريق السوي بأحكام وأوامر ونواهي تشكل جزءاً من ذلك الكلّ.

✓ " المستبدون يخافون من العلم حتى من علم الناس معنى كلمة (لا إله إلا الله) ولماذا كانت أفضل الذكر ولماذا بُني عليها الإسلام... فيكون معنى لا إله إلا الله: لا يستحق الخضوع شيء غير الله."⁽⁴⁾

هذه الحجة تبين أن المستبدين يخافون من العلم، حتى جزء من ذلك العلم الذي يبين للناس معنى كلمة (لا إله إلا الله) وبأنّه لا يستحق الخضوع شيء غير الله، لذا وجب على الناس طلب العلم وتعلم هذا المعنى وتكراره على الذاكرة أثناء الليل وأطراف النهار حدراً من الوقوع في ورطة شيء من الخضوع

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلياته ودمنة لابن المقفع، ص 200.

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 128.

(3) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه، ص 210.

(4) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 57.

لغير الله وحده. ولا يناسب غرض المستبدين أن يتنور الناس بالعلم وأن يعلم عبيدهم أن لا سيادة ولا عبودية في الإسلام ولا ولاية فيه ولا خضوع إلا لله؛ لذا كانوا ولا زالوا من أنصار الشرك وأعداء العلم في كل تظاهراته وهذا ما يود الكواكبي إقناع المخاطب به.

2-1-2-ب تقسيم الكلّ إلى أجزائه المكوّنة له:

يقوم هذا النوع من الحجج على ذكر الحجة الكلية ومن ثم تعداد الأجزاء الشاملة المكوّنة لها، وذلك لزيادة قوتها الحجاجية وتقوية حضورها في ذهن المخاطب؛ لأنّ الغاية الأساسية من استخدام هذا النوع "حسب بيرلمان هو البرهنة على وجود المجموع ومن ثمّ تقوية الحضور بمعنى إشعار الغير بوجود الشيء موضوع التقسيم من خلال التصريح بوجود أجزائه"⁽¹⁾.

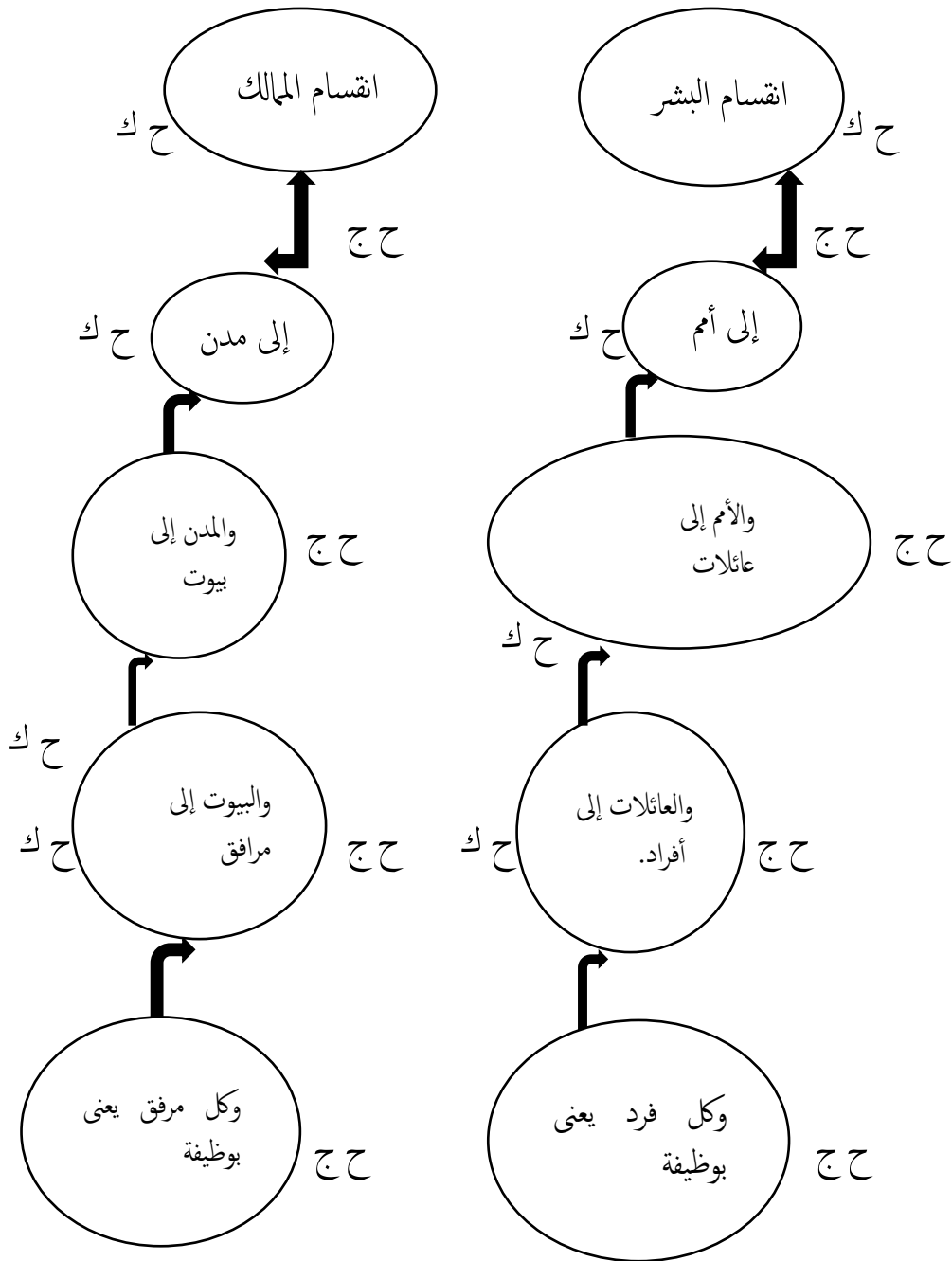
والمتمعن في خطاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) يجد أنّ الكواكبي استعمل هذا النوع من الحجج، وتمثيل ذلك وفق الآتي:

✓ " ينظر إلى انقسام البشر إلى أمم، ثم إلى عائلات، ثم إلى أفراد، وهو من قبيل انقسام الممالك إلى مدن وهي إلى بيوت، وهي إلى مرافق، وكما أنّه لا بدّ لكلّ مرفق من وظيفة معينة يصلح لها وإلا كان بناؤه عبثاً يستحق الهدم، كذلك أفراد الإنسان لا بد أن يعدّ كلّ منهم نفسه لوظيفة في قيام حياة عائلته أولاً ثم حياة قومه ثانياً. ولهذا يكون العضو الذي لا يصلح لوظيفة، أو لا يقوم بما يصلح له حقيراً مهمّلاً."⁽²⁾

عدّد الكواكبي في هذه الحجة المجالات التي تشهد بانقسام البشر فتراه يُجمل القول ثم يقسمه إلى أجزائه موضحاً كل حجة كلية بحجة جزئية، ومن ثم تصبح كل حجة جزئية كلية لما يليها، وهذه الأخيرة تنفرع إلى حجج جزئية أخرى لتزيدها قوة وإقناعاً بنتيجة الحجاج، وهكذا دواليك نمرز للحجة الكلية بـ (ح ك) ونمرز للحجة الجزئية بـ (ح ج) وتفصيل ذلك في الآتي:

(1) عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، ص 331.

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 148.



مخطط رقم 25 يوضح نموذج من حجة تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له:

هذه الأجزاء هي التي تضيف على الكل شرعية الوجود والحضور، فكل جزء من هذا المجموع لابد أن يؤدي وظيفة معينة تنعكس على الوظيفة الكلية، وإلا كان وجوده عبثاً، فتكون نتيجة هذا الحجاج دفع المخاطب إلى إعداد النفس للقيام بوظيفة تعود عليه وعلى عائلته وأمنه بالنفع في سبيل ترقى مجموع البشر.

✓ " الحكومة المستبدّة تكون طبعا مستبدّة في كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفَرّاش إلى كناس الشوارع، ولا يكون كل صنف إلاّ من أسفل أهل طبقته أخلاقاً، لأنّ الأسافل لا يهتمهم طبعا الكرامة وحسن السمعة، إنما غاية مسعاهم أن يبرهنوا لمخدومهم بأنهم على شاكلته وأنصار لدولته وشرهون لأكل السقطات من أيّ كان ولو بشرا أم خنازير، آبائهم أم أعدائهم، وهذا يأمنهم المستبدّ ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه"⁽¹⁾.

تبين هذه الحجة أنّ الحكومة المستبدّة تكون مستبدّة في كلّ فروعها، المستبد الأعظم، الشرطي الفَرّاش، وكناس الشوارع فرع من الحكومة المستبدّة، وبما أن كلّ هذه الحكومة سافلة الطباع فلا يكون كل فرع منها إلاّ على شاكلتها ومن أسفل أهل طبقته أخلاقاً، فلا يوجد فيهم العفيف عن الكثير؛ فكل فرع منهم شاره لأكل السقطات؛ لهذا يأمنهم المستبد ويشاركهم ويشاركونه في استدرار دماء الرعيّة، كأن الكواكبي - باستعمال حجة تقسيم الكل إلى أجزاءه - يود تمثيل الحكومة المستبدّة أمام المخاطب بكلّ أجزاءها ليقوي حضورها أمامه، لكي يتمكن من نفي ما قد يتبادر إلى ذهنه من وجود أشخاص خيرين في ظل هذه الحكومة لإقناعه بصورة أقوى وأسرع بأنّ حكومة الاستبداد في كل فروعها وأجزائها لا تخرج عن كونها حكومة بله وأوغاد.

2-1-2 ج حجة المقارنة:

توظّف حجة المقارنة " في قواعد استنتاج عديدة تعتمد على علاقة قياس عنصر ما بعنصر آخر؛ أي أنه مثلاً يكتسب قيمة أو يفقدها عن طريق مقارنته بعنصر آخر"⁽²⁾.

والمتأمل في خطاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) يجد أنّ الكواكبي قد أدرج هذا النوع من الحجج بكثرة؛ لما تنتجه من أحكام قيمة تقصي أحد طرفي المقارنة لغاية استدراج المخاطب إلى النتيجة المتوخاة وإبراز خياراته الأيديولوجية التي يرمي إلى إقناعه بها، وتمثيل ذلك وفق الآتي:

✓ " إنّ خوف المستبدّ من نقمة رعيته أكثر من خوفهم من بأسه؛ لأنّ خوفه ينشأ عن علمه بما يستحقّه منهم، وخوفهم ناشئ عن جهل، وخوفه عن عجز حقيقي فيه، وخوفهم عن توهم التخاذل فقط، وخوفه على فقد حياته وسلطانه، وخوفهم على لقبات من التّبات وعلى وطن يألّفون غيره في أيام، وخوفه على كلّ شيء تحت سماء ملكه، وخوفهم على حياة تعيسة فقط"⁽³⁾.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 69-70.

(2) كورنيليا فون راد-صكوح، الحجاج في المقام المدرسي، ص 21.

(3) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 54.

قارن الكواكبي بين ما يخافه المستبد وبين ما تخافه الرعيّة؛ ففي مملكة الاستبداد يسيطر الخوف كعنصر مشترك ومتبادل بين المستبد والرعيّة وكلّ منها يحسّ بخطر حقيقيّ ومحدد اتّجاه الطرف الآخر ولكنّ خطره على المستبد أدهى وأمر من الرعيّة؛ لذلك يختلف منظوره عند هذه الأخيرة عما هو عند المستبد وتمثيل ذلك في الجدول الآتي:

(الشيء المقارن) الخوف عند المستبد	(الشيء المقارن به) الخوف عند الرعيّة
يخاف من نقمة الرعيّة.	يخافون من بأس المستبد.
ينشأ عن علمه بما يستحقّه.	ينشأ عن الجهل.
خوفه عن عجز حقيقيّ فيه.	خوفهم عن توهم التخاذل فقط.
يخاف على فقد حياته وسلطانه.	خوفهم على لقيات من النبات
خوفه على كل شيء تحت سماء ملكه.	خوفهم على وطن يألفون غيره في أيام.
	خوفهم على حياة تعيسة فقط.

جدول رقم 07 يمثل نموذج من حجة المقارنة

يهدف الكواكبي من خلال إدراج حجة المقارنة إلى قياس عنصر الخوف عند المستبد بعنصر الخوف عند الرعيّة باعتماد صيغة التفضيل (أكثر من) ليثبت أن الخوف عند المستبد أكثر من الخوف عند الرعيّة وينتج عن هذه المقارنة ذات الطابع الإثباتي أحكاماً قيمة كمقدمة لحالة عدم التوازي بينهما؛ إذ إنّّه يقوم بفحص الاختلافات بين الشيء المقارن (الخوف عند المستبد) والشيء المقارن به (الخوف عند الرعيّة) لإقضاء أحد طرفي المقارنة والمتمثل في خوف الرعيّة من المستبد، وتبعا لذلك يتلاشى هذا الخوف؛ لأنّه لا يوجد شيء تخاف على خسارة قيمته على عكس المستبد؛ وهذا ما يود الكواكبي إقناع الرعيّة به من أجل إقضاء عنصر الخوف ودفعها إلى الاختيار الأمثل الذي يتمثل في **اللا خوف**.

✓ " أجمع علماء الاجتماع والأخلاق والتربية على أنّ الإقناع خير من الترغيب، فضلا عن الترهيب، وإنّ التعليم مع الحرية بين المعلّم والمتعلّم أفضل من التعليم مع الوقار، وأنّ التعليم عن رغبة في التكلّم أرسخ من العلم الحاصل طمعا في المكافأة أو غيره من الأقران" (1).

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 121.

يرمي الكواكبي من خلال هذه الحجة إلى حصر نظرة المخاطب في ثنائيات متعددة تقوم على قطبين اثنين هما الشيء المقارن والشيء المقارن به. وتحليل الثنائيات المقارنة كآتي:

الثنائية الأولى: الإقناع > (أكبر قيمة من) الترغيب فضلاً عن الترهيب.

الإقناع ← خير من الترغيب فضلاً عن الترهيب.
↓ ↓
الشيء المقارن الشيء المقارن به

يقصد الكواكبي من خلال هذه الحجة إقناع المخاطب بأن التربية القائمة على الإقناع خير من الترغيب والترهيب؛ لأنها بزوال مؤثرهما يزول تأثيرهما على خلاف الأول، وبالتالي إقصاء عنصري (الترغيب والترهيب) وإكساب الإقناع صفة التفرد ودفع المخاطب إلى اختياره باعتباره الاختيار الأمثل.

الثنائية الثانية: الحرية أفضل قيمة من الوقار.

وإنّ التعليم مع الحرية بين المتعلم والمتعلم أفضل من التعليم مع الوقار.
↓ ↓ ↓
الشيء المقارن صيغة التفضيل الشيء المقارن به

تبرز هذه الحجة أنه كلما كان التعليم مبنياً على الحرية كلما فُتح المجال للنقاش وتبادل الآراء، وعلى إثر ذلك تتسع مدارك المتعلم بفضل الأخذ والعطاء، على عكس التعليم مع الوقار الذي يولد الهيبة في نفوس المتعلمين، ويسد أبواب النقاش وتبادل الآراء ويستبد المعلم بوجهة نظره دون أن يفتح المجال للأخذ والعطاء، ويجعل من المتعلم قارورة تملأ على عكس التعليم مع الحرية الذي ينظر إلى المتعلم بأنه ليس قارورة تملأ وإنما هو روح تشكل، وبالتالي إقصاء (التعليم مع الوقار) وإكساب (التعليم مع الحرية) صفة التفرد ودفع المخاطب إلى اختياره باعتباره الأفضل.

الثنائية الثالثة: التعليم عن رغبة في التكمّل > (أكبر قيمة من حيث الثبات) من العلم الحاصل طمعا في المكافأة أو غيره من الأقران.

التعليم عن رغبة في التكمّل ← أسخ من العلم الحاصل طمعا في المكافأة أو غيره من الأقران.

يهدف الكواكبي من خلال هذه الحجة إلى حث المخاطب على التعلم بدافع الرغبة في التكمّل، وعلى تغيير الوضع السلبي القائم على التعلم طمعا في المكافأة؛ فبمجرد حصول المتعلم على المكافأة، وزوال الغيرة من الأقران تزول الرغبة في التعلم على عكس الأول الذي يجعل الدافعية نحو التعلم ثابتة لا تتغير. وبالتالي يعمل المخاطب

على إقصاء (العلم الحاصل طمعا في المكافأة أو غيره من الأقران) وإكساب (التعلم عن رغبة في التكمّل) صفة التفرد ودفع المخاطب إلى اختياره باعتباره الأرسخ.

نستنتج مما سبق أنّ غاية الكواكبي هو إقصاء أحد طرفي المقارنة وهي على التوالي (الترغيب الترهيب التعليم مع الوقار، التعليم الحاصل طمعا في المكافأة أو غيره من الأقران) لاستدراج المخاطب إلى الاختيار الأمثل، وهو على التوالي (الإقناع، التعليم مع الحرية، التعليم عن رغبة في التكمّل) باعتبار أنّه لا وجود لشيء آخر يقوم مقامه وإلا سيكون اختيار الأشياء الأخرى دونيا وناقصا⁽¹⁾.

2-1-2-د حجة الاحتمال:

هذا النوع من الحجج شبه المنطقية "يربط بين الواقع والمحتمل، ويؤسس على المحتمل حكما واقعيا يكون بمثابة الدعوى التي يحتج لها ويدافع عنها"⁽²⁾، وتقوم هذه الحجة على استخدام "الاستدلال للوصول إلى النتيجة المقصودة"⁽³⁾

وتوضيحا لهذه المسألة نسوق بعض النماذج من حجة الاحتمال التي عمد الكواكبي إلى توظيفها في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وهي كآتي:

✓ " وكشفوا وجود الميكروب، وتأثيره، والجذري، وغيره من الأمراض والقرآن يقول ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ

طَيْرًا آبَائِلَ ﴿٣٠﴾ (4)؛ أي متتابعة متجمعة ترميمهم بحجارة من سجيل أي من طين المستنقعات اليابس.

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة [...] سينكشف سرّها في المستقبل في وقتها المرهون تجديدا لإعجازه عمّا في الغيب...، فلا يُدَّ أن يأتي يوم يكشف العلم فيه أنّ الجمادات أيضا تنمو بالقاح كما تشير إلى

ذلك آية ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴿٥٥﴾ (5)﴾ (6).

توضح هذه الحجة ما كشفه واقع البحث العلمي من حقائق الإعجاز العلمي الموجودة في آيات القرآن الكريم، وربط هذا الواقع باحتمال ما ستكشف عنه آيات القرآن الكريم من إعجاز عمّا في الغيب؛ فكشف

(1) ينظر: فضيلة قوتال، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، ص 180.

(2) عبد العالي قادا، الحجاج في الخطاب السياسي، ص 190.

(3) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 115.

(4) سورة الفيل، الآية 03.

(5) سورة الناريات، الآية 49.

(6) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 50.

الغيب أمر إلهي ولكن العالم الذي حباه الله عقلا راقٍ وفطنة ونباهة، يستشرف أشياء كثيرة ويتطور البحث العلمي تصبح حقائق تنكشف تدريجياً عن مواضع الإعجاز العلمي التي له دلالات في القرآن الكريم. يحاول الكواكبي من خلال هذا الاحتمال دفع العلماء إلى ضرورة التدقيق في آيات القرآن الكريم والكشف عن آياته التي تتجدد مع الزمان، مبرهنة على إعجازه بصدق، وليجعلوا الأمة تؤمن بإعجازه عن برهان وعيان لا مجرد تسليم وإذعان، كما يحاول إقناع المخاطب بشكل ضمني أن هذه الآيات بقيت مستورة وسبقها الاكتشاف العلمي، وستنكشف في وقتها المرهون لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن وشاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه.

✓ والحاصل أنّ العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغبوة، فإذا ارتفع الجهل وتنور العقل زال الخوف، وأصبح الناس لا ينقادون طبعاً لغير منافعهم، كما قيل: العاقل لا يخدم غير نفسه، وعند ذلك لا بدّ للمستبد من الاعتزال أو الاعتدال. وم أجبرت الأمم بترقيها المستبد اللئيم على الترقّي معها والانقلاب- رغم طبعه إلى وكيل أمين يهاب الحساب، ورئيس عادل يخشى الانتقام وأب حليم يتلذذ بالتحاب. وحينئذ تنال الأمة حياةً رضية هنية، حياة رخاء ونماء، حياة عزّ وسعادة⁽¹⁾ تبرز هذه الحجة: كيف يتم الترقّي؛ أي الانتقال من حال إلى حال آخر، وتمثيل ذلك وفق الآتي:

● الوضع (أ) يتمثل في أنّ: الجهل والغباء $\xrightarrow{\text{يستلزم}}$ الخوف $\xrightarrow{\text{يستلزم}}$ إلحاق الضرر بالنفس.

● الوضع (ب) يتمثل في أنّ: ارتفاع الجهل $\xrightarrow{\text{يستلزم}}$ تنور العقل $\xrightarrow{\text{يستلزم}}$ زوال الخوف.
(العلم) (الفطنة) (الشجاعة)

● الوضع (ج) لا بدّ للمستبد من الاعتزال أو الاعتدال ويقصد به إما تنحي المستبد أو انسحابه وإما اعتدال المستبد وترقيته إلى المستوى المطلوب، والتحول من الوضع أ إلى الوضع ب يفرض على المستبد أحد الاحتمالين:

الاحتمال الأول: تنحي وانسحاب المستبد.

الاحتمال الثاني: ترقّي المستبد (الاعتدال) إلى المستوى المطلوب. الاحتمال 1: الاعتزال.
الانتقال من الوضع أ إلى الوضع ب $\xrightarrow{\text{يستلزم}}$ الوضع ج
الاحتمال 2: الاعتدال.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 53-54.

يسعى الكواكبي إلى إقناع المخاطب واستمالته عن طريق ترجيح الغالب من القضايا المدرجة في الحجاج وترك مجال الترجيح للمخاطب من خلال توظيف قدراته الذهنية الاستدلالية، مع مراعاة سياق التواصل وهذا يربط الواقعي بالمتخيل من القضايا⁽¹⁾؛ والاحتمال المنطقي الذي يرحمه المخاطب في هذه الحجة هو احتمال الاعتدال؛ لأنه يتوافق وطبيعة المستبد الذي يكون مجبرا على اختياره بدل الاعتزال الذي هو من الاحتمالات المستبعدة. فتكون نتيجة ترقى الأمة اعتدال المستبد وبذلك تنال حياة رضية هنيئة.

✓ " ولهذا أذكرّ المستبدين بما أنذرهم أليفاي المشهور* : حيث قال " لا يفرحن المستبدّ بعظيم قوته ومزيد احتياطه، فكم جبار عنيد جنده مظلوم صغير"⁽²⁾.

يوضح الكواكبي من خلال هذه الحجة أنّ المظلوم الصغير قد يصرع المستبد العظيم القوي رغم ما يتخذه من احتياطات، وهذا احتمال قد حدث في الواقع ويحدث كثيرا، يقصد من خلاله الكواكبي إقناع المظلوم الصغير أنّه يستطيع التغلب على المستبد العظيم، بالرغم من صغره وضعفه.

نستنتج من خلال ما سبق أن الكواكبي عمد إلى استخدام مختلف أنواع الحجج شبه المنطقية في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) ليضع المخاطب أمام أمرين قد يكونا متناقضين أو متماثلين، أو أحدهما واقعي والآخر محتمل، أو مقارنة عنصر ما بعنصر آخر، أو عن طريق إدماج الجزء في الكل على اعتبار أنّ الحكم الذي يطلق على الكلّ يمكن سحبه ليطلق على الجزء، أو تقسيم الكلّ إلى أجزائه المكونة له لزيادة قوته الحجاجية وتقوية حضوره في ذهن المخاطب ليصل بالمنطق إلى تقبل الصحيح ورفض الخاطيء بغية محاربة الفتور في تفكيره ودفعه إلى أعمال الفكر "وتوجيهه إلى استنتاج النتائج الحجاجية المقصودة بعيدا عن الإكراه والإلزام ويترك له حرية الاقتناع بها، لتظهر في تصرفاته وأفعاله أو في أقواله وقناعاته... ولعل مرد ذلك راجع إلى الاستراتيجية التي يتبناها المتكلم لبناء حجاجه؛ فوضع المتلقي بين أمرين يعدّ نوعا من التوجيه غير الملمزم له، والغاية منه شدّ انتباهه وتركيزه للوصول به إلى الغاية المرجوة من الحجاج"⁽³⁾.

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 115.

* المصلح والأديب الإيطالي ألفيري فيتريو Alfieri Vittoria (1749-1803م) الذي كان له تأثير عميق في فكر الكواكبي عند نقد الاستبداد، واقتبس الكثير من أفكاره، وهو ما أشار إليه الكواكبي صراحة في مقدمة كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ينظر: عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تحقيق وتقديم محمد عمارة، دار الشروق، مصر، ط2، 2009، ص 134.

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 162.

(3) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 204.

2-2 الحجج المؤسّسة على بنية الواقع:

استعان الكواكبي بهذا النوع من الحجج في خطابه لأنها تضمن " تفسيراً للأحداث والوقائع وتوضيحاً للعلاقات الرابطة بين عناصر الواقع وأشياءه"⁽¹⁾، غير أنّ هذه الحجج لا تصف الواقع وصفا موضوعيا بل تعرض عناصر هذا الواقع بطريقة تجعل معطياته أقرب إلى التسليم والتصديق لدى المخاطب، كونها مأخوذة من طبيعة واقعه المعيش فلا يجد فيها صعوبة لتقبلها والتسليم بها، وبهذا يتحقق فعل الإقناع لديه⁽²⁾؛ أي إن المخاطب يقتنع ويدع عن للوقائع والأحداث؛ وبهذا يكون الخطاب الحجاجي " أنجع وأقدر على الفعل في المتلقي والتأثير فيه كلما انغrust مراجعه في الواقع وتنزلت عناصره فيما حدث وما يحدث"⁽³⁾.

وتتمظهر هذه الحجج المؤسّسة على بنية الواقع في أشكال متنوعة، نسوق بعض النماذج الواردة في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، وهي كالآتي:

2-2-1 وجوه الاتصال التتابعي:

2-2-1-أ الحجة السببية:

يقوم هذا النوع من الحجج على تتابع الأحداث التي يصل بينها رابط سببي يتحرّك في اتجاهين متعاكسين: من الحجة السببية إلى النتيجة ومن النتيجة إلى الحجة السببية و"التقديم والتأخير بينهما خاضع لمقاصد المتكلم أثناء الحجاج"⁽⁴⁾، ويندرج هذا النوع من الحجج ضمن تقنية استدلالية تسعى إلى تبرير الأفعال والأحداث وتدعيم المواقف؛ وتهيئها بذكر نتائجها انطلاقاً من بني واقعية ولا يقصد منها مجرد التثمين بل توجيهه المخاطب إلى القيام بفعل معين أو تجنبه تبعاً لما سيزترتب عنه من نتائج سلبية أو إيجابية.

وقد استعمل الكواكبي في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) الحجة السببية بمختلف ضروبها الثلاثة في تبرير الأحداث وتدعيم المواقف، وتمثيل ذلك وفق الآتي:

1- حجاج يربط السبب بين حدثين متتابعين (حجة ونتيجة):

✓ "وأقلُّ ما يعينون به الاستبداد، تفريق الأمم إلى مذاهب وشيع متعادية تقاوم بعضها بعضاً، فتتهاتر قوّة الأمة ويذهب ريجها، فيخلو الجوّ للاستبداد ليبيض ويُفَرِّخ"⁽⁵⁾.

حجة ← نتيجة.

(1) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بينته وأساليبه، ص 214.

(2) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 204.

(3) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بينته وأساليبه، ص 214.

(4) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 205.

(5) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 35.

عمد الكواكبي إلى ذكر الحجة السببية ومن ثم النتيجة وفق هذا الشكل (حجة ← نتيجة) باعتبار الأسبقية الزمنية للسبب على النتيجة فالارتباط بينهما ضروري؛ إذ يربطان الأحداث بشكل تتابعي واضح وهذا ما يسمى حجاجيا بالتتابع الحجاجي؛ أي تتابع الحجج التي تشكل العلاقة بين السبب والنتيجة حيث تعتبر هذه العلاقة من "أهم العلاقات الضرورية لمبدأ السببية، فالشيء قد يسبق شيئاً آخر ومع ذلك فلا تعتبر العلاقة سبب نتيجة إلا إذا توفرت العلاقة الثالثة أي الضرورة بين السبب والنتيجة مثلاً النار تحرق والسهم يقتل فإن العلاقة بين النار (السبب) والاحتراق (النتيجة) ضرورية فإذا غاب السبب غابت النتيجة والعكس صحيح"⁽¹⁾.

2- حجاج يربط بين وقوع حدث ما (نتيجة) وسبب حدوثه (حجة).

✓ "الاستبداد [...] يجعل الإنسان [...] حاقداً على قومه؛ لأنهم عون لبلاء الاستبداد عليه، وفاقداً حبّ وطنه؛ لأنه غير آمن على الاستقرار فيه، ويودُّ لو انتقل منه، وضعيف الحبِّ لعائلته؛ لأنه ليس مطمئناً على دوام علاقته معها؛ ومختل الثقة في صداقة أحابيه؛ لأنه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافؤ، وقد يضطرون لإضرار صديقهم، بل وقتله وهم بآكون. أسير الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه؛ لأنه لا يملك ما لا غير معرّض للسلب ولا شرفاً غير معرّض للإهانة."⁽²⁾

نتيجة → حجة.

مزج الكواكبي بين كم هائل من النتائج وحججها السببية، التي تجتمع في كونها سالبة فعددها ورتبها حسب أهميتها تنازلياً من خلال البدء بالنتائج الأكثر سلبية وأسباب حدوثها مما يضمن انصياع تفكير المخاطب لمحدثه؛ إذ يلفت انتباهه من الوهلة الأولى إلى ما يذهله، بغية التأثير في المخاطب وتعزيز موقفه السلبي تجاه أسير الاستبداد.

يعود سبب استخدام الكواكبي لهذا الشكل من الحجاج الذي يعتمد على الانتقال من النتيجة إلى الحجة وفق هذا الشكل (نتيجة ⇒ حجة)؛ أي الربط بين وقوع حدث ما (نتيجة) وسبب حدوثه (حجة) إلى تقييم فعل ما أو حدث أو قاعدة أو أي شيء آخر على أساس نتائجها المقبولة أو غير المقبولة إذ يعمل هذا الضرب من الحجاج على نقل القيمة من النتيجة إلى السبب الذي كان وراء حدوثها، فهو

(1) أحمد ناظم داود، مفهوم السببية عند هيوم، كلية التمريض جامعة كركوك، مجلد جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مجلد 18، العدد 9، تشرين الأول، 2010، ص 242.

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 91.

يقوم على العلاقة السببية ولكنه بدل أن يهتم بالأسباب ينظر إلى النتائج⁽¹⁾؛ لأنها تسمح له بتقييم شيء ما بناء على القيمة التي تحظى بها نتائجها الحاضرة، فالسبب "يرفض أو يعترض عليه بحكم ما يفضي إليه من نتائج ضارة أو غير سائغة"⁽²⁾ وبالتالي يصبح غير مقبول نظرا لنتائجه الوخيمة.

كما أنّ استعمال هذا الشكل من الحجج يكون غالبا "سببا لاستعمال عنصر السرد؛ إذ تُذكر النتيجة من البداية، ليصبح تدعيمها بالحجج سردا للأحداث والوقائع"⁽³⁾.

3- حجج يربط من باب الاحتمال بين حدث منجز (حجة) وبين ما يفضي إليه (نتيجة)؛ أي أنّ هذا النوع من الحجج يرمي إلى التكهّن بما سينجر عن حدث ما من نتائج.

✓ "على أنّ هذا الطراز السامي من الرّياسة هو الطّراز التّبوي المحمّدي. لم يخلفه فيه حقّا غير أبي بكر وعمر، ثمّ أخذ بالتناقص، وصارت الأمة تطلبه وتبكيه من عهد عثمان إلى الآن، وسيدوم بكاؤها إلى يوم الدّين إذا لم تنتبه لاستعواظه بطراز سياسيّ شوريّ"⁽⁴⁾.

حجة ← نتيجة.

هذا الضرب من الحجج يقوم على إدراك تتابع حادثتين باستمرار في الطبيعة يؤدي إلى تكوين عادة فكرية في العقل البشري بحيث يجعلنا نتوقع ما سيحدث⁽⁵⁾.

2-2-2- ب الحجة الغائية:

تتأسس هذه الحجة على الفكرة القائلة: "بأنّ قيمة الشيء تتصل بالغاية التي يكون لها وسيلة: حججا لم تعد تعبيرا عن قولنا بسبب كذا وإنما من أجل كذا"⁽⁶⁾. هذا الصنف من الحجج وارد بكثرة في (كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) نسوق بعض النماذج منها وفق الآتي:

(1) ينظر: محمد مشبال، خطاب الأخلاق في رسائل الجاحظ (مقاربة بلاغية حجائية)، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2015م، ص 77.

(2) المرجع نفسه، ص 77-78.

(3) حمدي منصور جودي، الحجج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 218.

(4) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 39.

(5) ينظر: أحمد ناظم داود، مفهوم السببية عند هيوم، ص 245.

(6) سامية الدريدي، الحجج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه، ص 221.

✓ " الحكماء المتأخرون الغربيون [...] استباحوا ما استباحوا، حتى أنهم استباحوا في التمهيد السياسي تشجيع أعوان المستبد على تشديد وطأة الظلم والاعتساف بقصد تعميم الحقد عليه، وبمثل هذه التدابير القاسية نالوا المراد أو بعضه، من تحرير الأفكار وتهذيب الأخلاق وجعل الإنسان إنساناً"⁽¹⁾.

عمد الكواكبي إلى ذكر حجج من واقع ما استباحه الحكماء المتأخرون الغربيون؛ إذ إنهم اتخذوا من تشجيع أعوان المستبد على تشديد وطأة الظلم والاعتساف وسيلة لبلوغ غاية تعميم الحقد عليه، وبذلك شحنوا الرعية بطاقة سلبية ضده فنالوا المراد من تحرير الأفكار وتهذيب الأخلاق وجعل الرعية رعية استثمار الكواكبي هذه الحجة ليدفع الحكماء الشرقيين إلى الحدو حذو الحكماء الغربيين في انتهاج الوسيلة التي من شأنها أن تحقق غايتهم ومقصدهم في القضاء على المستبد.

✓ " لمثري الخواطر على الاستبداد طرائق شتى يسلكونها بالسّر [...]، فيستنتون غابة الثورة من بذرة [...] يسقونها بدموعهم في الخلوات. وم يلهون المستبد بسوقه إلى الاشتغال بالفسوق والشّهوات، وم يغرونه برضاء الأمة عنه، وم يجسرونه على مزيد التشديد، وم يحملونه على إساءة التدبير، وم يكتمون الرشد وم يشوشون فكره بإرباكه مع جيرانه وأقرانه. يفعلون ذلك وأمثاله لأجل غاية واحدة، هي إبعاده عن الانتباه إلى سدّ الطريق التي فيها يسلكون، أمّا أعوانه، فلا وسيلة لإغفالهم عن إيقاظه غير تحريك أطماعهم المالية مع تركهم ينيهون ما شاءوا أن ينيهوا"⁽²⁾.

أراد الكواكبي من خلال هذه الحجة تبيان السلوكيات التي ينتهجها مثيرو الخواطر على الاستبداد مع المستبد وأعوانه بغية التخطيط للثورة؛ إذ إنهم يتخذون من إلهاء المستبد باشتغاله بالفسوق والشّهوات ويغرونه برضاء الأمة عنه، ويشجعونه على مزيد التشديد، ويحملونه على إساءة التدبير، ويكتمون الرشد ويشوشون فكره بإرباكه مع جيرانه وأقرانه وسائل لغاية إبعاده عن الانتباه إلى سدّ طريق الثورة، كما أنهم لا يجدون حرجاً في تحريك الأطماع المالية للأعوان مع تركهم ينيهون ما شاءوا أن ينيهوا، هم يبررون هذا النهج الذي يسلكونه مع الأعوان بكونه وسيلة لغاية إغفالهم عن إيقاظه.

✓ " يستعمل المستبد أيضاً مع الأصلاء سياسة الشدّ والرّخاء، والمنع والإعطاء، [...] وسياسة إلقاء الفساد وإثارة الشحنة فيما بينهم كي لا يتفقوا عليه، وتارة يعاقب عقاباً شديداً باسم العدالة إرضاء للعوام، [...]

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 105.

(2) المصدر نفسه، ص 168.

يقصد بذلك كسر شوكتهم أمام إمام الناس وعصر أنوفهم أمام عظمتهم. والحاصل أنّ المستبدّ يذلل الأصلاء بكلّ وسيلة حتى يجعلهم متراميين بين رجله كي يتخذهم لجاماً لتذليل الرعيّة" (1).

المستبد يعتمد مع الأصلاء* سياسة الشدّ والرخاء، المنع والإعطاء، وسياسة إلقاء الفساد وإثارة الشحنة فيما بينهم كي لا يتفوقوا عليه، ويعاقب عقاباً شديداً باسم العدالة إرضاء للعوام، وينتجج كل هذه الوسائل من أجل بلوغ غاية كسر شوكتهم أمام إمام الناس وعصر أنوفهم أمام عظمتهم، ليجعلهم متراميين بين رجله كي يتخذهم لجاماً لتذليل الرعيّة؛ فقد اقتنع المستبد بأنّه لن يدوم له ملك إلا من خلال انتهاج هذه الوسائل مع الأصلاء؛ لأنهم ألفوا لذة التفوذ والتسلط ولا يستطيعون العيش بدونها، وبالتالي لا يبقى لهم ملجأ غير بابه فيصيرون أعواناً له بعد أن كانوا أصدادا.

وردت الحجة الغائية التي تتأسس على العلاقة القائمة بين الوسيلة والغاية (في كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) بكثرة؛ ومردّ ذلك إلى طبيعة الصراع بين المستبد وعقلاء الأمة؛ إذ إن لكل منهما منفعة وقناعة يريد فرضها على الآخر ولا يتأتى لهما ذلك إلا بالاستعانة بالوسائل لتحقيق المقاصد والغايات. كما تندرج ضمن هذا النوع من الحجج حجة التبذير وتتمثل في القول "بأننا لما كُنّا بدأنا عملاً ما ولما كُنّا سنخسر تضحيات تجشمناها في سبيله لو تخلّينا عن المهمّة، فإنّه ينبغي المواصلة في الاتجاه ذاته، فهي حجة تقوم على ضرورة استكمال ما بدئ فيه وإتمام ما شرع بعد في القيام به" (2). ذكر الكواكبي في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) حجة اعتمادها المستبد مع نفسه في تبرير استعانتها بالأعوان لمحاربة العقلاء، وحرصه على المزيد من الاعتساف إذ يقول:

✓ "وعندئذ يرجع المستبدّ إلى نفسه قائلاً: الأعوان الأعوان، الحملة السّندنة أسلمهم القياد وأردفهم بجيش من الأوغاد أحارب بهم هؤلاء العبيد العقلاء، وبغير هذا الحزم لا يدوم لي مُلكٌ كيفما أكون بل أتقى أسير للعدل معرّضاً للمناقشة منغصاً في نعيم الملك، ومن العار أن يرضى بذلك من يمكنه أن يكون سلطاناً جباراً متفرداً قهاراً." (3).

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 68.

* شريف الأصل خالص النسب، نقي الدم، وقسم الكواكبي بيوتهم إلى ثلاثة أنواع: بيوت علم وفضيلة، بيوت مال وكرم، وبيوت ظلم وإمارة ينظر: المصدر نفسه، ص 66.

(2) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنينته وأساليبه، ص 224.

(3) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 69.

يؤكد المخاطب ضرورة استعانة المستبد بالأعوان الأوغاد لمحاربة العقلاء؛ لأنه إذ لم يستخدمهم لا يدوم له ملكٌ ويقتى أسيراً للعدل ويجسر كل ما تجشمه من عناء حتى يكون سلطاناً جباراً متفرداً قهاراً، وعلى هذا ينبغي له مواصلة التشديد في إجراءاته واحتياطاته حتى لا تذهب جهوده هباءً منثوراً. وقصد الكواكبي الضمني من هذه الحجة هو تنبيه المخاطب (**عقلاء الأمة**) إلى استغلال أعوان المستبد للإطاحة به وهو الأمر الذي يجيل دون أن يبلغ غايته وبذلك تتحقق الغاية المعاكسة للمستبد.

واعتبار الغاية تعود إليه حجة أخرى هي **حجة الاتجاه** "تهدف إلى التحذير من مغبة اتباع سياسة المراحل التنازلية، أو مغبة انتشار ظاهرة، وتسمى أيضاً حجة الانتشار أو حجة العدوى"⁽¹⁾، وتمثل لها من مدونة (**طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**) وفق الآتي:

✓ معيشة الأسراء أغنياء كانوا أو معدمين، كلُّها خلل في خلل، وضيق في ضيق، وذلك يجعل الأسير هين النفس، وهذا أول دركات الانحطاط، يرى ذاته لا يستحقُّ المزيد في النعيم مطعماً ومشرباً وملبساً ومسكناً، وهذا ثاني الدركات ويرى استعداداه قاصراً عن الترقّي في العلم، وهذا ثالثها، ويرى حياته على بساطتها لا تقوى إلا بمعاونة غيره له، وهذا رابعها وهلمَّ جرّاً"⁽²⁾.

أراد الكواكبي من خلال حجة الاتجاه أن يؤثر على أسير الاستبداد ويغيّر من قناعاته بشأن معيشته وبخاصة أنه شدد الخناق والتصيق على نفسه؛ إذ يحذر من المضي في اتجاه تهوين النفس لأنه سيفضي به "إلى نتيجة في سلسلة من المراحل السيئة؛ كل مرحلة أسوأ من سابقتها"⁽³⁾ وهذا ما سيوصله إلى أسفل دركات الانحطاط؛ لهذا تقرّر أنّ الكواكبي قد عمد إلى هذه الحجة ليدفع بالأسير إلى تغيير نتيجة الحجاج التي تتوقف بشكل ضمني على تغيير اتجاه تصرفاته حتى ينصلح حاله ويتخلص من قيود الأسر.

✓ "المستبدُّ: يتجاوز الحدَّ ما لم يرَ حاجزاً من حديد، فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظلم"⁽⁴⁾.

هذه الحجة تبين مدى تأثيرها في المخاطب ليغير استنتاجاته، فقد اقتنع الكواكبي أنّ المستبدّ يتجاوز الحد طالما أنّ الرعية خائفة لا تدافع عن نفسها، وعمل جاهداً على تغيير اتجاه هذه الحجة؛ إذ يقرّر بأنّ

(1) عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع، دراسة نظرية وتطبيقية، ص 171.

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 116-117.

(3) محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، ص 160.

(4) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 29.

الظالم لو رأى على جنب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظلم، وبذلك استطاع أن يغير استنتاج المخاطب من نتيجة إلى نتيجة مضادة ويدفعه إلى ضرورة مجابهة المستبد وعدم الخنوع له.

✓ "وأنّ معاناة إصلاح الأخلاق من أصعب الأمور وأوحشها إلى الحكمة البالغة والعزم القوي، وذكروا أنّ فساد الأخلاق يعمُّ المستبدّ وأعوانه وعماله، ثمّ يدخل بالعدوى إلى كلّ البيوت، ولاسيما بيوت الطبقات العليا، التي تتمثّل بها السفلى، وهكذا يغشو الفساد، وتسمي الأمة بيكها المحبّ ويشمت بها العدو، وتبيت وداؤها عياء يتعاصى على الدواء"⁽¹⁾.

في هذا المثال يحذر الكواكبي الأمة من اتّباع فساد أخلاق المستبد وأعوانه وعماله؛ لأنّ فساد الأخلاق خطير يؤدي إلى انتشار الظاهرة وتوسعها في كل بيوت الطبقات العليا ومن ثمّ السفلى وتفاقمها وصعوبة التحكم فيها، مما يترتب عن ذلك نتائج وخيمة لا تحمد عقباه، وبالتالي ضرورة تغيير مسار النتيجة التي تتوقف على مدى تغيير اتجاه سلوكيات الأمة والإعراض عن اتّباع فساد أخلاق المستبد والعمل على إصلاحها.

نستنتج أنّ الكواكبي عمد إلى استخدام كل من حجة التبذير وحجة الاتجاه في (كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) لتوجيه المخاطب إلى استنتاج الغاية المرجوة التي كان يخشى التصريح بها في ظل الحكومة العثمانية المستبدة والقائمة في جُلّها على التحذير من اتّباع سلوك معين؛ لأنّ من شأنه أن يقوي شوكتها ويوصل المخاطب إلى غير ما يرجو؛ وبالتالي توجيهه ولو بطريقة ضمنية إلى تغيير الاتجاه الذي يسلكه من أجل بلوغ غايته في القضاء عليها.

2-2-2 وجوه الاتصال التواجمي:

2-2-2 أ حجة الشخص وأعماله:

تتأسس هذه الحجة على الربط بين جوهر الشّخص وأعماله التي هي تجليات ذلك الجوهر بغرض تقييم أخلاقه وسلوكياته؛ وتجسدت في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وفق نموذجين:

1- النموذج الأول: يمكن اعتبار الكواكبي في حد ذاته حجة، فقد حارب الاستبداد قولاً وفعلاً، ومن أقواله

وأفعاله التي عكست جوهره في خطابه نذكر:

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 101.

✓ "وعلى ذكر اللوم الإرشادي لاح لي أن أصوّر الرقي والانحطاط في النفس، وكيف ينبغي للإنسان العاقل أن يعاني إيقاظ قومه، وكيف يرشدهم إلى أنهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الدل والسفالة فيذكرهم ويجرّك قلوبهم ويناجيهم وينذرهم بنحو الخطابات الآتية:

يا قوم: رفع الله عنكم المكروه، ما هذا التفاوت بين أفرادكم وقد خلقكم ربكم أكفاء في البنية، أكفاء في القوة أكفاء في الطبيعة، أكفاء في الحاجات، لا يفضل بعضكم بعضاً إلا بالفضيلة، لا ربوبية بينكم ولا عبودية"⁽¹⁾.

✓ "والعلماء الحكماء الذين ينبتون أحياناً في مضائق صحور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير أفكار الناس والغالب أنّ رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم وينكلون بهم، فالسعيد منهم من يتمكن من مهاجرة دياره، وهذا سبب أنّ كلّ الأنبياء العظام عليهم الصلاة والسلام وأكثر العلماء والأدباء والنبلاء تقلّبوا في البلاد وماتوا غرباء"⁽²⁾.

2- النموذج الثاني:

عمد الكواكبي في هذا النموذج إلى الربط بين شخص ما وأعماله التي تعكس جوهره، ومن أمثلة ذلك:

✓ "المستبد: يتحكّم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنّه الغاصب المتعدّي فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدّها عن التّطّيق بالحقّ والتّداعي لمطالبته"⁽³⁾.

إن الكواكبي يمتنع ضمناً لجور المستبد واحتقاره للرعية من خلال الربط بينه وبين أعماله، فهو شخص يمارس كل أشكال التنكيل على الرعية، بغية التحكم بها لسد أفواهها عن النطق بالحقّ والتّداعي لمطالبته وشخص هذه الأعمال والصفات يستحق ما سيناله على يد الرعية، فتغدو بذلك تصرفات الرعية الآتية إزاءه مبررة ومقبولة لدى المخاطب؛ إذ إنّ هذا النوع من الحجج من شأنها أن توفر له أفكار وآراء ومعارف سابقة يكونها حول أعمال المستبد فيسهم ذلك في تحديد الغايات الحجاجية للكواكبي التي يرمي إقناعه بها ويزيد من نسبة إقناعه ونبذه لهذه السلوكيات وبالتالي قيامه بفعل المناهضة.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 134.

(2) المصدر نفسه، ص 56-57.

(3) المصدر نفسه، ص 29.

✓ "الشرقي [...]" حتى لو سقطت الثمرة في كفه تَمَّتْ لو قفرت على فمه [...] يهتم في شأن ظالمه إلى أن يزول عنه ظلمه، ثم لا يفكر فبمن يخلفه ولا يراقبه، فيقع في الظلم ثانية، فيعيد الكرة ويعود الظلم إلى ما لا نهاية"⁽¹⁾.

من تقفز الثمرة في كفه ويتمنى أن تقفز على فمه، ويهتم في شأن ظالمه إلى أن يزول عنه ظلمه، لا يمكن إلا أن يكون متوكلًا ومتقاعسا عن إتمام عمله، هذه الحجة توضح لنا الحكم على الشرقي من خلال أعماله وتقويم تقاعسه عن إكمال ما بدأ فيه، وهو الشيء الجوهرى الذي يتصف به الشرقي ويتجلى في عمله. يرمى الكواكبي من خلال هذه الحجة إلى تشخيص مكان داء الشرقي ودفع المخاطب إلى تقييح هذه الأعمال والصفات التي من شأنها أن توقعه في الظلم إلى ما لا نهاية، وبالتالي ضرورة صون الذات من الوقوع فيها. ورد استخدام حجة الربط التواجدي بين الشخص وأعماله في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) بكثرة؛ لأن موضوع الكتاب يستلزم التفصيل فيها لعنايتها بتبيان تداخل العلاقة بين الذات (الكواكبي المستبد أسير الاستبداد، الشرقي...) وصفاتها الجوهرية المتجلية من خلال سلوكياتها التي تمكنها إما من نفاذ حجتها وإما من التسلط والخنوع. يهدف الكواكبي من خلال هذا النوع من الحجج إلى تكوين آراء ومعارف سابقة في ذهن المخاطب عن الشخص وأعماله، بغية دفعه إلى تقويم مساره والحكم عليه مما يسهل عملية إقناعه وقيامه بفعل معين.

2-2-2- ب حجة السلطة:

تشكل حجة السلطة دعامة للمخاطب لإثبات صحة دعواه أمام المخاطب من خلال الاستناد إلى الشرائع السماوية والسنة النبوية، وأقوال العلماء والحكماء، "فهي تعد مرجعية سياقية يخضع لها طرفا الحجاج، وعلى هذا تصبح حجة السلطة أقرب إلى البرهان واليقين الذي لا جدال فيه"⁽²⁾ وتدفع المخاطب إلى تقبل النتائج الحجاجية المرجوة، تبعاً لاعتقاده وتشبته بتلك المرجعيات الدينية والعلمية⁽³⁾.
ويامعان النظر في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) نجد أن حجة السلطة قد تجسدت في كل من:

1- القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

2- أقوال العلماء، الأمثال والحكم.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 104.

(2) حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 118.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 213.

نعرض النماذج المجسدة لهذه الحجة وفق الآتي:

1- ما يمثل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

1- أ القرآن الكريم:

استند الكواكبي على القرآن الكريم في دحض القضايا الخاطئة عن الإسلام وتبرئته مما تُسب إليه من تأييد للاستبداد ولتوضيح ذلك نسوق النماذج الآتية:

✓ " بناءً على مل تقدم لا مجال لرمي الإسلامية بتأييد الاستبداد مع تأسيسها على مئات الآيات البينات

التي منها قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾⁽¹⁾؛ أي في الشأن... [﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾⁽²⁾،

أي بالتساوي؛ ثم ينتقل إلى معنى آية ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾⁽³⁾ ثم

يستنتج عدم وجوب طاعة الظالمين وإن قال بوجوبها بعض الفقهاء المالئيين.⁽⁴⁾

✓ " هل يجمع بين سلطتين أو ثلاث في شخص واحد؟ أم تُخصّص كلُّ وظيفة من السياسة والدين

والتعليم بمن يقوم بها بإتقان، ولا إتقان إلا بالاختصاص، وفي الاختصاص، كما جاء في الحكمة القرآنية:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾⁽⁵⁾ ولذلك لا يجوز الجمع منعاً لاستفحال السلطة⁽⁶⁾

1-ب الحديث النبوي الشريف:

استدل الكواكبي بسلطة الخطاب النبوي من أجل تأييد أو تنفيذ قضية ما في الكثير من المواضع نذكر

منها:

(1) سورة آل عمران، الآية 159.

(2) سورة النحل، الآية 90.

(3) سورة المائدة الآية 44.

(4) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 40-41.

(5) سورة الأحزاب الآية 04.

(6) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 161.

- ✓ " أما بلغكم قول معلّم الخير نبيكم الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم: " لِتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لِيُسَلِّطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَيَدْعُو حَيَارَكُمْ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ " وقوله: " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ " * (1).
- ✓ " وَكَانَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَسْمَعُوا بِقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ " النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ *، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمٍ إِلَّا بِالْتَّقْوَى " * (2).

2- أقوال العلماء، الأمثال والحكم:

2-أ أقوال العلماء:

- ومن أشهر حجج السلطة ما كان مبنيا منها على الإجماع؛ " لأنه يمثل السلطة العليا التي لا يُمدح الخروج عنها" (3) وهذا ما أورده الكواكبي في تنفيذ ظاهرة الظلم إذ يقول:
- ✓ " وَأَتَمَّ تَعْلَمُونَ إِجْمَاعَ أُمَّةٍ مَذَاهِبَكُمْ كُلِّهَا عَلَى أَنْ أَنْكَرَ الْمُنْكَرَاتِ بَعْدَ الْكُفْرِ هُوَ الظُّلْمُ الَّذِي فَشَا فِيكُمْ ثُمَّ قَتَلَ النَّفْسَ، ثُمَّ، وَثُمَّ... وَقَدْ أَوْضَحَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ تَغْيِيرَ الْمُنْكَرِ بِالْقَلْبِ هُوَ بَغْضُ الْمُتَلَبِّسِ فِيهِ بَغْضًا فِي اللَّهِ

* الحديث بهذه الألفاظ غير موجود حسبما وقفت عليه في مظان الحديث، والحديث كاملا " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَنْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ ". أخرجه الترمذي أبو عيسى محمد بن سورة (ت 279هـ) سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1395هـ، 1975 أبواب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم الحديث 2169، ج4/468، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن.

* أخرجه مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت 261هـ)، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي، بيروت، (د.ط.)، (د.ت.)، كتاب الإيمان، باب بيان النهي عن المنكر من الإيمان، رقم 49، ج1/69.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 137.

* هذا الحديث هو عبارة عن حديثين وجدتهما في موضعين مختلفين: الحديث الأول: " الناس سواسية كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعافية، والمرء كثير بأخيه، ولا خير في صحبة ما لا يرى لك الحق مثلما ترى له " أخرجه أبو الشيخ الأصهباني أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر، (ت 369هـ)، أحاديث أبي الزبير، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، مكتبة الرشيد، الرياض، (د.ط.)، (د.ت.)، رقم 23، ج1/64. قال الألباني إسناده ضعيف في سلسلة الأحاديث الضعيفة. ج2/60.

* الحديث الثاني: " لا فضل لعربي على عجم ولا لعجم على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى... " أخرجه الإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ)، مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1421، 2001، رقم الحديث 233489، ج3/474، إسناده صحيح، ينظر: نفسه، والبيهقي، شعب الإيمان، فصل وما يجب حفظ اللسان منه، رقم الحديث 4774 ج7/232

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 43

(3) فضيلة قوتال، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، ص 281.

بناء عليه؛ فإن يعامل الظالم أو الفاسق غير مضطر، أو يجامله ولو بالسلام، يكون قد خسر أضعف الإيمان والعباد بالله"⁽¹⁾.

كما يمكن أن "تفند حجة السلطة بعضها بعضا، على أن تكون ذات السلطة الأعلى صاحبة الخطاب الحجاجي الأقوى"⁽²⁾، وهذا ما سنتقنى أثره في حجة السلطة بالأمثال:

2-ب الأمثال:

✓ "شاعت بين الأسراء قواعد كثيرة باطلة كقولهم: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب قولهم:

البلاء موكل بالمنطق. وقد تغالى وعاظهم في سدّ أفواههم [...] وم هجوا لهم الهجو والغيبة بلا قيد.

فهم يقرؤون ﴿لَا يَجُوبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾⁽³⁾ ويغفلون بقية الآية وهي ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾⁽³⁾.

عمد الكواكبي إلى تنفيذ حجة سلطة بسلطة؛ إذ جمع سلسلة من الأمثال التي تمثل قاعدة سلوكية في حياة الأسراء، تعارفوا عليها وأضحت من موروثهم الثقافي، ودحضها من خلال الاعتماد على حجة سلطة الخطاب القرآني التي تعلوها مرتبة، وهذا ما يجعل المخاطب ينصت ويحترم هذه السلطة بوصفها مرجعا دينيا لا يمكن إغفال جزء منه، دحضه أو تجاوزه حتى لا يتغير المعنى.

✓ "ولبسطاء الإسلام مسليات أظنّها خاصة بهم يعطفون مصائبهم عليها، وهي نحو قولهم: الدُّنْيَا سِجْنُ

الْمُؤْمِنِ*، المؤمن مصاب، إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتِلَاءً*، هذا شأن آخر الزمان، حَسْبُ الْمَرْءِ لُقَيْمَاتٌ يَّقْمَنُ

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 137.

(2) فضيلة قوتال، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، ص 286.

(3) سورة النساء، الآية 148.

* أخرجه مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت 261هـ)، كتاب الزهد والرفائق، رقم الحديث 2956، ج 4/ 2272.
* الحديث كاملا: بلفظ " إذا أحبَّ الله عَبْدًا ابْتِلَاءً، فَمَنْ حَبَّه إِيَّاهُ يَمْسُهُ الْبَلَاءُ حَتَّى يَدْعُوهُ فَيَسْمَعُ دُعَاءَهُ" أخرجه البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين (ت 458هـ)، شعب الإيمان، تحقيق ومراجعة النصوص وتخریج أحاديثه عبد العلي عبد الحميد حامد وآخرون مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع دار السلفية بيومباي بالهند، ط 1، 1423هـ، 2003، باب: في الصبر على المصائب وعمّا تنزع إليه النفس من لذة وشهوة، فصل في أي الناس أشد بلاء، رقم الحديث 9329، ج 12/ 236. الحديث ضعيف جدا، ينظر الألباني أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين (ت 1420)، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، دار المعارف الرياض، المملكة العربية السعودية، ط 1، 1412هـ، 1992، رقم الحديث 2202، ج 5/ 227.

صَلْبُهُ**، ويتناسون الحديث "إِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ الْعَبْدَ الْبَطَالَ"*** والحديث المفيد معنى " إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ غَرْسَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا"***⁽¹⁾.

استعمل الكواكبي في هذا النموذج حجة السلطة بتوقيت غير متوقع؛ إذ إن العلاقة بين السلطة وموضوع الحجاج ترد مباغتة، فتكون الصدمة أكثر إقناعاً؛ إذ "غالبا ما تكون الحجج المفاجئة هي الحجج الأكثر فعالية، لأنها تفحم المخاطب، ولا تترك له مجالاً للمناورة، فلا يملك إلا الاستسلام والتسليم. ولترتيب السابق أهمية كبرى؛ لأن للسلطات درجات عليها تنظم"⁽²⁾ وحسب هذه النماذج فندت حجج السلطة بعضها بعضاً في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وفق شكلين:

الشكل الأول: تنفيذ حجة سلطة المثال، بحجة سلطة القرآن الكريم.

الشكل الثاني: تنفيذ حجة سلطة حديث أو مثال بحديث نبوي شريف.

نستنتج من استقراء سلطة الحديث النبوي الشريف في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) أنّ الكواكبي يكثر رواية الحديث بالمعنى، وهذا يجوز له لأنه عالم باللغة العربية وبفحوى الحديث مستحضراً لمعناه، ولكن هذا الاستحضار يعاب عليه عند البلاغيين إذ إنه لم يلتزم بشروط استخدام حجة السلطة التي أوردها محمد مشبال إذ يقول " ينبغي أن يكون الاستشهاد بسلطة ما على نحو صحيح؛ فإجراءات

** الحديث ورد بلفظ الآدمي بدل المرء والحديث كاملاً: " حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْجُمَيْيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ سَمِعَةَ الْمُقَدَّمِ بْنِ مَعْدٍ يَكْرَهُ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " مَا مَلَأَ آدَمِيَّ وَعَاءٌ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الْآدَمِيِّ، لَقِيمَاتٌ يَمْنَعُ صَلْبُهُ، فَإِنْ غَلَبَتِ الْآدَمِيُّ نَفْسُهُ، فَتَلَّتْ لِلطَّعَامِ، وَتَلَّتْ لِلشَّرَابِ، وَتَلَّتْ لِلنَّفْسِ " أخرجه ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن زيد القزويني (ت 273هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد الفؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية مطبعة فيصل عيسى البابي الحلبي، مصر، (د. ط.)، (د. ت.)، كتاب الأطعمة، باب: الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، رقم الحديث 3349، ج 2/ 1111. حديث صحيح، ينظر: ابن جبان (ت 354هـ)، الإحسان في تقريب ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1408هـ، 1988، ج 41/12.

*** قال فيه الزركشي لم أجده انتهى، ينظر: محمد عبد الرحمن السخاوي (ت 906هـ)، دراسة وتحقيق محمد عثمان الخت، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1405، 1985، رقم الحديث 246/ 209.

**** الحديث بهذا اللفظ (غرسه) غير موجود حسب ما وقتت عليه في مظان الحديث وإنما وجدته بلفظ (فسيل)؛ حَدَّثَنَا أَبُو داود قال: حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَنَسِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " إِنَّ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَيْسِيلٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَلَّا تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَفْعَلْ " أخرجه الطيالسي أبو داود سليمان (ت 204هـ)، مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط 1، 1419هـ، 1999م، هشام بن زيد عن أنس، رقم الحديث 2181، ج 3/ 545.

⁽¹⁾ عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 113.

⁽²⁾ فضيلة قوتال، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، ص 286.

الحذف والزيادة أو أي تبديل لا يُنبه عليه يعد أمراً معيباً⁽¹⁾ هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أنه لم يتحرّر الدقة في فصل المثال عن الحديث، وعلاوة على ذلك يحتاج بالأحاديث الضعيفة، وهي موضع خلاف العلماء بين معارضٍ ومؤيدٍ وبالموضوعة* والتي لا يجوز ذكرها إطلاقاً أو روايتها، وكان حرياً به الاستغناء عنها بالأحاديث الصحيحة أولى وأفضل حتى ولو أوردتها في باب الترغيب والترهيب في فضائل الأعمال، لأنّ ذلك من شأنه أن يضعف حجته " لا يجوز الاستدلال بالأحاديث الضعيفة، ولا يجوز سوقها على أنها حجة حتى ولو كان في فضائل الأعمال أو في العقاب على سيئ الأعمال"⁽²⁾.

2ج الحكم:

نقل الكواكبي عن الحكماء أقوالاً وآراءً وتوجيهات تترجم خبرتهم السديدة في الحياة ليدفع بالمخاطب إلى التسليم بها دون جدال.

✓ "وقد تكلم بعض الحكماء. لا سيّما المتأخرون منهم، في وصف الاستبداد ودوائه بجمل بليغة تُصور في الأذهان شقاء الإنسان، كأنّها تقول له هذا عدوك فانظر ماذا تصنع، ومن هذه الجمل قولهم: [...] المستبدّ: إنسان مستعدُّ بالطبع للشرّ وبالإنجاء للخير، فعلى الرعية أن تعرف ما هو الخير وما هو الشرّ فتلجئ حاكمها للخير رغم طبعه، وقد يكفي للإنجاء مجرد الطلب إذا علم الحاكم أنّ وراء القول فعلاً. ومن المعلوم أنّ مجرد الاستعداد للفعل فعل يكفي شرّ الاستبداد"⁽³⁾.

✓ "من أقوال الحكماء: [...] على قدر الهمم تأتي العزائم، بين السعادة والشقاء حرب سجال، العاقل من يستفيد من مصيبته والكيس من يستفيد من مصيبته ومصيبة غيره، والحكيم من ينتج بالمصائب ليقتطف منها الفوائد، ما كان في الحياة لذة لو لم يتخللها آلام"⁽⁴⁾.

تمظهرت الصبغة الدينية الإسلامية في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) بكثرة؛ لأنّ سياق الخطاب استدعى من الكواكبي المواجهة بآيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية المشحونة بتعاليم إماتة

(1) محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، ص 140.

* الأحاديث المختلفة المصنوعة عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

(2) ما حكم الاستدلال بالأحاديث الضعيفة؟، الإسلام سؤال وجواب الصادرة من الموقع الإلكتروني:

<https://islamqa.info/ar/answers/180529/%D8%AD%D9%83%D9%85->

%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8% : بتاريخ : 14/03 /2012

(3) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 29-30.

(4) المصدر نفسه، ص 125.

الاستبداد وإحياء العدل والحث على العمل، لينفي عن الإسلام بأنه جاء مؤيدا للاستبداد، معارضا وكاشفا عن الافتراءات التي يقوم بها فقهاء الاستبداد لتضليل الأفهام بغية إضفاء الصبغة الشرعية على تصرفات المستبد.

نستنتج أن الكواكبي دعم خطابه بكل من القرآن الكريم، أقوال العلماء، والحكماء والأمثال التي تجسد تجاربهم الواقعية في الحياة، "حتى يضمن استمرارية الحجاج وتصاعديّة سلامه لتحقيق المقاصد"⁽¹⁾. اعتمادا على ما سبق من دراسة أنواع الحجج المؤسّسة على بنية الواقع، نجد أنّ هذا النوع في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) ورد استعماله بكثرة، ولعل الأمر راجع إلى طبيعة الموضوع المعالج فجّل قضايا الاستبداد مستمدة من الواقع المعيش وما فيه من تجارب واقعية عايشها الكواكبي وغيره على مرّ التاريخ متخذاً منها "أرضية لبناء قناعات يتم بواسطتها التأثير في المتلقي"⁽²⁾

2-2 الحجج المؤسّسة لبنية الواقع:

يستعمل المخاطب هذا النوع من الحجج لدعم النتائج الحجاجية لدى المخاطب، لأنها تنقل التصورات والمدرجات التي يود تثبيتها في ذهن مخاطبه من واقعه المعيش⁽³⁾، وعلى هذا فهي "تؤسّس هذا الواقع وتبنيه أو على الأقل تكمله وتظهر ما خفي من علاقات بين أشيائه"⁽⁴⁾. وتقوم هذه الحجج على مستويين اثنين هما:

2-3-1 الحجج المؤسّسة بواسطة الحالات الخاصة:

في كثير من الأحيان يقصد المخاطب أثناء الحجاج استعمال حالات منفردة مأخوذة من الواقع ليبنى على منوالها نتائج الحجاجية، فتتحوّل تلك الحالات المنفردة من حالة خاصة إلى قاعدة عامة يُبنى على أساسها الواقع المقصود تصويره في ذهن المخاطب⁽⁵⁾.

ويامعان النظر في (كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) نجد أنّ جل الكتاب قد تأسس على هذا النوع من الحجج، بدليل الألفاظ والعبارات المتكررة في كل فصل، نحو: (مثال ذلك...، مثلاً...، وإني أمثّل...، وهذا مثل...، وقيل...، وقال...، وهذه...، وهذا...)، فهذه الصيغ المتكررة تشير إلى اعتماد حالة خاصة

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلياته ودمنة لابن المقفع، ص 218.

(2) المرجع نفسه، ص 217.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 218.

(4) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص 242.

(5) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلياته ودمنة لابن المقفع، ص 219.

تؤسس لحجة، يعتمدها الكواكبي لإقناع المخاطب بمقاصده في بناء الواقع المتصور، سواء كانت هذه الحالة الخاصة مثلاً أو شاهداً أو قدوة⁽¹⁾.

وفيما يأتي نورد نماذج من الحالات الخاصة التي استعان بها الكواكبي في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) لتأكيد صحة نتائجه الحجاجية:

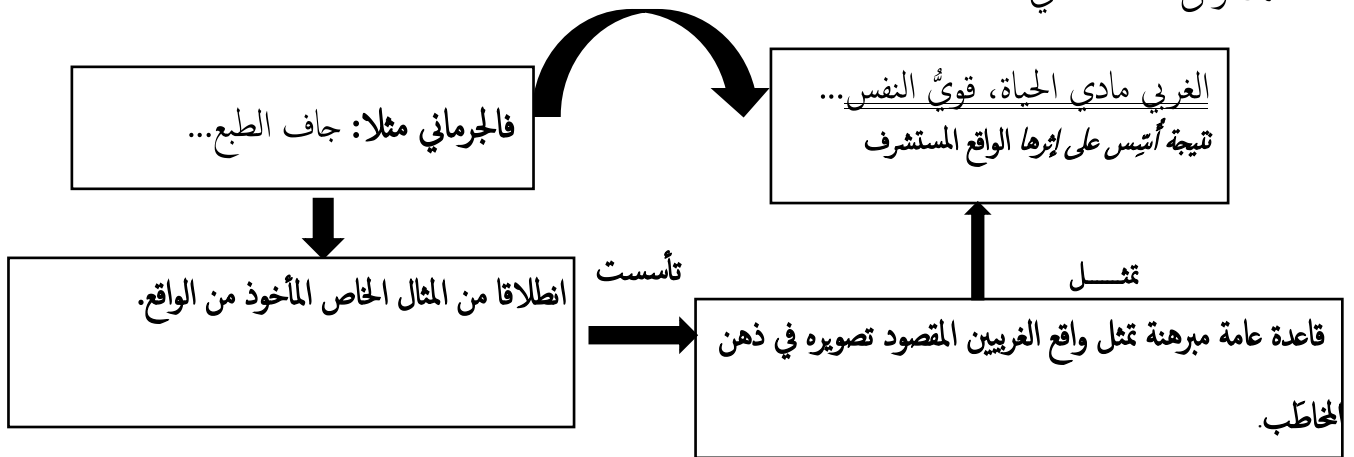
2-3-1 أ المثال:

من الأمثلة الخاصة التي انطلق منها الكواكبي لتعميم الحكم وتأسيس قاعدة عامة مبرهنة نذكر:

✓ " الغريبي مادي الحياة، قوي النفس، شديد المعاملة، حريص الاستئثار، حريص على الانتقام، كأنه

لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة [...]، فالجرماني مثلاً: جاف الطبع، يرى أنّ العضو الضعيف من البشر يستحق الموت، ويرى كلّ فضيلة في القوة، وكلّ القوة في المال، فهو يحبّ العلم، ولكن، لأجل المال؛ ويحبّ المجد، ولكن لأجل المال"⁽²⁾.

انطلق الكواكبي من مثال خاص (فالجرماني مثلاً) مأخوذ من الواقع ليعمم الحكم ويأسس لقاعدة عامة مبرهنة (الغريبي مادي الحياة، قوي النفس...); فتحول بذلك المثال الخاص من حالة خاصة إلى قاعدة عامة مبرهنة بنى على إثره واقع الغريبيين المقصود تصويره وتقوية حضوره في ذهن المخاطب وتأكيد صحة نتيجته وتمثيل ذلك وفق المخطط الآتي:



مخطط رقم 26 يوضح نموذج من الحالة الخاصة

(1) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 219.

(2) المصدر نفسه، ص 103.

✓ " ثم إنَّ الرجال تقاسموا مشاقَّ الحياة قسمة ظالمة أيضا، فإنَّ أهل السياسة والأديان ومن يلتحق بهم وعددهم لا يبلغ الخمسة في المائة، يتمتعون بنصف ما يتجمد في دم البشر أو زيادة، ينفقون ذلك في الرفه والإسراف، **مثال ذلك:** أنهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح لمروهم فيها أحيانا متراوحين بين الملاهي [...] ولا يفكرون في ملايين من الفقراء يعيشون في بيوتهم في ظلام"⁽¹⁾.

دعم الكواكبي خطابه بمثال خاص مأخوذ من الواقع (**مثال ذلك:** أنهم يزينون الشوارع بملايين من المصابيح) ليؤسس لقاعدة عامة مبرهنة (أن الرجال تقاسموا مشاقَّ الحياة قسمة ظالمة أيضا، فإنَّ أهل السياسة والأديان [...])، يتمتعون بنصف ما يتجمد في دم البشر أو زيادة، ينفقون ذلك في الرفه والإسراف). يرمي الكواكبي من إيراد هذا المثال المأخوذ من الواقع عقد الصلة بين السياق المشاهد وبين السياق الغائب ليؤسس للواقع المستشرف من خلال النتائج الحجاجية " فلضرب الأمثال [...] شأن ليس بالخبفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تُريك المتخيّل في صورة المحقّق والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد"⁽²⁾. وبهذا يتّضح أن من خصائص المثال أنّ له طابعا إقناعيا برهانيا " لأنه يساق للإقناع ويرد حجة ودليلا على صدق مساقه، وصحّة دعواه"⁽³⁾.

2-3-1 ب الشاهد:

يورد الكواكبي مجموعة من الشواهد " لتوضيح القاعدة ولتقوية درجة تصديقها"⁽⁴⁾، فهي من دعامات الحجاج القوية؛ إذ تحقق أكبر الأثر في المخاطب، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على براعة الكواكبي وأهليته في توظيف هذه الحجج حسب ما يتطلبه السياق في تأسيس الواقع الجديد، ومن أهم الشواهد التي رفدت خطابه:

1/ الشاهد القرآني:

يمثل الشاهد القرآني أفضل الشواهد إزالة للغموض والإبهام، فهو المرجعية التي تضاعف الإقناع؛ إذ يبعث اليقين في اعتقاد المخاطب لما يمنحه للخطاب من قوة سلطوية من شأنها أن تُبوّئ مكانة عالية. والمتأمل في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) يجد أن الكواكبي يختار الشاهد القرآني الذي يؤيد صواب ما يذهب

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 77-78.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 542.

(3) المرجع نفسه، ص 542.

(4) مصطفى العطار، لغة التخاطب الحجاجي، دراسة في آليات التناظر عند ابن حزم، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2017م، ص

إليه، ليس التأييد من أجل التأييد بل قصد تقوية حجته وتعزيزها في بناء وتثبيت معالم الواقع المنشود ومن الشواهد القرآنية:

✓ " أن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا، والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد به التصريح أو التلميح من ذلك أنهم حققوا أنه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعي أن تتمد الأرض، أي ترج في دورتها، والقرآن يقول ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾⁽¹⁾.

2/ الشاهد الحديثي:

يستند الكواكبي على الشاهد الحديثي - كيف لا وقائله خير البرية جمعاء وأفصحها-، فيستدعي قول الرسول صلى الله عليه وسلم بغية تقوية حضور الحجة لينبي على منوالها الواقع الجديد الذي يسعى إلى تأسيسه. ومن الشواهد الحديثية التي أوردتها نذكر:

✓ "لولا حلم الله لحسف الأرض بالعرب؛ حيث أرسل رسولا من أنفسهم أسس لهم أفضل حكومة أسست في الناس، جعل قاعدتها قوله: " كَلِمَةُ رَاعٍ وَكَلِمَةُ مَسْئُولٍ عَنْ رَعِيَّتِهِ "؛ أي كل منكم سلطان عام ومسؤول عن الأمة"⁽²⁾.

3/ الشاهد الشعري:

يشكل الشاهد الشعري عنصرا جماليا يثير المتعة، ويولد التحفيز عند المخاطب باستفزاز مشاعره وإقناعه بتغيير أفكاره وسلوكه ومواقفه، مما يعني أن الصفة البرهانية الإقناعية خاصة تحضر في الشعر بل إن النظرية الحجاجية تذهب إلى أبعد من ذلك فتعد أن إي نص شعري تكون له إلى جانب الوظيفة الشعرية وظائف أخرى مثل الوظيفة الانفعالية والوظيفة التوجيهية الإقناعية"⁽³⁾ ومن الشواهد الشعرية التي يسوقها الكواكبي لبناء واقع جديد قوامه التحفيز على التغيير نذكر:

(1) سورة النحل، الآية 15.

* الحديث كاملا: " كَلِمَةُ رَاعٍ وَكَلِمَةُ مَسْئُولٍ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْأَمِيرُ رَاعٍ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَالِدِهِ، فَكَلِمَةُ رَاعٍ وَكَلِمَةُ مَسْئُولٍ عَنْ رَعِيَّتِهِ " أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب: المرأة راعية في بيت زوجها، رقم الحديث 5200، ج 31/7،

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 42.

(3) فضيلة قوتال، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، ص 544.

✓ " فإذا وجد في الأمة الميثة من تدفع شهامته للأخذ بيدها والنهوض بها فعليه أولاً: أن يبث فيها الحياة وهي العلم؛ أي علمها بأن حياتها سيئة، وإنما بالإمكان تبديلها بخير منها، فإذا هي علمت بطبعه من الآحاد إلى العشرات، إلى إلى...، حتى يشمل أكثر الأمة، وينتهي بالتحمس، ويبلغ بلسان حالها إلى منزلة قول الحكيم المعري⁽¹⁾ (من الطويل):

إِذَا لَمْ تَقُمْ بِالْعَدْلِ فَيُنَا حُكُومَةً * فَتَحْنُ عَلَى تَغْيِيرِهَا قُدْرَاءً⁽²⁾**

4/ الشاهد التاريخي:

أحال الكواكبي على الشاهد التاريخي بغية دفع المخاطب للانعاط بما مضى في تأسيس الواقع الجديد ولتوضيح ذلك نسوق النموذج الآتي:

✓ " الغربي يعرف كيف يسوس، وكيف يتتبع، وكيف يأسر، وكيف يستأثر. فمتى رأى فيكم استعداداً واندفاعاً لمجاراته أو سبقه، ضغط على عقولكم لتبقوا وراءه شوطاً كبيراً [...] دخل الفرنسيون الجزائر منذ سبعين عاماً، ولم يسمحوا بعد لأهلها بجريدة واحدة تُقرأ [...] فهلا والحالة هذه تبصرون يا أولي الألباب؟"⁽³⁾.

المدقق في الشواهد التي أوردها الكواكبي (في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) يجد أنه كمفكر يؤسس لبناء واقع جديد قوامه التدقيق بما جاء في القرآن الكريم، والأخذ بسنة خير الأنام التي أسست أفضل حكومة جعلت فيها كل واحد منا مسؤولاً عن الأمة، ولم يكنف الكواكبي بالشاهد القرآني والحديثي فوظف الشاهد الشعري ليثير انفعال المخاطب ويقنعه بتغيير سلوكه ومواقفه، وعلاوة على ذلك يستعمل الشاهد التاريخي للاعتبار به، وليتخطى لحظة الحاضر نحو المستقبل عن طريق تحريك اللغة حركات زمنية من الأمام إلى الوراء؛ أي من الحاضر إلى الماضي أو بالعكس ثم منها إلى المستقبل. كما لاحظنا أنه ساق هذه الشواهد في آخر كلامه في كل فكرة، ليؤكد للمخاطب صدق ما يذهب إليه ويحقق غايته من الإقناع والتأثير.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 163.

(2) البيت لأبي العلاء المعري وقد ورد في ديوانه برواية أخرى هي:

وأبى عظيم، راب أهل بلادنا *** فإنّا على تغييره، قدراء. أبو العلاء المعري، سقط الزند، دار صادر، بيروت، 1376هـ-

1957م، ص 190.

(3) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 139-140.

استلقت نظر المطالع للتدقيق في الفرق بين حجة سلطة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف المدرجة ضمن الحجج المؤسّسة على بنية الواقع وبين حجة الشاهد والمثال المتضمنة في الحجج المؤسّسة لبنية الواقع؛ حيث إن النوع الأول يفسر الأحداث من طبيعة الواقع المعيش من أجل تأييد أو تنفيذ قضية ما فعلى سبيل المثال الكواكبي يردّ على الافتراءات المنسوبة إلى الإسلام من واقع المستبدّين ويفندها بسلطة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بغية تبرئته مما نسب إليه، في حين إن النوع الثاني ينطلق من حالات خاصة (المثال، الشاهد) مستمدة من الواقع لتأسيس واقع جديد وتعميمه وتقوية بنائه*، كما يختلف المثال عن الشاهد اختلافاً بيناً "فالشاهد يؤسس المعرفة وبيئتها في المواضيع التي لا توجد بها، أما المثال فإنه يدعم تلك المعرفة الموجودة أصلاً ويقوي بناءها، إضافة إلى ذلك فإن المثال أقل عرضة للتأويل إذا ما قيس بالشاهد وسبب ذلك راجع إلى ارتباط المثال بقاعدة معرفية معروفة ومقبولة لدى الناس سلفاً"⁽¹⁾.

2-3-1 ج القدوة والقوة المضادة (الأنموذج وعكس الأنموذج):

المدقق في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) يجد أنّ جلّ الخطاب جاء على شكل قدوة وقدوة مضادة؛ لأن موضوع الكتاب اقتضى من الكواكبي التدقيق في اختيار نماذجه بحيث تكون جديرة بتقليد طبائع مهيئة للاقتداء بها والنسج على منوالها للتخلص من الاستبداد، فيكون للأنموذج المعتمد "قدر كاف من الهيبة على حد عبارة بيرلمان"⁽²⁾ ليثبت ما يريد تثبيته من طبائع وقيم وفضائل عند المخاطب، أو حملة على تهديم طبائع، واقصاء مبادئ والتنزّه عن مجرد التشبه بها. والجدول الآتي يوضح النماذج الواردة في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) والتي ينبغي الاقتداء بها أو الانفصال عنها:

القدوة المضادة	القدوة
<p>● المستبد: "لا يخرج قطّ على أنّه خائف خائف محتاج لعصابة تعينه وتحميه، فهو ووزرائه كزمرّة لصوص: رئيس وأعوان"⁽³⁾.</p>	<p>● الأنبياء: "وقد سلك الأنبياء عليهم السلام، في إقناده الأم من فساد الأخلاق، مسلك الابتداء أولاً بفك العقول من تعظيم غير الله والإذعان لسواه. وذلك بتقوية حسن الإيمان المفطور عليه وجدان كل إنسان، ثم حمدوا في تنوير العقول بمبادئ الحكمة وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته أي حريته</p>

* هذا الواقع قد تكون صورته مشرقة أو مأساوية، فالحالات الخاصة تعكس الصورة التي يتأسس عليها الواقع الجديد ويعمم ويقوى بناءه والمخاطب هو المسؤول في رسم معالمه بإذعانه لنماذج من الحالات الخاصة التي تعمم ويتجسد عليها الواقع.

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفع، ص 120.

(2) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، بنيتة وأساليبه، ص 245.

(3) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 71.

	<p>في أفكاره، واختياره في أعماله، وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدوا منابع الفساد"⁽¹⁾.</p>
<p>● أسير الاستبداد: " لا يمكنه أن يجزم بأمانته، أو يضمن ثباته على أمر من الأمور، فيعيش سيئ الظن في حق ذاته مترددا في أعماله، لوأما نفسه على إهماله شؤونه، شاعرا بفتور همته وقص مروءته"⁽³⁾.</p> <p>● "يعيش خاملا خامدا، ضائع القصد، حائرا لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته ويدرج أيامه وأعوامه كأنه حريص على بلوغ أجله ليستتر تحت التراب"⁽⁴⁾.</p>	<p>● الخلفاء الراشدون: " جاء الإسلام [...] أوجد مدية فطرية سامية، وأظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الراشدين التي لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر حتى ولم يخلفهم فيها بين المسلمين أنفسهم خلف؛ إلا بعض شواذ؛ كعمر بن عبد العزيز والمهتدي العباسي ونور الدين الشهيد. فإن هؤلاء الخلفاء الراشدين فهموا معنى ومغزى القرآن التازل بلغتهم، وعملوا به واتخذوه إماما، فأنشأوا حكومة قضت بالتساوي حتى بين أنفسهم وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشظفها، وأحدثوا في المسلمين عواطف أخوة وروابط هيئة اجتماعية"⁽²⁾.</p>
<p>● ذكر الكواكبي قصة ملكة روسيا التي رواها المؤرخ الروسي كريسكوفا: " إن كاترينا* شككت كسل رعيته، فأرشدتها شيطانها إلى حمل النساء على الخلاعة، ففعلت وأحدثت كسوة المراقص، فهبت الشبان للعمل وكسب المال لصرفه على ربّات الجمال، وفي ظرف سنين تضاعف دخل خزينتها، فأتسع لها مجال الإسراف، وهكذا المستبدون لا تهتمهم الأخلاق، إنما يهتمهم المال"⁽⁶⁾.</p>	<p>● أورد الكواكبي قصة ملكة سبأ الواردة في القرآن الكريم* التي " تعلم كيف ينبغي أن يستشير الملوك الملأ، أي أشرف الرعية، وأن لا يقطعوا أمرا إلا برأيهم، وتشير إلى لزوم أن تحفظ القوة والبأس في يد الرعية، وأن يخص الملوك بالتنفيذ فقط، وأن يكرموا بنسبة الأمر إليهم توقيرا وتقبح شأن الملوك المستبدين"⁽⁵⁾.</p>
<p>● وصف الكواكبي أفعال رجال التمجيد بقوله: " يتقاد الرجل سيفا من قبل الجبارين يبرهن به على أنه جلاذ في دولة الاستبداد، أو يعلق على صدره وساما مشعرا بما وراءه من الوجدان المستبجح للعدوان، أو يترين</p>	<p>● أورد الكواكبي أفعال وأقوال رجال المجد: بقوله: " خلق الله رجالا يستعذبون الموت في سبيله، ولا سبيل إليه إلا بعظيم الهمة والإقدام والثبات، تلك الحصال الثلاث التي بها تقدر قيم الرجال:</p>

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 101.

(2) المصدر نفسه، ص 38-39.

(3) المصدر نفسه، ص 98.

(4) المصدر نفسه، ص 112-113.

* قول بلقيس ملكة سبأ من عرب تبع تخاطب أشرف قومه: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٤﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا فُؤُورَ وَأَوْلُوا بِأَسِيسِ شَدِيدِ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذَانَهُ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ سورة النمل، الآية 32، 33، 34

(5) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 40.

* كاترينا الثانية أو العظمى (1729، 1796)، حكمت الإمبراطورية الروسية قيصره عليها من سنة 1763 حتى سنة 1786، ينظر: عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تحقيق وتقديم، محمد عمارة، دار الشروق، مصر، ط 2، 2009.

(6) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 79.

<p>بسيور مزر كشة تنبئ بأنه صار محنتاً أقرب إلى النساء منه إلى الرجال، وبعبارة أوضح ... هو أن يصير الإنسان مستبداً صغيراً في كنف المستبد الأعظم" (2).</p>	<p>وهذا يرون الظالم سأل أغريين الشاعر وهو تحت النّطع: من أشقى الناس؟ فأجابه معرّضاً به: من إذا ذكر الناس الاستبداد كان مثالا له في الخيال [...] قيل لأحد الأبوة ما فائدة سعيك غير جلب الشقاء على نفسك فقال ما أحلى الشقاء في سبيل تنغيص الظالمين [...] وهذا مكماهون رئيس جمهورية فرنسا استبد في أمر فدخل عليه صديقه غامبتا وهو يقول: الأمر للأمة لا إليك فاعتدل أو اعتزل وإلا فأنت المخدول المهان المميت" (1).</p>
<p>● عدد الكواكبي أفعال الحكومة المستبدة: إذ قال " تكون طبعا مستبدة في كل فروعها من المستبد الأعظم إلى الشرطي، إلى الفرش إلى كتاس الشوارع، ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقتة أخلاقا، لأن الأسافل لا يهتمهم طبعا الكرامة وحسن السمعة، إنما غاية مسعاهم أن يبرهنوا لمخدومهم بأنهم على شاكلته وأنصار لدولته، وشهرون لأكل السقطات من أي كان ولو بشرا أم خنازير، آباءهم أم أعدائهم، وبهذا يأمنهم المستبد ويأمنونه فيشاركهم ويشاركونه" (4).</p>	<p>● ذكر الكواكبي أفعال الحكومة الحرة: " التي تمثل عواطف الأمة تأبى كل الإيذاء لإخلال التساوي بين الأفراد إلا لفضل حقيقي، فلا ترفع قدر أحد منها إلا رفعا صوريا أثناء قيامه في خدمتها، أي الخدمة العمومية، وذلك تشويقا له على التفاني في الخدمة، كما أنها لا تميز أحدا منها بوسام أو تشرفه بلقب إلا ما كان علميا أو ذكرى لخدمة محممة وفقه الله إليها" (3).</p>

جدول رقم 08 يمثل نماذج من القدوة والقُدوة المضادة في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

يتضح من خلال النماذج المعروضة في الجدول أعلاه أنّ الكواكبي يحدد للمخاطب القدوة التي ينبغي تقليدها، فيضفي عليها أوصافا فائنة مغرية من كمال التعقل، الحكمة، العدالة، والشجاعة حتى يدفعه إلى اقتفاء سلوكها بينما نجده يعضد حجته بالقدوة المضادة التي "تدفع إلى تجنب الأفعال والابتعاد عنها، ومن ثم جاز استعمالها كوسيلة لدرء السلوكات المشينة [...]؛ فإذا كانت قوة الأنموذج متعلقة بقيمة سلطوية والأشخاص ذوي الرتب العالية، فإن الأنموذج المضاد، يرتبط بالقيم الدونية والأشخاص المبغضين" (5) وبذلك تزيد حدة النفور عند المخاطب وتعظم فيه نظرة الاحتقار.

نستنتج أن الكواكبي وظف نماذج القدوة والقُدوة المضادة وفق شكلين:

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 60-61.

(2) المصدر نفسه، ص 62.

(3) المصدر نفسه، ص 62.

(4) المصدر نفسه، ص 69-70.

(5) فضيلة قوتال، حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، ص 368.

1- نماذج الشكل الأول: تظهرت في صورة الشخص الذي ينبغي تقليده وثمانين أفعاله وأقواله (مثل: الأنبياء، الخلفاء، ملكة سبأ، رجال المجد) أو الانفصال عنه وتبخيس أفعاله (مثل: ملكة روسيا المستبد، أسير الاستبداد).

2- نماذج الشكل الثاني: تجسدت في الأفعال الصادرة عن كيانات لا شخصية كأنظمة الحكم السياسي التي تكتسب قيمتها من خلال مقارنتها للصفات المثالية (مثل: الحكومة الحرة) أو الدينئة (مثل: الحكومات المستبدة).

يرمي الكواكبي من توظيف هذا النوع من الحجج إلى وضع المخاطب بين خيارين متناقضين، فإما أن يقتدي بالقيم المثلى التي تمثل عاملاً أساسياً في التربية الأخلاقية وفي تماسك المجتمعات واستقرارها وإما أن يقتدي بالقيم الدنيا التي هي مؤشر على تدهورها وتفككها ودخولها في مرحلة ما قبل الثورة. وبهذا يجد نفسه مضطراً للانتقاء وتحمل مسؤولية اختياره في بناء الواقع الجديد الذي له دخل في رسم معالمه.

2-3-2 الحجج المؤسّسة بواسطة التمثيل:

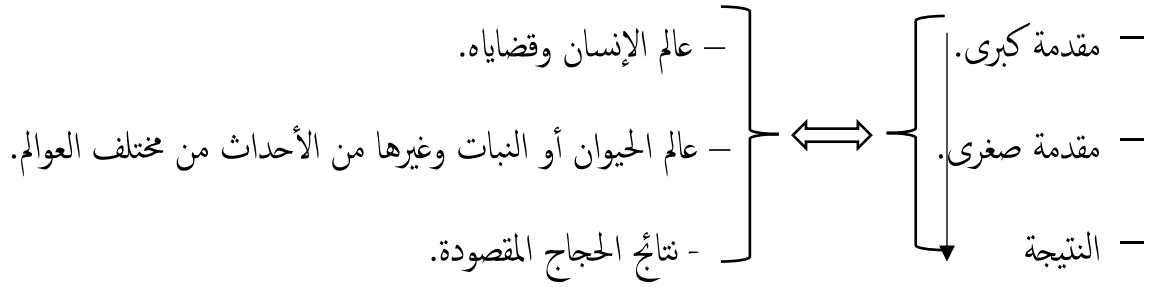
يؤسس هذا النوع من الحجج بواسطة استثمار " صور البيان وبخاصة التشبيه"⁽¹⁾؛ لكونه حجة تسعى لتبليغ الأفكار وتسمح بإثبات حقيقة ما عن طريق تشابه العلاقات للوصول بالمخاطب إلى استنتاج النتيجة المنتزعة من المتعدد بهدف التأثير فيه وتحذيره بكوامن الأمور لدفعه للقيام بالفعل وتغيير السلوك، ويتم استنتاج هذه النتيجة وفق " قياس منطقي يتألف من مقدمتين كبرى وصغرى ثم نتيجة تمثل دعوى الحجاج"⁽²⁾ علماً أن قضايا القياس تستمد من واقع المخاطب حتى يتمكن من تشخيص الفكرة واستنتاج النتيجة المرجوة. وحين تتبع كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) نجد ورود هذا النوع من الحجج بكثرة؛ لكونه يعالج قضايا الاستبداد السياسي، الاجتماعي والديني... المرتبطة بعالم الإنسان، " إلا أنه مُثل لذلك بمجريات وأحداث عالم الحيوان"⁽³⁾ النبات وغيرها من القضايا من مختلف العوالم؛ ليدفع بالمخاطب إلى استنتاج العلاقة المشتركة بينها، وبالتالي التسليم بالنتيجة المقصودة، وندعم هذا التصور بالرؤية التي قدمها الباحث حمدي منصور جودي في المخطط الآتي⁽⁴⁾:

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلياته ودمنة لابن المقفع، ص 220.

(2) المرجع نفسه، ص 220.

(3) المرجع نفسه، ص 220.

(4) ينظر: المرجع نفسه، ص 220.



مخطط رقم 27 يوضح تصور الحجج المؤسّسة بواسطة التمثيل

سنكتفي بسوق النماذج التي مثّل لها الكواكبي من مجريات عالم الحيوان والنبات دون غيرها؛ لكونها الأكثر استعمالاً، إذ عمل فيها " على مضاعفة الحامل لموضوع واحد" (1)، منها:

✓ " المستبد: يود أن تكون رعيته كالغنم درّاً وطاعة، وكالكلاب تذلاً ومقلّماً، وعلى الرعية أن تكون كالخيل إن خُدِمت خُدِمت، وإن ضربت شرسَتْ، وعليها أن تكون كالصقور لا تلاعب ولا يستأثر عليها بالصيد كله" (2).

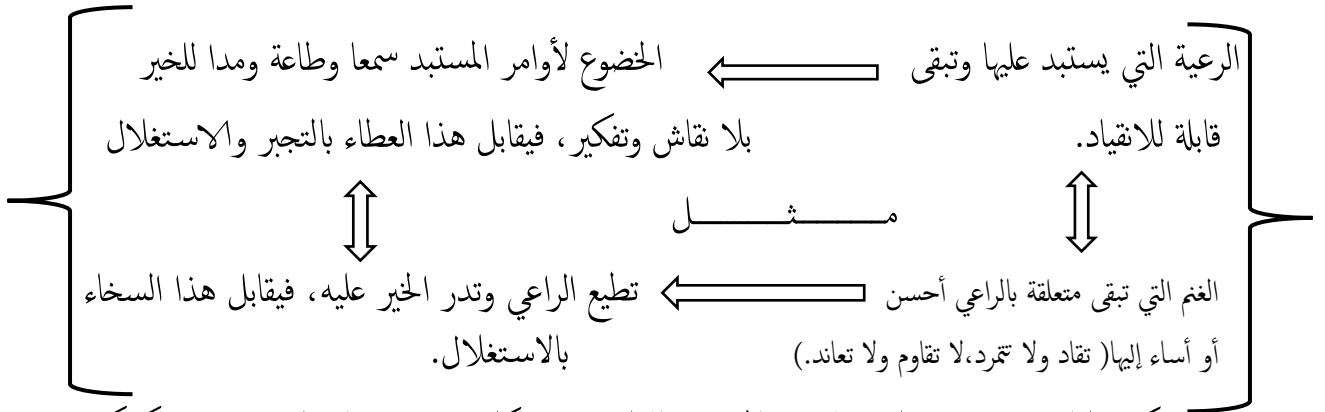
نستنتج من هذا النموذج مجموعة من الحجج المؤسّسة بواسطة التمثيل:

1- **حال الرعية الواقع عليهم الاستبداد:** مثلها بعلاقتين؛ تكمن الأولى في تشبيهه علاقة المستبد بالرعية بالعلاقة بين الراعي والغنم، فليس القصد تشبيه رعية المستبد بالغنم وإنما تشبيهه علاقة المستبد بالرعية، بالعلاقة بين الراعي والغنم، ومدار التمثيل تبيان الاشتراك في الاتقياد والطاعة والعطاء دون نقاش وتفكير، فالعلاقة على هذا الحال علاقة خضوع وموضع استغلال، وهذا المقصود بحكم التمثيل وتمثيل ذلك وفق المخطط الآتي*:

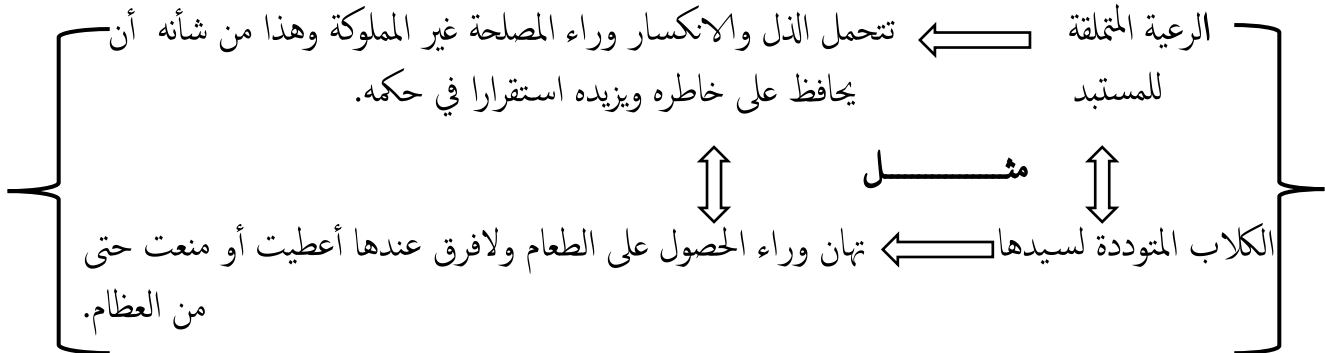
(1) محمد مشبال، في بلاغة الحجج، نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، ص 105.

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 30.

* فكرة المخطط مستوحاة من كتاب حمدي منصور جودي، الحجج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 221.



وتكمن الثانية في تشبيه علاقة الرعية بالمستبد بالعلاقة بين الكلاب وسيدها، فليس مبتغى الكواكبي تشبيه رعية المستبد بالكلاب، وإنما تشبيه علاقة الرعية بالمستبد بالعلاقة بين الكلاب وسيدها. ومدار التمثيل الاشتراك في التذلل والتملق سعيا وراء المصلحة غير المملوكة. وتفصيل ذلك في المخطط الآتي:

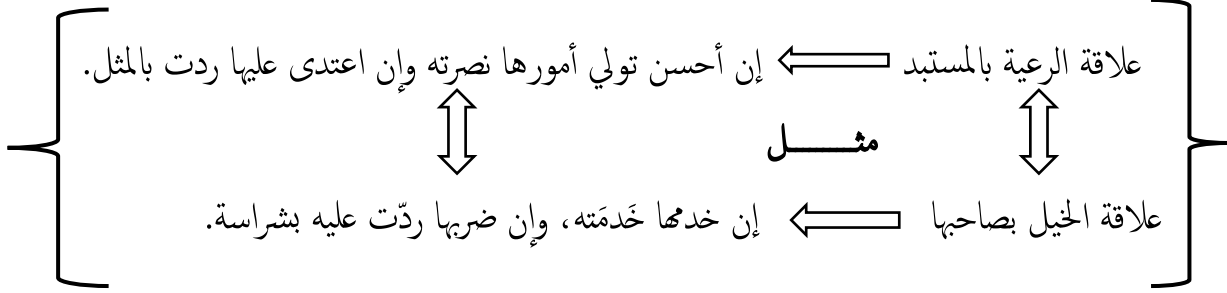


2- ما يجب أن تكون عليه الرعية: إذ إن الكواكبي مثلها بعلاقتين؛ تتجلى عناصر العلاقة الأولى في أربعة

عناصر وهي: [أ] الرعية، [ب] المستبد، [ج] الخيل، [د] صاحبها.

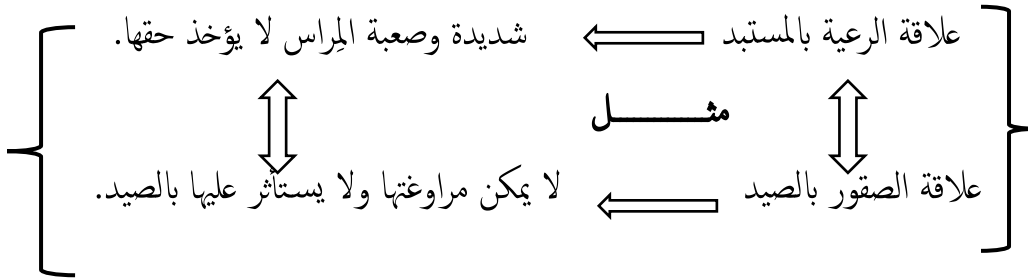
والعلاقة بين هذه العناصر لا تجمع بينها علاقة تشابه بل تشابه علاقة، وذلك أن علاقة [أ] بـ [ب]؛ أي علاقة الرعية بالمستبد يستلزم أن تشبه علاقة [ج] بـ [د]؛ أي علاقة الخيل بصاحبها؛ لما توحى به هذه العلاقة من دلالات إيجابية في معظم الاستخدامات التي ترتبط بها، فإن خدمها واعتنى بها وأوفى حقها خدمته ونصرته على الأعداء، فعلى نواصيها يأتي الخير وإن ألحق بها الضر كان ردّها أكثر شراسة.

توضيح تشابه العلاقة بالمخطط الآتي:



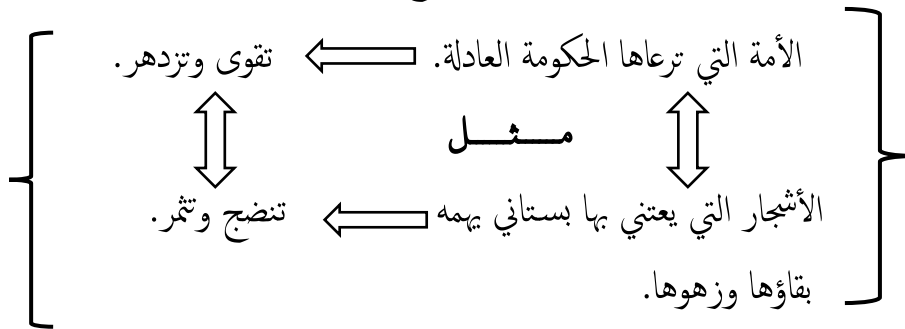
دعم الكواكبي نظريته فيما يجب أن تكون عليه الرعية بالعلاقة الثانية التي تتمثل عناصرها في: [أ]: الرعية،

[ب]: المستبد، [ج]: الصقور، [د]: الصيد. وشرح مدار التمثيل في المخطط الآتي:



✓ "الأقوام كالأجام*، [...] إن صادفت بستانيا يهيمه بقاؤها وزهوها فدبرها حسبا تطلبه طباعها، قويت وأينعت وحسنت ثمارها، وهذا مثل الحكومة العادلة، وإذا بليت ببستاني جدير بأن يسمى خطابا لا يعنيه إلا عاجل الاكتساب، أفسدها وخزبها، وهذا مثل الحكومة المستبدّة"⁽¹⁾.

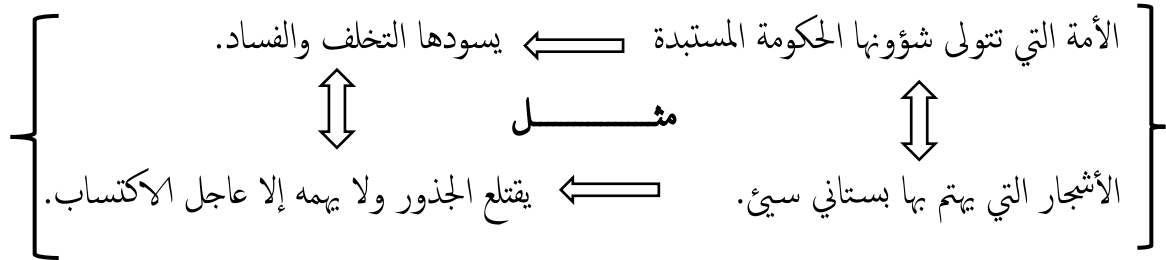
مثل الكواكبي علاقة الأمة بالحكومة بعلاقتين؛ تتجلى الأولى في تشبيه علاقة الأمة التي ترعاها الحكومة العادلة بعلاقة الأشجار التي يتولاها بستاني يهيمه بقاؤها وزهوها، ويقوم التمثيل على تبيان الاشتراك في العناية التي تولد القوة والازدهار والمخطط الآتي يوضح ذلك:



* الشجر الكثيف الملتف، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص88.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 94.

بينما تكمن العلاقة الثانية في تشبيه علاقة الأمة التي تتولى شؤونها الحكومة المستبدة بعلاقة الأشجار التي يهتم بها بستاني سيئ لا يهتم إلا بتحقيق مصلحته العاجلة ولو باقتلاع الجذور، ويتأسس التمثيل على تبيان الاشتراك في التخريب والإفساد، وهذا ما يوضحه المخطط الآتي:



ومما سبق نَحْصُصُ إلى أن التمثيل يعكس براعة الكواكبي في الدمج بين بنيات تنتمي لعوالم مختلفة ما كان لها أن تكون مترابطة خارج الخطاب، تكون الصلة الجامعة بينها شائعة في الواقع ومن الصعب تنفيذ نتائجها؛ لأنَّ المخاطب هو الذي توصل إليها عن طريق تفكيك الصور التمثيلية المحاكية للعالم الإنساني وما فيها من قيم ومفاهيم، وهذا ما يقرب البعيد من المعاني ويزيدها وضوحاً وإقناعاً.

وانطلاقاً من دراسة أنواع الحجج المؤسَّسة لبنية الواقع في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) نتوصل إلى أنَّ هذه الحجج استمدها الكواكبي من الواقع المعيش للمخاطب لنقل المدركات التي يود تثبيتها في ذهنه ليؤسس للواقع المستشرف سواء كان مأساوياً أو مشرقاً، من خلال التأكيد على صحة نتائجها الحجاجية "فالاستعانة بالحالات الخاصة وبالتمثيل المستنبط من الواقع يجعل المخاطب يتقبَّل النتائج؛ لأنها انطلقت من مسلمَّات يؤمن بها، أو هي من تجاربه أو تجارب غيره. فالحالة الخاصة التي تتحوَّل إلى قاعدة عامة تصبح بعد ذلك نموذجاً"⁽¹⁾ ونموذجاً مضاداً يهدف من خلاله إلى إقناع المخاطب بها. كما أنها تعد الشكل الذي بني على نسقه الكتاب إذ لا يخلو من الشواهد وضرب الأمثال من مختلف العوالم وإسقاطها على قضايا الاستبداد الانساني للاتعاض وتوجيه المخاطب إلى المقصود بواسطة الحجاج إلى العمل بنتائج دون غيرها لأنَّ من شأنها أن توصله إلى غير ما يرجو.

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 225.

3- السلام الحجاجية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد:

جاءت مرحلة تحليل مختلف أنواع الحجج في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) سابقة للسلام الحجاجية؛ لأنها بمثابة النواة التي تشكل فصول الكتاب ومضامينه؛ إذ إن كل حجة تترابط وتتداخل مع حجة أخرى سواء أكانت حكاية، مثال أو شاهد... وهكذا دواليك حتى تشكل السلم الحجاجي الكلي لمحتوى الكتاب أو الجزئي اللذان يتكونان في مجموعهما من "علاقة ترتيبية للحجج"⁽¹⁾، فتصبح بذلك النتائج الجزئية مقدمات وحجج لنتائج جزئية جديدة، فيتضافر مجموع هذه النتائج الجزئية ليشكل الفصل الواحد من فصول كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) ثم تتضافر نتائج الفصول مشكلة حلقة متشابكة تمثل الغاية الكبرى من تأليف هذا الكتاب⁽²⁾.

3-1 السلم الحجاجي الكلي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد:

حارب الكواكبي السلطة العثمانية المستبدة من خلال كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) متخذاً في ذلك نهج الغموض والتلميح لتبليغ مقاصده؛ فالسلطان عبد الحميد الثاني لا يقبل رأياً معارضاً لسياسته، وهذا ما دفع به إلى "انتهاج خط معارض بطريقة غير مباشرة، غايتها النصح الاجتماعي والتوجيه السياسي، حتى يرفع عن نفسه حرج المواجهة المباشرة"⁽³⁾ وهذا ما تمّ عرضه في مقدمة الكتاب إذ يقول: "أنا لا أقصد في مباحثي ظالماً بعينه ولا حكومة أو أمة مخصصة، وإنما أردت بيان طبائع الاستبداد وما يفعل وتشخيص مصارع الاستعباد وما يقضيه ويمضيه على ذويه"⁽⁴⁾. وكانت عُدته في ذلك مجموعة من الحجج على اختلاف أنواعها (الحجج شبه المنطقية، الحجج المؤسسة على بنية الواقع، والحجج المؤسسة لبنية الواقع) التي جاءت متسلسلة في كل فصول الكتاب لتوجيه المخاطب إلى النتيجة المقصودة. ويمكن تمثيل الرسم الحجاجي الكلي العام المهيكل لكتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) على النحو الآتي⁽⁵⁾:

(1) حمو النقاري، التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ص 59.

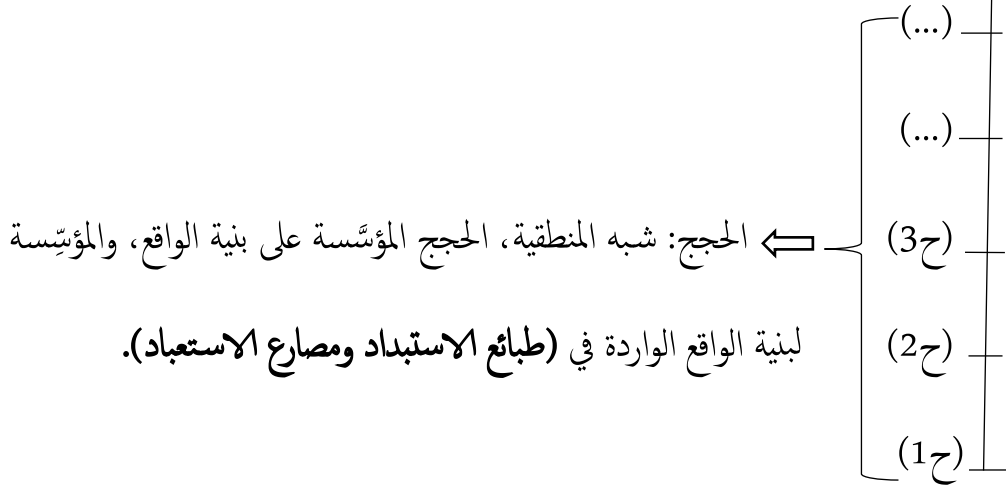
(2) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 145.

(3) المرجع نفسه، ص 145.

(4) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 19.

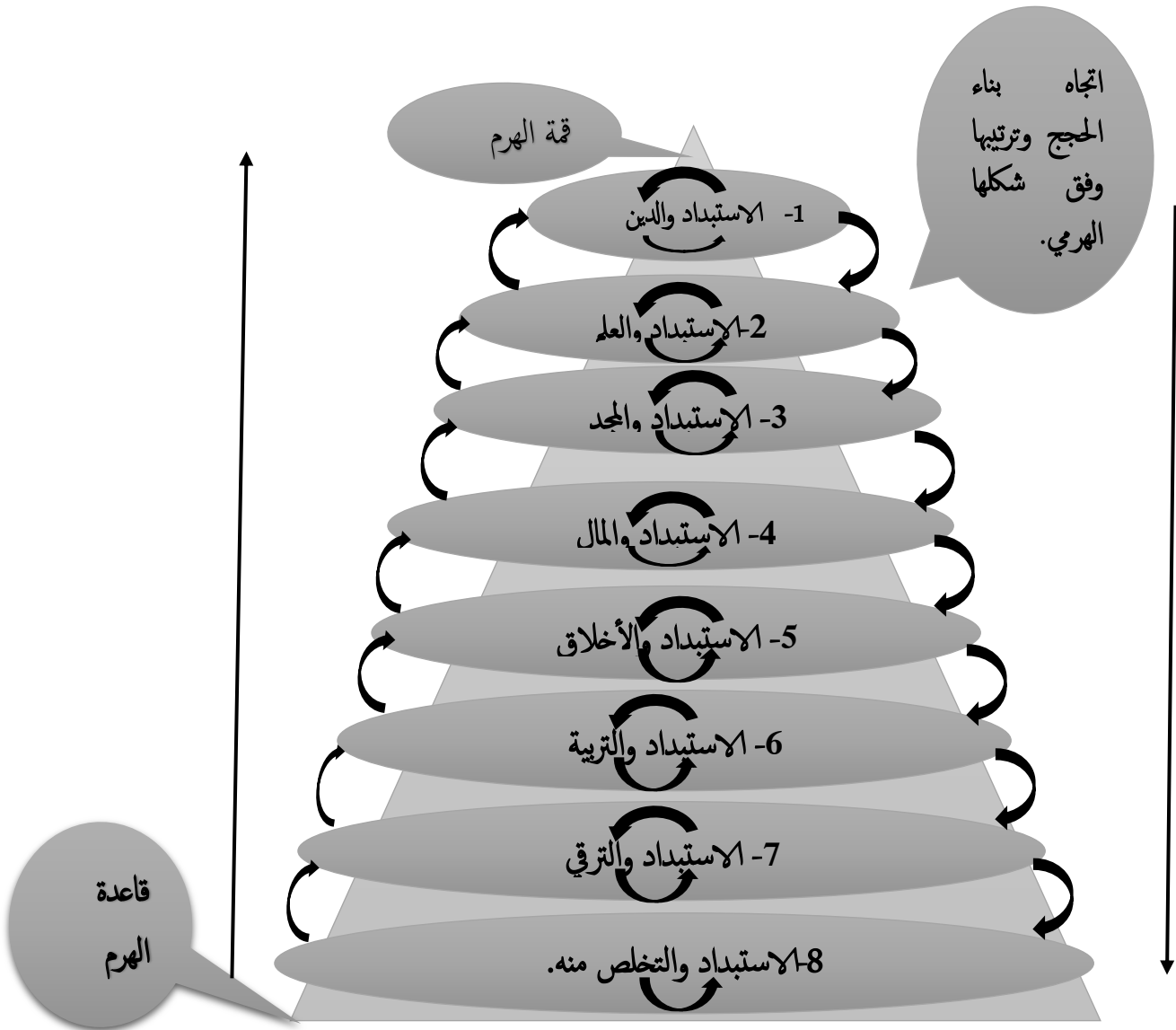
(5) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 146.

(ن) النتيجة: كيفية التخلّص من الاستبداد.



فالحجج (ح1، ح2، ح3، ...) سطرها الكواكبي في سلم حجاجي كلّ عام يتجه لخدمة النتيجة (ن) كما هو موضح أعلاه، واتجاه الحجج قد يكون تصاعديا أو تنازليا تبعا لطبيعة الحجج، وترتيبها من حيث القوة والضعف؛ أو من حيث الأهم فالمهم لأن هذه الحجج ليست على درجة واحدة، بل تتفاوت فيما بينها. والجدير بالإلماع أنّ مختلف أنواع الحجج الواردة في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) تتنوع وتستقل بدورها من فصل إلى فصل آخر لتشكّل موضوع الفصل الواحد ويصبح لكل فصل منها جزء في بناء النتيجة العامة للحجاج المتبع في الكتاب والمجسدة لفكر الكواكبي. وترتيب الفصول في هذا الكتاب خاضع لمقاصد الكواكبي، فقد انتظمت هذه الفصول في شكل هرم ينتقل فيه الحجاج من الأعلى إلى الأسفل لقناعة الكواكبي أن التخلّص من مختلف أشكال الاستبداد السياسي لا بد أن يأتي من أعلى الهرم نحو أسفله وقد يكون من الأسفل إلى الأعلى، ويمكن تصوّر هذه الرؤية الهرمية وفق الشكل الآتي⁽¹⁾:

⁽¹⁾ ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 148.



مخطط رقم 27 يمثل التصور الهرمي الذي انتظمت عليه فصول كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.

مفتاح المخطط

تمثل الدائرة فصلا من فصول كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.

يرمز السهم الموجود داخل الدائرة إلى تأثير الاستبداد على مجال من المجالات (الدين، العلم، المجد، الأخلاق، التربية، الترقي).

يرمز السهم الموجود داخل الدائرة إلى انعكاس تأثير مجال من المجالات (الدين، العلم...) على الاستبداد.

↑↓ اتجاه بناء الحجج وترتيبها وفق شكلها الهرمي. ↻ يشير إلى تداخل الفصول.

(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، وتصبح كل دائرة نواة لتشكيل دائرة فصل تال لها؛ ودليل ذلك ما يعرضه الكواكبي عند نهاية كل فصل، وبداية الفصل التالي له.

فقد آتمَّ الفصل الأول (الاستبداد والدين) بقوله⁽¹⁾: " فلا بُدَّ أن يأتي يوم يكشف العلم فيه أن الجمادات أيضا تنمو باللحاق كما تشير إلى ذلك آية ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾⁽²⁾. وهذا تمهيد لما هو آت في الفصل الثاني من فصول كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) المعنون بـ (الاستبداد والعلم)؛ إذ بين فيه تأثير الاستبداد على العلم فليس من صالح المستبدين أن تنتور الرعيّة بالعلم حيث قال: " إن العلم لا يناسب صغار المستبدين أيضا كخدمة الأديان المتكبرين وكالآباء الجهلاء، والأزواج الحمقى وكروساء كل الجمعيات الضعيفة والحاصل: أنه ما انتشر نور العلم في أمة قط إلا وتكسرت فيها قيود الأسر وساء مصير المستبدين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين"⁽³⁾؛ بمعنى أن العلم لا يناسب مصالح المتمجدين.

وهذا يهيئ للدخول في الفصل الثالث الموسوم بـ (الاستبداد والمجد) فيستهله بربط ما فات بما هو آت إذ يقول " من الحكم البالغة للمتأخرين قولهم الاستبداد أصل لكل فساد، ومبنى ذلك أن الباحث المدقق في أحوال البشر وطبائع الاجتماع كشف أن للاستبداد أثر سيئ في كل واد، وقد سبق أن الاستبداد يضغط على العقل فيفسده، ويلعب بالدين فيفسده ويجارب العلم فيفسده، وإني الآن أبحث في أنه كيف يُغالب الاستبداد المجد فيفسده، ويقيم مقامه التمجيد"⁽⁴⁾.

ويحدث الأمر ذاته في بقية فصول كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)؛ ففي الفصل الثالث (فصل الاستبداد والمجد) يتكرر الأمر ذاته في نهاية الفصل؛ إذ يقول: " كما خلق رجال عهد الاستبداد فساقا فجارا مهالكهم الشهوات والمثالب"⁽⁵⁾. وهو بهذا يمهّد لفصل (الاستبداد والمال)، ويختمه هو الآخر بقوله: "إن الاستبداد داء أشد وطأة من الوباء، أكثر هولاً من الحريق، أعظم تخريباً من السيل، أذلُّ للنفس من السؤال"⁽⁶⁾ وهو في الوقت نفسه توطئة للفصل الموالي (الاستبداد والأخلاق) حيث يبدأ الكواكبي بقوله: " أسير الاستبداد لا يملك ما لا غير معرّض للسلب ولا شرفاً غير معرّض للإهانة. ولا يملك الجاهل منه أمالا

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 50.

(2) سورة الناريات، الآية 49.

(3) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 58.

(4) المصدر نفسه، ص 59.

(5) المصدر نفسه، ص 74.

(6) المصدر نفسه، ص 90.

مستقبلة ليتها ويشقى كما يشقى العاقل في سبيلها، وهذه الحال تجعل الأسير لا يذوق في الكون لذة نعيم غير بعض الملمات البهيمية⁽¹⁾ ليربط سابقا بما هو لاحق من الفصول.

وعلى هذه الشاكلة رتب الكواكبي فصول كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد). فكل فصل ممد لما يليه، وهكذا دواليك حتى يصبح قاعدة بنائية لحجاج عام في هذا الكتاب⁽²⁾، وتفصيل السلم الحجاجي العام المهيكل لكتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) في صورته الموسعة كالآتي:

ن ← النتيجة العامة لكتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد): التلخص من الاستبداد.

ح7 ← الاستبداد والترقي.

ح6 ← الاستبداد والتربية.

ح5 ← الاستبداد والأخلاق.

ح4 ← الاستبداد والمال.

ح3 ← فصل الاستبداد والمجد.

ح2 ← فصل الاستبداد والعلم.

ح1 ← فصل الاستبداد والدين.

إن هذه الحجج ليست على درجة واحدة، وإنما تتفاوت فيما بينها، وكل قول يرد في السلم الحجاجي يلزم عنه ما يقع تحته؛ بمعنى أن (ح7) يلزم عنها (ح6) ويلزم عنها (ح5) ... هذا من جهة ومن جهة أخرى نلاحظ أن القول الذي يعلوه أقوى منه في التدليل على النتيجة فمثلا (ح7) تمتلك قوى حجاجية أعلى وأقوى مما هو تحتها من الحجج.

السؤال الذي يطرح نفسه هاهنا ما هو الأساس الذي رتب عليه الكواكبي السلم الحجاجي الموسع لكتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)؟ أو بصيغة أخرى لماذا قدم (ح1) على (ح2) على (ح3) وعلى (ح4) ...؟ للإجابة عن هذا السؤال نستعين بالأيقونة الموجودة في مفتاح المخطط الهرمي أعلاه:

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 91.

(2) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 149.

يرمز السهم الموجود داخل الدائرة إلى تأثير الاستبداد على مجال من المجالات (الدين، العلم

1ح 2ح

المجد، المال، الأخلاق، التربية، الترقى.

3ح 4ح 5ح 6ح 7ح

وتفسير ترتيب حجج كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وفق هذه الشاكلة في الآتي:

استهل الكواكبي فصول كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) بال**الحجة الأولى** المتمثلة في تأثير **الاستبداد على الدين** مبينا العلاقة النفعية المتبادلة غير الشريفة بين الاستبداد الديني والسياسي، فما من مستبد سياسي إلا وتجده يتسريل بالدين "ليتخذ له صفة قدسيّة يشارك بها الله، أو تعطيه مقام ذي علاقة مع الله ولا أقل من أن يتخذ بطانة من خدمة الدين يعينونه على ظلم الناس باسم الله"⁽¹⁾ وما يلائم مصلحته ويؤيدها "أنّ الناس يتلقون قواعده وأحكامه بإذعان بدون بحث أو جدال"⁽²⁾ فيود تأليف الأمة على تلقي أوامره على شيء من قواعد الدين.

فبعد أن يرضي على سلطانه الصبغة الشرعية الدينية، يتجه في **الحجة الثانية** لإحكام قبضته على العلم ومحاصرة العلماء الراشدين وتشديد الخناق عليهم حتى لا ينيروا عقول الرعيّة مستبدلا إياهم بالعلماء المنافقين "الذين حفر رؤوسهم محفوظات كثيرة كأنّها مكتبات مقفلة"⁽³⁾؛ فيستخدمهم في تأييد أمره ومجاراته هواه لجعل الرعيّة تتخبط في ظلام الجهل حتى يتمكن من بسط سلطانه، ولن يتأتى له ذلك إلا بمغالبة **المجد** وإقامة **التمجد** مكانه؛ فيحرص على إيجاد المتجدين والإكثار منهم لنصرته على "تغليط أفكار الناس في حقّ المستبد وإبعادهم عن اعتقاد أنّ من شأنه الظلم"⁽⁴⁾، وهذا ما بسطه في **الحجة الثالثة** والتي استلزمت **الحجة الرابعة** لأن القيام بهذه العملية يحتاج إلى **المال** لإغداقه على المتجدين فيستعمله لإفساد الأخلاق؛ لأن إفراط "الثروة مملكة للأخلاق الحميدة في الإنسان"⁽⁵⁾ الذي لا يهيمه إلا عاجل الاكتساب، فلا يفرق حلاله من حرامه، وهذا من شأنه أن يجره إلى مسالك تُسقط من قيمته وتجعله يأكل ما بيد أخيه الإنسان ظلما وتعسفاً غير سائل على منازعة أخلاقه وضميره.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 35.

(2) المصدر نفسه، ص 36.

(3) المصدر نفسه، ص 53.

(4) المصدر نفسه، ص 63.

(5) المصدر نفسه، ص 84.

وهذا ما فصله في **الحجة الخامسة** مبينا تأثير الاستبداد على الأخلاق الذي يقلب الحقائق في الأذهان حتى يعتقد الناس "أن طالب الحق فاجر، وتارك حقه مطيع، والمشتكي المتظلم مفسد، والنبية المدقق ملحد والخامل المسكين صالح أمين، وقد اتبع الناس الاستبداد في تسميته النصح فضولا، والغيرة عداوة، والشهامة عتوا، والحمية حماقة، والرحمة مرضا، كما جاروه على اعتبار أن التفاق سياسة، والتحليل كياسة، والدناءة لطف، والندالة دماثة"⁽¹⁾.

وهذا ما ترتب عنه استنتاج تجلي في **الحجة السادسة** وفحواه أن فساد الأخلاق إن دلّ على شيء فهو يدل على غياب التربية السوية التي "هي ضالة الأمم، وفقدتها هي المصيبة العظيمة التي هي المسألة الاجتماعية، حيث الإنسان يكون إنسانا بتربيته وكما يكون الآباء يكون الأبناء، وكما تكون الأفراد تكون الأمة"⁽²⁾ وبالتالي يستحيل بلوغ درجة الترقى إذ انحطت أفراد الأمة في التربية التي طعمها الاستبداد بالخصال الملعونة؛ لأننا إذ رأينا "أثار حركة الترقى هي الغالبة على أفرادها، حكمنا لها بالحياة، ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت"⁽³⁾ فكما تكون الأفراد تكون الهيئة الاجتماعية، لهذا فالاستبداد يقلب سير الأفراد "من الترقى إلى الانحطاط، ومن التقدم إلى التأخر، من النماء إلى الفناء"⁽⁴⁾، وبذلك يحول الميل الطبيعي للهيئة الاجتماعية من طلب الترقى إلى طلب التسفل وبالتالي يترسخ الانحطاط في الأفراد فيستحيل بلوغ درجة ترقى الهيئة الاجتماعية "لأن حالة الفرد الواحد من الأمة تؤثر في مجموع تلك الأمة"⁽⁵⁾، فيصير الاستبداد كالعلق* الذي يمتص دم الأمة ويستحيل التخلص منه؛ لأن كل شيء قد تحول إلى تسفل وانحطاط.

كما يمكن أن نقدم لهذا الترتيب قراءة عكسية انطلاقا من المنطق الجدلي الذي سار وفقه الكواكبي فكل أطروحة تؤدي إلى نقيضها، وكل فكرة تحمل في ذاتها بذور فنائها؛ فالاستبداد مهما حرص على السيطرة وتصميم أنظمتها ومؤسساته على استعباد البشرية، فإنه لا يصمد طويلا، ولا يخلو من ثغرات يجب أن تستفيد منها الثورة، فالاستبداد يحمل في نظامه بذور فنائه، ولتحليل هذه الرؤية نعتمد على الأيقونة الآتية:

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 93.


(2) المصدر نفسه، ص 121.

(3) المصدر نفسه، ص 123.

(4) المصدر نفسه، ص 124.

(5) المصدر نفسه، ص 123.

* دويذة سوداء تمتص الدم تعيش في الماء الآسن، والعلق جمع مفردة علقة، ينظر: عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم وتحقيق محمد عمارة، ص 104.

يرمز السهم الموجود داخل الدائرة  إلى انعكاس تأثير مجال من المجالات (الدين، العلم، المجد...) على الاستبداد.

الدين الإسلامي أقوى الأديان وأصحها في هذه المعمورة، فلو طبقنا التعاليم الإسلامية الحقة الظاهر فيها آثار الرقي على غيرها من سوابقها لاستحالة الاستبداد؛ لأنها مؤسسة على "أصول الحزبية برفعها كل سيطرة وتحكم، بأمرها بالعدل والمساواة والقسط والإخاء... وقد جعلت أصول حكومتها الشورى" (1) فرجع بذلك الإصر والأغلال وأباد الميزة والاستبداد وجعل الناس سواسية فلا سيادة ولا عبودية في الإسلام ولا ولاية فيه ولا خضوع، إنما المؤمنون بعضهم أولياء بعض.

وبهذا ينعكس تأثير الدين الحق على الاستبداد فيؤدي إلى فنائه على يد علماء مصلحين ثائرين مسلحين بقناعاتهم التي تنبع من علمهم المبني على الأصول الإسلامية والمقترن بعملهم الصادق، - من أمثال جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، عبد الرحمان الكواكبي، ابن باديس - فيبادرون لإرشاد عقول الرعية وتوعيتها لسد منابع الفساد التي أحدثتها مخلفات الاستبداد (الجهل، الخوف، الاستسلام)، فولدوا بذلك في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة.

مما ترتب عنه نبوغ أفراد **يفضلون المجد على الحياة** "فيشترتون السعادة بشقائهم والحياة بموتهم حيث يكون الله جعل في ذلك لنتهم، ولمثل تلك الشهادة الشريفة خلقهم" (2) في سبيل نصره الحق، حفظ النظام ولكسر شوكة الاستبداد بمختلف تلويناته، كالوقوف في وجه **الاستبداد المالي** ورفع مظالمه بتطبيق ما نصت عليه الإسلامية من فرض للزكاة لمنع تراكم الثروات المفرطة المولدة للاستبداد، والمضرة بأخلاق الأفراد، كما قررت أحكام محكمة تمنع محذور التواكل في الارتزاق، وتلزم كل فرد من الأمة متى اشتد ساعده، أو ملك قوت يومه أن يسعى لرزقه بنفسه، وترك الأراضي الزراعية ملكا لعامة الأمة، يستنبتها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها وليس عليهم غير العشر أو الخراج الذي لا يجوز أن يتجاوز الخمس لبيت المال (3)

وهذا إن دل على شيء فهو يدل على **دمائة أخلاق الناس وقضائهم على الاستبداد العايب بها** وامتلاك إرادتهم، حريتهم في أفكارهم واختيارهم في أعماله وكسب رزقهم بأنفسهم، ونهيمهم عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ وهكذا يلقي الاستبداد حثفه على يد الأخلاق التي تعكس مدى جودة التربية الصالحة القائمة على إعداد العقل للتمييز، ثم على حسن التفهيم والإقناع، ثم على تقوية الهمة والعزيمة، ... ثم على حسن القدوة والمثال ثم على المواظبة والإلتقان

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 43.

(2) المصدر نفسه، ص 74.

(3) ينظر: المصدر نفسه، ص 81.

وتكبير الوجدان عن نصرة الباطل، ورعاية التوفير في الوقت والمال، والاندفاع بالكليّة لحفظ الحقوق، ولحماية الدين، لحماية الناموس، ولحب الوطن، ولحب العائلة، ولإعانة الضعيف، ولاحتقار الظالمين،... على غير ذلك مما لا ينبت إلا في أرض العدل، تحت سماء الحرية في رياض التريتين العائلية والقومية⁽¹⁾.

وعليه تنزع التربية المانع الضاغط على العقول فتترقى أفراد الأمة في كل المجالات الحيوية (الجسم، العلم والمال، الترتي في النفس بالخصال والمفاخر، الترتي بالعائلة استئناسا وتعاوناً، الترتي بالعشيرة تناصراً عند الطوارئ الترقية بالإنسانية) فيتغلب الترتي على الانحطاط وبالتالي يقضي الاستبداد نخبه، ولم يكنف الكواكبي بالتفصيل في أنواع الترتي بل صور الرقي والانحطاط في النفس برسم خطب مثالية لشحن الهمم ولإرشاد الأفراد إلى أنهم خلقوا لغير ما هم عليه من الصبر على الدّل والسفالة، فيذكّرهم ويحرّك قلوبهم ويناجيهم، بغية تخطي أسباب الفتور واستئصالها بابتكار نتيجة الدواء الناجح الذي تجسد في مباحث رسم من خلالها خطوات للتخلص من محنة الاستبداد.

2-3 السلام الحجاجية الجزئية في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد):

لاحظنا فيما سبق تداخل فصول كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) "مشكلة حلقة متشابكة من النتائج الحجاجية الجزئية، التي تفضي إلى نتيجة حجاجية كلية وعامة هي مقصد الكتاب"⁽²⁾ غير أن الملاحظ تفرع الفصول إلى حجج تحدم موضوع الفصل الواحد، وعلى منوال ما تهيكلت به فصول الكتاب مجتمعة لتشكّل البنية الحجاجية العامة لكتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، تهيكلت أنواع الحجج في الفصل الواحد مجتمعة لتشكّل البنية الحجاجية العامة لذلك الفصل من فصول كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) بمعنى أن الكتاب تشكل من فصول، وكل فصل تشكل من حجج، ومثلما تضافرت الفصول فيما بينها لتبرز مقصد الكتاب، تضافرت الحجج وفق تراتبية معينة لتبرز مقصد الفصل الواحد⁽³⁾.

من هذا المنطلق سنختار فصل (الاستبداد والعلم) كنموذج من كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) لاستكشاف سلمه الحجاجي من خلال تضافر الحجج المكوّنة له؛ لأنّ البنية نفسها يعاد تشكيلها في نسق واحد في بقية الفصول وإن اختلفت موضوعاتها. مع العلم أنّ السلم الحجاجي لكل فصل هو سلم حجاجي عام إذا ما قيس بمحتوياته من الحجج، وهو في الوقت ذاته سلم حجاجي جزئي إذا ما قيس بمحتوى

(1) ينظر: عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 114، 121، 122.

(2) حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 151.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 151.

كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) ⁽¹⁾ وهذا ما دفعنا إلى محاولة رصد تتابع الحجج وتصاعدها في سلم حجاجي واحد وتقصي طبيعته، وتفصيل ذلك في السلم الحجاجي الجزئي الآتي:

السلم الحجاجي الجزئي لفصل (الاستبداد والعلم):

يورد هذا الفصل الصراع الدائم بين الاستبداد والعلم؛ إذ يسعى العلماء في تنوير العقول ونشر الحرية ويجتهد المستبد في إطفاء نور العلم وتفريغه من محتواه والتنكيل برجاله، والهاء الناس بتوافه الأمور ببث الخوف والجهل، وكلاً الطرفين يتجاذبان العوام؛ فهم قوة المستبد إذا أفلتوا منه بالعلم خسر كل شيء وقد سعى الكواكبي من خلال هذا الفصل إقناع الرعية بأهمية العلم الذي حث عليه الإسلام؛ لأنهم حين يتعلمون يفهمون حقيقة الحرية والعزة والشرف، فلا سبيل إلى العبودية وما " انتشر نور العلم في أمة قطّ إلا وتكسّرت فيها قيود الأسر وساء مصير المستبدين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين" ⁽²⁾.

ولغاية الوصول إلى هذه النتيجة الحجاجية في هذا الفصل، وظّف الكواكبي مجموعة من الحجج لدعم مقاصده، وما يميز هذه الحجج تداخلها فيما بينها، فكل حجة تعتبر بمثابة مقدمة لحجة تالية لها، وتصبح كل نتيجة جزئية ونقيضها مقدمة وحجة لنتيجة جزئية جديدة، فتتضافر مجموع هذه النتائج الجزئية ليشكّل الفصل الواحد من فصول كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) والرابط بينها هو أسلوب الوصف الإخبار، السرد. وهذا ما سنتقصى طبيعته في نموذج الفصل المختار (الاستبداد والعلم).

وعند تحديد سلم الحجاج في فصل (الاستبداد والعلم) ينعكس اتجاه سير الحجج، لتصبح الحجة الأولى قاعدة حجاجية في أسفل السلم، تتبعها الحجج التالية لها ⁽³⁾ وفق هذا التصور:

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كتيبة ودمنة لابن المقفع، ص 151.

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 58.

(3) ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كتيبة ودمنة لابن المقفع، ص 152.

- ن ← النتيجة: والحاصل أنه ما انتشر نور العلم في أمة قطّ إلا وتكسّرت فيها قيود الأسر
وساء مصير المستبدين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين.
- ح6 ← فضل الإسلامية في الحِصّ على العلم واستهانة الاستبداد به.
- ح5 ← علاقة الاستبداد والعلم بالرعية.
- ح4 ← علاقة المستبد بالعلوم.
- ح3 ← تمثيل العلم بالنور.
- ح2 ← تعدد تمثيل المستبد تارة بالطائر وتارة بآبن أوى (تشابه علاقة).
- ح1 ← تمثيل المستبد بالوصي الخائن (علاقة تشابه وليست تشابه علاقة).

التداخل بين الحجج لم يتوقف عند هذا الحد وإنما تعدى الأمر إلى الحجّة نفسها، فيشكل محتواها سلماً حججياً جزئياً، لغاية نتيجة حجاجة صغرى، تتضافر مع بقية النتائج الصغرى لكل الحجج، لتشكل السلم الحجاجي للفصل الواحد⁽¹⁾.

وفيا سيأتي سنعرض محتوى كل حجة، وسلّمها الحجاجي التي تشكّلت منه، وفق ترتيب الحجج في فصل (الاستبداد والعلم):

ح1: تمثيل المستبد بالوصي الخائن:

يسعى الكواكبي من خلال حجة تمثيل المستبد بالوصي الخائن إلى إبراز علاقة التشابه بينهما في الخيانة وانتهاك الأمانة وسلب الحقوق مادام كل من اليتيم والرعية جاهلة وغير واعية، ومقصده من هذا التنبيه توجيه

⁽¹⁾ ينظر: حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 154.

الرعية إلى ضرورة السعي في طلب العلم ليكون عوناً لهم في التخلص من الاستبعاد الذي يذكيه الجهل والضعف قوة.

ومن خلال هذه الدعوى الحجاجية يرتسم السلم الحجاجي الجزئي لهذا التمثيل وفق الآتي:
ن النتيجة: الاستبعاد والاعتساف يكون نتيجة الجهل والضعف الذي يمكن كل من الوصي والمستبد من نهب الحقوق.

- ح4 ليس من غرض المستبد أن تنور الرعية بالعلم.
- ح3 فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم.
- ح2 يتصرف في أموال الأيتام وأنفسهم كما يهوى ما داموا ضعافاً قاصرين.
- ح1 ما أشبه المستبد في نسبته إلى رعيته بالوصي الخائن القوي.

إن قبولنا للحجاج الوارد في هذا التمثيل والموضح في السلم الحجاجي يستلزم حصول نتيجة الاستبعاد والاعتساف على الرعية الجاهلة، يحتم علينا قبول تقيضها والتمثلة في عدم حصول الاستبعاد والاعتساف على الرعية المتنورة بالعلم، لتصبح كل من النتيجة الحجاجية وتقيضها، "حجة في ذاتها لدعوى حجاجية جزئية جديدة"⁽¹⁾. وهذا ما سنحاول توضيحه في الحجة الآتية:

ح2: تمثيل المستبد

لم يكن الكواكبي بالدعوى والدعوى النقيض المستخلصتين من تمثيل المستبد بالوصي الخائن والواصفة لحاله مع رعيته، وإنما ضرب تمثيلاً آخرًا متعددًا للمستبد فمثله تارة بطائر الخفاش وتارة أخرى بآوى ليدفع بالمخاطب إلى استنتاج تشابه العلاقة بين هذه العوالم المختلفة والتي تكمن في الإطاحة بالمتربص به في ظلمات الجهل، ممهدًا لهذا التمثيل بمقدمة هي دعوى لنتيجة جزئية سابقة ليؤسس لدعوى حجاجية جزئية جديدة وتفصيل ذلك على هذا النحو:

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 156.

- ن النتيجة: المستبد قنص مكر يترص برعيته في ظلمات الجهل.
- ح3 ولو كان وحشا لكان ابن أوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل.
- ح2 فلو كان المستبد طيرا لكان خفاشا يصطاد هوام العوام في ظلام الجهل.
- ح1 لا يخفى على المستبد، مهما كان غيبا، أن لا استعباد ولا اعتساف إلا مادامت الرعية حمقاء تخبط في ظلامه جهل وتيه عماء.

يورد الكواكبي في هذا التمثيل حججا متساندة لتخدم نتيجة واحدة؛ ألا وهي المستبد قنص مكر يترص برعيته في ظلمات الجهل، "فعندما ينتمي معنى جملتين أو أكثر إلى الحقل الاستدلالي الحجاجي نفسه يعني ذلك أنهما يسعيان إلى نتيجة واحدة"⁽¹⁾، وحينها تسير الحجج في اتجاه حجاجي واحد ولكن تتفاضل فيما بينها قوة وضعفا فيختار المتكلم "الدليل الأنسب، وفي هذه الحالة تتعين معنا القوة الاستدلالية المعينة"⁽²⁾.

إذا تأملنا السلم الحجاجي نجد أن الحجة الأقوى فيه هي: الوحش ابن أوى يتلقف دواجن الحواضر في غشاء الليل، وقد رتب الكواكبي في أعلى درجات السلم لآتصافه بالحيلة والمكر والخداع، للتدليل على النتيجة والمتمثلة في أن المستبد لا يخرج عن كونه قنص مكر يترص برعيته في ظلمات الجهل.

وعليه فالكواكبي يهدف إلى إقناع المتلقي (الرعية) بهذه النتيجة، فمصيها تريض المستبد بها واستعبادها طالما أنها لا تنفض غبار الجهل عنها، فقبولنا لهذه النتيجة يحتم علينا قبول نقيضها والمتمثل في عدم تريض المستبد بالرعية المتنورة بالعلم.

ح3: تمثيل العلم بالنور:

يبرز هذا التمثيل المخرج الذي تستطيع به الرعية التغلب على مكر المستبد؛ وذلك حين تسعى إلى التنور بالعلم، لأن من شأنه تبديد الجهل، فالعلم مركز قوة وضعف لكل سلطة مستبدة؛ فكلما ازدادت الرعية علما كلما ضعفت السلطة المستبدة، وكلما نقص علما كلما ازدادت السلطة المستبدة قوة، ويتشكل السلم الحجاجي لهذا التمثيل وفق الآتي:

(1) رضوان الرقي، الاستدلال الحجاجي التداولي، ص 97.

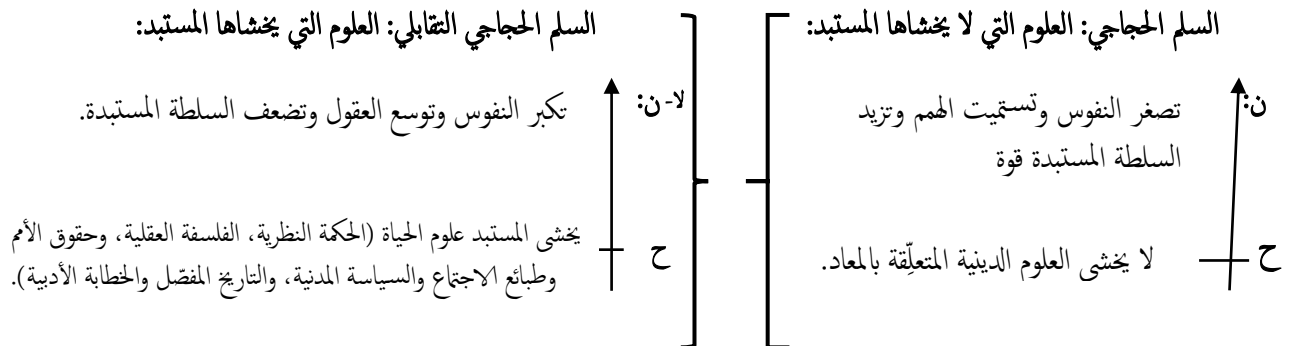
(2) المرجع نفسه، ص 97.

- ن النتيجة: تتغلب الرعية على مكر المستبد بالعلم الذي يعتبر مركز قوة وضعف لكل سلطة مستبدة.
- ح4 من طبيعة العلم والنور تبديد الظلام.
- ح3 جعل العلم مثله وضاحا للخير فصّاحا للشرّ يولّد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة.
- ح2 خلق الله النور كشافا ومبصرا ولادا للحرارة.
- ح1 العلم قبسة من نور الله.

تتصاعد الأقوال في حجة تمثيل العلم بالنور وتشتغل بشكل تساندي لتبيّن فضل العلم على الرعية في التغلب على مكر المستبد، وهذا من أجل دفع المتلقي (الرعية) إلى التور بالعلم الذي يزيد قوة للتغلب على مكر المستبد وهذه النتيجة تدفع الطرف الآخر (المستبد) إلى محاربة العلوم التي من شأنها إضعاف سلطته وتغليب الرعية عليه.

ح4: علاقة المستبد بالعلوم:

عمد الكواكبي في هذه الحجة إلى تبيان العلوم التي من شأنها تقوية وإضعاف السلطة المستبدة، لتداخل هذه الحجة مع سابقتها، إذ إنه يتقصى طبيعة العلوم الملائمة وغير الملائمة لحكم المستبد. وتبعا لهذا يتشكل تقابلا السلم الحجاجي المتولد من التعارض الحجاجي الموجود بين العلوم التي لا يخشاها المستبد وبين العلوم التي يخشاها. ففي السلم الحجاجي " قد تكون الحجج الواردة في الملفوظ لا تتجه لإسناد نفس النتيجة وإنما تتساند كل حجة نتيجة معارضة للنتيجة التي تساندها الحجّة الأخرى"⁽¹⁾؛ ولهذا لا يمكن وضع الحجج في مجموعة تدليلية - فئة حجاجية- واحدة بل في فئتين حجاجيتين حيث تحدّد كل فئة بنتيجتها المشتركة، ويمكن تمثيل السلم الحجاجي لهذه الحجة وفق الآتي:



(1) رشيد الرازي، الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 784.

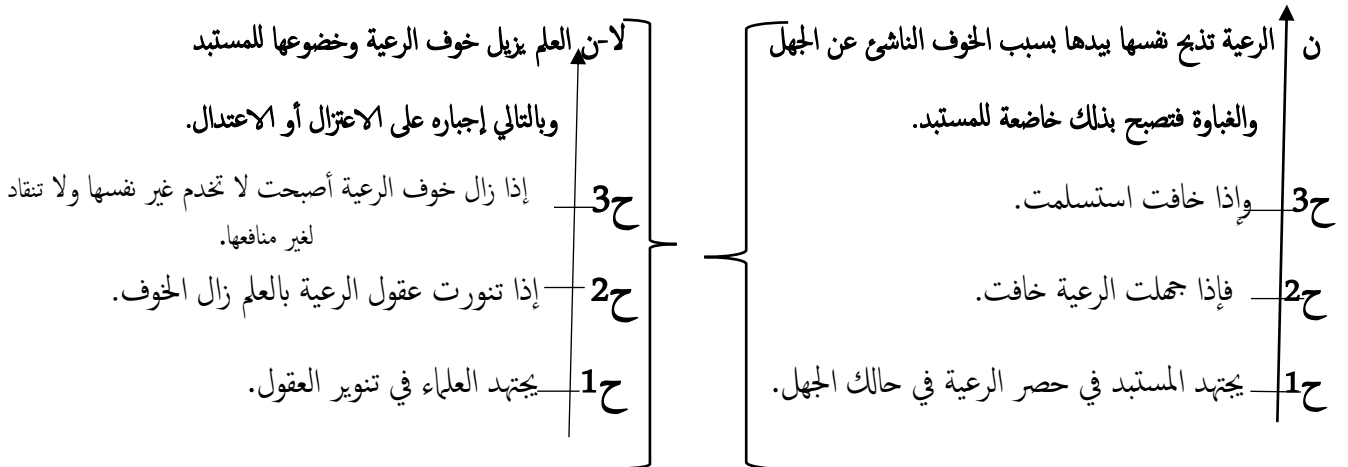
نلاحظ من خلال هذين السلمين الحجاجين أن الكواكبي يذكر التّيجتين المتعارضتين عن قصد حتى يمنح المخاطب حرية اختيار النتيجة ولا يفرض عليه النتيجة فرضاً لأنّ الحجاج "معقولية وحرية فهو حوار من أجل حصول الوفاق بين الأطراف المتحاورّة ومن أجل حصول التّسليم برأي الآخر بعيداً عن الاعتباطية واللامعقول وبعيداً عن الإلزام والاضطرار"⁽¹⁾ في اختيار العلوم التي مهمتها إما توليد الغباوة أو الإيقاظ من السبات الدوغمائي إذ كانت مبنية على الحكمة والعقل، وبناء على اختياره سيتحمّل النتائج المترتبة عليها؛ العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد التي يروج لها علماء الاستبداد المنافقين وما ينبج عنها من تصغير للنفس. علوم الحياة التي يبثها العلماء الراشدون وما ينبج عنها من تكبير للنفس وتوسيع للعقول. والرعية العاقلة تبدأ العمل مباشرة في تحصيل العلوم التي من شأنها إضعاف السلطة المستبدة لكسر قيود الاستبداد.

ح5: علاقة الاستبداد والعلم بالرعية:

جاء الكواكبي بهذه الحجة ليبين عطفاً على ما سبق الصراع القائم بين الاستبداد والعلم؛ فالسلطة المستبدة تحارب العلوم التي توسع عقول الرعية بنشر الجهل والتخويف ومطاردة العلماء بكل ما أوتيت من قوة، فنحن نعلم أن لكل فعل ردة فعل يساويه في الشدة ويعاكسه في الاتجاه، وهذا ما سنسعى إلى تبيانها من خلال إبراز السياسة التي ينتهجها كل من المستبد والعلماء مع الرعية وهذا ما سنوضحه في السلم الحجاجي الآتي:

السلم الحجاجي: علاقة المستبد بالرعية

السلم الحجاجي التّقابلي: علاقة العلماء بالرعية



(1) عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة لبرلمان وتينكا ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، ص 298.

نلمح من خلال هذين السلمين الحجاجين أن الكواكبي أراد إقناع الرعية بفضل العلم والعلماء في تنويرهم وتحريرهم من قيود الخضوع على خلاف المستبد الذي يعمل على تجهيلها حتى تبقى منقادة له، لأنهم إذا أفلتوا منه بالعلم خسر كل شيء؛ وهذا ما حدا به لإبراز الفرق بين السياسة التي ينتهجها كل من المستبد والعلماء مع الرعية بعدة حجج على الشكل الآتي:

- تبقى الرعية خاضعة للمستبد إذ انحصرت في حالك الجهل، وتتحرر من قيود الاستبداد إذا اجتهد العلماء في تنويرها بالعلم.
 - الخضوع يكون نتيجة الجهل الذي يولد الخوف، والتحرر يكون نتيجة العلم الذي يؤدي إلى زوال الخوف.
 - الخوف يؤدي إلى الاستسلام والخنوع، وزوال الخوف يدفع الرعية إلى التحرر والمطالبة بالحقوق.
- وبالتالي كل هذه الحجج المتعارضة تحاول إقناع الرعية بنتيجة السعي لتحصيل العلم الذي ينقلها من ثقافة الاستعباد والخنوع إلى ثقافة التحرر من الخوف والمطالبة بالحقوق.

ح6: فضل الإسلامية في الحِص على العلم واستهانة الاستبداد به:

لم يكتف الكواكبي بدعوى السعي لتحصيل العلم الذي ينقل الرعية من ثقافة الاستعباد والخنوع إلى ثقافة التحرر من الخوف والمطالبة بالحقوق، وإنما أكد على فضل الإسلامية في الحِص على العلم، فهو "أول كلمة أنزلت من القرآن، وأول مئة أجَّلها الله وامتَنَّ بها على الإنسان هي أنه علَّمه بالقلم. علَّمه به ما لم يعلم، وقد فهم السلف الأول من مغزى هذا الأمر وهذا الامتنان وجوب تعلُّم القراءة والكتابة... وبذلك صار العلم في الأمة حراً مباحاً للكُلِّ"⁽¹⁾. ولكن ليس من صالح المستبدين الغربيين والشرقيين أن ينتشر علم الإسلامية الذي يُعلِّم الناس أنَّ "الحرية أفضل من الحياة، وأن يعرفوا النفس وعزَّها، والشرف وعظمتها، والحقوق وكيف تُحفظ، والظلم وكيف يرفع، والإنسانية وما هي وظائفها، أو الرِّحمة وما هي لذاتها"⁽²⁾ كما أنهم ليس من صالحهم أن يعرفوا أن لا سيادة ولا عبودية في الإسلام وأنه لا يستحق الخضوع شيء غير الله، إنما المؤمنون بعضهم أولياء بعض، ولهذا كان المستبدون -ولازالوا- من أنصار الشرك وأعداء العلم.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 57.

(2) المصدر نفسه، ص 57.

لقد أراد الكواكبي من هذه الحجة (6) (دور الإسلامية في الحضّ على العلم واستهانة الاستبداد به) دعم النتيجة الجزئية السابقة والتي تتمثل في سعي الرعية لتحصيل العلم الذي ينقلها من ثقافة الاستعباد والخنوع إلى ثقافة التحرر من الخوف والمطالبة بالحقوق لتصبح مقدمة وحجة لنتيجة جزئية جديدة، - فبطبيعة الحال العلم الذي يبحث على رفع الظلم والمطالبة بالحقوق متضمن في الإسلامية- ويمكن رسم السلم الحجاجي الجزئي لهذه الحجة على هذا المنوال:

السلم الحجاجي: فضل الإسلامية في الحض على العلم وكسر قيود الأسر:
 ما انتشر علم الإسلامية في أمة قط إلا وتكسرت فيها قيود الأسر وساء مصير
 المستبدّين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين.

السلم الحجاجي التقابلي (التعاكسي): استهانة الاستبداد بعلم الإسلامية وإحلال الجهل
 محله لتوثيق قيود الأسر:

- لا-ن ما انتشر الجهل في أمة قط إلا وتوثقت فيها قيود الأسر واستحكم المستبدون
 من رؤساء سياسة أو رؤساء دين في حرية البشر.
- ح14 يقع الناس في الاستعباد والامه.
- ح13 جهل الناس وظائف الإنسانية.
- ح12 وقوع الناس في الظلم.
- ح11 جهل الناس كيفية المحافظة على حقوقها.
- ح10 استكانة الناس للمستبد وانحطاط كرامتهم.
- ح9 تدليل نفوس الناس.
- ح8 تعقيب الحقائق حتى جعلوا الناس ينسون أن الحرية أفضل من الحياة.
- ح7 انتشار الأمية في الأمة حتى رجعت إلى البدائية الأولى. (التقى أولها بآخرها)
- ح2 إلى ح6 الاستبداد رجع بالأمة إلى الأمية.
- ح1 سعي المستبد لمقاتلة العلم حتى جعله كالسلعة يعطى ويمنح للأमीين ولا يجزؤ
 أحد على الاعتراض والمطالبة بالحقوق.

- ح14 يعلم الناس الرحمة وما هي لثابتها.
- ح13 يعلم الناس الإنسانية وماهي وظائفها.
- ح12 يعلم الناس كيفية رفع الظلم.
- ح11 يعلم الناس كيفية المحافظة على الحقوق.
- ح10 يعلم الناس الشرف وعظمته.
- ح9 يعرف النفس وعزّها.
- ح8 يعلم الإسلام الناس حقيقة أن الحرية أفضل من الحياة.
- ح7 انتشار العلم في سائر الأمم أخذاً على المسلمين.
- ح6 وجوب تعلم وتعليم وتعميم القراءة والكتابة على كل مسلم.
- ح5 علمه به ما لم يعلم.
- ح4 أول مئة أجلها الله وامتن بها على الإنسان هي أنه علمه بالقلم.
- ح3 أول كلمة أنزلت من القرآن هي الأمر بالقراءة.
- ح2 هذا العلم متضمن في تعاليم الإسلامية فهو أول دين حص على العلم.
- ح1 سعي الرعية لتحصيل العلم -لما فيه من تحرير للناس من ثقافة الاستعباد
 والخنوع إلى ثقافة ترك الخوف والمطالبة بالحقوق-

الاستبداد بالعلم ح2.
 كل هذه الحجج تقابلها في السلم
 الحجاجي استهانة

الحجة ح2 تعارض الحجج من ح2 إلى ح6 في السلم الحجاجي فضل
 الإسلامية في الحض على العلم لأن الأمي لا يعرف القراءة والكتابة.

نلاحظ من خلال هذين السلمين الحجاجين أنّ الكواكبي أراد إقناع مخاطبه وسعى لإبراز فضل العلم الذي حصّت عليه الإسلامية في التأثير على الاستبداد؛ لما يتولد عنه من تفهيم الناس وتفقههم بقواعدها الداعية للحق والرافضة للظلم والموصلة إلى معرفة الله وإفراده بالألوهية وعدم الخضوع لسواه، وهدى لإنهاء عهد استعباد الإنسان للإنسان، كما بين التأثير التعاكسي للاستبداد على العلم إذ يسعى إلى مقاتلته وتحويله إلى جهل - وهو الأمر الذي يفسر لنا القابلية للاستبداد، إذ بدونه لن يكون هناك شأن للمستبد والاستبداد -

هذا السلم الحجاجي التقابلي يفضي إلى نتيجة إيجابية يتمناها كل إنسان أيّ عصيّ على كل من يريد النيل منه، ويوحى بنتيجة سلبية يخشاها كل حرّ أبرّ. وهذا ما يدفع المخاطب -الرعية- إلى الإسراع في تحصيل العلم الذي حصّت عليه الإسلامية، لغلق المنافذ أمام المستبد طمعا في النتيجة المغرية والمتمثلة في كسر قيود الاستبداد والاستعباد.

المخطط العام لتصاعد الحجج في فصل (الاستبداد والعلم):

ن	← النتيجة العامة: والحاصل أنّه ما انتشر نور العلم في أمة قطّ إلا وتكسّرت فيها قيود الأسر وساء مصير المستبدين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين.
ح7	استهانة الاستبداد بعلم الإسلامية وإحلال الجهل محله لتوثيق قيود الأسر.
ح6	فضل الإسلامية في الحضّ على العلم وكسر قيود الأسر.
ح25	يجتهد العلماء والأنبياء في تنوير عقول الرعية بالعلم الذي يزيل الخوف ويجعلها غير خاضعة للمستبد مطالبة بحقوقها.
ح15	يجارب المستبد هذه العلوم بنشر الخوف والتجهيل ومطاردة العلماء حتى تصبح الرعية خاضعة له.
ح24	علوم تكبر نفوس الرعية وتوسع عقولها وتضعف السلطة المستبدة.
ح14	علوم تصغر نفوس الرعية وتسميت همها وتزيد السلطة المستبدة قوة.
ح3	تتغلب الرعية على مكر المستبد بالعلم الذي يعتبر مركز قوة وضعف لكل سلطة مستبدة.
ح2	المستبد قناص مآكر يترص برعيته في ظلمات الجهل.
ح1	الاستعباد والاعتساف يكون نتيجة الجهل والضعف الذي يمكن كل من الوصي والمستبد من نهب الحقوق.

تتابع الحجج في فصل (الاستبداد والعلم) بشكل تصاعدي حثيث وتزداد قوة كلما تصاعدت في السلم لتفضي إلى النتيجة العامة، فالكواكي ينقل المخاطب في سلاسة ويسر من حجة إلى أخرى، بغية إقناعه بالهدف المنشود.

وهذا ما يجعلنا نقر أنّ خطاب الكواكي لا يلتقى عفواً، ولا يسرد سرداً بدون إحكام علاقاته المنطقية بما قبله وبما بعده، وكل حجة ليست مستقلة بنفسها، بل هي خاضعة لما قبلها تتم معناها ودلالاتها، تتجه نحو قضية حجائية واحدة، وتتجلى في شكل سلم حجاجي كلي متشكل من سلام حجائية جزئية متنوعة تعالج قضايا ودعاوى وجهتها الحجائية واحدة وترافع لصالح النتيجة العامة.

مُحصِلة السلم الحجاجي لفصل (الاستبداد والعلم):

اعتماداً على ما سبق تفصيله في السلام الحجائية الجزئية لفصل (الاستبداد والعلم) نرى أن: الحجج المكونة له جاءت متداخلة ومتتابعة، لتشكل النتيجة العامة وقيضها لهذا الفصل، وعلى هذا يمكن أن نشير إلى أن بنية الحجج فيه قد تأسست على أنواع من الحجج المتداخلة "تقوم بينها أنماط مختلفة من العلائق، فالحجة تستدعي الحجة المؤيدة أو المضادة، والدليل يفضي إلى النتيجة والنتيجة تفضي إلى دليل آخر، وكل قول يرتبط بالقول الذي يسبقه ويوجه القول الذي يتلوه"⁽¹⁾، وهذه الأقوال (الحجج) المتضمنة في الحجة الواحدة يحتويها سلم حجاجي جزئي يوجه المخاطب إلى النتيجة الجزئية وقيضها، وهذه الأخيرة تتضافر مع النتيجة الجزئية وقيضها لسلم حجاجي جزئي آخر وهكذا دواليك - كما وضعنا في تحليل السلام الحجائية لهذا الفصل - وصولاً إلى المغزى العام وإلى النتيجة النهائية العامة وقيضها لفصل (الاستبداد والعلم)، ويمكن تصوير هذه الرؤية وفق السلم الحجاجي التقابلي الكلي لفصل (الاستبداد والعلم) على النحو الآتي:

(1) أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص 19.

السلم الحجاجي التقابلي الكلي لفصل (الاستبداد والعلم):

<p>ن ← النتيجة العامة لفصل (الاستبداد والعلم) ما انتشر الجهل في أمة قط إلا وتوثقت فيها قيود الأسر واستحكم المستبدون من رؤساء سياسة أو رؤساء دين في حرية البشر</p>	<p>لا - ن ← قبيض النتيجة العامة ما انتشر علم الإسلامية في أمة قط إلا وتكسرت فيها قيود الأسر وساء مصير المستبدين من رؤساء سياسة أو رؤساء دين.</p>
<p>5ح ← هذه العلوم تجعل الرعية تذبح نفسها بيدها بسبب الخوف الناشئ عن الجهل والغباوة فتصبح بذلك خاضعة للمستبد</p>	<p>5ح ← هذه العلوم تزيل خوف الرعية وخضوعها للمستبد وتجبره على الاعتزال أو الاعتدال.</p>
<p>4ح ← علوم دينية تدكي جهل الرعية وتصغر نفوسها وتسمتت همها وتزيد السلطة المستبدة قوة.</p>	<p>4ح ← علوم الحياة تكبر نفوس الرعية وتوسع عقولها وتضعف السلطة المستبدة.</p>
<p>3ح ← يتغلب المستبد على الرعية بتضعيف علوم وتأويلها لحساب مصلحته.</p>	<p>3ح ← تتغلب الرعية على مكر المستبد بالعلم الذي يعتبر مركز قوة لها.</p>
<p>2ح ← المستبد قناص ماكر يترص برعيته في ظلمات الجهل</p>	<p>2ح ← الرعية المتتورة بالعلم يستحيل أن يترص بها القناص المستبد.</p>
<p>1ح ← الاستعباد والاعتساف يكون نتيجة الجهل والضعف الذي يمكن كل من الوصي والمستبد من نهب الحقوق.</p>	<p>1ح ← الحرية تكون نتيجة التنور بالعلم.</p>

وعليه يمكن القول إن فصل (الاستبداد والعلم) يعتبر عينة من الفصول المشكلة لكتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وبالتالي ما ينطبق على تحليل هذه العينة من السلم الحجاجي الجزئي لفصل (الاستبداد والعلم) ينطبق على كل فصول كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) وفق ما سار عليه منهج تصاعد وتتابع الحجج في الكتاب.

يتضح من خلال دراسة بناء الخطاب الحجاجي في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) بتحليل أنواع الحجج وفق رؤية كل من (شايم بيرلمان) و(تيتكاه) ودعمها وتوجيهها بنظرية السلام الحجاجية (لأوزفالد ديكر) إجرائياً أنّ كلا النظريتين متكاملتين لا انفصال بينهما في ممارسة التأثير والإقناع، على خلاف ما ذهب إليه أبو بكر العزاوي من خلال نظرية الحجاج في اللغة، "معتبراً أنّ دلالة الإقناع والتأثير في ظل هذه النظرية هي أشمل وأعم على اعتبار أنّها لا يرقيان في الدراسات الكلاسيكية حسب رأي الباحث إلى الغنى والتعدد الذي تمنحه اللغات الطبيعية؛ لأن التقنيات الحجاجية التي نجدتها في البلاغة... الحديثة... عبارة عن حالة خاصة"⁽¹⁾.

(1) محمد سعيد البقالي، نحو مقارنة حجاجية لغوية للخطاب كتاب "الخطاب والحجاج" لأبي بكر العزاوي أمودجا، ضمن مؤلف الحجاج اللغوي، قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي، تنسيق حسن مسكين، ص149، وينظر: أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ص 60.

فهذه الرؤية لا تتوافق وطبيعة طرحنا؛ لأنه لا مجال للمنازعة بين النظريتين فهي تأخذ وتفيد من بعضها البعض بشكل أو بآخر، حتى من دون التصريح بذلك؛ فمثلا تصاعد السلام الحجاجية لتوجيه المخاطب إلى نتيجة معينة يتركز على بنية مختلف أنواع الحجج، وعلى حجاجة اللغة وفعاليتها بالإضافة إلى الجانب التداولي باعتبار الطابع المقامي والتشاركي للحجاج، وما اشتغلنا على التحليل الحجاجي في كتاب **(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)** أكبر دليل على التداخل بين النظريتين -وليس التعارض أو التباعد- وهذا التكامل بينهما قيض للكواكبي استشراف الواقع المعيش والذي يعقب عيشنا هذا، إلى جانب خصائص أخرى موجودة في المدونة، واستبيان ذلك في المبحث الموالي:

4- سر الرؤية الاستشرافية للكواكبي في كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد:

كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد من الكتب التي لا تبلى بمرور الزمن، ويبقى تأثيرها دائما والحاجة إليها قائمة، فالقارئ يقف معجبا بقدرة الكواكبي الاستشرافية على تشخيص وتصوير الواقع الناجم عن الاستبداد ويجد أنه قد كتبه للأيام التي جاءت بعده والتي نعيشها الآن والتي ستعقب عيشنا هذا، ويعود سر رؤيته الاستشرافية إلى جملة من الأسباب أهمها:

4-1 **طبيعة الموضوع:** يعالج الكتاب موضوعا غاية في الأهمية سيظل يقرأ إلى قيام الساعة. فلا الاستبداد سيموت كاملا، ولا الحاجة إلى مقاومته ستخمد أبدا ما دامت أنظمة الحكم متواجدة ومتعاقبة وما دامت الشعوب تتطلع إلى العدل والحرية، فموضوع **(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)** يغالب الزمان وتتجدد الحاجة إلى قراءته دوما وفق نظرة توسعية في كل زمان ومكان وهذا ما تنبأ به الكواكبي في قوله " فما أنا إلا فاتح باب صغير من أسوار الاستبداد عسى الزمان يوسعه، والله ولي المهتمين"⁽¹⁾.

4-2 **الانطلاق من المعلومات الواقعية الفعلية التي تنشأ عنها "توقعات لما يكون في المستقبل"**⁽²⁾؛ جمع الكواكبي معطيات خطابه من الواقع ونهل منه آراءه وأحكامه، فدرس المدخلات، وكتب الاحتمالات الناتجة عنها، وجعل لكل احتمال ما يستحقه من الإيجاب والسلب، فهو الذات العارفة التي لها القدرة الخارقة على تذكر الماضي والإلمام بالواقع الحاضر، وتوقع ما سيحدث في المستقبل انطلاقا من خبراته المترسبة في منظوماته المعرفية ووعيه بأحداث واقعه المشرق والمساوي، كتصويره لحال الشرقيين بقوله: "والشرقيون ما داموا على حاضر حالهم بعيدين عن الجد والعزم، مرتاحين للهو والهزل تسكيننا لآلام إسارة النفس، وإخلادا إلى الخمول والتسفل، طلبا لراحة الفكر المضغوط عليه من كل جانب، يتألمون من تذكيرهم بالحقائق ومطالبتهم بالوظائف

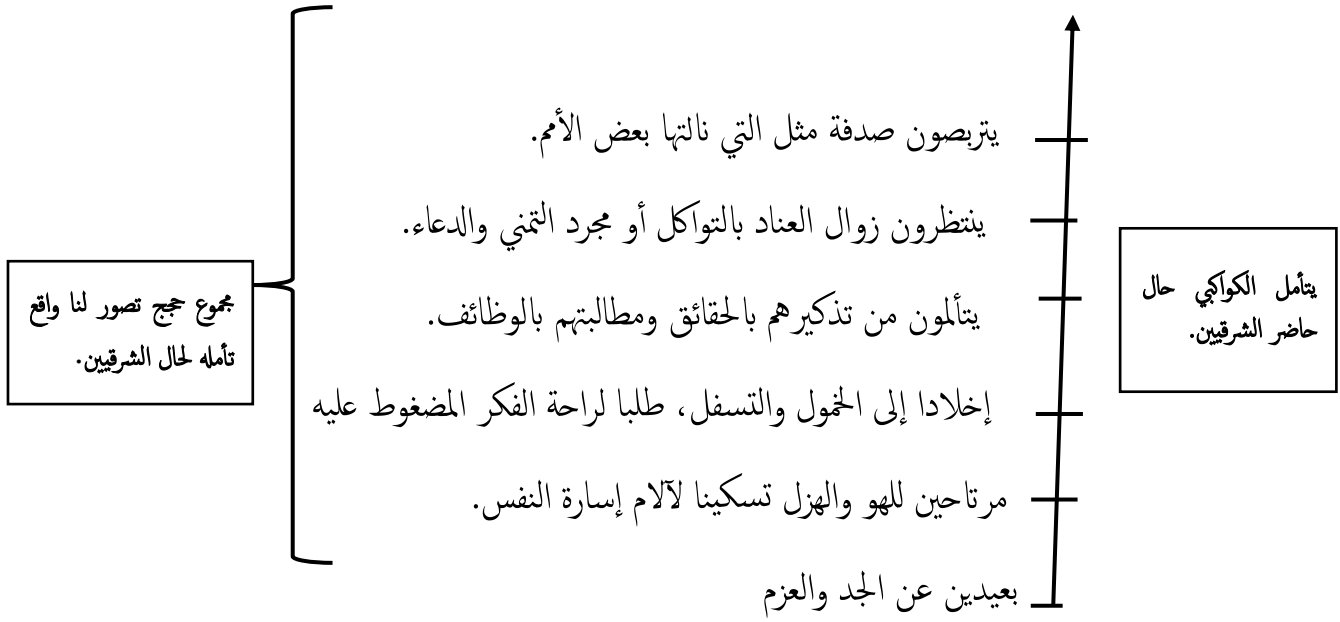
⁽¹⁾ عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 19.

⁽²⁾ روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، ص 413.

ينتظرون زوال العناد بالتواكل، أو مجرد التمني والدعاء. أو يتربصون صدفة مثل التي نالتها بعض الأمم، فليتوقعوا إذن أن يفقدوا الدين كلياً، فيسوا -وما مساؤهم ببعيد- دهريين*، لا يدرون أي الحياتين أشقى⁽¹⁾ وتفصيل ذلك في الآتي:

(ن) النتيجة: استشراعية للمستقبل " فليتوقعوا إذن أن يفقدوا الدين كلياً، فيسوا -وما مساؤهم ببعيد-

دهريين، لا يدرون أي الحياتين أشقى



والجدير بالإلماع أنّ الكواكبي صور حال الشرقيين وفق قالب لغوي بعث الحاضر وفق رؤية مستقبلية مشحونة بالتوقعات؛ وهذا ما يستدعي منا البحث في لغة خطابه وذلك برصد الصيغ اللغوية وما تقدمه من خصوصيات زمنية تحيل بدلالاتها إلى المستقبل، فالأفعال (يتربصون، ينتظرون، يتألمون) توالى في خطابه على صيغة الفعل المضارع للإخبار عن حال الشرقيين في الحاضر والمستقبل " فالمضارع إخباري... يدل على الحال "(2) " ويفيد الحاضر والمستقبل "(3) " وحضور صيغته تضيي على الخطاب سمة التجدد والديمومة الزمكانية فهو " يفيد المستقبل إذا كان الفعل يدل على الاستمرارية كأن يكون عادة وطبعاً "(4) " ومن عادات وطباع

* المحدثون الذين لا يؤمنون بالآخرة ويقولون ببقاء الدهر أبداً. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص 325.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 106.

(2) محمود حسني مغالسة، النحو الشافي الشامل، دار المسيرة، عمان، ط1، 1427هـ، 2007م، ص 24.

(3) المرجع نفسه، ص 23.

(4) المرجع نفسه، ص 23.

الشرقيين التريص والانتظار والتألم وهو ما عبر عنه الكواكبي بصيغة الفعل المضارع مما أكسب خطابه رؤية استشرافية.

3-4- تنوع استعمال أنواع الحجج في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد قيص للكواكبي استشراف المستقبل سواء كان مأساويا أو مشرقا، وتوضيح ذلك على النحو الآتي:

اعتمد الحجج شبه المنطقية لدفع المخاطب إلى إعمال المنطق بغية محاربة الفتور في تفكيره لاستنتاج المقاصد المراد إقناعه بالعمل وفقها في الحاضر والمستقبل، ونورد على سبيل المثال لا الحصر ما أدرجه في هذا النوع: إذ يقول في حجة التماثل: **"والنتيجة أن وزير المستبد هو وزير المستبد"**⁽¹⁾ يهدف من خلالها إلى دفع المخاطب (الرعية) لاستنتاج القصد المتمثل في عدم الوثوق به لكونه خائنا للأمة لا يتغير طبعه بتغير الزمان والمكان؛ فلا يهيمه إلا نهب أموالها والتنكيل بها، وما مطالب حراك الشعب الجزائري في التغيير الجذري للنظام الفاسد خير دليل على هذه النتيجة الاستشرافية السوداوية المتمثلة في أنّ المستبد "ووزراءه كزمره لصوص: رئيس وأعوان"⁽²⁾.

كما استشراف المستقبل المنشود للتغلب على الاستبداد بطريقة حضارية، وهو ما صرح به في حجة التناقض وعدم الاتفاق؛ إذ يقول: **"الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج"**⁽³⁾ فيضع المتلقي أمام الأمرين المتناقضين؛ دافعا إياه إلى دحض القضية الخاطئة (**أن الاستبداد لا يقاوم بالشدة**) وتقبل القضية الصحيحة المتمثلة في مقاومة (**الاستبداد باللين والتدرج**) حتى لا تكون فتنة شَعْوَاء تحصد الناس حصدا.

في حين انطلق في الحجج المؤسسة على بنية الواقع من التجارب المأخوذة من طبيعة واقعه المعيش للربط بين أحكام مسلم بها كبنية واقعية لا مجال للشك فيها وأحكام غير مسلم بها يسعى الخطاب إلى تأسيسها وتثبيتها وجعلها مقبولة عند المخاطب؛ ومثال ذلك الحجة السببية المستمدة من الواقع التي تربط بين حدثين متتابعين يقول: **"وأقل ما يعينون به الاستبداد تفريق الأمم إلى مذاهب وشيع متعادية تقاوم بعضها بعضا فتهاثر قوة الأمة ويذهب ريحها فيخلو الجو للاستبداد ليبيض ويفرخ"**⁽⁴⁾؛ فالصراع الأيديولوجي بين الأمم أدى إلى نتيجة حتمية كانت ولا زالت تزعزع استقرار الأمة، وتجعلها منبت نوابغ الاستبداد على مر العصور ومن الحجج المدرجة داخل هذا النوع حجة السلطة؛ إذ نجد أن خطابه لا يخلو من المستنسخات المرجعية والمقتبسات النصية التي تفاعلت مع النص الأصلي وأثرته، وقد توزعت بين نصوص قرآنية وأقوال العلماء والحكام، استزرعها أفضى

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 71.

(2) المصدر نفسه، ص 70.

(3) المصدر نفسه، ص 162.

(4) المصدر نفسه، ص 35.

إلى تولد دلالات أثرت التجربة وعمقتها، وكشفت عن الرؤية الاستشراقية بشقيها المأساوي والمشرق وللتدليل على ذلك نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

توظيف الكواكبي **لحجة أقوال الحكماء** التي تحوي عصارة تجاربهم في الحياة المحملة بدلالات مقرونة عادة بعواقب الأمور، ومن أقوالهم التي أوردها نذكر: "قال بعض الحكماء: كل إنسان فقير بالطبع ينقصه مثل ما يملك فمن يملك عشرة يرى نفسه محتاجا لعشرة أخرى، ومن يملك ألفا يرى نفسه محتاجا لألف أخرى"⁽¹⁾. فالحكماء فهموا الطبيعة البشرية التي جُبلَ عليها ابن آدم وهي التطلع إلى تحصيل المزيد من التسلط وجمع المال فمن يملك ألفا يرى نفسه محتاجا إلى ألفين وهكذا دواليك، وهذا معنى حديث الرسول ﷺ "لو كان لابن آدم واد من ذهب لأحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب"⁽²⁾؛ وهذا الأمر من شأنه أن يشعل فتيل الجشع اللامتناهي في تحصيل ملذات الدنيا، فتتراحم المصالح وينشب الصراع بين البشر حاضرا، وتتجدد هذه النتيجة في المستقبل يقينا.

أمّا **الحجج المؤسسة لبنية الواقع فقد استمدها الكواكبي** من الواقع المعيش للمخاطب لنقل المدرجات التي يود تثبيتها في ذهنه للتأسيس للواقع الجديد من خلال التأكيد على صحة نتائجها الحجاجية، ولتوضيح ذلك نورد المثال الآتي:

— **الشاهد التاريخي:** وظف التاريخ ليتخطى به لحظة الحاضر نحو المستقبل، عن طريق تحريك اللغة حركات زمنية من الحاضر إلى الماضي أو بالعكس ثم منها إلى المستقبل نظرة التقديس للماضي والاستلهام من ينابيعه التي لا تجف، مقتنعا بأن التاريخ يعيد نفسه، وقد أبان عن ذلك بأمثلة كثيرة نذكر منها: قوله: "وهذا مكماهون* رئيس جمهورية فرنسا استبدد في أمر فدخل عليه صديقه غامبتا* وهو يقول: الأمر للأمة لا إليك، فاعتدل أو اعتزل وإلا فأنت المخدول المهان الميت"⁽³⁾ فبوجود هؤلاء الأشخاص الذين يستعذبون الموت في سبيل نصره الحق يكون الواقع المنشود مشرقا لا محالة، وإذا كان الزمان ضنين بوجود أمثالهم تتدهور الأحوال ويتجبر القوي على الضعيف.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 89.

(2) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الكافر يقتل المسلم، رقم الحديث 2826، ج 4/24.

* باتريس دو مكماهون: رئيس فرنسا في الجمهورية الفرنسية الثالثة من 1873 إلى 1879.

* * رئيس وزراء فرنسا، شارك إنجلترا في التأمير على استقلال مصر في عهد الثورة العربية (1881، 1882) ينظر: عبد الرحمن

الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تحقيق وتقديم محمد عمارة، ص 53.

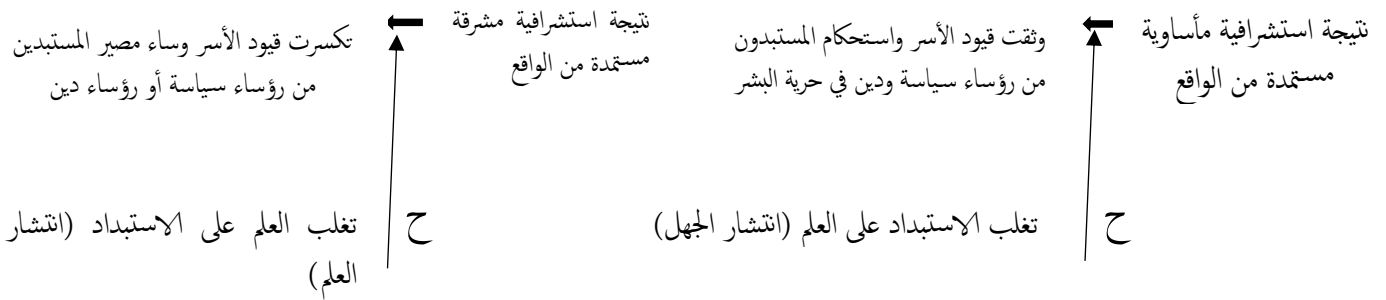
(3) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 61.

— **حجة التمثيل:** أعطت العنان لمخيلته لاستشراف المستقبل بالاعتماد على تشابه العلاقات بين بني متشابهة وإن كانت من مجالات مختلفة، مما جعل لغته قابلة للتفجر استشرافياً وفق الزاويتين المذكورتين أنفاً:

" الأقسام كالأجام *، [...] إن صادفت بستانيا يهيمه بقاؤها وزهوها فدبرها حسبما تطلبه طباعها، قويت وأينعت وحسنت ثمارها، وهذا مثل الحكومة العادلة، وإذا بليت ببستاني جدير بأن يسمى حطاباً لا يعنيه إلا عاجل الاكتساب، أفسدها وخربها، وهذا مثل الحكومة المستبدّة" (1).

خير نموذج نستدل به على الحكومة العادلة التي تطلع إليها بصر الكواكبي هي حكومة **لي كوان يو*** الذي نقل سنغافورة من جزيرة فقيرة مليئة بالمستنقعات والبعوض إلى أقوى اقتصادات العالم، على خلاف الحكومات المستبدّة التي ضرت البنية الاقتصادية وجعلت شعوبها تتخبط في المديونية والفقر، مما أدى إلى انتفاضة الشعوب العربية في ثورات الربيع العربي التي جسدها الكواكبي بقوله: " يوج الناس في الشوارع والساحات، وتملأ أصواتهم الفضاء، وترتفع فتبلغ عنان السماء، ينادون: الحق الحق، الانتصار للحق، الموت أو بلوغ الحق" (2).

5- يمد الكواكبي خيوط استشرافه نحو المستقبل باستعماله للسلامل الحجاجية التي من شأنها رسم معالم الواقع المأساوي والمشرق بتوجيه المخاطب إلى استنتاج النتيجة المتجددة بتجدد الزمان والمكان، ولنستبين آلية السلم الحجاجي الاستشرافي بنوعيه مع هذا النموذج التقابلي في فصل **(الاستبداد والعلم)** على النحو الآتي:



* الشجر الكثيف الملتف، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص 88.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، 94.

* من مواليد (16 سبتمبر 1923 ، 23 مارس 2015) كان سياسياً سنغافورياً وأول أمين عام وعضو مؤسس لحزب العمل الشعبي أول رئيس وزراء لجمهورية سنغافورة التي حكمها لمدة ثلاث عقود متتالية، أشتهر بصفته مؤسس الدولة وناقلمها من العالم الثالث إلى الأول خلال أقل من جيل على الرغم من اختلافات سكانها العرقية واللغوية والدينية. للتعلم ينظر: هشام الدجاني، قصة سنغافورة، مذكرات لي كوان يو، العيبكان للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط ع، 1، 1428هـ، 2007. وينظر: لي كوان يو - ويكيبيديا، الموسوعة الحرة الصادرة من الموقع الإلكتروني: بتاريخ 23 ماي 2019.

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%84%D9%8A_%D9%83%D9%88%D8%A7%D9%86_%D9%8A%D9%88

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 167-168.

يمكن حمل مختلف أنواع الحجج والسلام الحجاجية على الرؤيتين معاً؛ نأخذ على سبيل المثال الشاهد القرآني والحديثي؛ فإذا طبقنا التعاليم المشحونة بإماتة الاستبداد، إحياء العدل، المسؤولية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حق الحق وبطل الباطل، وتثبتت بذلك الرؤية الاستشرافية المشرفة، وإذا ابتعدنا عنها ورضخنا لفقهاء الاستبداد الذين يقومون بتضليل الأفهام تحققت الرؤية الاستشرافية المساوية كتأويلهم للحديث النبوي الشريف "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" إلى أن المسلم راع على عائلته ومسؤول عنها فقط⁽¹⁾. كيف سيكون واقع المجتمع في ظل غياب روح المسؤولية الجماعية؟

غياب الضمير الاجتماعي بروح المسؤولية يؤدي إلى استشراء الأنانية واللامبالاة وانتشار المنكرات وتقاعس الناس عن أداء مهامهم اتجاه عملهم ودينهم ووطنهم، ومن ثم التغافل على محاسبة المستبدين المنتهكين لحقوق الأمة فيخلو لهم الجو للنهب والسلب، وبذلك تهدر الحقوق وتتعطل المصالح العامة على حساب خدمة المصلحة الشخصية المؤدية إلى فقدان الثقة في الذات الجماعية، وسيكون مآل المجتمع حتماً الاندثار في كل المجالات، فيستحيل تحقيق التنمية واللاحق بركب الدول المتقدمة.

والأمر نفسه بالنسبة لحجة التناقض وعدم الاتفاق، فإذا دحضنا القضية الصحيحة وتقبلنا القضية الخاطئة كانت الرؤية مساوية لا محالة، والأمر سيان بالنسبة للقوة والقدرة المضادة وهكذا دواليك في كل أنواع الحجج.

6- مبدأ التعميم: اعتمده الكواكبي حتى تتسع رقعة خطابه للحديث عن الإنسانية جمعاء، فلم يخص خطابه بشخص معين، وإنما جعله مفتوحاً قابلاً للقراءة والتفجر إيحاءياً في كل زمان ومكان. إن الكواكبي من خلال النماذج المدروسة قد عبّر عن المستقبل بمنظورين:

✓ **أحدهما** مشرق نقل المستقبل السياسي والاجتماعي والتربوي الحضاري الذي يريد أن تعيشه الأمة فسعى إلى غد متحرر عادل ينسيه ألم حاضره بصورة مثالية تتجاوز كل نقائص الواقع ويتجاوزها إلى عالم أفضل. (واقع منشود).

✓ **أما بالنسبة للمنظور الثاني** فسوداوي يعكس المستقبل المعتم الذي لا يتحقق فيه أي شيء، وكأن الكواكبي يصرح بالحاضر الأسود المتجددة صورته في المستقبل (واقع مفروض متجدد).

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 43.

خلاصة الفصل:

نشير في نهاية الفصل إلى جملة من الاستنتاجات الجزئية التي توصلنا إليها من خلال تحليل بناء الخطاب الحجاجي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد وفق المراحل الثلاثة سواء المتعلقة بدراسة عناصر التفاعل الخطابي، ومدى إسهامها في تشكيل مرحلة أنواع الحجج، أو تلك المرتبطة بمراتب الحجج وفق السلم الحجاجي العام للكتاب، أو مراتبها في السلم الحجاجية الجزئية المشكلة لفصل (الاستبداد والعلم)، وتبيان مدى قدرتها على التأثير في المخاطب، ودفعه إلى إنجاز فعل معين من خلال مقاصد الحجاج، ومن أبرز الاستنتاجات وأهمها الآتي:

1- كلما توفر المتلقي المحلل على معلومات تخص عناصر التفاعل الخطابي، كلما امتلك القدرة أكثر على فهم الخطاب وفق القلب الذي شكل بنية الحجاج، ومن ثم تجنيد الآليات اللازمة لاستنطاق كنه الخطاب وفق ما يتماشى وطبيعته.

2- تعدد ذوات المخاطب وثقافته أدت إلى ثراء حججه وتنوعها؛ إذ لا يقتصر الحجاج على نوع واحد منها وإنما تتداخل أنواع الحجج وتتضافر من أجل تحقيق الغاية المرجوة من الحجاج، واستعمالها خاضع لطبيعة المخاطب ومحتوى الموضوع المعالج ثم إلى السياق المحيط بالحجاج.

3- إن دراسة بنية الحجاج في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) كشفت لنا عن خطاب الأديب، فكر العالم ورؤية الفيلسوف وتوجيه المؤرخ التي لا يرمي من خلالها إلى الإخبار لمجرد نقل الخبر أو الفكرة، أو المبالغة في التخيل وتجميل الخطاب كما هو حال البلاغيين، ولا إلى سرد الأحداث الماضية وتأريخها كما هو حال المؤرخين، ولكنه كان يهدف إلى الإقناع والتأثير في المخاطب بالنتيجة المنتغاة، ودفعه إلى تحويلها إلى فعل لمجاهة الاستبداد، وهذا هو صلب فعل الحجاج الإقناع الفكري ومن ثم التأثير العملي.

4- الحجج شبه المنطقية تدفع المخاطب إلى إعمال الفكر ليصل بالمنطق إلى استنباط نتائج الحجاج الصحيحة المراد إقناعه بالعمل وفقها ورفض الخاطئة منها بعيدا عن الإجبار والإلزام.

5- الحجج المؤسّسة على بنية الواقع أنجع وأقدر على الفعل في المخاطب والتأثير فيه؛ لأنها مستمدة من واقعه المعيش فلا يجد فيها صعوبة في تقبلها والتسليم بها.

6- الحجج المؤبسة لبنية الواقع تجمع عالمين: عالم الواقع الموجود، وعالم الواقع المقصود إنشاؤه من خلال عملية الحجج، وإعادة إنتاج أحد العالمين بصورتها المأساوية والمشرفة رهين بمدى تقبل وإذعان المخاطب للنتائج المعروضة عليه.

7- فصول كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) ترسم في ذهن المخاطب حلقات متداخلة فيما بينها، كلما اتسعت حلقة منها انصهرت في الحلقة الموالية لها سواء من الأعلى إلى الأسفل أو العكس وفصل واحدة منها كفيلا بتغيير المقصد العام من الكتاب.

8- سلم الحجج في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) منسوج على منوال ما نسجت عليه فصول الكتاب وحجج الفصل الواحد منه، والتداخل الحاصل بين مضامين الحجج ولّد بدوره تداخلا بين السلام الحجاجية الجزئية التي تشكل في آخر المطاف حصيلة السلم الحجاجي العام.

9- اتجاه السلام الحجاجية في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) يسير تصاعديا، فكلما ارتقى سلم الحجج كانت الحجة أقوى من سابقتها حتى يتحقق الإقناع، وذلك لما تتمتع به من قوة لتدعيم الدعوى الحجاجية، وتأثير في المخاطب لقبول تلك النتيجة الحجاجية.

10- التركيز على تحليل سلم الحجج لفصل واحد من كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) دون بقية الفصول كفيلا بتبيان تصاعد الحجج للوصول إلى المقصد الجزئي وعلى المنهجية التي انبنى عليها الكتاب؛ لأن كل سلم حجج جزئي هو سلم حجج عام إذا ما قيس بمحتوياته من الحجج.

11- بنية فصل (الاستبداد والعلم) من حيث محتوياته (نوع الحجج والسلام الحجاجية الجزئية) يعاد تشكيله بنفس الطريقة في بقية الفصول، على الرغم من اختلاف الموضوعات إلا أنها تخدم هدف واحد وهو التخلص من الاستبداد عن طريق تبيان التأثير السلبي والإيجابي لهذه المتلازمات الثنائية -الاستبداد والدين، الاستبداد والعلم، الاستبداد والمجد، الاستبداد والمال، الاستبداد والأخلاق الاستبداد والتربية، الاستبداد والترقي- التي تعتبر بمثابة الفواعل الدينامية التحتية التي تتفاعل لتحرك السواكن في المخاطب وتدفعه إلى القيام بفعل النهوض بالمجتمع من آفة الاستبداد بمختلف تلويناته.

12- الصراع الموجود في فصل (الاستبداد والعلم) أدى إلى تشكيل سلام حجاجية جزئية تقابلية، لا تتجه الحجج فيها لإسناد نفس النتائج، وإنما تساند الحجج نتائج معارضة للنتائج التي تساندها الحجج الأولى، مشكلة في نهاية الفصل سلما حججيا كليا تقابليا، لا تتجه الحجج فيه هو الآخر إلى مساندة النتيجة العامة نفسها، وهذا هو المنوال الذي نسجت عليه كامل السلام الحجاجية الجزئية لفصول (كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد).

13- الغاية من تكرار بناء محتويات فصول (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) على شكل متلازمات ثنائية هو توجيه المخاطب إلى استنتاج المقاصد المراد ترسيخها في ذهنه؛ إذ يصبح شكل البناء المتكرر على نفس النسق بمثابة قوالب مرسومة في ذهن المخاطب، وهذا ما يساعده على تقبل وفك شفرات ما يُصَبّ في تلك القوالب.

14- محتويات الحجج مدعمة بألية السرد والوصف؛ فالحجج تتنوع بين شواهد تاريخية وأمثلة تربط بينها هاتين الآليتين لغاية إسناد قيمة سلبية أو إيجابية للموضوع بمختلف شخصياته وأحداثه لأجل حمل المخاطب على الاقتداء بها أو النفور منها. وبهذا يعدّ السرد والوصف مطية للحجاج للتأكيد على صحة الدعاوي الحجاجية المقصودة.

15- يكمن سر الرؤية الاستشراافية لكتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد في بنية الحجاج المتشكلة من (أنواع الحجج + السلاالم الحجاجية) التي تزود الرؤية بالفاعلية المتجددة بتجدد الزمان والمكان.

الفصل الرابع:

الآليات الإقناعية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

1- الآليات اللسانية النصية.

2- الآليات اللغوية.

3- الآليات البلاغية.

تمهيد:

التأثير في المتلقي واستمالاته لا يتوقف عند حد بنية الخطاب الحجاجي في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد) كما بينا في الفصل السابق، وإنما يتعداه إلى استعمال آليات إقناعية يلجأ المخاطب من خلالها إلى تحقيق الوظيفة الجوهرية التي أقام من أجلها الحجاج.

وتتعدد آليات الإقناع تبعا لما ترتبط به؛ فمنها الآليات اللسانية النصية التي تتعلق "في مجملها بأدوات الاتساق التي تحقق ترابطا بين أجزاء الكلام"⁽¹⁾ كالإحالة والتكرار ومنها الآليات اللغوية بمفرداتها وتراكيبها التي يختارها المخاطب لوصف حدث ما بغية استمالة المخاطب والتأثير فيه، ومنها الآليات البلاغية التي يروم من خلالها إلى كسب "تأييد المتلقي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثم إقناع ذلك المتلقي عن طريق إشباع مشاعره وفكره معا حتى يتقبل ويوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطاب"⁽²⁾ فيكون حجاجا مدعما بآليات موجهة إلى العقل والقلب معا، قصد الإمتاع والإقناع.

وعموما توظف هذه الآليات انطلاقا من جملة اعتبارات تتعلق "بمقاصد المتكلم، وبطبيعة المتلقي، وكذا اللغة المدرجة في الحجاج، فهي المعين الذي تتجسد من خلاله عملية الربط بين المقدمات والحجج والنتائج الحجاجية، كما تضطلع بدور أساسي في عملية الإقناع"⁽³⁾ فكل نوع من هذه الآليات يضيف "صوره وهيئاته البنائية والدور الخاص الذي يشغله في تلك الوظيفة العامة"⁽⁴⁾ والتي تتمثل في الإقناع-وسنركز في هذا الفصل على دراسة الآليات الإقناعية في (كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد) كل منها على حدة قصد التمهيد في تبيان الدور الخاص الذي تلعبه في استمالة المخاطب إلى دعوى الحجاج.

1- الآليات اللسانية النصية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد:

يلجأ المخاطب إلى انتهاج آليات متعددة بغية تحقيق الوظيفة الجوهرية التي أقام من أجلها الحجاج وهي إقناع المتلقي والتأثير فيه، -وسنعنى في هذا المبحث بدراسة الآليات اللسانية النصية في كتاب

(1) حمدي جودي منصور، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 123.

(2) حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الحجاج وحوار التخصصات، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010، ج3، ص 45.

(3) حمدي جودي منصور، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 242

(4) محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ضمن مؤلف الحجاج، مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الحجاج والمراس، إعداد وتقديم حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2010، ج4، ص

(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، باعتبارها آليات إقناعية، وذلك بالكشف عن أهم هذه الآليات اللسانية في ذلك الكتاب، مبرزاً دورها التأثيري أثناء الحجاج، ومن هذه الآليات:

1-1 الإحالة:

تدرج الإحالة ضمن أهم الآليات اللسانية التي تربط عنصراً ما في النص بعنصر آخر سواء كان داخل النص أم خارجه.

تكن حججيتها في أنّ "العناصر المحيطة كيفما كان نوعها لا تكف بذاتها من حيث التأويل، إذ لا بد من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها"⁽¹⁾

وهذه العملية الذهنية التي يلجأ إليها متلقي النص من أجل تأويل عنصر ما داخل النص بعنصر آخر قد يكون داخل النص أو خارجه هي التي جعلت من الإحالة وسيلة حججية تزيد من ترابط أجزاء النص الواحد، "وتعمل على التأثير في المرسل إليه من خلال ربط ذهنه وتركيزه بالمضامين المعروضة من بدايتها حتى نهايتها كما تساعد المرسل إليه على الاستعانة بقدراته الذهنية في تفكيك أجزاء الخطاب الموجه إليه، وعلى تحديد تلك الأدوات اللسانية المستعملة لإعادة ربط هذه الأجزاء، وعلى النظر في دلالتها تبعاً لمقاصد المرسل"⁽²⁾

ويتحدد فهمنا لدلالاتها "لا على المعنى الخاص بها*، بل على إسنادها إلى شيء آخر"⁽³⁾، ومن خلال هذا الإسناد تتحدد أنواع الإحالة سواء تعلق الأمر بما هو داخل الخطاب أو خارجه، أو ما تعلق بسابق أو لاحق من الأقوال، وتفصيل هذا التقسيم على النحو الآتي⁽⁴⁾:

الإحالة المقامية (أو ما يسمى بالإحالة الخارجية) والإحالة النصية (وتسمى بالإحالة الداخلية)، وتتفرع هذه الأخيرة إلى إحالة قبلية، وإحالة بعدية وقد وضع كل من هالدي (*holiday*) ورقية حسن (*R. Hassan*) رسماً يوضح هذا التقسيم، نسوقه وفق هذا المخطط:

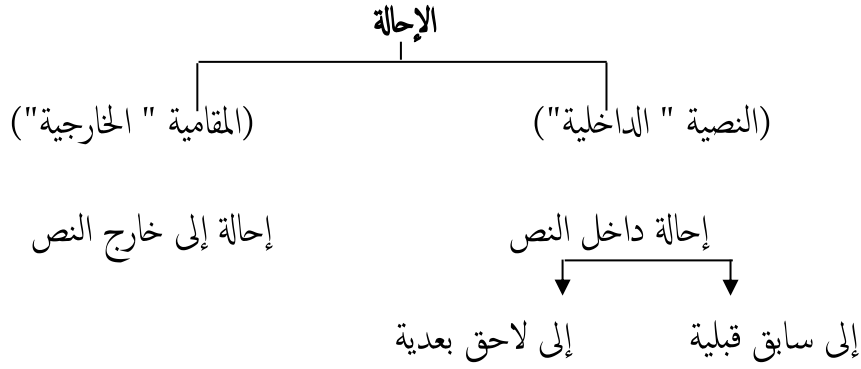
(1) محمد خطاي، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1991، ص 17.

(2) حمدي جودي منصور، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 128.

* لأنها لا تكفي بذاتها من حيث التأويل؛ إذ لا بد من العودة إلى ما تشير إليه من أجل تأويلها وفهمها وتفسيرها حتى يتم اتساق النص، وذلك من منطلق أنها عناصر لا تملك دلالة مستقلة، فشرط وجودها هو النص من جهة، ومعرفة ما تشير إليه من جهة أخرى، ينظر: نعيمة سعدية، لسانيات النص والخطاب الشعري دراسة في شعر محمد الماعوط، الوسام العربي، بيروت، لبنان، 2015، ص 296.

(3) ج.ب. براون وج. يول، تحليل الخطاب، ص 230.

(4) محمد خطاي، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 16.



1-1-1 الإحالة النصية: (الداخلية)

وتسمى الإحالة الداخلية "متى كان الشيء المحال عليه داخل النص فلدينا علاقة تسمى داخلية وهي تلعب دورا في تماسك أجزاء النص" (1) "وتنقسم العلاقات الداخلية بدورها إلى قسمين: بعضها ما يلتفت إلى الوراء أي إلى ما سبق في النص حتى يفهم ويسميا هاليداي (*holiday*) ورقية حسن (*R. Hassan*) علاقات إحالة إلى الورا، وبعضها يلتفت إلى الأمام، أي ما يلحق في النص حتى يفهم وتسمى إحالة إلى الأمام" (2) وهذا تضمن ربط المتلقي بكل ما ورد من سابق وسيرد من لاحق في الخطاب، بالتمعن في جزئيات النص والعلاقات التي تجمع السابق باللاحق، والهدف من ذلك جذب انتباهه "وربط تركيزه بالمقصود من القضايا المعروضة أثناء الحجاج" (3)

وتتخذ الإحالة الداخلية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد مظاهر متعددة، نسوق نماذج لها مع تحديد ما تشير إليه وهي:

1-1-1-أ- الضمير بأنواعه:

الضمائر بأنواعها من أبرز الوسائل الإحالية وأكثرها انتشارا، لها أثر كبير في تحقيق تماسك النص، فهي "تنوب عن الأسماء والأفعال والجمل المتتالية" (4)، وكلما نجح المتلقي في التعرف على ما تحيل إليه كلما وقف

(1) ج.ب. براون وج. يول، تحليل الخطاب، ص 230.

(2) المرجع نفسه، ص 230.

(3) حمدي جودي منصور، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 243.

(4) إبراهيم صبحي الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق - دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2000، ج1، ص 137.

على قصد المتكلم المتجسد في ذهنه بوضوح، وفي الحجاج تظهر وظيفة الضمائر "في توجيه المتلقي إلى معرفة المقصود من خلال ما تحيل إليه، لذا تعد الضمائر وسيلة إقناعية بحكم تلك الوظيفة"⁽¹⁾

❖ الضمير المتصل: من أمثلته:

✓ " يا قوم: رفع الله عنكم المكروه، ما هذا التفاوت بين أفرادكم وقد خلقكم ربكم أكفاء في البنية، أكفاء في القوة، أكفاء في الطبيعة، أكفاء في الحاجات، لا يفضل بعضكم بعضاً إلا بالفضيلة، لا ربوبية بينكم ولا عبودية؟ والله، ليس بين صغيركم وكبيركم غير برزخ من الوهم"⁽²⁾

إحالة قبلية
القوم → عنكم (كم)، أفرادكم (كم)، خلقكم (كم)، ربكم (كم)، بينكم (كم)، بعضكم (كم) صغيركم (كم)، كبيركم (كم).

✓ " حتى أن الوزارة هي تنتخب للملك خَدَمَةً وَحَشَمَةً فضلاً عن الزوجة والصهر"⁽³⁾

إحالة قبلية
الملك → خدمه (ه) حشمه (ه)

✓ " العوام صبية أيتام لا يعلمون شيئاً، والعلماء هم إخوتهم الراشدين، إن أيقظوهم هبّوا، وإن دعوهم لبّوا، وإلا فيتصل نومهم بالموت"⁽⁴⁾

إحالة قبلية
العوام → يعلمون (واو الجماعة) هبّوا (واو الجماعة) لبّوا (واو الجماعة) إخوتهم (هم) أيقظوهم (هم) دعوهم (هم) نومهم (هم)
العلماء → الراشدون (واو الجماعة)

(1) حمدي جودي منصور، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفع، ص 243.

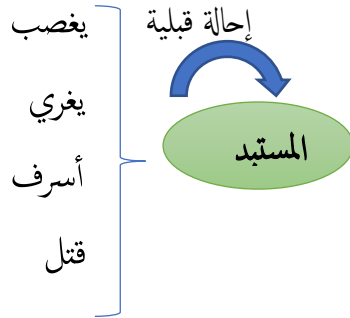
(2) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 134.

(3) المصدر نفسه، 28.

(4) المصدر نفسه، ص 29.

❖ الضمير المستتر: من أمثله

✓ "العوام هم قوة المستبد وقوته، [...]، يأسرهم فيتهلمون لشوكته، ويغصب ... أموالهم فيحمدونه على إبقاء حياتهم، ويهينهم فيثنون على رفعتهم، ويغري ... على بعض فيفتخرون بسياسته، وإذا أسرف ... في أموالهم يقولون كريماً، وإذا قتل ... منهم لم يمثّل يعتبرونه رحيماً." (1)



✓ "قد تخلّصت الأمم المتمدنة نوعاً ما من الجهالة، ولكن بُليت ... بشدة الجندية الجبرية العمومية [...] حتى يصح أن يقال: إن مخترع هذه الجندية إذا كان هو الشيطان؛ فقد انتقم ... من آدم في أولاده أعظم ما يمكنه أن ينتقم" (2).

الأمم → إحالة قبلية →] بليت.

الشيطان → إحالة قبلية →] انتقم

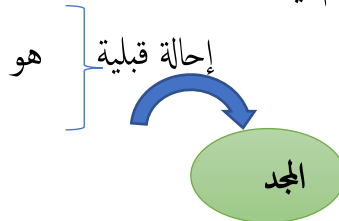
✓ "أما الجندية فتفسد أخلاق الأمة؛ حيث تعلمها الشراسة والطاعة العمياء والامتثال، وتمت ... النشاط وفكرة الاستقلال، وتكلف ... الأمة الإنفاق الذي لا يطاق" (3)

الجندية → إحالة قبلية →] تمت.

الجندية → إحالة قبلية →] تكلف

❖ الضمير المنفصل: من أمثله:

✓ "المجد: هو إحراز المرء مقام حب واحترام في القلوب" (4)



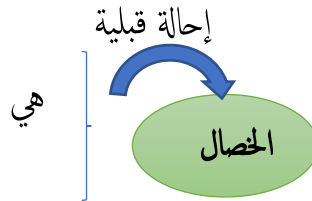
(1) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص: 53.

(2) المصدر نفسه، ص 27.

(3) المصدر نفسه، ص 27.

(4) المصدر نفسه، ص: 59.

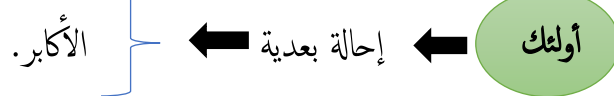
✓ "وهو الخلاق العظيم"⁽¹⁾
 هو ← حالة بعدية ← الخلاق.
 ✓ "الخصال الاعتيادية، وهي ما يكتسبه الإنسان بالوراثة أو بالتربية أو بالإلفة"⁽²⁾



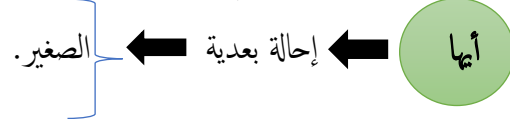
نستشف أن معظم الإحالات في الأمثلة الواردة الخاصة بالضمير هي إحالات قبلية، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على أنّ المخاطب استهل عملية الحجاجية "بعرض للقضية الحجاجية أولاً، ثم يبدأ بتفصيلها والاحتجاج لها"⁽³⁾ وهذا من شأنه أن يجذب المتلقي للقضية أكثر فيولي لها اهتماماً ثم ينصت لها مستعداً ومجدداً كل قدراته الإدراكية والتركيزية بحكم درايته المسبقة بموضوع القضية، ويبنى على منوال السابق ما سيذكر في اللاحق وهذه الإحالات تجعل المتلقي يقظاً، فيكون بذلك على علم بكل تفاصيل القضية، فضلاً عن وظيفة الاقتصاد اللغوي التي تؤدي إلى الابتعاد بالنص عن الإطالة التي تؤدي إلى الملل.

1-1-1 ب أسماء الإشارة: تعد الوسيلة الثانية "من وسائل الانساق الداخلة في نوع الإحالة"⁽⁴⁾، تنوب هي الأخرى عن الاسم وعن الفعل وعن الجمل، ومن أمثلتها في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) نسوق النماذج الآتية:

✓ "من دلائل **أولئك** الأكبر معزرون مخادعون يظهرون ما لا يبطنون"⁽⁵⁾



✓ "فانظر **أيها** الصغير المكبر الحقير الموقر كيف تعيش معنا"⁽⁶⁾



(1) عبد الرحمان الكواكي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 74.

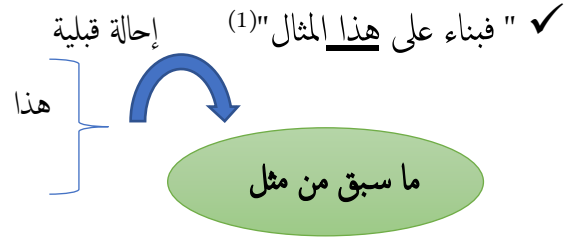
(2) المصدر نفسه، ص 98.

(3) حمدي جودي منصور، الحجاج في كلياته ودمنة لابن المقفع، ص: 248.

(4) محمد خطايي، مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 19.

(5) عبد الرحمان الكواكي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص: 74.

(6) المصدر نفسه، ص 69.



✓ " ولهذا كان الاستبداد يستولي على تلك العقول الضعيفة للعامة" (2)

تلك

إحالة بعدية

العقول الضعيفة

ما نستشفه أن جلّ الإحالات البعدية بأسماء الإشارة قد أحالت المتلقي إلى الأوصاف الدنيئة التي اتصف بها المستبد، وبذلك تعد وسيلة إقناعية، إذ إنها تزيد من اهتمام المتلقي بفعل القراءة، بغية استمالة إلى النتيجة المقصودة.

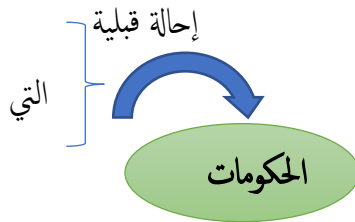
1-1-1- ج الاسم الموصول:

للاسم الموصول وظيفة إحالية تساعد على إقناع المتلقي والتأثير فيه، وقد ورد استعماله بكثرة في كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد نكتفي بذكر البعض منها:

✓ " نعم، لا يقتضي أن يتساوى العالم الذي صرف زهوة حياته في تحصيل العلم النافع أو الصنعة المفيدة بذاك الجاهل النائم في ظل الحائط" (3)

الذي ← إحالة بعدية ← لتخصيص العالم ريعان شبابه في سبيل تحصيل العلم.

✓ " الحكومات المنتظمة هي التي تتولّى ملاحظة تسهيل تربية الأمة من حيث تكون في ظهور الآباء" (4)



(1) عبد الرحمان الكواكي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 94.

(2) المصدر نفسه، ص 92.

(3) المصدر نفسه، ص 78.

(4) المصدر نفسه، ص 111.

✓ " تلك الأمة التي تعرف أمّها صاحبة الشأن كلّها " (1)

تلك ← ← إحالة بعدية ← الأمة.

→ → إحالة قبلية → التي.

✓ " والحاصل كلّ ما ينتفع به في الحياة هو مال " (2)

ما ← ← إحالة بعدية ← الانتفاع.

من خلال الأمثلة المضروبة بالأسم الموصول يتضح أنه يعتبر هو الآخر آلية لسانية تلعب دورا مهما في مجال الإحالة إلى ما قبله وإلى ما بعده قصد " شد انتباه المتلقي، وتوجيهه إلى المقصود من خلال الحضور الذهني " (3) إذ يظل المتلقي يقظا باحثا عن مرجع الضمير.

هذه بعض الإحالات الداخلية التي حاولنا التفصيل فيها بالنظر إلى طبيعة المحيل سواء كان الضمير بأنواعه (متصلا، مستترا، منفصلا)، اسم إشارة، اسم موصول، وما يؤديه من وظيفة اتساق وترابط وتنظيم تؤدي إلى التحام النص من الناحية المفهومية وصنع تماسك دلالي ملحوظ يساعد على تحفيز المتلقي وشد انتباهه لحدوث الإقناع.

2-1-1- الإحالة المقامية:

وتسمى بالخارجية "متى كان الشيء المحال عليه خارج النص في السياق" (4) بمعنى إحالة عنصر لغوي إحالي على عنصر إشاري (شيء) غير لغوي موجود في المقام الخارجي، وتنحصر قيمتها في الدلالة بما يحيط بالنص في المقام الخارجي، وهذا يؤدي وظيفة حجاجية تكمن في معرفة مقام النص بالنسبة للمتلقي ليفهم مستوى النص وقصد المحاجج، وتسهم في ربط النص واللغة بالسياق المناسب للمقام الذي أنتج في خضمه الخطاب وسنمثل لهذا النوع من الإحالة فيما يأتي:

✓ " يستعملون في مقام صفة (مستبدّ) كلمات: **جبار، وطاغية، وحام بأمره، وحام مطلق** " (5)

جبار، طاغية، حاكم بأمره، حاكم مطلق ← تحيل إلى ← الحاكم المستبد.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 26.

(2) المصدر نفسه، ص 75.

(3) حمدي جودي منصور، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص: 251.

(4) ج.ب. براون وج.بول، تحليل الخطاب، ص: 230.

(5) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص: 25.

✓ " وأشد مراتب الاستبداد التي يتعوّذ بها من الشيطان هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية"⁽¹⁾

الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية ← تحيل إلى ← الحاكم المستبد.

✓ " يستعملون في مقام وصف الرعية (المستبد عليهم) كلمات: أسرى، ومستصغرين، وبؤساء ومستنبتين"⁽²⁾

أسرى، مستصغرين، بؤساء، مستنبتين ← تحيل إلى ← على رعية المستبد أي المستبد عليهم.

✓ " شوش الاستبداد في المسلمين تاريخ آل البيت عليهم الرضوان"⁽³⁾

شوش ← تحيل إلى ← الظروف التي أنتجها الاستبداد وعمل من خلالها على تشويه الإسلام
مما نجم عنه ظهور الفرق الشيعية.

✓ " الشرقي سريع التصديق، والغربي ينفى ولا يثبت حتى يرى ويلمس"⁽⁴⁾

الشرقي ← تحيلنا إلى ← الساكن بمنطقة الشرق، فقد نفهم منه الجهة والاتجاه، ولكن معناه الدقيق
طبيعة الإنسان العربي المسلم الساكن بالشرق.

الغربي ← تحيلنا إلى ← الساكن بمنطقة الغرب، وكذلك قد نفهم منها الجهة والاتجاه، ولكن معناه
الدقيق الإنسان المادي الغربي القاطن بالغرب.

✓ " خاطرت حتى بجياتي في درسها وتدقيقها"⁽⁵⁾

خاطرت ← تحيلنا إلى ← المخاطر التي انهالت على الكواكبي من الحكام المستبدين إثرى دراسته لطبائع
الاستبداد ومصارع الاستعباد.

(1) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص: 26.

(2) المصدر نفسه، ص 25.

(3) المصدر نفسه، ص 47.

(4) المصدر نفسه، ص 105.

(5) المصدر نفسه، ص 18.

تمثل الإحالة الخارجية الصورة العكسية الإشارية التي تجسد المواقف والأحداث التي ساهمت في إنتاج الخطاب، فهي تسهم في " صنع النص وربطه بسياق الموقف"⁽¹⁾ وتظهر براعة الكواكبي في طرحه وتصويره العام المفتوح لهذه الظروف، فوسمها بطابع الاستمرارية، وأسقط ظروفه الخارجية وجعلها صالحة للدراسة في كل زمان ومكان، لجدة القضايا التي طرحها فستبقى لغته محيطة بالظروف التي عاشها الإنسان ويعايشها إلى قيام الساعة. فلا الاستبداد سيندر، ولا الحاجة إلى مقاومته ستخدم، فكل الإحالات الخارجية تصور أوصاف المستبد ورعيته المغلوب على أمرهم، فتستحوذ على ذهن المتلقي وتربطه بالسياق الخارجي الذي أنشئ في خضمه الخطاب، وتعطي العنان لمخيلته ليطمح لأن يعيش حرا أيا، ليتحرك ويواجه هذا الداء الدفين، وهذا هو المقصد من وراء خطابه الحجاجي.

وما يمكن قوله على الإحالة بنوعها من ناحية الدلالة فهي "مؤكدات [...] تنفيذ التأكيد والاختصار في اللفظ، لإغنائها عن ذكر المشار إليه واستحضاره في اللفظ"⁽²⁾ وبما أنه حاضر في اللفظ فهو حاضر في ذهن المتلقي ومشغول بتأويل مقاصده والوقوف على معانيه بغية استمالتة وإقناعه بدعوى الحجاج.

2-1 التكرار:

ويسمى "أيضا بالترديد والترداد"⁽³⁾ فهو من الظواهر اللسانية التي تضطلع بدور حجاجي هام في مختلف الخطابات على تنوع مواضيعها واختلاف أجناسها فهو لا يدرس ضمن الحجج والبراهين وإنما يعدّ رافدا أساسيا يرفد هذه الحجج أو البراهين التي يقدهما المتكلم لفائدة أطروحة ما، بمعنى أن التكرار يوفّر لها طاقة مضافة تحدث أثرا جليلا في المتلقي وتساعد على نحو فعال في إقناعه أو حمله على الإذعان"⁽⁴⁾ وتكمن وظيفته في "التبليغ والإفهام ويعين المتكلم ثانيا على ترسيخ الرأي أو الفكرة في الأذهان فإذا ردّد المحنّج لفكرة محجة ما أدركت مراميها وبانت مقاصدها ورسخت في ذهن المتلقي"⁽⁵⁾ لما يلعبه من "توكيد الكلام والتشديد من أمره، وتقدير المعنى وإثباته"⁽⁶⁾ وهو بذلك يعد من وسائل تدعيم المعنى، فيزيد الفهم ويجذب انتباه المرسل إليه، فنترسخ في ذهنه دعوى الحجاج فيحدث الإقناع.

(1) نعيمة سعدية، لسانيات النص والخطاب الشعري دراسة في شعر محمد الماغوط، ص 301.

(2) محمود عكاشة، تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة، دراسة تطبيقية لأساليب التأثير والإقناع الحجاجي في الخطاب النسوي، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط1، 2013، ص: 231.

(3) محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ص 32.

(4) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه، ص 168.

(5) المرجع نفسه، ص 168.

(6) محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ص 32.

تنوع أشكال التكرار في كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، وتتجلى في هذه الأشكال نوردها كالاتي

1-2-1 التكرار التام: أو المحض " ويكون بتكرار اللفظ والمعنى والمرجع واحد" (1) ومن أمثلته:

✓ " يكون المنفذون مسؤولين لدى المشرعين، وهؤلاء مسؤولين لدى الأمة، تلك الأمة التي تعرف أنها صاحبة الشأن كله، وتعرف أن تراقب وأن تتقاضى الحساب" (2)

✓ " من أقيح أنواع الاستبداد استبداد الجهل على العلم، واستبداد النفس على العقل ويسمى استبداد المرء على نفسه" (3).

✓ " الاستعداد للحرب يمنع الحرب" (4)

✓ " من المعلوم أن مجرد الاستعداد للفعل فعل يكفي شر الاستبداد" (5)

✓ " ابتلاه بظلم نفسه وظلم جنسه" (6)

2-2-1 التكرار الجزئي: " ويكون بالاستخدامات المختلفة للجذر اللغوي (7) أي تكرار عنصرين اثنين أو أكثر من مادة واحدة، ومن أمثلته:

✓ " غير متعلق بأقاربه وقومه كل الارتباط، ولا مرتبط ببيته وبلاده كل التعلق" (8)

✓ " المستبد يتجاوز الحد ما لم ير حاجزا من حديد، فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفاً، لما أقدم على الظلم" (9)

✓ " الداء: تغلب السّلطة على الشريعة، والدواء: تغلب الشريعة على السلطة" (10)

(1) جميل عبد المجيد حسين، " علم النص أسسه المعرفية وتجلياته النقدية" مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، مجلد 32، عدد 02، أكتوبر- ديسمبر 2003، ص 146.

(2) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 26.

(3) المصدر نفسه، ص 30.

(4) المصدر نفسه، ص 29.

(5) المصدر نفسه، ص 30.

(6) المصدر نفسه، ص 31.

(7) جميل عبد المجيد حسين، علم النص أسسه المعرفية وتجلياته النقدية، ص 146.

(8) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 28.

(9) المصدر نفسه، ص 29.

(10) المصدر نفسه، ص 23.

✓ "وتشابهك بالناس ما استطاع، اشتباك تظالم لا اشتباك تعاون" (1)

ويهدف هذا النوع من التكرار في سياقه الحجاجي على التأثير في المتلقي وذلك باستخدام علاقات لغوية من أصل جذر لساني واحد من مادة معجمية واحدة تعتمد في تأثيرها السمعي على مبدأ التجانس (2)

3-2-1 تكرار المعنى واللفظ مختلف: ويشمل الترادف وشبه الترادف والعبارة الموازية (3) ومن أمثلته على الترتيب.

3-2-1-أ الترادف: ونسميه بالترادف الكامل حيث يتطابق اللفظان تمام المطابقة، ويمكن لأحدهما أن يحل محل الآخر (4) ومن نماذجه نسوق الأمثلة التالية:

✓ " حريق متواصل بالسلب والغصب" (5)

✓ " فهم يسترهبون الناس بالتعالي الشخصي والنشامخ الحسي" (6)

✓ " كلما زاد المستبد ظلمًا واعتسافًا زاد خوفه من رعيته وحتى من حاشيته" (7)

✓ " يسرفون الأموال في الفسق والفجور" (8)

✓ " حياتكم كلها تعب ونصب" (9)

3-2-1-ب - شبه الترادف: أو ما يسمى "بالتقارب الدلالي ويكون بين لفظتين" (10)

✓ " أنّ الأقسام تشبتك وتشتك ويؤثر بعضها في بعض" (11)

✓ " قلة أهل العمل وأهل العزائم في الأسراء" (12)

(1) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 30.

(2) ينظر: محمد العبد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب، القاهرة، ط1، 2005، ص 241.

(3) ينظر: جميل عبد المجيد حسين، علم النص أسسه المعرفية وتجلياته النقدية، ص 146.

(4) ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998، ص 220.

(5) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 32.

(6) المصدر نفسه، ص 34.

(7) المصدر نفسه، ص 55.

(8) المصدر نفسه، ص 87.

(9) المصدر نفسه، ص 132.

(10) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 221.

(11) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 98.

(12) المصدر نفسه، ص 99.

- ✓ " السلطان الشرقي يستحلف الرعية على الاشهاد والطاعة"⁽¹⁾
- ✓ " التربية المطلوبة هي التربية المرتبة على إعداد العقل للتمييز، ثم على حسن التفهم والإقناع"⁽²⁾
- 1-2-3 ج - العبارة الموازية: " وتسمى بالتعبير المماثل أو الجمل المترادفة، ويكون بين هذه الجمل المتوالية تشارك في المعنى"⁽³⁾ ومن أمثلتها
- ✓ " أعيدكم بالله من فساد الرأي، وضاع الحزم، وفقد الثقة بالنفس، وترك الإرادة للغير"⁽⁴⁾
- ✓ " وجدوكم رقودا لا تشعرون سلبوا أموالكم، وزاحموكم على أرضكم، وتحيلوا على تدليلكم وأوثقوا ربكم واتخذوكم أنعاما، وعندئذ لو أردتم حراكا لا تقوون، بل تجدون القيود مشدودة والأبواب مسدودة"⁽⁵⁾
- ✓ " يا قوم ألهمكم الله الرشده، متى تستقيم قاماتكم وترتفع من الأرض إلى السماء أنظاركم، وتميل إلى التعالي نفوسكم"⁽⁶⁾
- ✓ " الذين اجتمع فيهم داء الاستبداد والتواكل فجعلاهما آلة تدار ولا تدير، أسألكم عفوهم من العتاب والملام، لأنهم مرضى مبتلون، مثقلون بالقيود، ملحمون بالحديد"⁽⁷⁾
- من خلال التمعن في أمثلة العبارات الموازية، يتضح لنا أن الجمل الواردة في الأخير تكون أعم وأقوى في دلالتها من الجمل الوارد في الأول، والتي تشترك جميعا في المعنى العام، وهذا من شأنه أن يدفع المعنى إلى مستوى أقوى، وهذا ما يزيد في الفاعلية الإقناعية لهذه الآلية في استمالة المتلقي وإقناعه بدعوى الحجاج.

3-1 التوازن: "الازدواج":

فهو آلية إقناعية تهدف إلى تحريك وجدان وشعور المتلقي وهذا يعود في حقيقة الأمر إلى بنية إقناعية جوهرية ذات تأثير سمعي وعاطفي في المستمع⁽⁸⁾ وتتحقق بنية التوازن إذ توافرت فيه الوحدات اللغوية الأربعة المشكلة له، من حيث توازن عدد الوحدات وأوزانها وهيئة ترتيبها وفواصلها "علما أن هذا التوازن أو الاتفاق قد يكون تاما أو ناقصا أو منعما بين الوحدات اللغوية المشكلة للخطاب الحجاجي، تبعا لاستخدامات

(1) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 104.

(2) المصدر نفسه، ص 121.

(3) ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 222.

(4) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 132.

(5) المصدر نفسه، ص 133.

(6) المصدر نفسه، ص 135.

(7) المصدر نفسه، ص 142.

(8) ينظر: محمد العبد، النص الحجاجي العربي، ص 55.

المرسل لها، ومراعاة لمقاصده الحجاجية التي يود توجيهها حين مخاطبة فكر ومشاعر المرسل إليه" (1) وتمثل لها من المدونة كآتي:

✓ " ألم لا يفتر ، وصائل لا يرحم ، وقصة سوء لا تنتهي " (2)

✓ " الحقوق وكف تحفظ ، والظلم وكف يرفع ، والإنسانة وماهي وظائفها ، والرحمة وماهي لثابتها " (3)

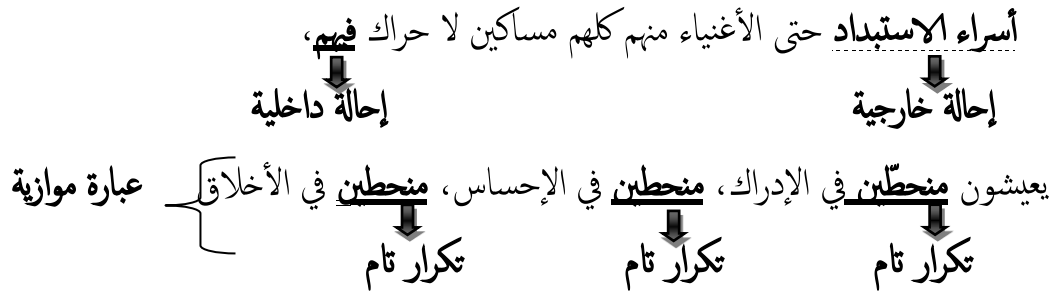
✓ " أهم ترضعهم لبن جهازاتها ، وتغذهم بثمراتها ، وتأوهمهم في حضن أجزائها " (4)

✓ " تقتضي الإنسانية أن يأخذ الراقي بيد السافل ، فقيهه من منزلته ، ويقاربه في معيشته ، ويعينه على الاستقلال في حياته. " (5)

✓ بل رتقوا فتوق الدهر في دينهم بما تقحوا ، وهذبوا ، وسهلوا ، وقربوا ، حتى جددوه ، وجعلوه صالحا لتجديد خليق أخلاق الأمة " (6).

✓ مرضى ميتلون ، متقلون بالقبود ، ملحمون بالحديد " (7)

المتأمل فيما سبق يجد أننا قد اعتمدنا التفصيل في كل آلية على حدة لتبيان الوظيفة التي تلعبها بشكل دقيق، ولكن هذا التفصيل والتخصيص لا ننكر من خلاله طبيعة أن تأتي كل الآليات باستعمالاتها المختلفة مجتمعة ومتضافرة في المثال الواحد، وبطبيعة الحال هذا التكتيف في التداول يزيد من نسبة الإقناع، وهذا المثال يوضح اتحاد هذه الآليات:



(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 130.

(2) عبد الرحمان الكواكي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 32.

(3) المصدر نفسه، ص 57.

(4) المصدر نفسه، ص 93.

(5) المصدر نفسه، ص 89.

(6) المصدر نفسه، ص 89.

(7) المصدر نفسه، ص 142.

وما أظلم توجيه اللوم **عليهم** بغير لسان الرأفة والإرشاد، وقد أبدع من شبهه **حالتهم** بدود تحت

إحالة داخلية

إحالة داخلية

صخرة، فما أليق باللائمين أن يكونوا **مشفقين** يسعون في رفع الصخر ولو حتى بالأظافر **ذرة** بعد **ذرة**.

تكرار تام

توازن

بعد استنطاق الآليات اللسانية النصية التي يثويها خطاب الكواكبي بكثرة - الإحالة بنوعها، التكرار التوازن- وتحديد وظيفتها الفعالة في استدراج واستمالة المتلقي للقضايا المطروحة وربطه بدعوى الحجاج ولا يتأتى له ذلك إلا من خلال شد انتباهه والاستحواذ على تركيزه بواسطة الاستعمال الجيد لهذه الآليات فليس كل استعمال الهدف منه الإقناع، فالربط المحكم بين تمفصلات وجزئيات الخطاب بالاستعمال المكثف لهذه الآليات من شأنه تأكيد فكرة على مسامع المتلقي فتستهوي أذنه فتترسخ في ذهنه وتتوغل في فكره وتتلاعب على نغمت وجدانه، إذن هذا التكثيف المستمر والمتنوع للآليات الإقناعية اللسانية من شأنها "أن تساعد على توجيه المتلقي واستحضاره ذهنياً كلما لزم الأمر، كما تساعد على ترتيب المعاني المقصودة دون غيرها لإقناعه بالنتائج الحجاجية"⁽¹⁾ فهذه الآليات اللسانية تتضافر من نواحي متعددة لتحقيق نتيجة مفادها إقناع المتلقي واستمالاته للقضية التي قام من أجلها الحجاج.

2- الآليات اللغوية في كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد:

إن الهدف الأساسي الذي يسعى إليه الحجاج هو إقناع المتلقي واستمالاته وتكون هذه الاستمالة وذلك الإقناع بواسطة اللغة، التي تظهر وظيفتها الأساسية في الحجاج من خلال نقل المخاطب من المقدمات إلى النتائج، لهذا "فهي وسيلة لفرض سلطة على الآخرين من نوع استدراجهم إلى الدعوى المعبر عنها وإقناعهم بمصداقيتها"⁽²⁾.

ويتم هذا الاستدراج إلى النتائج الحجاجية عن طريق ربطها بالحجج المدعّمة، ويتم هذا الربط عن طريق الأدوات اللغوية ذات البعد الحجاجي بمعانيها النحوية والدلالية والتداولية "وخصائصها وإمكاناتها المعروفة وتنوع وظائفها في السياقات الممكنة"⁽³⁾ التي يختارها المخاطب لوصف حدث ما تعكس موقفه تجاه ذلك الحدث

(1) حمدي جودي منصور، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص: 259.

(2) محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ص 31.

(3) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 477.

مما ينعكس على المخاطب في حد ذاته لقبول أو رفض ذلك الموقف. نذكر من هذه الأدوات: لكن، بل، حتى أمّا، لو، لأن، ما...إلا، وينبغي أن نميز بين صنفين منها: الروابط والعوامل الحجاجية⁽¹⁾.

وبالنظر إلى كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، نجد توظيفاً مكثفاً لهذه الآليات اللغوية بنوعها التي تحمل بعداً إقناعياً وتأثيرياً في المخاطب، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

2-1- الروابط الحجاجية:

هي تربط بين "قولين أو حجتين، وتسد لكل قول دوراً محمداً"⁽²⁾ داخل بنية الحجاج، ويمكن التمثيل للروابط بالأدوات التالية: بل، لكن، لأن، إذ... و "دورها لا يكمن في هذا الربط فقط، بل يتعداه إلى تحديد طبيعة كلّ مكون من تلك المكونات الحجاجية، ويصبح بذلك قاعدة بنائية لإدراج الحجج أو النتائج كما تساعد هذه الروابط الحجاجية المتلقي على ترتيب ما يعرض عليه أثناء الحجاج، كأن يربط سبباً بمسببه أو بنتيجته أو قد يكون الأمر ربط نتيجة سابقة بحجة لاحقة، وهذا ما يسهل على المتلقي تحديد المقاصد ومعرفة الغايات من الحجاج"⁽³⁾.

كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد توجد فيه مجموعة من الروابط الحجاجية التي اضطلعت بدور توجيه المتلقي نحو فعل ما أو تركه حسب مقاصد المخاطب ومتطلبات التلقي، وسنحاول هنا دراسة بعض الروابط واستعمالها الحجاجية التي كان لها حضوراً بارزاً في تشكيل الخطاب. وسنخص بالدراسة الروابط الحجاجية:

— الرابط لكن.

— الرابط بل.

— الرابط الواو.

— الرابط الفاء.

— الرابط لأنّ.

— الرابط إنّ.

(1) ينظر: قدور عمران، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، ص 36.

(2) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 27.

(3) حمدي جودي منصور، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 260.

1- لكن:

تعد الأداة لكن من الروابط المدرجة للحجج القوية التي تستعمل للحجاج وللإبطال، فالتلفظ بأقوال من نمط (أ) لكن (ب) يستلزم أمرين⁽¹⁾:

- إن المتكلم يقدم (أ) و(ب) بعدها حجتين؛ الأولى موجهة نحو نتيجة معينة (ن) والحجة الثانية الآتية بعد الرابط (لكن) تكون موجهة نحو نتيجة مضادة لها (لا-ن).

- إن المتكلم يقدم الحجة الثانية باعتبارها الحجة الأقوى التي توجه الخطاب برمته. لقد ورد هذا الرابط الحجاجي في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) بكثرة، سنسوق نماذج منه مع تبيان وظيفته في توجيه المتلقي إلى نتيجة دون أخرى، ومن ذلك:

✓ "بعد بحث ثلاثين عاما... بحثا أظنه يكاد يشمل كل ما يخطر على البال من سبب يتوهم فيه الباحث عند النظرة الأولى، أنه ظفر بأصل الداء أو بأهم أصوله لكن، لا يلبث أن يكشف له التدقيق أنه لم يظفر بشيء وأن ذلك فرع لا أصل"⁽²⁾.

في هذا النص نجد لكن تعمل تعارضا حججيا بين ما يتقدمها وما يتلوها، وهي تربط بين حجتين فالحجة الأولى هي (يتوهم فيه الباحث عند النظرة الأولى، أنه ظفر بأصل الداء أو بأهم أصوله)، تخدم نتيجة ضمنية من قبيل (توصل الباحث إلى ممكن الداء). أما الحجة الثانية التي جاءت بعد لكن تتجلى في: (لا يلبث له التدقيق أنه لم يظفر بشيء وأن ذلك فرع لا أصل) والتي تخدم نتيجة ضمنية مضادة للنتيجة السابقة لا-ن من نمط (لم يتوصل الباحث إلى الممكن الكلي للداء وما ظفر به هو فرع لا أصل). وهذا ما يدفع به إلى بذل المزيد من المجهودات للوقوف على أصل الداء.

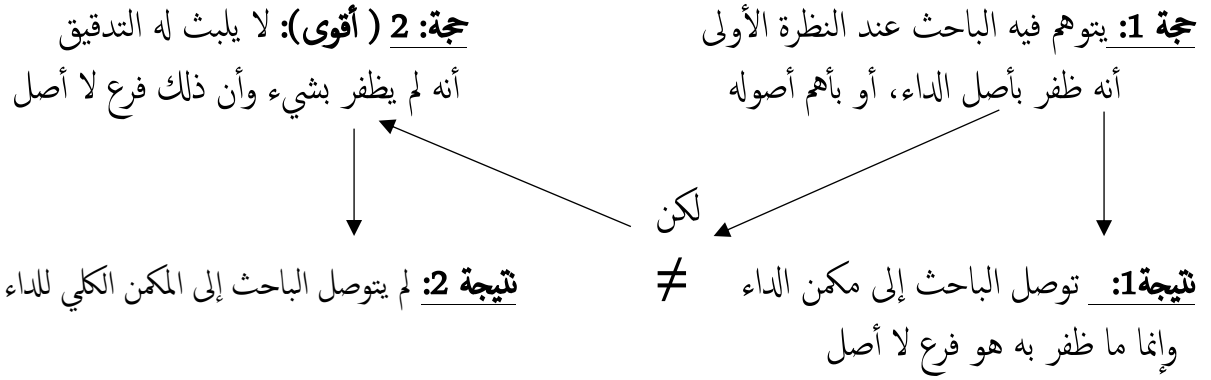
وبما أن الغاية التي أراد الكواكبي إيضاها تكمن في الحجة الثانية من كلامه، وهي أقوى من الحجة الأولى ومعارضة لها، لأن " لكن متى توسطت دليلين باعتبارها رابطا حججيا جعلت الدليل الوارد بعدها أقوى من الدليل الذي سبقها فتكون للأحق الغلبة المطلقة بحيث يتمكن من توجيه القول بمجمله، فتكون النتيجة التي يقصد إليها هذا الدليل الثاني ويخدمها هي نتيجة القول برمته"⁽³⁾ وبذلك سيتوجه القول نحو تبني النتيجة الضمنية المضادة المرموز لها (لا-ن). وفيما يلي تقدم تصورا يبرز دور لكن وفق المخطط الآتي:⁽⁴⁾

(1) ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 58.

(2) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 18.

(3) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه، ص 347.

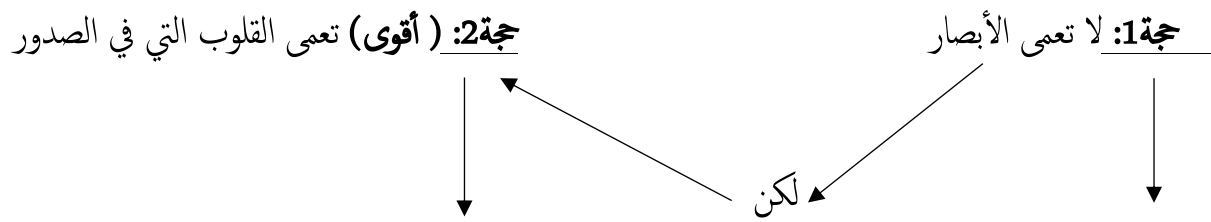
(4) ينظر: حمدي جودي منصور، الحجاج في كليلة ودمنة لابن المقفع، ص 261.



✓ "وهكذا لا تعمى الأبصار، ولكن؛ تعمى القلوب التي في الصدور"⁽¹⁾.

نلاحظ في هذا النموذج أن الرابط الحجاجي **لكن** ورد مقرونا بالواو بعد النفي بـ (لا)، وقد جاءت **لكن** في أحسن موقع لها حيث "توسطت بين كلامين متغايرين نفيًا وإيجابًا، فتستدرك بها النفي بالإيجاب"⁽²⁾ عاملة بذلك تعارضًا حجاجيًا بين ما تقدم وما تأخر عنه، فالقسم الأول الذي سبق الرابط قد تضمن حجة تخدم نتيجة ضمنية (ن) من قبيل أن الكواكبي (يخاطب القوم بأن قوتهم الباصرة سليمة غير أنهم لا ينفذون بها إلى العبر) أما القسم الثاني الذي جاء بعد الرابط فقد تضمن حجة تخدم نتيجة مضادة للنتيجة السابقة (لا-ن) أي تخدم نتيجة (إن العمى ليس في البصر هو في القلوب التي في الصدور فهي ممتلئة بالضلالة). وهذه هي النتيجة التي يود إقناع المخاطب بها.

فقد تحقق الاستدراك بالرابط (لكن) بأن نسب لما بعدها (تعمى القلوب التي في الصدور) حكمًا مخالفًا ومضادًا لحكم ما قبلها (لا تعمى الأبصار) وهو المعنى المراد من الاستدراك والذي يقضي أن "يكون ما بعدها حكمًا مخالفًا لحكم ما قبلها"⁽³⁾، وفيما يلي نوضح دور **لكن** وفق الشكل الآتي:⁽⁴⁾



نتيجة 1: يخاطب القوم بأن لديهم أبصار غير أنهم لا ينفذون بها إلى العبر

نتيجة 2: إن العمى ليس في البصر هو في القلوب التي في الصدور فهي ممتلئة بالضلالة.

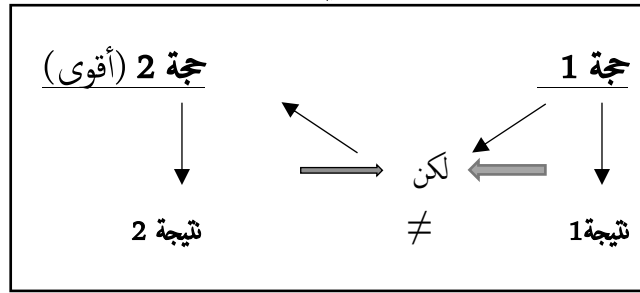
(1) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارح الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 131.

(2) الحسن بن قاسم المرادي، الجني الثاني في حروف المعاني، تحقيق محمد نديم فاضل، فخر الدين قباوة، دار الكتب العالمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413، 1992، ص 616.

(3) ابن هشام الأنصاري مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط6، 1985، ص 383.

(4) ينظر: حمدي جودي منصور، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 261.

وعلى هذا الأساس نشير إلى أن (لكن) لها دور حجاجي، وتمثيل ذلك وفق المخطط الآتي⁽¹⁾:



نستنتج مما سبق أن الرابط الحجاجي (لكن) يستعمل لتغيير مجرى الاستنتاج والاحتياط والتحفظ من النتيجة، ولذا يكون ما بعدها نتيجة مناقضة وداحضة لنتيجة سابقة لها أثناء الحجاج؛ أي إنها من بين الروابط التي تربط "بين حجتان متعاندتان إذ تم سوقهما لمساندة نتيجتين متعارضتين"⁽²⁾؛ فكل حجة تساند نتيجة هي نقيض النتيجة التي تساندها الحجة الأخرى، إضافة إلى أن الحجة في النتيجة الثانية (الداحضة) تكون أقوى منها في النتيجة الأولى.

2- بل:

لا تختلف بل "عن لكن من حيث المبدأ العام، أي تتوسط دليلين"⁽³⁾، وهي حرف يفيد "الإضراب [...] فإن وقع بعده جملة كان إضراباً عمماً قبلها، إما على جملة الإبطال [...]"، وإما على جملة الترك للانتقال، من غير إبطال"⁽⁴⁾؛ معنى ذلك أن لها معنيين إما إبطال الحكم السابق عليها والانصراف عنه إلى الحكم التالي، أو ترك الحكم السابق عليها كما هو والانتقال من غرض إلى غرض آخر، ويتحدد دورها حسب السياق الذي ترد فيه.

وفيما يأتي نسوق نماذج من كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) تبرز وظيفة (بل) بوصفها رابطاً

حجاجياً:



(1) حمدي جودي منصور، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 263.

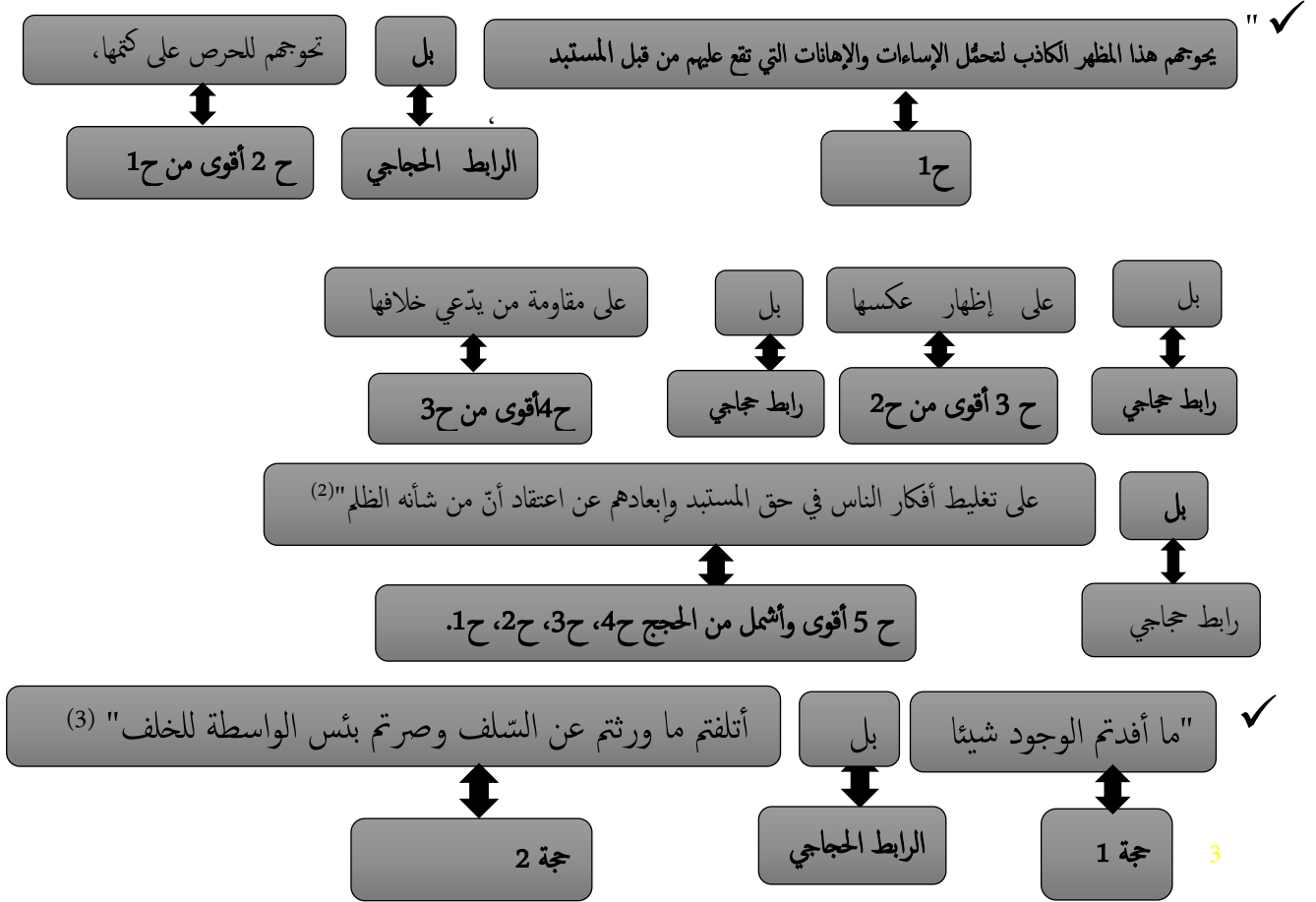
(2) رشيد الرازي، الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية، ص 766.

(3) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنينه وأساليبه، ص 351.

(4) الحسن بن قاسم المرادي، الجني الثاني في حروف المعاني، ص 235-236.

(5) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 132.

في "هذا المثال أبتقت (بل) على الحكم الأول (حجة 1)، وانتقلت إلى حكم جديد (حجة 2) أقوى وأشمل من الحكم الأول" (1)



في هذا النموذج أبتقت (بل) على الحكم الأول (حجة 1) وانتقلت إلى الحكم الثاني الأقوى والأشمل (حجة 2).

نستنتج من النماذج السابقة أن (بل) أدت وظيفة الانتقال من درجة دنيا في الحجاج إلى درجة عليا تكون أشمل وأقوى لتحقيق الإقناع من أجل وقوف المتلقي على المقصد الحقيقي من وراء خطابه، لتنبهه إلى مواطن الداء وحثه على القيام بالفعل المناهض لتحقيق النتيجة الإقناعية الضمنية وهي (ضرورة التغيير من أفعالهم حتى تنصلح أحوالهم).

(1) حمدي جودي منصور، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 266.

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 63.

(3) المصدر نفسه، ص 132.

✓ "لا يتكل على أحد من خلق الله اتكال الناقص في الخلق على الكامل فيه، أو اتكال الغاصب على مال الغافل أو الكّل على سعي العامل، بل يرى أحدم نفسه إنسانا كريما يعتمد على المبادلة والتعاوض فيسلف ثم يستوفي على أن يعني" (1).

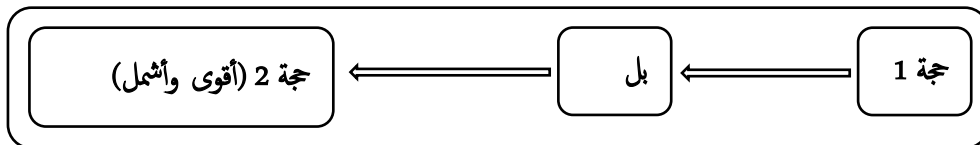
في هذا المثال ألفت (بل) الحكم الأول (حجة 1) وأكدت الحكم الثاني (حجة 2)؛ أي جاءت بمعنى "الإضراب عن الأول والإثبات للثاني" (2)، إذ أبطل الاتكال عندما نفاه، ومن ثم أثبت الاعتماد على النفس؛ أي إن الرابط الحجاجي هنا لا يقدم الثاني عن الأول بل ينفي الأول، ويقصيه تماما ليثبت الثاني ويوجه المتلقي إلى وجهة القول المنشودة وهي الاقتناع بضرورة الاعتماد على النفس، وبالزامية التخلّص من داء الاتكال والتحرر من قيوده.

كما يمكن الوقوف على وظيفة بل الإبطالية من خلال النموذج الآتي:

✓ "معنى التقوى لغة ليس كثرة العبادة، كما صار إلى ذلك حقيقة عرفية غرسها علماء الاستبداد القائلين في تفسير (عند الله)؛ أي في الآخرة دون الدنيا، بل التقوى لغة هي الاتقاء، أي الابتعاد عن رذائل الأعمال احترازا من عقوبة الله" (3).

في هذا النموذج ألفت (بل) الحكم الأول (حجة 1)، وأكدت الحكم الثاني؛ حيث إنها أبطلت القول الأول فما تقدمها كان منفيًا، في حين جاءت الحجة التي تليها مثبتة، وبذلك فإن الرابط (بل) أقام علاقة حجاجية تعارضية بين نفي الحكم السابق الواقع قبل (بل) والذي يكمن في مفهوم التقوى الخاطئ الذي غرسه علماء الاستبداد "والقطع بأنه غير واقع ومدعيه كاذب، والانصراف عنه واجب إلى حكم آخر يجيء بعدها" (4) والذي يكمن في إثبات حقيقة المفهوم الصحيح للتقوى، على عكس ما يدعيه علماء الاستبداد وبذلك قد وجه القول نحو إقامة الحجة على علماء الاستبداد لإبطال ادعائهم. وهذا ما يجعل الحجة الثانية أقوى من سابقتها.

نستشف مما سبق أن (بل) تؤدي دورا حجاجيا بتوسطها بين حجتين إما من ناحية الإضراب الإبطالي أو من جهة الإضراب الانتقالي، وتكون الحجة الثانية أقوى وأشمل من الأولى، ويمكن تمثيل ذلك وفق المخطط الآتي:



(1) عبد الرحمان الكواكي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 135.

(2) المبرد (أبي العباس محمد بن يزيد)، المقتضب في اللغة، مطابع الأهرام التجارية، قليب، مصر، (د.ط.)، 1415هـ، 1994، ج 1، ص 150.

(3) عبد الرحمان الكواكي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 43.

(4) عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، مصر، ط 3، 1968، ج 3، ص 623.

تعدّ الواو من أهم الروابط الحجاجية، إذ لا يقتصر دورها على مجرد الجمع بين الحجج فحسب، بل تعمل على تقوية وترتيب الحجج "ووصل بعضها ببعض [...]"، بل وتُقوي كل واحدة منها الأخرى⁽¹⁾ لتحقيق النتيجة المرجوة، وهي من الروابط الحجاجية المدعمة للحجج المتساوقة التي تُخدم نتيجة واحدة. ونمثل لهذا الرابط في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد) بالناذج الآتية:

✓ "ترتعد فرائض المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية والفلسفة العقلية [...] التي تعرّف الإنسان ماهي حقوقه، ولم هو مغبون فيها، وكيف الطلب، وكيف التّوال، وكيف الحفظ."⁽²⁾

حجة 1 حجة 2 حجة 3 حجة 4

نلاحظ في هذا المثال أن الحجج (ح1، ح2، ح3، ح4) جاءت متناسقة ومترابطة، غير منفصلة فكل حجة لاحقة تقوم بتقوية الحجة السابقة وذلك بفضل الرابط الحجاجي (الواو)، الذي قام بوصل الحجج وترتيبها، لتقوية النتيجة الضمنية، وهي (ضرورة معرفة العلوم التي تحث على طلب الحقوق)، وقد تجلت علاقة من العلاقات الحجاجية عبر الرابط (الواو)، تسمى علاقة التابع إذ إن "كل حجة تفتضي أخرى بحيث تؤكد الثانية الأولى"⁽³⁾ وهكذا دواليك. أي تتابع الوصل بين حجة وأخرى بصورة تضعيفية تتحقق من خلالها النتيجة الإقناعية؛ وهي تعليمهم كيفية استرجاع حقوقهم بدءا بالطلب فالنوال وصولا إلى الحفظ للوقوف في وجه المستبدن الغاصبين.

✓ "أسير الاستبداد، فيعيش خاملا خامدا ضائع القصد، جائرا لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته

حجة 1 حجة 2

ويدرج أيامه وأعوامه"⁽⁴⁾.

حجة 3 حجة 4

الحجج المترادفة (حجة1، حجة2، حجة3، حجة4) شكلت متوالية حجاجية نسقية اتحدت باتجاه دعم النتيجة المطروحة وتقويتها بقوة الرابط (الواو) الذي أفاد التعليل والتبرير لمضمون النتيجة (أسير الاستبداد، فيعيش خاملا خامدا ضائع القصد).

(1) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 472.

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد، تقديم عمار علي حسن، ص 52.

(3) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنينه وأساليبه، ص 325.

(4) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد، تقديم عمار علي حسن، ص 112.

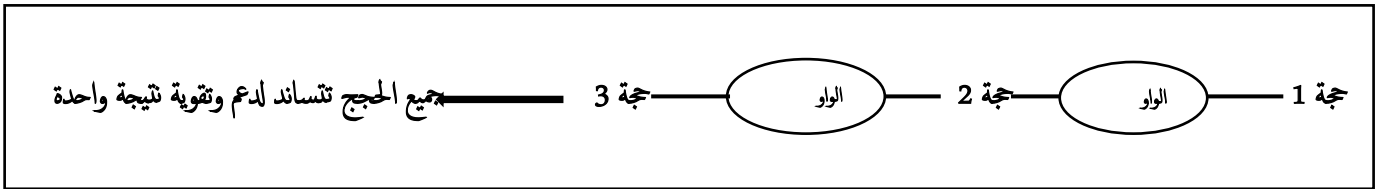
✓ " بعض وزراء المستبد يتأوهون من المستبد ويتشكون من أعماله ويجهرون بلامه، ويظهرون لو أنه

حجة 1 حجة 2 حجة 3

ساعدهم الإمكان لعملوا ورفعلوا وافتدوا الأمة بأموالهم⁽¹⁾.

حجة 4 حجة 5 حجة 6

إن هذه الحجج المتتابعة بواسطة الرابط الحجاجي (الواو) وفرت للخطاب تطوره، وحفظت له تناغمه حيث التقت المتتابعات في أمر واحد يجمعها، وهو تأكيد النتيجة الضمنية (وزير المستبد لا يخرج على أنه خائن للأمة) التي يود الكواكبي إقناع المخاطب بها، بغية دفعه إلى عدم الوثوق به. بناء على ما سبق نستشف أن الواو يؤدي دورا حجاجيا، وفق المخطط الآتي:



4- الفاء:

يعدّ حرف الفاء من حروف العطف التي تفيد "الترتيب والتعقيب، مع التسبب أي الدلالة على السببية"⁽²⁾، وهذا ما يجعلها تضطلع بوظيفة حجاجية، إذ تربط بين الحجة السببية والنتيجة، ومن ثم فهي تجمع بين قضيتين غير متباعدتين للدلالة على التقارب بين الأحداث. ومما ورد من نماذج تؤكد هذه الوظيفة الحجاجية في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) نسوق النماذج الآتية:

✓ " الدين الذي فقد الأنصار الأبرار والحكماء الأخيار، فسطا عليه المستبدون والمترشحون للاستبداد"⁽³⁾

حجة سببية ← ← ف ← ← نتيجة

ففي هذا النموذج توظيف للرابط الحجاجي (الفاء) كرابط يجمع بين حجتين، الأولى تشكل الحجة السببية (الدين الذي فقد الأنصار الأبرار والحكماء الأخيار)، والثانية تجسد النتيجة الحجاجية الحتمية المترتبة عن هذا

(1) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 70.

(2) عباس حسن، النحو الوافي، ص 574.

(3) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 44.

السبب (فسطاً عليه المستبدون والمترشحون للاستبداد)، وقد تم العطف هنا بين الحجتين، للتعبير عن الحال الذي آل إليه الدين بفقدانه للحكاماء الأخيار، والقصد من استعمال هذا النوع من الحجج هو إثارة الانتباه واستجلاب الإصغاء وتيسير قبول النتائج الحجاجية⁽¹⁾.

نستنتج أن جلّ الحجج التي يربط بينها الرابط الحجاجي (الفاء) في (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) لا تكاد دلالتها تخرج عن العلاقة السببية من نمط:

حجة سببية ← ف ← نتيجة، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

✓ "تفريق الأمم إلى مذاهب وشيع متعادية تقاوم بعضها بعضاً، فتتهاتر قوّة الأمة ويذهب ربحها، فيخلو الجوّ للاستبداد ليبيض ويفرخ"⁽²⁾.

حجة سببية ← ف ← نتيجة.

✓ "تلك الأمة التي قتل الاستبداد فيها كلّ الأميال الشريفة العالية فأبعدها عن الأُنس والإنسانية"⁽³⁾

حجة سببية ← ف ← نتيجة.

وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على أن الرابط الحجاجي (الفاء) قد وفر للغة تقنية الربط بين مفاصل الكلام وأجزائه، فتأسست عندها العلاقة الحجاجية السببية التراتبية والتعاقبية التي تؤدي إلى نتائج حتمية تتحقق دون محالة مثلما هو ظاهر في كل الأمثلة، وهذا هو المراد بمعنى التعقيب الذي "يتحقق بقصر المدة الزمنية"⁽⁴⁾، ويمكن تمثيلها وفق المخطط الآتي:

حجة سببية ← ف ← نتيجة واقعية حتمية.

5- لأن:

تفيد (لأنّ) في الحجاج "ربط النتيجة بسببها وبعلةتها"⁽⁵⁾، ومما ورد من نماذج تؤكد هذا الأمر في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، ندرج الأمثلة الآتية:

(1) ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص 334.

(2) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 35.

(3) المصدر نفسه، ص 72.

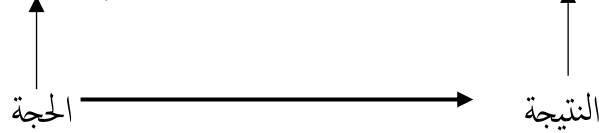
(4) عباس حسن، النحو الوافي، ص 573.

(5) حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 271.

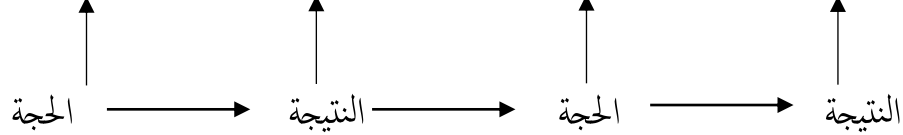
✓ "أسير الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه، لأنه لا يملك ما لا غير معرض للسلب، ولا شرفاً غير معرض للإهانة"⁽¹⁾.



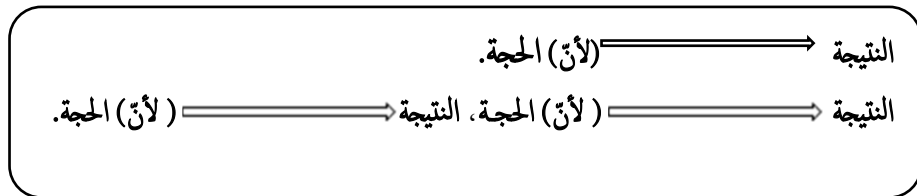
✓ "فاقد الحرية لا أنانية له، لأنه ميت بالنسبة لنفسه، حي بالنسبة لغيره"⁽²⁾



✓ "لا يخاف من الماديين، لأن أكثرهم مبتلون بإيثار النفس، ولا من الرياضيين؛ لأن غالبهم قصار النظر"⁽³⁾



وعلى هذا الأساس نشير إلى أن الكواكبي استخدم الرابط الحجاجي (لأن) ليربط بين النتيجة والحجة في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، وهذا الربط بين أجزاء الكلام ولد طاقة حجائية هامة لأنها تدخل ضمن ما يسمى بالسبل التفسيرية في الحجاج، وهي تقنية كما سبق وذكرنا تثير الانتباه وتستجلب الإصغاء، وتيسر على المتلقي قبول النتائج، ويمكن التمثيل لها وفق المخطط الآتي:



6- إن:

هذا الرابط الحجاجي يفيد "التوكيد"⁽⁴⁾، وهو الأصل فيها ويدور معها حيث وردت، ومن نماذج استعمال هذا الرابط الحجاجي في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) نعرض الأمثلة الآتية:

(1) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 91.

(2) المصدر نفسه، ص 118.

(3) المصدر نفسه، ص 52.

(4) الحسن بن قاسم المرادي، الجني الثاني في حروف المعاني، ص 393.

✓ " إنَّ هؤلاء الخلفاء الرّاشدين فهموا معنى ومغزى القرآن التّازل بلغتهم، وعملوا به واتّخذوه إماماً"⁽¹⁾.



✓ " إنَّ الاستبداد المشوّوم يؤثر على الأجسام فيورثها الأسقام"⁽²⁾.



✓ " إنَّ الاستبداد يضغط على العقل فيفسده"⁽³⁾.



يمكن دور (إنّ) الحجاجي من خلال النماذج السابقة في إثبات صحة النتيجة بحجة أقوى، فالمحاجج عندما يقدم الحجة باستعمال (إنّ)، فإنّه يجعل المتلقي ينقاد نحو النتيجة، ويجعلها أكثر إقناعاً في ذهنه. نستشف من خلال تحليل الروابط الحجاجية المستعملة في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) أن دورها الحجاجي يكمن في الربط بين مكونات الحجاج، وإظهار العلاقات التي تجمع بينها، كما تعين المتلقي على تحديد المقصود والغاية من الحجاج.

2-2 العوامل الحجاجية:

تعمل خلاف الروابط الحجاجية، فهي لا تربط بين الحجج والنتائج، وإنما تقوم "بمحصّر وتقييد الإمكانيات الحجاجية التي تكون لقول ما"⁽⁴⁾، وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل: أدوات القصر (ما...إلا)، (لا...إلا) (ليس...إلا)، (إنما)، ويكمن دورها في "إحالة المتلقي إلى المقصود من النتائج، وبخاصة حينما يكون اعتقاده خلاف ذلك المقصود"⁽⁵⁾، ولتوضيح هذه المسألة نسوق جانباً من هذه العوامل الحجاجية المدرجة في كتاب

(1) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 39.

(2) المصدر نفسه، ص 109.

(3) المصدر نفسه، ص 59.

(4) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص 27، وينظر: قدور عمران، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، ص 36.

(5) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 273.

(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، ونبين شكلها "في تقييد المقصود من نتائج الحجاج"⁽¹⁾، وفق النحو الآتي:

1- القصر:

يعدّ القصر من أهم الوسائل اللغوية التي يلجأ إليها المخاطب حتى يوجه خطابه توجيه إثبات، والقصر لغة الحبس وفي الاصطلاح تخصيص أمر بأمر بأسلوب معين أي حبسه عليه وجعله ملازماً له، وهو أداة توكيد وتخصيص⁽²⁾ يتم غالباً بطرائق متنوعة منها النفي مع الاستثناء، والأداة (إنما). و" أثناء الحجاج يسهم القصر بطرائقه على تخصيص وتقييد الحجة بالنتيجة، كما يوجّه المتلقي إلى استنتاج تلك النتيجة اعتماداً على إمكانات الحصر والتقييد الواردة في الحجاج"⁽³⁾.

وقد تحقق القصر في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) عن طريق مجموعة من العوامل الحجاجية، ولا سيما (لا... إلا، وإنما) بوصفها عوامل تنبئ عن دورها الحجاجي في تحديد القضية المطروحة ومساندتها في الخطاب، إذ تختزل هذه العوامل الحجاجية الحجة والنتيجة معاً في دائرة واحدة بشكل مهيمن وبارز في المعنى الحجاجي، وبهذه العوامل سيكون ذهن المتلقي محصوراً داخل فضاء تلقي الحجة وقد عملت على تعديل القيمة الحجاجية للملفوظ (قيمة الإثبات)، فضلاً على أنها حملت المخاطب على الاقتناع وفيما يلي سأحاول أن أبين البعد الحجاجي للأداة (ما... إلا) والأداة (إنما)، وتوضيح ذلك كالآتي:

1-1 لا...إلا:

كان لهذا العامل (لا...إلا) دوراً بارزاً في توجيه القول وجهة واحدة عن طريق النفي والإثبات، مما يجعل المخاطب يستثمره لإقناع متلقيه بفعل شيء ما، ومن أمثلة ذلك:

(1) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 273.

(2) ينظر: وليد قصاب، البلاغة العربية، علم المعاني، دار القلم، للنشر والتوزيع، الإمارات، ط1، 1998، ص 161، نقلاً عن ابتسام بن خراف، أثر الموجه اللساني في تحديد مقاصد المخاطب - الحديث النبوي الشريف أمودجا، حوليات المخبر، مخبر اللسانيات واللغة العربية، بسكرة، العدد 6، ديسمبر، 2016، ص 279.

(3) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 273.

✓ " إن النشاط والإتقان لا يتأتيان إلا مع لذة انتظار نجاح العمل" (1)

↓ ↓ ↓ ↓

نفي نتيجة استثناء حجة

ففي هذا المثال نلاحظ أن الكواكبي قد حصر للمتلقي السبل التي يتأتى بها النشاط والإتقان وقيدها بواسطة العامل (لا...إلا)، الذي شغل وظيفتين حجاجيتين هما:

- التصريح بالنفي في الجملة الأولى وتعيينه، وإقصاء المفاهيم الأخرى (أي الطرق التي يتأتى بها النشاط والإتقان) التي تخطر ببال المخاطب بشكل عام.

- أما الوظيفة الثانية فهي التأكيد على المقصور عليه، فكأن القصر بهذه الأداة قد عين المقصود من كلام الكواكبي، فالوظيفة العامة التي تضطلع بها الجملة الدلالية الثانية في علاقتها بالجملة الأولى قائمة على علاقة الحصر والتوكيد، ليؤكد نتيجة مفادها أن النشاط والإتقان لا يتأتيان إلا مع لذة انتظار نجاح العمل دون غيرها؛ وبالتالي "فإن العامل الحجاجي قد قيّد وحصر إمكانيات التأويل لدى المرسل إليه إلى مقصود المرسل مباشرة ودون تأويل" (2).

✓ " لا تقرب منه إلا إذا جنى جرماً لتعاقبه، أو مات لتواريه" (3)

↓ ↓ ↓ ↓

نفي نتيجة استثناء حجة

لقد شرع المفظوظ بنفي الحكم عن غير المقصور عليه ثم جيء بهذا المقصور عليه بعد إلا ليحصر الحكم ويؤكد إذ إن نفي تقرب الحكومة من الفرد يفتح باب التأويل الذي يؤدي إلى التوهم والالتباس، فتتعدد التأويلات والتساؤلات عن طبيعة هذه الحكومة، إلا أن الكواكبي يثبت طبيعتها بقوله (جنى جرماً لتعاقبه أو مات لتواريه)، بفعل العامل الحجاجي إلا تبيانا وتحقيقاً لعدالتها وعدم التنكيد على المواطنين لأنفه الأسباب وعليه فالكواكبي يحاول إقناع المخاطب بأن الحكومة العادلة لا تقرب منه إلا إذا جنى جرماً لتعاقبه؛ فقد حصر التقرب في قوله (جنى جرماً لتعاقبه، أو مات لتواريه) وهذا القول بدوره شكل حجة للنتيجة المعروضة والتي مفادها متى تتقرب الحكومة العادلة من أفرادها.

(1) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 113.

(2) حمدي منصور جودي، الحجاج في كيلة ودمنة لابن المقفع، ص 133.

(3) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 112.

إنّ هذه العوامل الحجاجية من قبيل **(لا...إلا)**، من شأنها أن " تخرج الملفوظ من الإبلاغية أي من مستوى الوصف والإبلاغ إلى الحجاجية"⁽¹⁾ كما أنها تضيق المحتوى وتكثفه وتؤدي إلى نتيجة واحدة تبرز مقصدية المرسل، فجو نفي الاستبداد بتلويناته التي عايشها الكواكبي وما بلغه من ظرف نفسي أو اجتماعي له الأثر الكبير في استعماله لهذا العامل الذي يعبر عن رفضه لهذه الظروف⁽²⁾، ومن ذلك قوله: "جعلوه ديناً حرجاً يتوهم الناس فيه أنّ كلّ ما دونه المتفننون بين دفتي كتاب ينسب لاسم إسلامي هو من الدين وبمقتضاها أن لا يقوى على القيام بواجباته وآدابه ومزيداته إلا من لا علاقة له بالحياة الدنيا"⁽³⁾.



يظهر في هذا الخطاب دور العامل الحجاجي **(لا...إلا)** الذي يحصر الإمكانيات الحجاجية للملفوظ ويعمل على عملية التوجيه الحجاجي، وتقويته باتجاه النتيجة الواحدة دون سواها، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

وجه الكواكبي خطابه وجمه حجاجية، فقد قام بحصر الإمكانيات الحجاجية **(من لا علاقة له بالحياة الدنيا)** فالمستبدون والمترشحون للاستبداد جعلوا من الإسلام ديناً حرجاً، لا يقوى على القيام به إلا من لا علاقة له بالحياة الدنيا لأنهم ضيعوا مزاياه، وحيروا أهله بالتفرع والتوسيع والتشديد خدمة لأهوائهم السياسية، حتى أصبحت حياة الإنسان الطويل العمر، العاطل عن كل عمل، لا تفي بتعلم ما هي الإسلامية. عجّزاً عن تمييز الصحيح من الباطل من تلك الآراء المتشعبة، فلا ينبغي تصوير الإسلام على هذه الشاكلة، فقد حصر الكواكبي القيام بهذه الواجبات المنفرعة على الذين ليس لهم علاقة بالحياة الدنيا وهي الحجة التي أتي بها ليدحض عن الدين الإسلامي هذه الافتراءات، فهو دين يسر لا دين عسر دين يتماشى والمعاملات الدنيوية كالعامل فهو في حد ذاته عبادة.

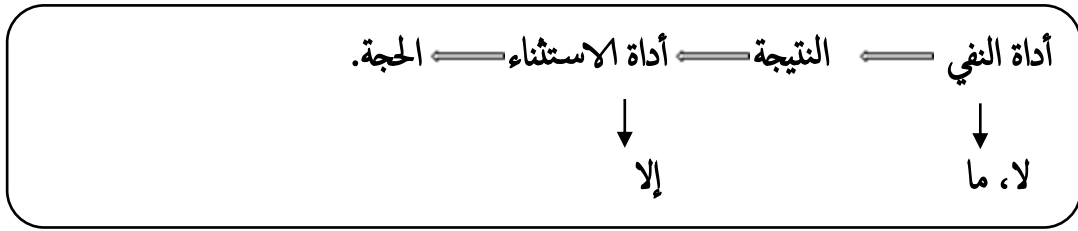
وعلاوة على ذلك تبرز هذه العوامل مكونات الحجاج انطلاقاً من عملية الحصر والتقيد التي يوفرها القصر عن طريق النفي مع الاستثناء؛ لتقرير المعنى في الذهن وتثبيته والدعوة إليه ضمن نسق لغوي خاص يقرره الأسلوب والأداة المستعملة، لذا تعدّ نقطة مفصلية في النص جاذبة للمتلقى، ويمكن تمثيلها وفق المخطط الآتي⁽⁴⁾:

⁽¹⁾ عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية، ص 61.

⁽²⁾ ينظر: مثني كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، تنظير وتطبيق على السور المكية، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 2015، ص 110.

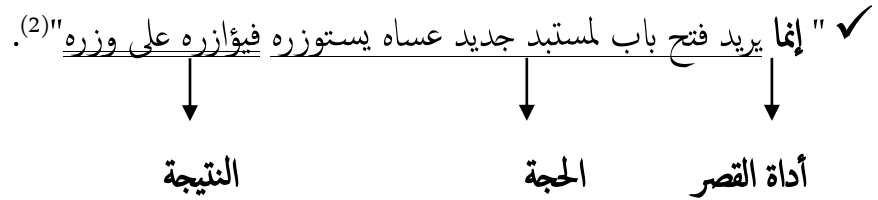
⁽³⁾ عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 44.

⁽⁴⁾ حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، ص 275.



2-إنما:

يعدّ من أبرز العوامل الحجاجية التي تحصر الإمكانيات الحجاجية للملفوظ، وتعمل على عملية التوجيه الحجاجي وتقويته باتجاه النتيجة، فدورها يقتصر على الحجاج لا على الإخبار، وهو ما تنبأ إليه إمام النحاة **عبد القاهر الجرجاني**: " اعلم أنّ تجي الخبر لا يجمله المخاطب ولا يدفع صحته... تفسير ذلك أنّك تقول للرجل (إنّما هو أخوك) و(إنّما هو صاحبك القديم)، لا تقوله لمن يجمل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويُقر به إلا أنّك تريد أن تنبهه للذي يجب عليك من حقّ الأخ وحرمة الصاحب"⁽¹⁾، فقد بين أنّ (إنّما) لا تأتي لإعطاء معلومات جديدة أو خبر يجمله المخاطب، وإنّما تتمثل وظيفتها في كونها تزيد في القوة الحجاجية للملفوظ الوارد بعدها. ومن نماذج القصر في كتاب **(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)** نسوق النماذج الآتية:



ينبغي أولاً تبيان السياق الذي جاء فيه هذا الخطاب، فالكواكي بيّن الخطة التي سينتهجها وزير المستبد في حالة حنقه على المستبد؛ لأنه قدم عليه من هو دونه في خدمته، فيعمل جاهداً على الإطاحة بالمستبد القديم، واستبداله بمستبد آخر جديد، وهو ما أكده الكواكي باستخدام أسلوب القصر الحاصل **(بإنّما)** حتى أنه قصر أعمال وزير المستبد على الإطاحة بالمستبد وفتح الباب لمستبد جديد حتى يستوزره ليشاركه في نهب حقوق الأمة.

إنّ هذا الخطاب يبين سلوك وزير المستبد الذي ينتهي الوزارة خدمة لمصلحته الشخصية، فهو لا يريد نفع الأمة، وإنّما غاية مسعاه أن يبين لمخدومه الجديد أنه على شاكلته حتى يستوزره فيؤازره على وزره.

⁽¹⁾ الجرجاني، (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن) دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1990، ص 330.

⁽²⁾ عبد الرحمان الكواكي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 71.

إن أسلوب القصر في هذا المقام يؤكد منها استبدادياً يسير عليه وزير المستبد، وبالتالي توجيه المتلقي إلى عدم الوثوق به؛ لأنه لا يخرج على أنه خائن للأمة.

لذا كان قصد الكواكبي هنا الحجاج لا الإخبار، وهو ما ضمن سلامة المسار الحجاجي في إعادة توجيه المتلقي وتثبيت صورة وزير المستبد في ذهنه، وعليه فإن العامل الحجاجي (إنما) قد حدد الاستنتاج وضبطه فالمخاطب لا يجهل تلك الحقيقة، وإنما أراد الكواكبي تأكيدها وإقرارها من أجل تقوية التوجيه الحجاجي نحو النتيجة.

✓ "إنما ينتقل من عمل إلى غيره، ومن فكر إلى آخر، فيكون متلذذاً بآماله إن لم يسارعه السعد في أعماله"⁽¹⁾.



هذا النموذج من الخطاب، يفيد تخصيص أمر الانتقال من عمل إلى غيره، ومن فكر إلى آخر بأمر التلذذ بالآمال؛ بطريقة مخصوصة وهي طريقة أسلوب القصر، فإذا "حذفنا إنما وجدنا أن التخصيص قد زال منه وعلى هذا فوسيلة التخصيص فيه، هي لفظة، إنما"⁽²⁾، التي تحصر الإمكانيات الحجاجية، وتعمل على توجيه الملفوظ نحو نتيجة واحدة، فالكواكبي يحث العامل على أن يشحذ همته وإرادته لنيل النتيجة المطلوبة حتى وإن أخفق فعليه المحاولة مرة تلو الأخرى حتى يبلغ إلى ما يصبو إليه، مبتعداً عن صفات التثاقل والتخاذل والعجز، وهو بذلك يجذره من الاستسلام للخيبة؛ لأنها تجرّه إلى ما لا يحمد عقباه. وعلى أساس هذه الأمثلة التوضيحية، نرسم المخطط العام للقصر باستعمال الأداة إنما، على النحو الآتي:

إنما ← الحجة ← النتيجة

من خلال تحليل عينات من الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) نخلص إلى أن كل هذه الأدوات سواء أدوات العطف أو الاستدراك أو الحصر، هي المؤشر الأساسي والبارز والدليل القاطع على أن الحجاج مؤثر له في بنية اللغة نفسها.

(1) عبد الرحمان الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 112.

(2) عبد العزيز عتيق، البلاغة العربية، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص 148.

3- الآليات البلاغية في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد):

إن حصول الإقناع لا يتوقف عند حد الآليات اللسانية النصية، والآليات اللغوية إنما يتجاوزهما إلى الآليات البلاغية بمختلف صورها المجازية التي تعد رافدا من روافد الحجاج وفنا من أفانين الإقناع التي يعتمدها المخاطب لإشباع فكر المتلقي ومشاعره معا ليحمله على الانتباه أوّلا فالإذعان والتسليم ثانيا، ثم العمل والتغيير ثالثا.

فلكي يتم الإقناع يلجأ المخاطب إلى الصور المجازية التي تتيح له استخدام المعنى الضمني حتى يوجه المتلقي إلى التفكير في الشيء غير المصرح به؛ فهي بمثابة حجج دلالية لفظية معطاة، تحتوي معنى ضمنا تداوليا أي استنباطات مستخرجة من المقام من قبل المتلفظ المشارك (المتلقي) بفضل استدلال عفوي إن قليلا أو كثيرا⁽¹⁾.

وعلى هذا فهي "كلام نصفه -وهو المصرح به- من صنع النص أو المتكلم، ونصفه وهو الضمني من صنع المتلقي"⁽²⁾، هذا الأخير "يضطر إلى استنتاجه (الضمني) بنفسه بواسطة مجهوده التأويلي، فلا يستطيع رده ومن ثم لا يمكنه إنكار ما عرضه عليه المخاطب"⁽³⁾ لا سيما وأنّ المعنى الضمني تُستقى مادته "من المحسوس ولكنه ليس أي محسوس فهي إذ تقع أو تكون منطوية على طاقة إقناعية لا تكون كذلك لأنها من الحس فحسب، وإنما لأنّ هذا الحس نفسه منتزع من تجارب المتلقين المادية وممارستهم المعيشية ومشاهداتهم العينية ومن سلوكهم اليومي، غير أن مادة الصورة قد لا تستمد من الحس فقط باعتبار أن المقصود من الحس عندنا هو المشاهدات والممارسات والسلوك المادي. فقد تستمد هذه المادة التصويرية من المجال الاعتقادي والفكري والثقافي المجرد"⁽⁴⁾.

وهي بذلك تعد طريقة من طرائق إثبات المعنى وإقامة دليل عليه، فهي تعوّض الحقيقة (تصور المعنى وتقدمه تقدما حسيا) دون أن ينتج عن عملية التعويض هذه تغيير في المعنى الحقيقي.

فالصور المجازية تقوم على مبدأ التعويض / الاستبدال، ويعد هذا الأخير انتهاكا لجميع قواعد المحادثة التي حددها غرايس (Grice) (قاعدة النوع: ليكن إسهامك في الحديث صادقا، قاعدة الكم: ليكن إسهامك في الحديث إخباريا أكثر ما يمكن بحسب ما تتطلبه وضعية المحادثة، قاعدة الطريقة: كن واضحا، قاعدة المناسبة:

(1) ينظر: ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ص 320.

(2) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص 562.

(3) ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ص 322.

(4) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص 500.

ليكن إسهامك مناسباً لموضوع المحادثة، بحيث يجد المتلقي نفسه إزاء استلزام (مجموعة من الاستنتاجات المتتالية) ويدرك بذلك أن المخاطب يقصد شيئاً آخر.

وينشأ عن هذا المبدأ الاستبدالي الوظيفة الاستدلالية الحجاجية للصور المجازية والمتمثلة في تجسيد المعاني وجعلها مرئية مشاهدة وجعل حضورها في ذهن المتلقي أقوى ووقعها عليه أشد وأثرها فيه أعمق⁽¹⁾ وهذا ما أكده عبد القاهر الجرجاني إذ يقول: "إن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى

جلي، [...]، وأن تردّها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعمّا يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قيل: ليس الخبر كالمعاينة، ولا الظن كاليقين"⁽²⁾

ولعل هذا ما جعل بعض الدارسين لحجاجية الصورة البلاغية يبحثون في الأبعاد الحجاجية لمادتها فبعد الله صولة - مثلاً - درسها في مبحثين وسم الأول ب: مادة الصورة المنتزعة من المجال الحسي، والثاني ب: مادة الصورة المستمدة من المقومات الثقافية والرمزية لفكر المتلقين وخلص فيهما معاً إلى أن كل الصور القرآنية لها مادة معلومة لدى المتلقين لاستنادها إلى مجمل كفاءات المتلقين المعرفية والنفسية والثقافية والعقدية⁽³⁾

تمثل هذه الكفاءات المعرفية والعقدية للمخاطب "مواضع حجاجية* لكونها محل إجماع وفكرة عامة يؤدي استخدامها في الخطاب إلى اقتناع المتلقي بما يعرض عليه بواسطتها"⁽⁴⁾

علاوة على ذلك تتيح الصورة البلاغية للمخاطب تقديم ذاته (الإيتوس الخطابي) التي يصنعها داخل خطابه ويضمّن ملفوظه، كما تمكنه من إثارة انفعالات المتلقي (الباطوس) "وأهوائه لوضعه في الحالة النفسية المناسبة لتمرير دعواه وحمله على إنجاز فعل ما، فلا يكفي الخطيب أن يختار الحجج العقلية الملائمة، وأن

(1) ينظر: ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ص 321-322.

(2) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 121.

(3) ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص 499-543.

* مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل مجموعة بشرية ولغوية معينة، والكل يسلم بصدقها وصحتها، فالكل يعتقد أن العمل يؤدي إلى النجاح، وأن التعب يستدعي الراحة وأن الصدق والكرم والشجاعة من القيم النبيلة والمحبة لدى الجميع. والتي تجعل المنتصف بها في أعلى مراتب الاجتماعية، والكل يقبل أيضاً أن انخفاض ميزان الحرارة يجعل سقوط المطر محتملاً. إن بعض هذه المبادئ الحجاجية يرتبط بمجال القيم والأخلاق، وبعضها الآخر يرتبط بالطبيعة ومعرفة العالم، ينظر: اللغة والحجاج، ص 33.

(4) ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ص 335.

يجلب ثقة السامعين، بل عليه أيضا أن يحرك نوازعهم ويتلعب بحساسياتهم، ويهيئهم على المستوى السيكولوجي لقبول الخطاب"⁽¹⁾.

وهذا ما جعل أرسطو يخصص في خطابه، كتابا كاملا للانفعالات والعواطف، ليؤثر بنجاعة في عقول مخاطبيه، وقد تناول كل هوى من الأهواء الأربعة عشر التي ذكرها ميشيل ماير في تقديمه لكتاب أرسطو فن الخطابة؛ ومنها الرغبة والسخط والتخوف والجرأة والغيرة والإحسان والصدقة والكرهية والحسد والشفقة وبكلمة واحدة كل ما يكون مصحوبا بألم وبلذة⁽²⁾؛ فهي من الأركان الأساسية التي لا غنى للمخاطب عنها لأنها تحمل على الإقناع وتقود إليه.

فيها يعتمد إلى التأثير في القلب والفعل في الوجدان والعقل على حدّ سواء. لكونها تلامس كلّ الملكات لكي يكون تأثيرها ناجعا وفعالها تامًا، لذلك كان أرسطو رافضا مبدأ الفصل بين العقل بما هو فكر ولغة، وبين العواطف والأهواء بما هي نوازع وحاجات.⁽³⁾

وبذلك تُقيم الصّور ضربا من التّرابط ونوعا من الوصل الذي بمقتضاها تنصهر قيم العقل مع القلب وتتمازج ملكات الإحساس مع المنطق، مؤدية بذلك جملة من الأدوار الإقناعية والوظائف الحجاجية.

من هذا المنطلق سنحلل الصور البلاغية وميكانيزمات اشتغالها بالاعتماد على:

1- الأنواع البلاغية (الاستعارة المكنية، الكناية) باعتبارهما الأكثر ورودا في مدونة (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، لاحتوائها على ملفوظات تُورط المتلقي في إنتاج الدلالة بواسطة المقام الذي يلقى فيها وتحمله على استخراج المعنى الضمني ومواصلة منطق الحوار في الاتجاه الذي يفرضه المخاطب بواسطة أداة الربط والاستنتاج إذن، حسب ما يبينه الرسم التخطيطي الآتي⁽⁴⁾:



2- حجاجية الصورة البلاغية الكامنة في مادتها ونعني بها " مجمل كفاءات المتلقين المعرفية والنفسية والثقافية والعقدية التي يأتي مضمون الصورة مستندا إليها مشكّلا بها معتمدا عليها بطريقة يكون مضمون الصورة

(1) محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، ص 76.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 258.

(3) ينظر: علي الشعبان، الحجاج وقضاياها من خلال مؤلف روث أموتي الحجاج في الخطاب، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، ج1/ ص 963.

(4) ينظر: ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ص 322.

هذا غير غريب عنهم، فهو معلوم لديهم. وتبعاً لذلك يكون نفاذه إلى قلوبهم وإلى عقولهم في سهولة ويسر ويحصل إقناعهم بما أريد إقناعهم به دون صعوبة أو عسر⁽¹⁾.

3- حاجة الصور البلاغية الراسمة لصورة المتكلم (الإيتوس الخطائي*) والمثيرة لأهواء المتلقي وانفعالاته (الباطوس*) التي تهدف من خلالها إلى استبيان كيف يبني المتكلم صورة لفظية لذاته باعتبارها مظهراً مشكلاً بواسطة الملفوظات اللغوية دون تفعيل للإيتوس ما قبل الخطائي⁽²⁾ وكيف يثير الأهواء والانفعالات ويحركها "مما يُيسر له فعل الإقناع ويعينه على عطف القلوب الثائرة وعلى قذف اليقين في النفوس الشاكّة"⁽³⁾.

وفيما يلي تحليل لأهم الأبعاد الحجاجية التي حصل بها تأثير الصور المجازية في متلقي الخطاب:

1- حاجة الاستعارة المكنية:

من المعروف أن الاستعارات لا تؤوّل حرفياً، "كما أنها لا تقول الصدق أبداً، ولو فهمنا الاستعارات فهما حرفياً لتوقفت الخطابات، وانحصرت المعاني عند حدود ما هو متعارف عليه في القواميس والمعاجم"⁽⁴⁾. فإن الاقتصار على استعمال الألفاظ في دلالتها المعجمية الحقيقية وإن كان يجعل القول واضحاً جلياً فإنه يتركه سوقياً ومبتذلاً ولكي يسمو ويجود لا مناص من استعمال الاستعارات، لأنها ترفع القول عن السوقية والابتذال بما تضيفه عليه من التباس أو غموض نسبي يمتنع المخاطب ويفيده بعد انجلائه⁽⁵⁾ فمن خلالها يجتاز الإنسان العوالم ويقرب بين الأشياء وذلك حيث تصير الملفوظات رموزاً تحيل من شيء إلى شيء وترتحل بنا من عالم إلى عالم آخر، فهي "ضرب من التصوير تحل فيه صورة مكان صورة أخرى لتكون أقرب إلى ذهن المتلقي"⁽⁶⁾.

(1) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص 496.

* هي صورة المخاطب أو بالأحرى الانطباع الذي يمنحه عن ذاته بواسطة خطابه.

** تلك العواطف التي إذا عرف الخطيب كيف يُحرّكها في جمهوره ويوجهها الوجهة التي تخدم قضيتته استطاع أن يؤثر في أحكامهم وما يحملونه حول تلك القضية من وجهات نظر، ويوجه من ثم ردّ فعلهم، ينظر: حاتم عبّيد، الباتوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب، من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسات نظرية تطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، دار الروافد الثقافية، ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ج2، ص 752-753.

(2) ينظر: محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 246.

(3) حاتم عبّيد، الباتوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب، من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف، ص 753.

(4) عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2010، ص 206.

(5) ينظر: حمّو النقاري، المنهجية الأصولية والمنطق اليوناني من خلال أبي حامد الغزالي وتقي الدين بن تيمية، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، إشراف طه عبد الرحمن، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، السنة الجامعية 1987، 1988، ص 54.

(6) نعيمة سعدية، الأسلوبية والتّصّ الشعري، دار الكلمة، الجزائر، ط1، 2016، ص 139.

وهذا ما يجعل منها عملية ذهنية تقوم على التقريب بين موضوعين أو وضعين، وذلك بالنظر إلى أحدهما من خلال الآخر. ويسوغ التقريب بواسطة ملاحظة علاقة ذات طبيعة حوارية وتشبيهية. وتنتج وتدرك الاستعارة من خلال السمات المشتركة والسمات الخلافية، حيث يتأسس التفاعل بين الطرفين الذي يؤدي إلى وحدتهما.

وتكتسب الاستعارة تداوليتها من التأثير الذي تحدثه في المتلقي في سياق معين، فهي تفضي بالمتلقي إلى الوعي والحصول على التجربة المعدلة للسلوك والمحاولة من الانفعال إلى الفعل⁽¹⁾

تعدّ الاستعارة المكنية من أهم الحجج التي اعتمدها الكواكبي لإمداد الخطاب بقوة الإقناع والتأثير، وفيما يأتي نسوق نماذج منها:

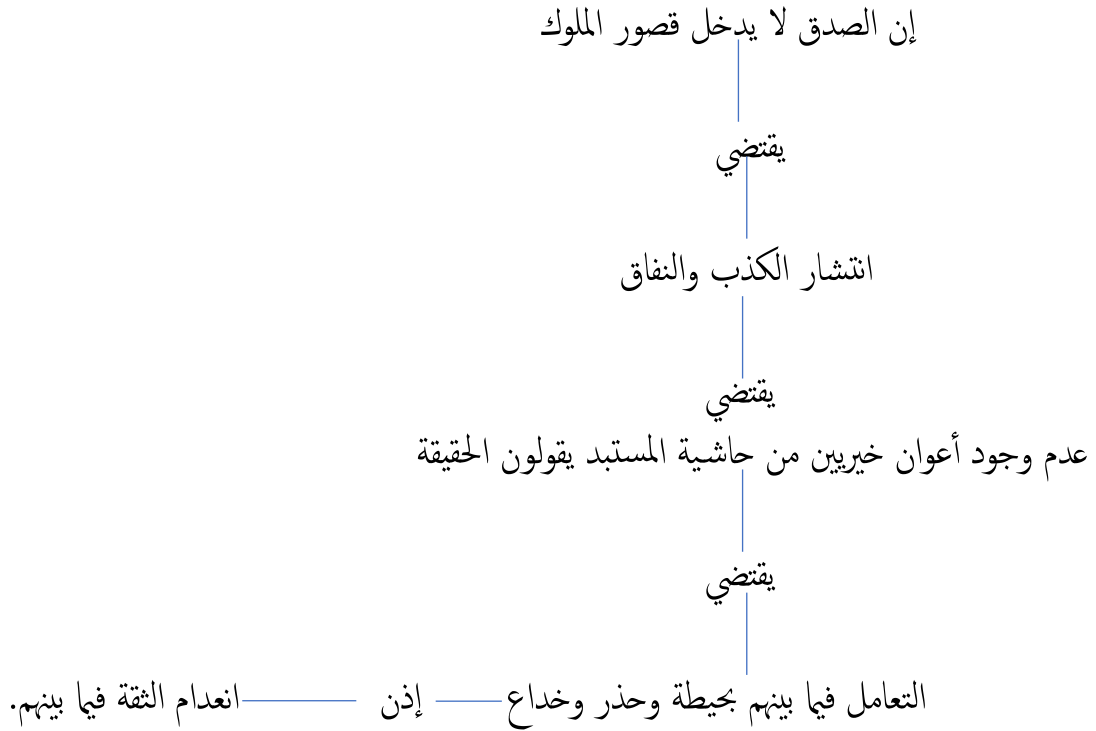
✓ "إن الصدق لا يدخل قصور الملوك"⁽²⁾

لقد حاول الكواكبي أن يجسد معاني النفاق والكذب السائد في قصور الملوك لمتلقيه، مستعينا في ذلك بوعي هذا الأخير على تأويل الصورة البيانية؛ حيث شبّه الصدق بشخص مخلص يقول الحقيقة، فحذف المشبه به (المستعار منه)، ورمز إليه بأحد لوازمه وهي لا يدخل على سبيل الاستعارة المكنية.

وبذلك تحول الصدق إلى شخص مخلص يستحيل أن يدخل قصور الملوك. وأصبحت بذلك قصور الملوك تعج بالكذب والنفاق؛ فكل من يحيط بالمستبد لا يرشده إن جهل مهما كان عاقلا ولا يُصرّح بالحقيقة قبل إدراك رأيه فإن كان صارما متعصبا فيما اعتقد فلا بد من مسيرته سواء على حق أو باطل وبهذا لا يجد المستبد صدقا من حاشيته فالكل يتملق ويتزلف لإرضائه، وفي مقابل ذلك نجد أن المستبد لا يثق فيهم؛ لأنهم أقدر الأشخاص على الإطاحة به، وهو الضمني الذي عول عليه الكواكبي لإقناع المخاطب سواء الواقعي أو المفترض من أجل إلغاء ما قد يتبادر إلى ذهنه من وجود أعوان خيريين للمستبد يدافعون عن الحق ويتعاملون فيما بينهم بالثقة دون خداع ومراوغة.

(1) ينظر: ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ص 323.

(2) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 54.



هذا فيما يخص المعنى الضمني المستنتج من قبل المخاطب، أما فيما يخص الصورة المستمدة من المجال الحسي (قصور الملوك)، تعدّ بلا مراء من أعظم المشاهد تأثيرا في المتلقي، وهو في الوقت نفسه من أعظم المظاهر تكررًا في حياته. بحيث يكون هذا المشهد من أعلق المشاهد بذاكرته ومن أشدها وقعا عليه؛ فكلما ذكرت قصور الملوك في سياقات السلطة تبادرت إلى ذهن المتلقي بمخيله الجماعي والثقافي والتاريخي صور الخداع والتزلف والخوف والصراع. اعتماد الكواكبي على هذه المادة التصويرية التي مدارها على (قصور الملوك) وما يحدث داخلها من شأنه أن يجعل معنى التنفير من الخداع والنفاق أقرب مأخذا وأيسر نقاذا إلى عقول المتلقين وإلى قلوبهم، وهذا ما يترتب عنه احتقار الرعية لهم وشحن الهمم لمواجهتهم.

أما الصورة التي يصنعها المخاطب عن نفسه فهي مضمرة تتلمس آثارها العالقة في خطابه؛ إذ إنه يظهر من خلالها في "صورة القائد المحارب لقوى الشر"⁽¹⁾ المدافع عن الحق الذي يسعى في مبارزته لخصمه (المستبد) إلى تحطيم صورته مع حاشيته ووسمهم بالكذب والنفاق دون أن يفقد رصيده الأخلاقي، وهو بهذا "يحول الإيتوس السلبي للخصم إلى أداة لبناء إيتوس إيجابي للذات"⁽²⁾.

ومثلما تُسهم الصور البيانية في بناء إيتوس المخاطب، تسهم استراتيجيات الأهواء في بنائه؛ فعدد من صور الإيتوس التي يظهر بها المخاطب تصنعه استراتيجيات إثارة الأهواء التي يعمل على تشكيلها في خطابه

(1) محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 186.

(2) المرجع نفسه، ص 194.

فلكي يبني إيتوس الإنسانية على سبيل المثال، يعتمد إلى الظهور بمظهر الشخص الذي يتعاطف مع الضعفاء ويعاني مشكلاتهم⁽¹⁾ وهذا ما جسده هذه الصورة البيانية.

كما عمد الكواكبي من خلالها إلى تفعيل انفعالات الغضب والحقد في الرعية على كل من المستبد وحاشيته بغية استنهاض الهمم لمجاہبتهم وهو ما أطلق عليه هنريش بليث "مقصدية التهييج وتكن في البحث عن الانفعالات العنيفة (الحقد، الألم) التي تسيطر على الجمهور [...] إنه الباطوس (Pathos) الكلاسيكي... وفيه تبلغ السيكولوجية المقصدية للبلاغة ذروتها⁽²⁾

ومن الاستعارات الحجاجية الموظفة لتحريك هممة المخاطب إلى الاقتناع ودفعه إلى تحصيل العلوم التي من شأنها أن تسمو به إلى أعلى مراتب الرقي الفكري الذي ينعكس إيجابيا وتظهر آثاره جلية في التصرفات (أفعالا وأقوالا) قول الكواكبي:

✓ "يسعى العلماء في تنوير العقول، ويجتهد المستبد في إطفاء نورها"⁽³⁾

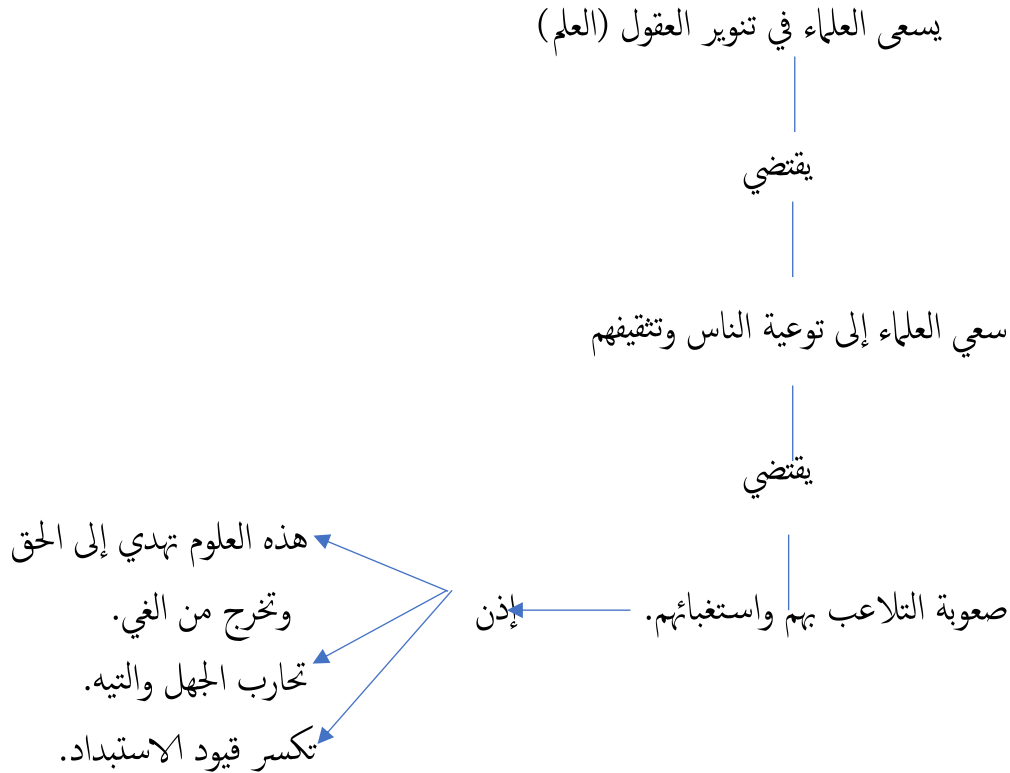
الصورة البيانية 1 (الاستعارة المكنية) الصورة البيانية 2 (الاستعارة المكنية)

(يسعى العلماء في تنوير العقول) حيث شبه العقول بالفوانيس التي تنار، فحذف المشبه به (المستعار منه) الفوانيس وأبقى على صفة من صفاتها وهي التنوير على سبيل الاستعارة المكنية. وقد استعملها الكواكبي ليس لكونها تضيف إلى الخطاب جمالا وسحرا، بل باعتبارها إقناعية تجعل المخاطب يقتنع أكثر فأكثر بضرورة اتباع العلماء لتحصيل العلوم التي من شأنها توعيتهم وثقيفهم وإزالة ظلمات الجهل والتهيه عنهم لكسر قيود الاستبداد، وهو المعنى الضمني الذي سعى الكواكبي إلى إقناع المخاطب به. وتفصيل ذلك وفق المخطط الآتي:

(1) ينظر: محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 190.

(2) هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، ص 27.

(3) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 53.



إن سعي العلماء في نشر العلوم هو إعلاء لراية الحق وصلاح وفلاح في الأرض وكسر لشوكة الاستبداد، وهذه المفاهيم منحدره من المفهوم الرئيسي **يسعى العلماء في تنوير العقول**. ومن الاستعارات التي زادت الخطاب تأثيراً على تأثير وأحدثت ردة فعل في المخاطب لتدفعه إلى ضرورة تحصيل العلم قول الكواكبي (**يجهتد المستبد في إطفاء نورها**)، حيث شبه العقول بالفوانيس التي تطفأ، فحذف المشبه به (المستعار منه) وأبقى على صفة من صفاتها وهي الإطفاء على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي هذا تجسيد لمعاني تجهيل العوام وتضليل عقولهم وطمس نورها بإنزال تفكيرهم لأدنى المراتب ليسهل على المستبد استغلالهم واستعبادهم، وفيما يلي توضيح للقول المضمرة المستتر في الصورة الاستعارية من خلال الرسم التخطيطي الآتي:

يجتهد المستبد في إطفاء نورها (الظلام، الجهل).

يفتضي

محاورة العلوم بتضييق الخناق على العلماء.

يفتضي

تخبط العوام في ظلمات الجهل والتهيه.

يفتضي

سهولة التلاعب بهم واستغلالهم من قبل المستبد ← إذن ← بلوغ الجهل والخوف والظلم ذروته.
الاتقياد والوفاء المطلق للمستبد.
توثق قيود الأسر.

أما بخصوص مادة الصورة فقد استمدها الكواكبي من موضع اللون باعتباره مخزنا " للحجج يستند فيه إلى رصيد المجموعة الثقافي والرمزي"⁽¹⁾؛ فالبياض والسواد مقترن بوجه من الوجوه بالنور والظلمة فينبها تلازما دلاليا وخير مثال على ذلك ورودهما في سياقات قرآنية كثيرة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: **قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿٢﴾**

إذ إنه كلما ظهرت " كلمة النور أو الظلمة في سياق لغوي ما أحالت على البياض أو السواد وما يحملانه من دلالات إيجابية وسلبية، وهكذا فإن الهدى الذي كثيرا ما يستعار له النور، والضلال الذي كثيرا ما يستعار له الظلام، يمكن وضعهما على محور أبيض / أسود في نهاية المطاف فيكون العلم نورا (أبيض)

(1) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 532.

(2) سورة المائدة، الآية 15، 16.

والجهل ظلما (أسودا). وما ينشأ بينهما من تعارض العلم وما يستدعيه من حياة وطهارة والجهل وما يستدعيه من موت وقذارة. " (1)

" فضلا على أن العرب يفضلون الأبيض على الأسود، وهو تفضيل راجع حسب ما فهمنا إلى الدلالة الملازمة لكل منهما؛ فالسواد في كل منهما قرين الأرض والظلمة والنزول إلى طبقات الأرض السفلى وبعضها مساكن الجن، وبالعكس ذلك اللون الأبيض الفضي فهو لون النيرين ولذلك اقترن بالإشراق والحياة والسمو واقترنت بقيم معنوية إيجابية" (2).

يمكن لنا أن نتصور أنه بناء على هذا شكل اللونان الأبيض أو ما يفهم من البياض (النور) والأسود أو ما يفهم من السواد (الظلام) دون شك موضعا هو موضع الألوان فهو عند العرب وعند غيرهم من الشعوب بمنزلة المخزن الذي منه يستخرجون حججهم في خطاباتهم حين يرغبون في الشيء أو ينقرون منه وهذا ما وظفه الكواكبي حين استمد مادة الصورتين البيانيتين من معتقدات متلقي طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ليسهل استمالتة وإقناعه؛ فالعلم إذ يوصف بالنور يوضع على المحور الذي ينتظم الأمور البيضاء الميمونة المباركة فيكون بذلك ميمونا مباركا مشحونا بقيمة إيجابية، والجهل إذ يوصف بالظلام يوضع في زمرة الأشياء السوداء المشؤومة البغيضة عادة فيكون بغيضا مشؤوما (3).

وهذا ما يجعل من موضع اللون (الأبيض / النور) يستعمل للترغيب في الأمر الحسن وفي كون (الأسود/ الظلام) يوظف للتنفير من الأمر المستقبح؛ فالأبيض أفضل من الأسود والنور أفضل من الظلمة لاسيما وأن هذه المواضع تندرج ضمن "نظام قيمي عام ثابت الأركان لا يتزعزع" (4)؛ لكونها محل إجماع يؤدي استخدامها في الخطاب إلى اقتناع المخاطب بالدعوى المراد إقناعه بها واستحالة المجادلة فيها.

وبما أن الإيتوس يشير بشكل عام إلى الشخص على نحو ما يبرز في الخطاب، فبمجرد أن يتكلم يتجلى جزء من وجوده عبر ما يقوله، فهو يسعى إلى بناء هويته وإبراز خصائصه في صورة توحى بالمصادقية والثقة (5).

وعلى هذا يبدو السؤال الأكثر إلحاحا كيف ساهمت الصورة البيانية (يسعى العلماء في تنوير العقول ويجتهد المستبد في إطفاء نورها) في بناء صورة ذاتية إيجابية للكواكبي؟

(1) فيليب سيرنج، الرموز في الفن، الأديان، الحياة، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق، سوريا، ط1، 1992، ص 429.

(2) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص 530.

(3) ينظر: المرجع نفسه، ص 537.

(4) المرجع نفسه، ص 542.

(5) ينظر: محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 174.

استمدت هذه الصورة البيانية جزءاً من وظيفتها الحجاجية من تشكيلها لصفات المخاطب (الكواكبي) وسجاياه بوصفها مصدراً لإيقاع التصديق في نفوس المتلقين يعضد صدق الخطاب ويقوّي تأثيره. حيث تظهت فيها صفات العالم صاحب الخبرة مع الاستبداد الشجاع الذي تصدى له مواجهاً مرشداً، وواعظاً بما ينتفع به الناس (العلم) ويجلب لهم المصلحة في شؤون دنياهم وبلادهم، وبما يمكن أن يضرهم ويجلب لهم الشقاء والتعاسة (الجهل). وهو بذلك يكشف لمخاطبيه البعد الإنساني في شخصه الراض للظلم ولكل أشكال الاستعباد⁽¹⁾.

لم يكن الكواكبي في هذه الصورة البيانية في تقديم صورة عن ذاته وإبراز سماتها الإيجابية بل قدم صورة شيطانية لخصمه وهو ما يسمى في البلاغة القديمة بحجة آدهومينم (**ad hominem**)، حيث يلجأ المخاطب إلى إظهار خصمه في صورة سلبية تقلل من قدره وتظهره في مظهر الشخص غير الجدير بالثقة⁽²⁾ فقد قدم المستبد باعتباره شبهاً متربصاً في الظلام متأمرًا على العلم والعلماء يسعى إلى تجهيل الرعية. كما يروم الكواكبي من خلال هذه الصورة إثارة أهواء العوام أي انفعالات الفرح، الألم والخوف والقلق فنقلها من حالة نفسية إلى حالة أخرى هو السبيل إلى التأثير فيها وحملها على الإصغاء للعلماء، فقد انخرط الواعظ (الكواكبي) في استراتيجية خطابية تقوم على نقل العوام من الإحساس بالدعة والطمأنينة إن هي أقبلت على التنور بالعلم إلى الإحساس بالأذى الذي قد يلحقها من خطر الجهل المحقق بها إن هي لم تمتثل لما يوجهها إليه العلماء. فإثارة خوف العوام استراتيجية خطابية لجأ إليها الكواكبي للسيطرة على سلوكهم وتوجيههم نحو السلوك الفعال، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى إثارة نقمة وسخط العوام على المستبد بسبب ما يحدثه من انتهاكات في حقهم.

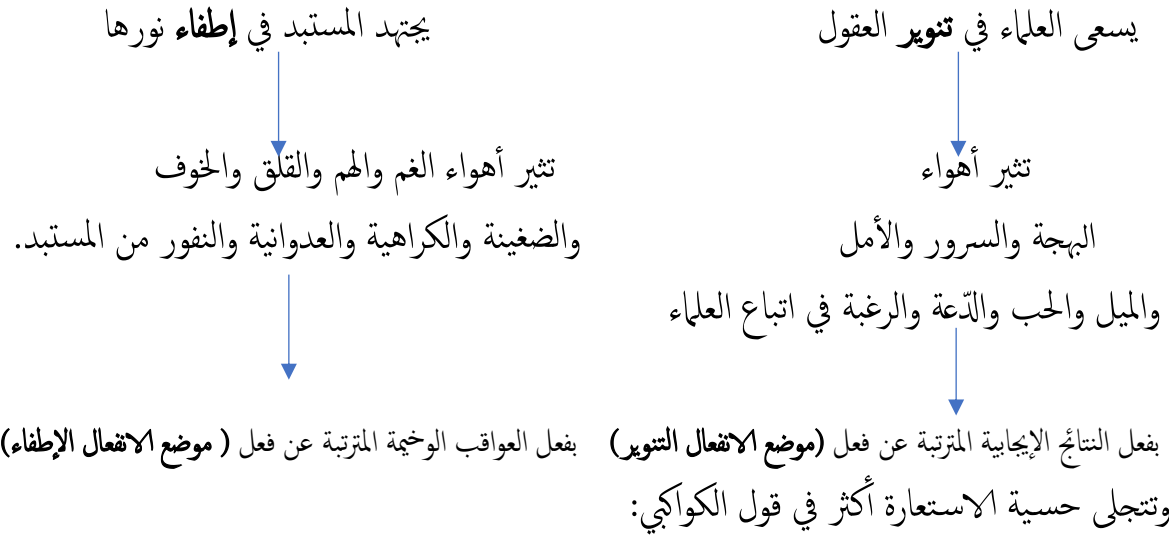
وتأتى للكواكبي إثارة هذه الأهواء (الانفعالات) عن طريق مواضع الانفعال (التنوير، الإطفاء) وما تحيل إليه من دلالات البهجة والسرور والغم والهم، المثيرة للرغبة والرغبة على العواقب أو النتائج سواء أكانت إيجابية أم سلبية، وهي من الحجج التي صاغها للترغيب في العلم واتباع العلماء والترهيب من الجهل والنفور من فقهاء الاستبداد، والأمر البيّن الذي ساعده على إذكاء هذه الأهواء بنوعها اشتغاله على خاصية تعالق الهوى بالفعل باعتبار الأهواء تدفع إلى الفعل "وتعد بمثابة عملية تمكن من الفعل أي ما يسعف على الانتقال من إرادة الفعل إلى القدرة على الفعل"⁽³⁾

(1) ينظر: محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 228.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 224، 194.

(3) نعمة السعدية، التحليل السيميائي والخطاب، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2016، ص 158.

وتتنوع الأهواء المثيرة للفعل في الصورة البيانية (يسعى العلماء في تنوير العقول، ويجتهد المستبد في إطفاء نورها)، وتفصيل ذلك وفق المخطط الآتي:



✓ " يلتبس عليهم الفرق بين الإله المعبود بحق وبين المستبد المطاع بالقهر، فيختلطان في مضايق أذهانهم من حيث التشابه في استحقاق مزيد التعظيم، والرفعة عن السؤال وعدم المواخذه على الأفعال بناء عليه لا يرون لأنفسهم حقا في مراقبة المستبد لانتفاء النسبة بين عظمتهم ودناءتهم"⁽¹⁾.

لقد عمل الكواكبي جاهدا على تجسيد معاني محدودية الفكر للمتلقى، مستعينا في ذلك بوعي هذا الأخير على تأويل الاستعارة المكنية؛ إذ شبه ما في الأذهان (قدرات عقلية، فهم، إدراك) بالمضايق وأخذ من الجماد الموجود في الطبيعة (جبل طارق على سبيل المثال لا الحصر) وجعله في أذهان العوام. وتكمن بلاغة هذه الاستعارة في قدرتها على تصوير المعنى، وتقديمه حسيا إلى المتلقي قصد التأثير فيه، فالمشاهد أقوى في توجيه السلوك من الغائب، إن مجرد استحضار الشيء مقنع، إن ما هو حاضر ومائل أمام أعيننا جدير بأن يثير عنايتنا واهتمامنا. ويجعل تصرفاتنا تتأثر بهذا الحضور الفعال.⁽²⁾ والاستجابة للنتيجة الضمنية المضادة التي يود إقناع المتلقي بها.

إن الملفوظ الاستعاري **يختلطان في مضايق أذهانهم** يحمل متلقي الخطاب على الإسهام في صنع الكلام الضمني وإمطة اللثام عنه، بعد أن يعمل كفايته الذهنية⁽³⁾

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 34.

(2) ينظر: عبد العزيز لحويديق، نظرية الإستعارة في التراث البلاغي العربي، بنية الاستبدال واستراتيجية البيان، النادي الأدبي بمراكش، إفريقيا الشرق، (د.ط.)، 2016، ص 97.

(3) ينظر: ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ص 331.

يختلطان في مضائق أذهانهم

يقترض

تشعب المفاهيم وعدم إدراك حقيقتها في ذهن العوام ← إذن ← محدودية التفكير.
بلوغ الجهل والخوف والشرك ذروته.
ادعاء صفات الربوبية للحكام.

إن المتلقي حينما يجهد نفسه في استنباط المعنى الضمني يكون تأثره بالصورة أقوى.
أما بخصوص مادة الصورة **يختلطان في مضائق أذهانهم** فقد استمدتها الكواكبي من مجال الطبيعة لتعوض المفهوم المجرد (محدودية التفكير) لتقريب المعنى وإيضاحه في ذهن المتلقي.

فالمضايق في واقعها قناة مائية تصل مسطحين مائين وتقع بين مساحتين كبيرتين من اليابسة التي لها أهمية بارزة حين تختصر المسافات وتشهد حركة كبيرة في المجال الاقتصادي.

إلا أنه في أذهان العوام تشهد حركة واسعة من الأفكار التي يختلط فيها التشابه بين من يستحق المزيد من العظمة ولا يحق سؤاله ولا مؤاخذته وإعطائه صفة القداسة المطلقة أي بين معبودهم وجبارهم والمنعم وولي النعمة... وبهذا ضُيق الخناق على الذهن ولم تترك له فسحة للتفكير حتى يجول ويختار الأحسن ويستوعب الأمور ويعمل على نقدها أو نبذها، لأنه إذا فقد المجتمع وعوامه السيطرة على عالم الأفكار كان الخراب ماحقًا لا محالة.

وتتجلى صورة الكواكبي بطريقة ضمنية عبر تلفظه وممارسته اللغوية وطريقة تعبيره واختياراته اللفظية المستخدمة في هذه الصورة البيانية التي يظهر فيها بمظهر الجدية، والسمو عن التفكير المبتذل، الشجاعة والصدق والكفاءة في تقويم هذا الوضع الساخر المتعفن "وهذا الصنف من صور الإيتوس يجيل إلى العقل"⁽¹⁾ الأمر الذي يزه ذاته عن صفات وأفعال من قبيل محدودية التفكير، الذل والهوان.

وبما أن الكواكبي عرف كيف يثير الأهواء لأجل الإقناع وعرف أن كل صورة قادرة على إنتاج تأثيرات خاصة تدفع إلى موقف أو سلوك بعينه، فما هي الانفعالات التي تثيرها هذه الصورة البيانية دون غيرها؟ وفم تتمثل طبيعة الاستجابة التي تعقبها أو تصاحبها؟

تثير هذه الصورة البيانية (**يختلطان في مضائق أذهانهم**) في المتلقي انفعالات الوجد والقهر الممزوج بالمرارة والحزن والسخط والسخرية من أفكار العوام المبتذلة التي سحقت جوانب العقل وجعلته في سبات دوغمائي. فهي قصة صراع العوام مع تشيؤ الأفكار المؤدية إلى الاستلاب، والسيطرة والتملك من طرف

(1) محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 185.

المستبد الماكر. وتولد هذه الانفعالات في نفس المتلقي الاحتقار والنفور من كل الذين لا يعملون فكرهم في الوقوف على حقائق المفاهيم.

ومن الاستعارات التي وظفها الكواكبي باعتبارها حججا قوية تخدم النتيجة المقصودة قوله:

✓ " فيخلو الجو للاستبداد لبييض ويفرخ" (1)

شبه الاستبداد بكائن حي (أي من صنف الطيور) وحذفه وترك أحد لوازمه الدالة عليه وهي يبيض ويفرخ وجعلها من خواص الاستبداد على سبيل الاستعارة المكنية.

إن هذا الملفوظ الاستعاري قد استمد طاقته الإقناعية من خلال ما يربطه بالمجال الحيواني مما جعل وقعه على المتلقي أكبر وأشد، إذ إن المتلقي يدرك الدلالة الحرفية للملفوظ، ومن ثم لا يمكنه إنكار الاستنتاج عبر العبور بالرباط "إذن" (2)

يخلو الجو للاستبداد لبييض ويفرخ

يقضي

تعشعش الاستبداد وتكاثره ← إذن ← تفشي الفساد وتناميه.
استعصاء القضاء عليه.

لقد استقى الكواكبي مادة تصوير طبيعة الاستبداد من المجال الحيواني وبالتحديد صنف الطيور لما لها من دلالة سلبية تحدث عنها الجاحظ في فصل (الحمام طائر لئيم):

"الحمام طائر لئيم قاسي القلب" (3)؛ وذلك أن " الذكر ربما كان في البيت طائر ذكر قد اشتد ضعفه فينقر رأسه والآخر مستخذ له، قد أمكنه من رأسه خاضعا له، شديد الاستسلام لأمره، فلا هو يرحمه لضعفه وعجزه عنه، ولا هو يرحمه لخضوعه، ثم ينقر يافوخه حتى ينقب عنه، ثم لا يزال ينقر ذلك المكان بعد الثقب حتى يخرج دماغه فيموت بين يديه" (4).

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 35.

(2) ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، ص 326.

(3) الجاحظ، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، عباس محمد محمود الحلبي وشركائهم، طفاء، 02، 1385، 1965، ج3، ص 253.

(4) المصدر نفسه، ص 255.

وأما ما ذكرتم من أن الحمام معطوف على فراخه ما دامت محتاجة إلى الرِّق، فإذا استغنت واستوى ريشها وأشبهت غيرها من الحمام جهلت الفضل الذي بينهما وتزعت منها الرحمة⁽¹⁾.
أورد الكواكبي صفات الطائر اللئيم على سبيل التمثيل به على لؤم وقسوة الاستبداد الذي يستغل فرصة ضعف الأمة وشتاتها وتهاونها، ليتخذها مرتعا له، وبهذه الأجواء السيئة للأمة يعشعش الاستبداد ويتكاثر ويبيض للملأمة الظروف له وتتمو أجنته وتنفقس، وإن ترك على هذا الحال فلن يخلفه إلا مستبد أكثر شراسة من سابقه.

تجسد الصورة البيانية (فيخلو الجو للاستبداد ليبيض ويفرخ) "إيتوس الذكاء"⁽²⁾ الذي يتأرجح بين صورة الكواكبي المثقف الذي يدمج بين العوالم لاستخلاص عُصارة الحكم وبين "صورة الداهية بمعناها الإيجابي الدال على المهارة والحذق في التعامل مع الخصم"⁽³⁾ ودفع الأمم إلى ضرورة الاستقرار وترك الخلافات المذهبية جانبا حتى لا يصيبها الوهن وينال منها المستبد.

كما أنها تثير في وجدان المتلقي باطوس (انفعال) الخوف الذي هو عبارة عن اضطراب ناشئ عن تخيل شرّ داهم سيسبب تدميرا أو أذى شديدا، وغير خاف بأن هذه الصورة بقدر ما تثير التخويف من الاستبداد، فإنها تسهم في رسم صورة سلبية للخصم⁽⁴⁾ بأنه ماكر ومخادع يلجأ إلى "تقسيم الأمم إلى مذاهب وشيع متعادية، فتهاثر قوة الأمة ويذهب ريجها فيخلو الجو للاستبداد ليبيض ويفرخ"⁽⁵⁾؛ بمعنى ينتهج سياسة فرق تسد.

3-2 حجاجية الكناية:

تعدّ الكناية آلية من آليات الإقناع، إذ يعرفها صاحب كتاب مفتاح العلوم بأنها: "ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك، [...] كما نقول: فلانة تؤوم الضحى، لينتقل منه على ما هو ملزومه، وهو كونها مخدومة، غير محتاجة إلى السعي بنفسها في إصلاح المهمات، وذلك أن وقت

(1) ينظر: الجاحظ، الحيوان، ص 255.

(2) محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 186.

(3) المرجع نفسه، ص 186.

(4) ينظر: المرجع نفسه، ص 236.

(5) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 35.

الضحى وقت سعي نساء العرب في أمر المعاش وكفاية أسبابه، وتحصيل ما يحتاج إليه في تهيئة المتناولات وتديبر إصلاحهما، فلا تنام فيه من نساءهم إلا من تكون لها خدم ينوبون عنها في السعي لذلك" (1).

وهذا ما يجعل منها وسيلة من وسائل التفنن في القول والإبداع لإثبات المعنى والاحتجاج له، "فالمراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه ورَدْفُه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه" (2)

يعتمد المخاطب هذا المنحى الكنائى الحجاجي عندما يقبل على ترك التصريح بمقاصده إلى التلميح بذلك ما يلزم هذا التصريح، "فيجسد المخاطب في خطابه معنيين اثنين، أحدهما مذكور غير مقصود وثانيهما محذوف مقصود مدرك من خلال التلميح والتضمين" (3) ويраهن في كشف المعنى الضمني على ذكاء المخاطب وحدة ذهنه وسرعة فهمه للدلالات الباطنية المختفية وراء المعنى الظاهر (4). وهذه المعاني التي توصل إليها المخاطب بفضل مجهوده التأويلي يستحيل أن يعترض عليها.

وتعد الصورة الكنائية من أهم خصائص الخطاب البيانية المؤدية للإقناع في الكتاب، وترجع طاقتها الإقناعية لتضافر مختلف الأبعاد الحجاجية، وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

✓ " خُلِقَ خَادِمًا لِبَطْنِهِ وَعَضُوهُ فَقَطْ، لَا شَأْنَ لَهُ غَيْرَ الْغَدَاءِ وَالتَّحَاكِ " (5)

استمد الكواكبي مادة الصورة الكنائية من المقومات الثقافية القائمة في أذهان المتلقين والمنغمسة في عمق تفكيرهم، للتأثير فيهم وتعديل سلوكهم الاجتماعي نحو الأفضل؛ ذلك "أن العرب كانت تتذمّم بالإكثار من الأكل، وتعد البطننة من البهيمية وتعيب على من اتخذها ديدنه" (6)؛ لأنها تدخل ضمن "الذنوب البهيمية فمثل الشَّرْه والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولّد الزنى، والسرققة، وأكل أموال اليتامى" (7). ويعد

(1) السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن سهل)، مفتاح العلوم، ضبط وتهميش وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987، ج1، ص402.

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص66.

(3) حمدي منصور جودي، الحجاج في كلية ودمنة، ص170.

(4) ينظر: ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي، ص355.

(5) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص78.

(6) عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص525.

(7) ابن القيم الجوزية (الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب) الباء والنوء، حققه محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه رائد بن أحمد النشيري، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، (د.ط.)، (د.ت.)، ص288.

هذا النوع من الذنوب أكثر ذنوب الخلق، فهو يجرحهم إلى الذنوب السبعية* ثم إلى الشيطانية** ثم إلى منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية***.

وبذلك أصبح مضمون الصورة غير غريب عنهم بل هو معلوم لديهم من خلال ربطها بمجال الغرائز الحيوانية، وما ينطوي تحتها من مفاهيم غريزة البقاء والتكاثر للحفاظ على النوع ومن ثم انسلاخ الإنسان من الصفات الفكرية والأخلاقية التي تجعل من الإنسان إنساناً، وانجراره وراء تحصيل المال بأي السبل لإشباع شهواته الحيوانية. مما يجعل وقعها على المخاطب أشد تأثيراً ومن ثم يسهل وصوله إلى المعنى الضمني دون صعوبة أو عسر. وتفصيل ذلك وفق المخطط الآتي:

خُلق خادماً لبطنه وعضوه فقط، لا شأن له غير الغذاء والتحاك.

يقتضي

تحصيل المال بأي السبل من أجل إشباع رغباته الحيوانية ← **إذن** ← فقدان الإنسان لإنسانيته (الجوانب الفكرية والأخلاقية).

تجلت ذات الكواكبي في صورة الناقم الذي يعيش حالة من الانفعال والرفض لهذه الأوضاع المتدنية التي طغى فيها الإنسان وبغى ونسي ربّه وعبد المال والجمال، وجعلها منيته ومبتغاه، فسعى إلى إشراك الآخرين في مسرحة هذه الأحداث من خلال الصورة البيانية **خُلق خادماً لبطنه وعضوه فقط، لا شأن له غير الغذاء والتحاك**، فهو بذلك يثير باطوس (انفعال) السخط والنقمة على هذه الشاكلة من الناس التي تنجر وراء غرائزها الحيوانية. وهو ما ينهض بتحقيق الغرض الذي يهدف إليه خطاب الكواكبي وما ذلك البناء الحجاجي للانفعالات إلا ضرب من التهيئة النفسية للمخاطب، وبث في نفسه لشعور القرف والاشمئزاز والنقمة والاحتزاز من عدم التشبه بهذا الصنف من البشر.

* ذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، ويتوالد منها أنواع أذى النوع الإنساني، والجرأة على الظلم والعدوان، ينظر: ابن القيم الجوزية، الداء والدواء، ص 288.

** التشبه بالشيطان في الحسد والبغى، والغش والغل والخداع والمكر، والأمر بمعاصي الله، وتحسينها، ينظر: المرجع نفسه، ص 288.

*** يتعاطى ما لا يصح له من صفات الربوبية كالعظمة والكبرياء والجبروت والقهر والعلو واستعباد الخلق، ينظر: المرجع نفسه، ص 287.

والقول بأنّ الانفعال يقتزن بفعل تقويي تنجزه الذات يترتب عليه إقرار بوجود قدر من العقلانية يخفف من غلواء ذلك التصور الذي يزج بالانفعالات في دائرة الاضطراب والاندفاعات المفرطة ويترتب عليه أيضا اسناد بعد عمليّ إلى تلك الانفعالات، فالخوف الذي يعتري الذات هو وعي بقيمة ووعي بالتزام أي إن الذات إذ تصدر حكما معياريا على الموضوع الذي يصادفها تلزم نفسها بالقيام بفعل معين يتحدد نوعه في ضوء القيمة التي تسندها الذات إلى ذلك الموضوع⁽¹⁾.

فالخوف الذي يحصل إثر طغيان الغرائز الحيوانية على المجتمع على حساب الجوانب الفكرية، هو رد فعل تقويي تنجزه الذات (هذا خطير) وعلى انخراط في محاولة عملية توعية تتمثل في تفادي ذلك الخطر. وهكذا خرجت الانفعالات من دائرة الطبيعة ومنطقة اللاشعور لتدخل مجال الثقافة والمجتمع وتصبح ظاهرة يسندها العقل ويحرّكها القصد والرغبة في التأثير. فالانفعالات لم يعد ينظر إليها على أنّها قوة سلبية واندفاعات مفرطة تصدر عن ذلك الجزء الأدنى الموجود في النفس والذي يشدّ المخاطب إلى كلّ ما هو حسي وحيواني لتقلص من ثمّ قدرة العقل على التفكير وتتسبب في اختلال التوازن العضوي بل الانفعالات وفق هذه التصورات الجديدة ظاهرة تخضع للمراقبة والسيطرة ويتسنى للمخاطب تطويعها وتوجيهها الوجهة التي تخدم مقاصده على النحو الذي يجعلها أداة إقناع وتأثير⁽²⁾

✓ " العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم"⁽³⁾

كناية عن الضرر الجسيم الذي يلحقه عامة الناس بأنفسهم حيث يخربون حياتهم بأيديهم وسبب ذلك خضوعهم وخوفهم من المستبد الذي يسيطر على أفكارهم وقناعاتهم المقيّدة بالجهالة والغباء اللذان يستعبدان الرعية ويجعلانها تُساير المتسلّط بخضوع وضمّت.

أما بخصوص مادة الصورة الكنائية أي مضمونها الذي اعتمد عليه المخاطب لغاية الإقناع مستمد من المجال الثقافي العقدي للمخاطب، إذ إن ملفوظ الذبح مرتبط بشعيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو المضمون الأساسي، وله معنى عميق وهو الاستجابة لأوامر الله وطاعته. فمعاني الصورة لم تصبح غريبة عنهم بل هي معلومة لديهم، بعد أن جسدها هذه الآيات البينات في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعُلْمٍ حَلِيمٍ﴾^(١١) فَلَمَّا بَلَغَ

(1) ينظر: حاتم عبّيد، الباتوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب، من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف، ص 767.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 767.

(3) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 53.

مَعَهُ السَّعَى قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى^ع قَالَ يَكْتَابُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ^ط
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾^(١)

لكن لو أن هذه الطاعة كانت لغير الله سبحانه وتعالى بسبب الخوف والجهل من المستبد لوقع فعل الذبح المعنوي بمفهومه السلبي؛ فالجاهل يفعل بنفسه ما لا يفعله العدو بعده. وهذا ما جعل الكواكبي يوظف معنى الطاعة والخضوع للأوامر في خدمة القيمة السلبية المنجلية في خنوع الرعية لحكامهم وسكوتهم عن المظالم التي من شأنها أن تعرضهم للذبح أي الاستسلام للموت والعيش في ضنك.

والسؤال الملفت للانتباه في هذا الملفوظ الكنائسي لماذا عدل الكواكبي عن استعمال لفظ القتل الذي يستعمل للآدميين بلفظ الذبح الذي يكون للبهائم رغم أن الشرع فرق بين قتل الإنسان والحيوان كما في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: " **فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ**"^(٢)؟ عدل عن استعمال لفظ القتل بلفظ الذبح لما فيه من غلظة وشدة وتكرار لإمرار السكين على الرقبة مما يؤدي لتعذيب المقتول وزيادة إيلامه أثناء إزهاق الروح، خلافاً للقتل الذي قد يكون بأداة تزهق بها الروح مباشرة كالقتل رمياً بالرصاص، وفي هذا العدول تصوير لبشاعة العذاب والضرر الذي يلحقه العوام بأنفسهم نتيجة الجهل.

إن الكواكبي من خلال هذا الملفوظ الكنائسي يضغط على المخاطب لإمطاة اللثام عن الدلالة الباطنية ومن ثم استخراج القول المضمر الذي نحدده فيما يلي:

العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم

يقنضي

الغباوة والجهل والخوف تفعل بالعوام ما لا يفعله المستبد بها ← إذن ← إلحاق الضرر بأنفسهم.
أما الصورة التي يصنعها المخاطب عن نفسه هي عبارة عن التشكيل اللفظي لحضوره في الخطاب وليست نتيجة لمعرفة مسبقة بأخلاقه قبل أن يتكلم. فالإيتوس الخطابي لا يتعلق "بالتكلم الحقيقي المستقل عن الخطاب أو بسمعته وحظوته وغير ذلك من السمات التي تحدد شخصيته الواقعية، ولكنه يتعلق بالصورة التي يشكلها الخطاب نفسه، أي المتكلم باعتباره انطباعاً أو خلقاً يستخلصه السامع أو القارئ بواسطة جملة

(١) سورة الصافات، الآيات 101، 102.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة، رقم الحديث 1955، ج3/ 1548.

من العلامات المبنوثة في الخطاب، فشخصيته تتجلى عبر هذه العلامات التي تحيل إلى ذاته ولكن يمكن أن تكشف عن سماته الشخصية بطريقة ضمنية، فهو لا يحدد هويته في ملفوظات معينة، ولكننا نستخلص هذه الهوية عبر تلفظه وممارسته اللغوية، إنه لا يقول إنه كفو أو شريف [...]، بيد أننا نكتشف هذه الصفات من خلال تلفظه وطريقة تعبيره واختياراته اللفظية⁽¹⁾ الكامنة في هذه الصور البلاغية مع العلم أن هذه الصور التي يستخدمها المخاطب تؤثر في بناء صورته وتوجه إدراك السامع له، فصورته الذهنية في الأذهان تتعاضم أو تتناقص وفق تأثيرات الحجاج، يقول بيرلمان أن حجاجا محتشما وضعيفا وغير متسق لا يمكنه إلا أن يضر بالمخاطب، بخلاف ذلك فإن غموض الأسلوب ونبله تعمل لصالحه⁽²⁾.

وهذا ما عكسته الصورة البيانية (العوام يذبحون أنفسهم بأيديهم) إذ تعاضمت صورة الكواكبي في أذهان مخاطبيه فتجلت ذاته الحكيمية العارفة والمرشدة الواعية بمكامن الداء في المجتمع الذي يسعى إلى تحويل أفعال العوام من جماعة خانعة يسيطر عليها الخوف والجهل والحيف الاجتماعي إلى جماعة بشرية لها حقوق الرعية الاجتماعية والنفسية وعليها واجبات تعزيز سلطة الحاكم من خلال مطابقتهم بالطاعة، جماعة تملك إرادتها بين يديها في اتخاذ قرار نزع السلطة عن الحاكم في حالة عدم وفائه بالتزاماته.

فذاذ الكواكبي مثلما تحتجج لأفكار الحرية والعدل التي تؤمن بها تحتجج لانفعالاتها وعواطفها الراغبة بعالم واقعي مثالي تتحرر فيه العوام من قيود الجهل والخوف فتلمس الحجاج من صميم الواقع كي تحمل المخاطب على أن يدخل في حالة انفعالية معينة، كأن يحزن أو يشعر بالشفقة ووراء ذلك تصور يرى أن الانفعالات في جزء كبير منها من أمر اللغة والثقافة⁽³⁾.

فأفضل وسيلة " لإثارة الانفعالات هي أن تستمد مادتها من واقع ثقافة السامعين وأن يشعر بها المخاطب نفسه حتى وإن كانت غايته تأثيرية وليست تعبيرية، فللايتوس أيضا بنية عاطفية حيث إن الهوى المتجلي في الخطاب ينعكس بالضرورة على المصدر الذي اضطلع بتشكيله؛ وهذا من شأنه أن يقيم أول صلة بين الإيتوس والعواطف؛ إن المتكلم يشعر بما يشعر به نحن " ⁽⁴⁾.

ولبلوغ هذا المرمى سعى الكواكبي من خلال هذه الصورة البيانية إلى إثارة مجموعة من الانفعالات التي أثرت فيه في نفس المتلقي وجعلها رافدا من روافد الحجاج عن طريق وصف ما يحدث للعوام وتفخيم هذه

(1) محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 177.

(2) ينظر: المرجع نفسه، ص 194.

(3) ينظر: حاتم عبيد، الباتوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب، من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف، ص 769.

(4) محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 269.

الأحداث باستعمال "لغة تميل إلى إدكاء نار الوقائع المشينة والقاسية والشنيعة"⁽¹⁾ ووضع الحدث على محور الألم والاستهجان لا سيما عند وقوفنا على الأسباب المرتبطة به، "فالأَسباب المرتبطة بأحداث معينة لها تأثير في طبيعة المواقف العاطفية الناجمة عنها؛ فحادث السير موقف عاطفي مؤلم، ولكن معرفة السبب الذي أدى إليه من شأنه أن يغير طبيعته العاطفية من حادث محزن إذا كان السبب فيه سوء أحوال الطقس، إلى حادث مثير للغضب إذا كان السبب فيه حالة السكر التي كان عليها السائق"⁽²⁾.

وهذا ما يؤدي إلى إثارة انفعالات الغضب اتجاه العوام التي تلحق الضرر بنفسها لا سيما إذا كان السبب فيه حالة الخوف والجهل والغباوة، مما يترتب عنه إثارة انفعال القلق والخوف والرعب من الإصابة بداء الغباوة الذي يقود إلى الهلاك المتجسد في ملفوظ الذبح بوصفه أشد أشكال القتل، مما يستثير في نفس المخاطب حب الرغبة في التنور بالعلم لتحسين النفس وصونها من الوقوع في مصائد المستبدين.

ومن الصور الكنائية التي زادت الخطاب تأثيرا على تأثير وأحدثت ردة فعل في المخاطب قول الكواكبي:

✓ "لم يكن إلا بقصد الاستعانة بمسوخ الدين وبعض أهله المغفلين على ظلم المساكين"⁽³⁾

هذه كناية قد تحيلنا إلى عدة مصطلحات تحمل معنى واحدا كآئمة الضلال أو أشباه الأئمة الذين لا يعرفون إلا قشورا من العلم ويتعلقون بأوهام لا وزن لها عند أولي الألباب هم الذين اتخذوا الإسلام كذريعة لإعطاء فتاوى وتمرير قواعد وقوانين مجحفة في حق الرعية، وبهذا شوّه حقيقة الأوامر الإسلامية وألبسوها صورة مغايرة تخالف أصوله وعملوا على تطويع الرعية بما يلائم مصلحة المستبد الذي استعان بالمغفلين أمثالهم وجعلهم ركيزته لتزييف الدين السماوي وتبديله بدين أرضي يمثله المنسلخون عنه والمتظاهرون به. وعليه يقدمون أمر وحكم ولي نعمتهم الضال عن أمر وحكم ربهم وكله خدمة لمصلحتهم ومصلحة مستبديهم الذين يلائمهم خضوع المحكومين واثقيادهم بالتعاليم دون بحث أو نقص للحقيقة، فتستمال قلوب الرعية وتتعود الأمة على تلقي الأوامر بلا نقاش ولا جدال، ويستغلون تفرجات الدين وتفاسيلها وربما اختلافاته في بناء أحكامهم وأوامرهم وتعزيز قواه وبهذا يبرز ذوي النفوس المشوهة بأقبح صورة لهم كمسوخ الدين.

يتكئ الكواكبي على معتقدات المتلقي الدينية والثقافية جاعلا منها مادة وموضوعا في صنع الصورة الكنائية مسوخ الدين، لاسيما أن لفظ المسوخ يحمل دلالات التشوه والقبح خُلُقًا و خُلُقًا واتخاذ شكل مخالف

(1) محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 268-269.

(2) المرجع نفسه، ص 271.

(3) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 36.

للأصل وهو ما نجده في لسان العرب مسخ مسخا فهو مسموخ وهو من تحولت صورته إلى صورة أخرى قبيحة، مسخه الله قرذا يَمَسُخُهُ وهو مسخ ومسيخ وكذلك المشوه⁽¹⁾

وجاء في ترجمة مسخ الكائنات " لأوفيد ناسو على لسان المترجم أن كلمة (ميثاموفورز) التي عنون بها أوفيد كتابه تعني التحول من مرتبة عليا إلى مرتبة دنيا"⁽²⁾

كما أن المسخ مستمد من القص القرآني فقد صرحت العديد من الآيات أن الله عزوجل غضب على جماعة من بني إسرائيل فمسخهم إلى قردة وخنازير، وكان هذا المسخ عقوبة لمعصيتهم. قال تعالى مخاطبا

بني إسرائيل قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾⁽³⁾

وفي آية أخرى قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾⁽⁴⁾

كما أن اللفظ يحملنا إلى دلالات أسطورية لدى الشعوب على مختلف منطلقاتها الفكرية التي تدور موضوعاتها حول تغير صور الأشياء والكائنات إلى أشكال متنوعة وتلبس حقيقة غير حقيقتها؛ نأخذ على سبيل المثال لا الحصر نموذج "حمام المسخوطين" من الثقافة الشعبية الجزائرية الذي يدور حول انتهاك بطله حرمة القداسة الإلهية بزواجه من أخته فمسخ إلى حجارة هو ومن معه، فتسمية الحمام ترجع إلى أسطورة مسوخية تصور فيها الحكاية الشعبية في المنطقة أشخاصا نزل بهم العقاب الإلهي نتيجة لانتهاك حرمة المقدس.

وتتحدث القصة بإيجاز عن بطل عرف منذ صغره بشجاعته وقوته ومكانته داخل قبيلته فداخله التجبر والطغيان، والتمرد على الأعراف والتقاليد، من خلال رغبته في الزواج من أخته، رغم أنه لاقى معارضة شديدة من شيوخ قبيلته، إلا أنه صمم واستمر في الإعداد لحفل زفافه، وحضر الحفل بعض الأفراد من بينهم القاضي لترسيم الزواج، مع معارضة ومقاطعة معظم أهل القبيلة استنكار لهذا الفعل حتى أنهم غادروا القبيلة وخرجوا منها، لكن عند عودتهم إلى المكان بعد مدة من الزمن صدموا بمنظر الناس الذين حضروا الزفاف وقد صاروا حجارة.⁽⁵⁾

وهذا ما يجعل من ملفوظ المسخ في ذهن المتلقي ووعيه مرتبط بموضوع السخط الإلهي على البشر جراء انتهاك المحرمات ومخالفة الأوامر.

(1) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص 102.

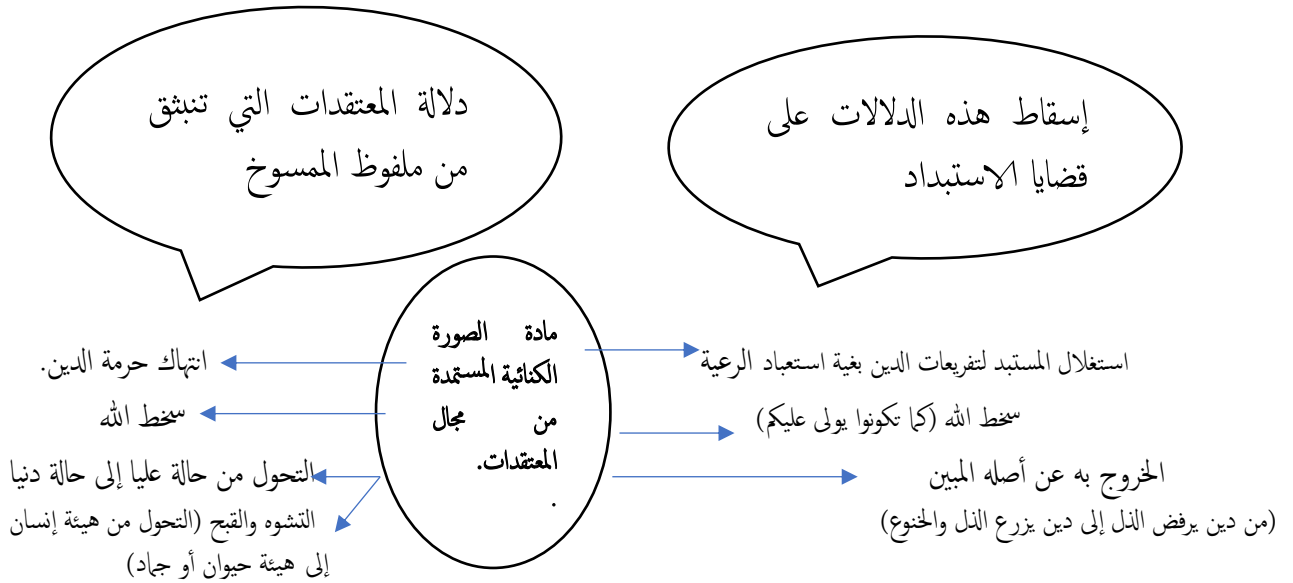
(2) بلوصيف كمال، أسطورة المسخ والتحول في الثقافات القديمة وأثرها في الثقافة الشعبية الجزائرية، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة باجي مختار عنابة، العدد 23، ديسمبر، 2016، ص 286.

(3) سورة البقرة، الآية 65.

(4) سورة الأعراف، الآية 165.

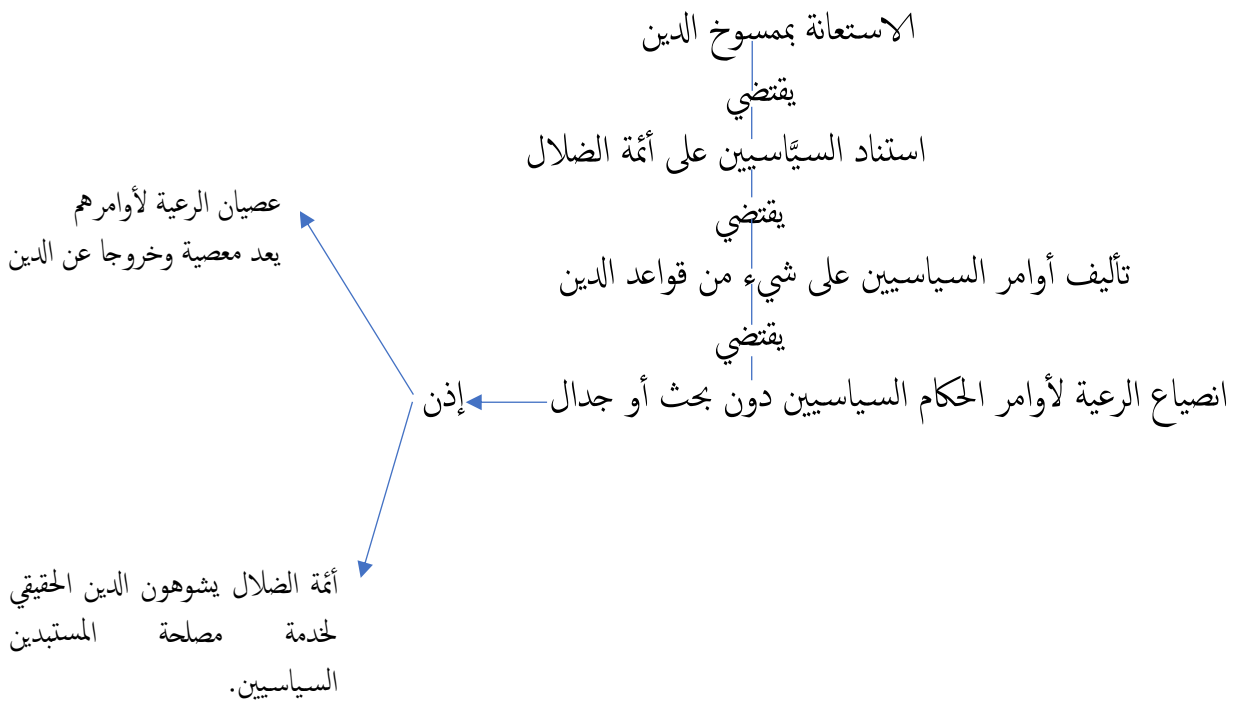
(5) ينظر: بلوصيف كمال، أسطورة المسخ والتحول في الثقافات القديمة وأثرها في الثقافة الشعبية الجزائرية، ص 291.

وتظهر ألمعية فكر الكواكبي في توظيفه لهذا الملفوظ لما له من دلالات انتهاك حرمة الدين وتلبسه لحقيقة غير حقيقته بغية تسليط الضوء عن الممارسات اللادينية التي يقوم بها المستبدون وشركاؤهم حتى تقع الرعية فريسة لهم، وتوضيح تداخلات مادة الصورة الكنائية ودلالاتها وفق المخطط الآتي:



مخطط رقم 29 يمثل تداخلات مادة الصورة الكنائية

إن الملفوظ الكنائي أعلاه يحمل المخاطب على استنتاج الدلالة الضمنية التي نحددها وفق المسار الآتي:



يجسد الملفوظ الكنائي أعلاه صورة الكواكبي المتألم، الغاضب والمضطهد والثائر على المستبدين لانتهاكهم حرمة الدين، فصوته الصارخ الفاضح لإفشاء أسرار وقضايا مجتمعه ليقدم رؤية ويجسد ضميرا حيا من خلال الكشف المتواصل لأشكال الاستبداد والتقطيع الواضح لأحداثه مما أدى إلى التباس المعنى وضبايته وكثافته في الكثير من الأحيان، الأمر الذي يتطلب من المخاطب أعمال كفاياته الذهنية لفك شفرات المعنى. فالكواكبي هو الجرأة والتحدي، المبحر دائما بصوره وأهوائه وعواطفه في تلك الذهنية الجماعية، وفي طرقات ودهاليز يعبر عن زمن فات، ويستبق به آخر آت، وكأن الكلام تعدى ذاته، بل سما فوقها حتى امتلأ بالصمت ونطق بليغا، ليعبر عن كلام مقبور وخفي داخل ذاته من خلال الصور البلاغية التي رسمت صورته، وهو ما عبر عنه رولان بارت في قوله ميمزا ما يقوله الخطيب عن ذاته مما يتلفظ به دون أن يشير إلى ذاته يتلفظ الخطيب بمعلومة وفي الوقت نفسه يقول: أنا هذا الثائر الغاضب على هذه الانتهاكات والناصح والمرشد من أجل الإصلاح، ولست ذلك الراضي الخانع مُطأطئ الرأس⁽¹⁾

فالكواكبي يحتاج في سياق إنساني اجتماعي بناء على تصويره لمخاطب محدد يقوم بتوجيه الحوار والتحكم في بناء هوية المتكلم وانتقاء سمات ومظاهر الإقناع، ففي "السياق الحجاجي يُسلم المخاطب أمره للسامع، أو يتطابق معه وفق صورة تستجيب للتمثلات الاجتماعية التي تشكل مرجعيته المثالية، وكما يقول باتريك شارديو يصنع الإيتوس في علاقة مثالية بين الذات والآخر وعنصرا ثالثا غائبا يحمل صورة مرجعية مثالية، الذات تسعى إلى أن تحمل هذه الصورة المثالية، والآخر يدعن للشخص الذي يتوجه إليه بواسطة هذه الصورة المرجعية المثالية نفسها"⁽²⁾؛ أي أن الكواكبي في مسعاه الإقناعي لخلق تصديق المخاطب وكسب ثقته، يبني صورة ذاتية مستمدة من التمثلات الاجتماعية التي تشكل مرجعية مثالية لهذا السامع فيستعير من التمثل المشترك الذي يشكله السامع للقيم الأخلاقية المحبذة في المجتمع من شهامة وشجاعة وجرأة وتحد وصدق "المعرفة بالأخلاق المشتركة تسمح للمخاطب بالتجسيد الخطابي للفضائل التي توحى بالثقة الملموسة"⁽³⁾.

كما أن اصطفاء الكواكبي لأحداث هذا الملفوظ الكنائي يمثل الخطوة الأولى في توجيه الخطاب نحو انفعال معين، فالكواكبي يصف أشياء ويستحضر أحداثا تقدر على تحريك سواكن المخاطب وتهيبج عواطفه⁽⁴⁾ فموضوع تزييف المستبد للدين واستعماله كطية لتمرير أوامره من شأنه أن يثير سخط العوام على المستبد وأعوانه وفي هذا تشنيع لسلوكهم السياسي وتحقيره لدفع المخاطب إلى النفور منهم، لا سيما وأن

(1) ينظر: محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 178.

(2) المرجع نفسه، ص 112.

(3) المرجع نفسه، ص 112.

(4) ينظر: حاتم عبيد، الباتوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب، من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف، ص 777.

"العوام لا يثور غضبهم على المستبد غالبا إلا عقب أحوال مخصوصة مهيجة فورية، منها: [...] عقب تظاهر المستبد بإهانة الدين إهانة مصحوبة باستهزاء يستلزم حدة العوام"⁽¹⁾؛ وهذا الانفعال يبرره موضع يتعلق بالمعايير الأخلاقية التي لم تراعى موضوع حرمة المساس بالدين، فتكون النتيجة العاطفية الضمنية سخط المتلقي على هذه الشاكلة من البشر.

كما أن الملفوظ الانفعالي (المساكين) من شأنه أن يثير مشاعر الشفقة المرتبط بمفهوم الظلم؛ المترتب عن موضع الحدث (تشويه أئمة الضلال للدين لخدمة مصالح المستبد)؛ وهذا الانفعال يحمل مفهوم الإيحاء فالانفعالات "يمكن أن تبين دون أن تقال. فعندما نتحدث عن الأهواء بالإيحاء، فليس هناك إحالة إلى الحالة العاطفية بحد ذاتها، في هذا الحال يكون الهوى إذا شئنا القول مبينا ومعروضا أو معلنا بوساطة وسائل لفظية تتعلق بشكل خاص [...] بالمعجم"⁽²⁾ فملفوظ المساكين يوحى بالعاطفة إلا أن الكواكبي لم يُجَل مباشرة إلى حالته العاطفية، ولكنه جسدها باستخدام نعت.

ومحصول القول إن الصورة البلاغية في خطاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد حجاجية بكل ما فيها، حجاجية بمادتها وباحثائها على ملفوظات تورط المتلقي في إنتاج الدلالة الضمنية، ويايتوس من ينتجها وبياتوس من يتلقاها وبقوتها التأثيرية الإقناعية؛ فهي تملك طاقة حجاجية قوية جعلت الكواكبي ينزع في كل مرة إلى توظيفها بغرض حمل المخاطبين على التصديق بمدلول الخطاب والتسليم به والركون إليه. طاقة تستمدّها من جهة كونها تبنى انطلاقا من عوالم المتلقين وكفاياتهم النفسية والثقافية والعقدية.

وتستمدّها من جهة ثانية من جوانبها الضمنية التي تحمل المتلقي على استبعاد المعاني الظاهرة ليسلك مسارا استدلاليا حجاجيا يجعله يكتشف بنفسه معانيها الخفية وأغراضها. وبهذا يكون تأثيره بالصورة أقوى ويصبح طرفا فاعلا في العملية الخطابية، ومنتجا للمعنى في الحدود التي رسمت له، ولا سيما أنها تخاطب الإنسان في كليته، تخاطب عقله وعينه وقلبه وذكريته ونوازعه؛ إنها ترسم للعين ألوانا وأشكالا، وترسم صورة للذات المخاطبة، وتحرك المشاعر، وتمتع النفس وترسخ الخطاب في ذاكرة المتلقي وتجسد الحجج المجردة فهي بهذا لا تؤدي وظيفة حجاجية واحدة بل تتعدد أدوارها وتتعاقد بين الوظيفة الجمالية، الوظيفة التنبيهية الوظيفة العاطفية، الوظيفة المعرفية.

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، ص 167.

(2) محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 281.

خلاصة الفصل:

- لعل أهم ما نسجله في هذا الفصل، من خلال دراسة الآليات الإقناعية في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) ودورها الفعّال والتأثيري في المخاطب لتقبل النتائج الحجاجية، يكمن في النقاط الآتية:
- 1- الآليات اللسانية لها علاقة بانسجام النص كالتكرار، الإحالة، الازدواج، وكل آلية تحقق هدفا حجاجيا.
 - 2- العوامل والروابط الحجاجية هي المؤشر الأساسي والدليل القاطع على أن الحجاج مؤثر له في بنية اللغة نفسها.
 - 3- يكمن دور الروابط الحجاجية في الربط بين مكونات الحجاج، وإظهار العلاقات التي تجمع بينها، كما تعين المتلقي على تحديد المقصود والغاية من الحجاج من خلال مواقعها؛ حيث يوضع الرابط المناسب الذي تتماشى وظيفته مع المعنى المقصود في المكان الملائم.
 - 4- العوامل الحجاجية تعمل خلاف الروابط فهي لا تربط بين الحجج والنتائج، وإنما تقوم بحصر وتقييد المكونات الحجاجية، ويكمن دورها في إحالة المتلقي إلى المقصود من النتائج، وبخاصة حينما يكون اعتقاده خلاف ذلك المقصود.
 - 5- تُورط الصور البلاغية بملفوظاتها المتلقي في إنتاج الدلالة بواسطة المقام الذي يلقي فيها وتحمله على استخراج المعنى الضمني ومواصلة منطوق الحوار في الاتجاه الذي يفرضه المخاطب بواسطة أداة الربط والاستنتاج إذن.
 - 6- استقاء مادة الصور البيانية من عالم المخاطبين الحسي والثقافي والعقدي من شأنه أن يجعل مضمونها غير غريب عنهم، فهو معلوم لديهم، وتبعاً لذلك يكون نفاذها إلى قلوبهم وإلى عقولهم في سهولة ويسر ويصعب دحضها لأنها موضع إجماع.
 - 7- لم يكتف الكواكبي في هذه الصور البلاغية بتقديم صورة عن ذاته وإبراز سماتها الإيجابية التي تشكلت داخل خطابه بطريقة ضمنية بل لجأ إلى تقديم خصمه في صورة شيطانية وهو ما يسمى في البلاغة القديمة بحجة آدهومنيوم.
 - 8- تحتاج الصور بإثارة أهواء المتلقي وانفعالاته بالاعتماد على طريقتين: مباشرة عندما تحتوي على ملفوظات الانفعال كالمساكين وغير مباشرة حين يتعلق الأمر بمواضع الانفعال (الذبح، التنوير الإطفاء، المسخ، البطن).

9- صورة الإيتوس التي يظهر بها المخاطب تصنعه استراتيجيات إثارة الأهواء التي يعمل على تشكيلها في خطابه، فلكي يبني الكواكبي إيتوس الإنسانية على سبيل المثال يعمد إلى الظهور بمظهر الشخص الذي يتعاطف مع الضعفاء ويعاني مشكلاتهم.

10- بلاغة صور طبائع الاستبداد ومصارع الاستبداد تتوق إلى نبذ الظلم والاستبداد، وتأسيس السلم الاجتماعي من خلال استثمار ثروات الخطاب وإمكانات التواصل الإنساني، من خلال إقناع المخاطب بالتوجه إلى عقله ووجدانه؛ أي باستخدام الحجج العقلية والعاطفية، وتعزيزها بوسائل جمالية تكون في خدمة الإقناع.

11- الصور البلاغية لا تؤدي وظيفة حجاجية واحدة بل تتعدد أدوارها وتتعاقد بين الوظيفة الجمالية الوظيفة التنبيهية، الوظيفة العاطفية، الوظيفة المعرفية.

12- الآليات الإقناعية على اختلاف أنواعها تأتي متضافرة في الحجاج، من أجل تقوية وتدعيم عملية الإقناع وتكثيفها في المثال الواحد كفيلاً بالتأثير في المتلقي واستمالاته إلى تقبل نتائج الحجاج.

خاتمة

- توصّلنا بفضل الله وعونه من خلال بحثنا في مستوييه النظريّ والتطبيقيّ إلى التّناجج الآتية:
- جاء الخطاب مساويا للكلام ولكن الكلام ليس بالضرورة خطاباً، فالذي يضيف على الكلام صفة الخطاب ويحصر مجاله الدلالي الواسع هو سمة التّداوُت وحصول الإفادة.
 - الخطاب وفق المنظور التواصلي يستلزم التداوت؛ ذات منتجة للخطاب تعنى بتبليغ الرسالة وذات مستقبلية للخطاب تعنى بتأويله لحدوث التفاعل ضمن سياق يضمه فتتولد عنه حركة الخطاب.
 - دراسة الخطاب دراسة واعية تتطلب المعرفة بكل العناصر المشكلة للخطاب والإمام بالسياق لأنّه يؤدي دوراً فعالاً في إمطة الثام عن معنى وخبايا الخطاب وإجلاء كنهه ومعرفة قصد المخاطب من خطابه، فهو مقياس يساعد لا محالة على فهم الخطاب لذا يتطلب من محله الإمام بكلّ المعطيات السياقية الخارجية الاجتماعية السياسية والنفسية والثقافية التي تولد في خضمها إنتاج الخطاب.
 - للتخلص من التظرة التفاضلية المفاهيمية التي صبغت الحجاج وتولدت عن أقطاب الفكر البلاغي الغربيّ والعربيّ قديماً وحديثاً، نتوصّل إلى مقارنة مفاهيمية ذات طابع شامل ومانع للاختلاف يجمع مختلف الرؤى والمفاهيم ويتمثل في أن الحجاج ما هو إلاّ استراتيجية لغوية تكتسب أبعادها من السياقات المحيطة بالخطاب.
 - الحجاج يتقاطع مع البلاغة والتواصل، ومع البرهان والاستدلال، والجدل والإقناع والاعتناع ويتباين معهم أحياناً أخرى فلا هو مفهوم بلاغي خالص، ولا هو مفهوم منطقيّ بحت، بل هو جملة من آليات الإقناع وملاك الأمر فيه: دراسة مجمل التقنيات... الباعثة على إذعان المخاطب.
 - المحاجج ينتقي المقدمات التي تتلاءم وطبيعة المخاطب، ومع السياق المحيط بالخطاب الحجاجي ليضمن استمراريته ويجتد لذلك أنواعاً من الحجج يستند عليها لتدعيم مقدماته، فبمقدار نجاعتها تتحقق مصداقية المقدمات وصحة نتائجها والعكس غير صحيح.
 - التطرق لبنية الحجاج من خلال نظرية شايم بيرلمان (Chaim Perlman) وتيتيكاه (Tyteca) ودمجها وتوجيهها بنظرية السّلام الحجاجية لديكرو (Ducrot) رغم الاختلاف في المنطلقات القاعدية والمشارب التأسيسية واللّبنات التي تقوم عليها كلّ نظرية. إلا أننا حسب وجهة نظرنا نعتبرهما متكاملين فإذا كانت الأولى تهتم بتشكيل بنية الحجاج انطلاقاً من بُنى شبه منطقية أو شكلية أو رياضية فضلاً

عن استعمالها السياقية، فإن النظرية الثانية تهتم بترتيب وتنظيم الحجج على اختلاف أنواعها المشكّلة لبنية الخطاب وفق سلم حجاجي بغية إيصالها للمخاطب لاستلثته والتأثير فيه.

- كلما توفر للمتلقّي المحلل معلومات تخصّ عناصر التفاعل الخطابي، كلما امتلك القدرة أكثر على فهم الخطاب وفق قالب الذي شكّل بنية الحجاج، ومن ثمّ تجنيد الآليات اللازمة لاستنتاج كنه الخطاب وفق ما يتماشى وطبيعته.
- تعدد ذوات المخاطب وثقافته أدت إلى ثراء حججه وتنوعها؛ إذ لا يقتصر الحجاج على نوع واحد منها وإنما تتداخل أنواع الحجج وتتضافر من أجل تحقيق الغاية المرجوة من الحجاج، واستعمالها خاضع لطبيعة المخاطب والمحتوى الموضوع المعالج ثم إلى السياق المحيط بالحجاج.
- الحجج شبه المنطقية تدفع المخاطب إلى إعمال الفكر ليصل بالمنطق إلى استنباط نتائج الحجاج الصحيحة المراد إقناعه بالعمل وفقها ورفض الخاطئة منها بعيداً عن الإكراه والإلزام.
- الحجج المؤسّسة على بنية الواقع أنجع وأقدر على الفعل في المخاطب والتأثير فيه؛ لأنها مستمدة من واقعه المعيش فلا يجد فيها صعوبة في تقبلها والتسليم بها. وهذا ما يوصله إلى معرفة النتائج المقصودة وفهمها، على اعتبار أنّها قد بُنيت على هذه الحجج الواقعية.
- الحجج المؤسّسة لبنية الواقع تجمع عالمين: عالم الواقع الموجود، وعالم الواقع المقصود إنشاؤه من خلال عملية الحجاج، وإعادة إنتاج أحد العالمين بصورتها المأساوية والمشرفة رهين بمدى تقبل وإذعان المخاطب للنتائج المعروضة عليه.
- اتجاه السلام الحجاجية في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) يسير تصاعدياً، فكلما ارتقى سلم الحجاج كانت الحجّة أقوى من سابقتها حتى يتحقق الإقناع، وذلك لما تتمتع به من قوّة لتدعيم الدعوى الحجاجية، وتأثير في المخاطب لقبول تلك النتيجة الحجاجية.
- التركيز على تحليل سلم الحجاج لفصل واحد من كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) دون بقية الفصول كفيلاً بتبيان تصاعد الحجج للوصول إلى المقصد الجزئي وعلى المنهجية التي انبنى عليها الكتاب، لأنّ كل سلم حجاجي جزئي هو سلم حجاجي عام إذا ما قيس بمحتوياته من الحجج.
- بنية فصل (الاستبداد والعلم) من حيث محتوياته (نوع الحجج والسلام الحجاجية الجزئية) يُعاد تشكيله بنفس الطريقة في بقية الفصول، على الرغم من اختلاف الموضوعات إلا أنّها تُخدم هدفاً

واحدا وهو التخلص من الاستبداد عن طريق تبيان التأثير السلبي والإيجابي لهذه المتلازمات الثنائية -الاستبداد والدين، الاستبداد والعلم، الاستبداد والمجد، الاستبداد والمال، الاستبداد والأخلاق، الاستبداد والتربية، الاستبداد والترقي- التي تعتبر بمثابة الفواعل الدينامية التحتية التي تتفاعل لتحرك السواكن في المخاطب وتدفعه إلى القيام بفعل النهوض بالمجتمع من آفة الاستبداد بمختلف تلويناته.

● الصراع الموجود في فصل **(الاستبداد والعلم)** أدى إلى تشكيل سلام حجاجية جزئية تقابلية، لا تتجه الحجج فيها لإسناد نفس النتائج، وإنما تساند الحجج نتائج معارضة للنتائج التي تساندها الحجج الأولى، مشكلة في نهاية الفصل سلما حجاجيا كليا تقابليا، لا تتجه الحجج فيه هو الآخر إلى مساندة النتيجة العامة نفسها، وهذا هو المنوال الذي نُسجت عليه كامل السّلام الحجاجية الجزئية لفصول **(كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)**.

● الغاية من تكرار بناء محتويات فصول **(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)** على شكل متلازمات ثنائية هو توجيه المخاطب إلى استنتاج المقاصد المراد ترسيخها في ذهنه؛ إذ يصبح شكل البناء المتكرر على نفس النسق بمثابة قوالب مرسومة في ذهن المخاطب، وهذا ما يساعده على تقبل وفك شفرات ما يصب في تلك القوالب.

● محتويات الحجج مدعمة بألية السرد والوصف؛ فالحجج تتنوع بين شواهد تاريخية وأمثلة تربط بينها هاتين الآيتين لغاية إسناد قيمة إيجابية أو سلبية للموضوع بمختلف شخصياته وأحداثه لأجل حمل المخاطب على الاقتداء بها أو النفور منها. وبهذا يعد السرد والوصف مطية للحجاج للتأكيد على صحة الدعاوي الحجاجية المقصودة.

● يكمن سر الرؤية الاستشرافية بشقيها المأساوي والمشرق في كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد في بنية الحجاج المتشكلة من (أنواع الحجج + السلام الحجاجية) التي تزود الرؤية بالفاعلية المتجددة بتجدد الزمان والمكان.

● الإقناع عملية تأثيرية في المتلقي، وتحقق هذه العملية بواسطة جملة من الآليات اللسانية واللغوية والبلاغية التي تأتي متضافرة في الحجاج من أجل تقوية وتدعيم عملية الإقناع، وتكثيفها في المثال الواحد كفيل بالتأثير في المتلقي واستماتته إلى تقبل نتائج الحجاج في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، وتم الفصل في كل واحدة منها على حدة لتبيان دورها الحجاجي.

- العوامل والروابط الحجاجية هي المؤشر الأساسي والدليل القاطع على أن الحجاج مؤثر له في بنية اللغة نفسها. ويكمن دورها في الربط بين مكونات الحجاج، وإظهار العلاقات التي تجمع بينها، كما تعين المتلقي على تحديد المقصود والغاية من الحجاج.
- الصورة البلاغية في خطاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد حجاجية بكل ما فيها، حجاجية باستقاء مادتها من عالم المخاطبين الحسي والثقافي والعقدي، وباحتوائها على ملفوظات تورط المتلقي في إنتاج الدلالة الضمنية بواسطة المقام، ويايتوس من ينتجها وياتوس من يتلقاها. وهذا من شأنه أن يزيد من قوتها التأثيرية.
- بلاغة صور طبائع الاستبداد ومصارع الاستبداد تتوق إلى نبذ الظلم والاستبداد، وتأسيس السلم الاجتماعي من خلال استثمار ثروات الخطاب وإمكانات التواصل الإنساني، من خلال إقناع المخاطب بالتوجه إلى عقله ووجدانه؛ أي باستخدام الحجج العقلية والعاطفية، وتعزيزها بوسائل جمالية تكون في خدمة الإقناع.
- الصور البلاغية لا تؤدي وظيفة حجاجية واحدة بل تتعدد أدوارها وتتعاقد بين الوظيفة الجمالية الوظيفة التنبيهية، الوظيفة العاطفية، الوظيفة المعرفية.
- تمثل دراسة بنية الحجاج في (كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) نموذجاً عملياً تطبيقياً يساعد على تحليل الخطاب الحجاجي، وهذا انطلاقاً من دراسة عناصر التفاعل الخطابي ومن ثم تصنيف أنواع الحجج المعتمدة فيه، ومن ثم تراتبية هذه الحجج وفق سلم حجاجي للكشف عن النتيجة المراد إقناعه بها، وأخيراً البحث في الآليات الإقناعية المتبعة لتحقيق التأثير في متلقي الحجاج.
- وفي الختام نأمل أن نكون قد أسهمنا ولو بالزر القليل في تقديم رؤية جديدة تكشف عن خفايا البحث العلمي المهتم ببنية الخطاب الحجاجي وآلياته الإقناعية من خلال دراسة كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد)، الذي يعد بمثابة السّمسم الذي يفتح الباب الموصد ليخرج مارد الشعب من سجنه أو قممه، ويوقظ قارئه من سبات دوغماي؛ لما يزرخ به من سطور مسبوكة عميقة، كلّ جملة فيها وحدة كاملة المعنى بها حكمة سابعة، وتجارب تمدّ العامّ والخاص بنبراس يُلهمه السّداد والتوفيق في مختلف مجالات حياته وداخل مجتمعه، كما نأمل أن تكون هذه الدراسة باكورة خير للباحثين اللغويين والبلاغيين للخوض في غمار هذه المدونة.

من خلال الحفر في نصوص المدونة قراءة وفهما وتحليلا وقفنا عند بعض الأمور التي نأمل أن تكون بداية جديدة لأبحاث واعدة:

● دراسة المدونة دراسةً حديثة من قبل أهل الاختصاص للفصل في الأحاديث المختلفة عن الرسول ﷺ.

● اهتمام مخبر البحث في ميدان اللغة والأدب بتكوين فرق عمل تضم أساتذة من مختلف التخصصات لدراسة الحجاج في هذه المدونة كآلية للتفكير، لتطوير تقنيات كيف يجب أن نقرأ الآخر؟؟ وكيف يمكن أن نوصل صورتنا له، فالمرء دائم الانشغال بالحكم على ما يقرأ وما يسمع وما يشاهد... وكله إيمان أن الوجود الإنساني ما هو إلا حوار مع العالم بكل مكنوناته ومحتوياته وعوامله للتمكن من استشراف ما سيحدث في المستقبل.

والله نسأل التوفيق والسداد.

الفهارس

- فهرس الآيات.
- فهرس الأحاديث.
- فهرس الأشعار.
- فهرس المخططات.
- فهرس الجداول.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات

الرقم	الآية الكريمة	السورة والرقم	الصفحة
01	﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾	آل عمران 159.	202
02	﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾	النساء/148.	204
03	﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾	المائدة/44.	202
05	﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾	النحل/15.	210
06	﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾	النحل/90.	202
07	﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾	النحل/125.	83
08	﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾	الكهف/56.	83
09	﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾	المؤمنون / 27.	10
10	﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾	النمل/ 32- 34.	213
11	﴿مِثْلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾	العنكبوت/41.	138
12	﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾	الأحزاب/4.	202
13	﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ، وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾	ص 19/.	10
14	﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْعَةً وَلِي نَجْعَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾	ص 22/.	10
15	﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾	الناريات/49.	190
16	﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾	النبا/37.	10
17	﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾	الفيل/3.	190

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الصفحة	الحديث النبوي
204	قال رسول الله ﷺ ﴿التُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ﴾
203	قال رسول الله ﷺ ﴿الناس سواسية كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعافية، والمرء كثير بأخيه، ولا خير في صحبة ما لا يرى لك الحق مثلما ترى له﴾
204	قال رسول الله ﷺ ﴿إذا أحبَّ الله عبدًا ابتلاه، فمن حَبَّه إِبَاهُ بِمَسُّهُ الْبَلَاءَ حَتَّى يَدْعُوهُ فَيَسْمَعُ دُعَاءَهُ﴾
205	قال رسول الله ﷺ ﴿إِن قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلٌ، فَإِنِ اسْتِطَاعَ أَلَّا تَقُومَ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْرِسَهَا، فَلْيَفْعَلْ﴾
210	قال رسول الله ﷺ ﴿كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْأَمِيرُ رَاعٍ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَالِدِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ﴾
203	قال رسول الله ﷺ ﴿لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجْمٍ وَلَا لِعَجْمٍ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرٍ عَلَى أَسْوَدٍ وَلَا لِأَسْوَدٍ عَلَى أَحْمَرٍ إِلَّا بِالْتَقْوَى﴾
205	قال رسول الله ﷺ ﴿مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وَعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، حَسْبُ الْآدَمِيِّ، لُقَمَاتٌ يَقْفَمَنَّ صَلْبَهُ، فَإِنِ غَلَبَتِ الْآدَمِيَّ نَفْسُهُ، فَتَلَّتْ لِلطَّعَامِ، وَتَلَّتْ لِلشَّرَابِ، وَتَلَّتْ لِلنَّفْسِ﴾
-133 134	قال رسول الله ﷺ ﴿مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ، كَمَا مِلَ الْمِسْكُ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ، فَحَاوِلِ الْمِسْكَ: إِمَّا أَنْ يُجَدِّبَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تُجَدَّ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تُجَدَّ رِيحًا خَبِيثَةً﴾
203	قال رسول الله ﷺ ﴿مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، وَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، وَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ﴾
203	قال رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ﴾

فهرس الأشعار

الصفحة	فهرس الأشعار
	-الهمزة-
211	وَأَيُّ عَظِيمٍ، رَابِ أَهْلَ بِلَادِنَا *** فَإِنَّا عَلَى تَغْيِيرِهِ، قَدَرَاءُ.
	-الباء-
155	هُنَا رَجُلٌ الدُّنْيَا هُنَا مَهْبَطُ الثُّغَى *** هُنَا خَيْرٌ مَظْلُومٍ هُنَا خَيْرٌ كَاتِبٍ قَفُّوا وَأَقْرُؤُوا أُمَّ الْكِتَابِ وَسَلِّمُوا *** عَلَيْهِ فَهَذَا الْقَبْرُ قَبْرُ الْكُؤَاكِبِي
23	مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ *** كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَفْرِئَةٍ سَرِبَ.
	-اللام-
101	فَأَمَّطَرْتُ لَوْلُوا مِنْ تَرْجِسٍ وَسَقَّتْ وَرَدًا وَعَصَّتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبُرْدِ.

فهرس المخططات

الصفحة	عنوان المخطط	الرقم
12	الفرق الجوهرى بين الخطاب والكلام.	01
16	تعريف ديورا شيفرن.	02
19	العلاقة الاحتوائية بين النص والخطاب.	03
20	النقاط الفارقة بين النص والخطاب.	04
30	دائرة العملية التخاطبية.	05
33	الذوات المتعددة للمتكم.	06
38	معيار درجة القوة والضعف فى الانفعال حسب دلالة الكلمات	07
46	عناصر التفاعل الخطائى.	08
59	منطق التخاطب.	09
79	أنواع الحجج فى الحجج الخطائى عند أرسطو.	10
81	وظيفة البيان.	11
101	موضع تباين البلاغة عن الحجج.	12
103	النماذج التواصلية للحجة.	13
105	المقامات المتنوعة للتواصل الحجاجى.	14
106	تصور الموقف التواصلى للحجاج.	15
108	أنواع التواصل.	16
109	خطاطة التواصل الحجاجى.	17
121	ترتيب مفاهيم الحجاج، الإقناع، الاقتناع وفق تصورنا.	18
152	مراحل تشكل بنية الحجج فى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.	19
163	المخاطب المفترض والفعلى فى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.	20

175	التناقض وعدم الاتفاق في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.	21
179	التقابل العكسي بين الصغير العاجز والكبير المتأله.	22
180	نموذج من الوضعيتين المتماثلتين (المستبدون يتولاهم مستبد، والأحرار يتولاهم الأحرار، وهذا صريح معنى كما تكونوا يولى عليكم)	23
181	علاقة الاستلزام في حجة التعدية.	24
186	نموذج من حجة تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له.	25
208	نموذج من الحالة الخاصة (مثال الجرمانى)	26
216	تصور الحجج المؤسّسة بواسطة التمثيل.	27
222	التصور الهرمي الذي انتظمت عليه فصول (كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد).	28
304	تداخلات مادة الصورة الكنائية	29

فهرس الجدول

الصفحة	عنوان الجدول	الرقم
64	أنواع استراتيجيات الخطاب وأهم النقاط التي تتفرد بها.	01
86	الأفكار التي قام عليها الحجج عند كل من بيرلمان وتيتيكاه.	02
99	التداخلات بين البلاغة والحجج.	03
106	تصور الموقف التواصلي للحجج.	04
116	التباين والتعارض بين الاستدلال البرهاني والاستدلال الحجج.	05
159	أصناف المخاطب المفترض الذي خاطبه الكواكبي.	06
188	نموذج من حجة المقارنة.	07
212	نماذج من القدوة والقدوة المضادة في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.	08

فهرس المصادر والمراجع

المصحف الشريف براوية حفص عن عاصم، دار الملك فهد للطباعة والنشر، المدينة المنورة، ط1، 1436هـ.

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

● الأمدي علي بن محمد (أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي بن محمد بن سالم الثعالبي الأمدي، ت 712هـ):

01- الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1986.

● إبراهيم صبحي الفهري:

02- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق - دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2000.

● أحمد أمين:

03- زعماء الإصلاح في العصر الحديث، موسوعة أحمد أمين الإسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (د.ط.)، (د.ت.).

● أحمد بن حنبل (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الذهلي ت 241هـ):

04 - مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1421هـ، 2001.

● أحمد علي عجيبة:

05- دراسات في الأديان الوثنية القديمة، دار الأفق العربية، القاهرة، ط1، 2004.

● أحمد القصور:

06 - تجليات تطوير النظرية الحجاجية وتوسيع مجالات تطبيقها في دراسات أبو بكر العزاوي، ضمن مؤلف الحجاج اللغوي، قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي، تنسيق حسن مسكين، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن ط1، 2017.

● أحمد المتوكل:

07- الخطاب وخصائص اللغة العربية - دراسة في الوظيفة والبنية والنمط - الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1 2010.

08- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية " بنية الخطاب من الجملة إلى النص"، دار الأمان، الرباط، (د.ط) 2001.

● أحمد محمد قدور:

09- مبادئ اللسانيات، دار الفكر، ط1، 1996.

● أحمد مختار عمر:

10- علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998.

● ادريس جبيري:

11- سؤال البلاغة في المشروع العلمي لمحمد العمري، نحو بلاغة عامة، ضمن مؤلف البلاغة والخطاب، أبحاث مهداة للدكتور محمد العمري، إعداد وتنسيق محمد مشبال، دار الأمان، الرباط، ط1، 2014.

● الأصهباني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر، ت 369هـ):

12- أحاديث أبي الزبير، تحقيق بدر بن عبد الله البدر، مكتبة الرشيد، الرياض، (د.ط)، (د.ت)

● أكرم صالح محمود خوالدة:

13- اللغة والتفكير الاستدلالي، دار حامد، الأردن، ط1، 2016.

● الألباني (أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين ت 1420):

14- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، دار المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية ط1، 1412هـ، 1992.

● أمال يوسف المغامسي:

15- الحجاج في الحديث النبوي، دراسة تداولية، دار المتوسطة للنشر، تونس، ط1، 2016.

● البخاري (الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي ت656هـ):

16- صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ

● أبو بكر العزاوي:

17- الخطاب والحجاج، الأحمديّة للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2007.

18- اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط1، 2006.

- 19- من المنطق إلى الحجاج، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2016.
- 20- الحجاج والمعنى الحجاجي، ضمن كتاب التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، تنسيق حمو النقاري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 134، ط1، 2006.
- البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين ت 458هـ):
- 21- شعب الإيمان، تحقيق ومراجعة النصوص وتخرىج أحاديثه عبد العلي عبد الحميد حامد وآخرون، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع دار السلفية ببومباي بالهند، ط1، 1423هـ، 2003.
- الترمذي (أبو عيسى محمد بن سورة ت 279هـ):
- 22- سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ط2، 1395هـ، 1975.
- التهانوي (محمد علي بن علي بن محمد التهانوي الحنفي ت 1158هـ):
- 23- موسوعة كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف رفيق العجم، وتحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1996.
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري، ت 255هـ):
- 24 - البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط7، 1418هـ، 1997.
- 25- الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر عباس محمد محمود الحلبي وشركائهم، ط2، 1385، 1965.
- الجرجاني عبد القاهر (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ت 471هـ):
- 26- دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1990.
- 27- أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني، ط1، 1411هـ، 1991م.
- جميل حمداوي:
- 28- من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، إفريقيا الشرق، المغرب، (د. ط)، 2014.
- جميل عبد المجيد:
- 29- البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (د. ط)، (د. ت).

● حاتم عبيد:

30- الباتوس من الخطابة إلى تحليل الخطاب، من الاحتجاج بالعواطف إلى الاحتجاج للعواطف، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، دار الروافد الثقافية، بيروت لبنان، ج2، ط1، 2013.

● حافظ إسماعيلي علوي:

31- تساؤلات التداولية وتحليل الخطاب، دراسات وبحوث مختارة، دار كنوز المعرفة، ط1، 2016

● ابن حبان (الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ت 354هـ):

32- الإحسان في تقريب ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1408هـ، 1988.

● الحبيب أعراب:

33- الحجاج والاستدلال الحجاجي ضمن مؤلف الحجاج، مفهومه ومجالاته- دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إعداد وتقديم حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، ج3، ط1، 2010.

● حسن بدوح:

34- المحاوره مقارنة تداولية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012.

● الحسين بنو هاشم:

35- بلاغة الحجاج، الأصول اليونانية، تقديم محمد العمري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1 2014.

● حسين خمري:

36- نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2007.

● حمدي منصور جودي:

37- الحجاج في كلية ودمنة لابن المقفع، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، الأردن، ط1، 2018.

● حمو النقاري:

38- التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 134، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2006.

● **خلود العموش:**

39- الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق – مثل من صورة البقرة، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1، 2008.

● **ذهبية حمو الحاج:**

40- لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، دار الأمل للطباعة، الجزائر (د.ط)، 2005.

● **ذو الرّمة (غيلان بن عقبة العدوي ت 117هـ):**

41- الديوان، تحقيق زهير فتح الله، دار صادر، بيروت، ط1، 1996.

● **رشيد الراضي:**

42- الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، دار الروافد الثقافية، بيروت، لبنان، ج1، ط1، 2013.

● **رشيد شبيجع:**

43- سات التجديد في المشروع الحجاجي للدكتور أبو بكر العزاوي، ضمن مؤلف الحجاج اللغوي، قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي، تنسيق حسن مسكين، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2017.

● **ابن رشيق (أبو علي الحسن ابن الرشيق، القيراوي الأزدي ت 456هـ):**

44- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت لبنان، ط5، 1981.

● **زكريا السرتي:**

45- الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2014.

● **الزمنخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمنخشري الخوارزمي ت 538 هـ):**

46- تفسير الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل، وعميون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق علي مأمون شيخا دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ، 2009.

● **الزواوي بغورة:**

47- مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، (د.ط)، 2000.

● سامية الريدبي:

48- الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيتة وأساليبه، عالم الكتب الحديث إريد، الأردن، ط2، 2011.

● سامي الدهان:

49- نوابغ الفكر العربي 23، دار المعارف، القاهرة، ط5، (د.ت).

● سعيد يقطين:

50- افتتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2001.

51- تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005.

● السكاكي: (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن سهل علي ت 626 هـ)

52- مفتاح العلوم، ضبط وتهميش وتعليق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987.

● شكري المبخوت:

53- نظرية الحجاج في اللغة، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمّادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، تونس، مجلد XXXIX، 1998.

54- الاستدلال البلاغي، دار المعرفة للنشر، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة، وحدة البحث تحليل الخطاب، ط1، 2006.

● صابر الحباشة:

55- التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، صفحات للدراسات والنشر، سوريا، دمشق، (د.ط)، 2008.

● الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت 310 هـ):

59- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1405 هـ، 1984 م

● طه عبد الرحمان:

60- تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2005.

61- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2000.

62- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1998.

● الطيالسي (أبو داود سليمان ت204هـ):

63- مسند أبي داود الطيالسي، تحقيق محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط1، 1419هـ، 1999.

● عبد الجليل العشراوي:

64- الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012.

● عبد الجليل منقور:

65- علم الدلالة أصوله ومباحثه، في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق (د.ط)، 2001.

● عبد الرحمان الحاج صالح:

66 - الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، سلسلة علوم اللسان عند العرب 3، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، ط1، 2012.

● عبد الرحمان الكواكي:

67- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم عمار علي حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2013.

68- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم محمد خالد، موفم للنشر، 1991.

69- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تقديم محمد عمارة، دار الشروق، ط2، 2009.

● عبد الرزاق بنور:

70- جدل حول الخطابة والحجاج، الدار العربية للكتاب، تونس، (د.ط)، 2008.

● عبد السلام عشير:

71- عندما نتواصل نغير، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط) 2006.

● عبد العزيز عتيق:

72- البلاغة العربية، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2009.

● عبد العزيز لحويدق:

73- نظرية الاستعارة في التراث البلاغي العربي، بنية الاستبدال واستراتيجيات البيان، النادي الأدبي بمراكش أفريقيا الشرق، (د.ط)، 2016.

● **عبد الفتاح أحمد يوسف:**

74-لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط1، 2010.

● **عبد اللطيف عادل:**

75- بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2013.

76 - المشروع الحجاجي للدكتور أبي بكر العزاوي، ضمن مؤلف الحجاج اللغوي، قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي، تنسيق حسن مسكين، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2017.

● **عبد الله البهلول:**

77- الحجاج الجدلي، خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني العربي، ط1 2013.

● **عبد الله صولة:**

78- الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاه ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمّادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، تونس، مجلد XXXIX، 1998.

79- الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2001.

80- في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، مسكيلاني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011.

● **عبد الهادي بن ظافر الشهري:**

81- الخطاب الحجاجي عند ابن تيمية، الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2013.

82- استراتيجية الخطاب، -مقاربة لغوية تداولية- دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

● **عز الدين الناجح:**

83- تداولية الضمني والحجاج، بين تحليل الملفوظ وتحليل الخطاب، بحوث ومحاولات، تقديم المنصف عاشور مركز النشر الجامعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، (د.ط)، 2015.

● **عزيز لدية:**

84- نظرية الحجاج تطبيق على نثر ابن زيدون، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2015.

● **أبو الغلاء المعري (أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري ت 449هـ)**

85- سقط الزند، دار صادر، بيروت، 1376هـ- 1957.

● علي الشعبان:

86- الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، بحث في الإشكالات والاستراتيجيات، دار الكتاب الجديدة والمتحدة بيروت، لبنان، ط1، 2010.

87- الحجاج وقضاياها من خلال مؤلف روث أموتسي الحجاج في الخطاب، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة، تحت إشراف حافظ إسماعيل علوي مع مجموعة من الباحثين، ابن نديم، الجزائر، ط1، 2013.

● عمر بلخير:

88- تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2003.

● عيد بلبع:

89- السياق وتوجيه دلالة النص، مقدمة في نظرية البلاغة النبوية، دار بلنسية، مصر، ط1، 2008.

● فضيلة قوتال:

90- حجاجية الشروح البلاغية وأبعادها التداولية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2017.

● فضيل ناصري:

91- الحجاج من اللغة إلى الخطاب، قراءة في أعمال أبو بكر العزاوي، ضمن مؤلف الحجاج اللغوي، قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي، تنسيق حسن مسكين، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2017.

● قدور عمران:

92- البعد التداولي الحجاجي في الخطاب القرآني، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2012.

● القرطاجني (أبو الحسن حازم بن محمد الأنصاري القرطاجني، ت 684هـ):

93- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، (د.ط) 1981.

● ابن القيم الجوزية (الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ت 751)

94- الداء والدواء، حققه محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه رائد بن أحمد الششير، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، (د.ط)، (د.ت).

● كريم زكي حسام الدين:

95- أصول تراثية في علم اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1984.

- الكفوي (أيوب بن موسى الحسيني القريني، أبو البقاء الحنفي، ت 1094):
96 - معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، الرسالة، بيروت، ط1، 1992.
- ابن ماجه (أبو عبد الله محمد بن زيد القزويني ت 273هـ)
97- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد الفؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة فيصل عيسى البابي الحلبي، مصر، (د. ط)، (د. ت).
- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير ت 285هـ)
98- المقتضب في اللغة، مطابع الأهرام التجارية، فليوب، مصر، (د. ط)، 1415هـ، 1994.
- مثنى كاظم صادق:
99- أسلوبيّة الحجاج التداولي والبلاغي، تنظير وتطبيق على السور المكية، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 2015.
- محمد خطابي:
100- مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1991.
- محمد محمد يونس علي:
101- المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 2007.
- محمد سالم محمد الأمين الطلبة:
102- الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
- محمد سعيد البقالي:
103- نحو مقارنة حجاجية لغوية للخطاب، كتاب الخطاب والحجاج لأبي بكر العزاوي، تنسيق حسن مسكين، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2017.
- محمد طروس:
104- النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2005.

● محمد العبد:

- 105- النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، الجزء الرابع الحجاج والمراس، إعداد وتقديم حافظ إسماعيل علوي، عالم الكتب الحديث إربد، الأردن، ط1، 2010.
- 106- النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب، القاهرة، ط1، 2005.

● محمد عبد الرحمن السخاوي (ت 906هـ):

- 107- دراسة وتحقيق محمد عثمان الخت، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405، 1985.

● محمد عمارة:

- 108- شخصيات لها تاريخ، دار السلام للطباعة والنشر، ط1، 1429هـ، 2008.
- 109- شهيد الحرية ومجدد الإسلام، دار الشروق، القاهرة، ط3، 2007.
- 110- الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبدو، دار الشرق، بيروت، ط1، 1414هـ، 1993.
- 111- العرب والتحدي، دار علم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، إشراف أحمد مشاري العدواني، (د.ط)، 1980.

● محمد العمري:

- 112- البلاغة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2005.
- 113- أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 2013.
- 114- دراسة وتحقيق محمد عثمان الخت، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1405، 1985.

● محمد مشبال:

- 115- في بلاغة الحجاج، نحو مقارنة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2017.
- 116- مفهوم الخطاب من منظور حجاجي ضمن مؤلف الحجاج اللغوي، قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي، تنسيق حسن مسكين، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2017.

● محسن الزكري:

117- الحجاج والتداول في البلاغة العربية القديمة عند محمد العمري، ضمن مؤلف البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق محمد مشبال، دار الأمان، الرباط، ط1، 2014.

● محمود حسني مغالسة:

118- النحو الشافي الشامل، دار المسيرة، عمان، ط1، 2007، 1427هـ.

● محمود عكاشة:

119- تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة، دراسة تطبيقية لأساليب التأثير والإقناع الحجاجي في الخطاب النسوي في القرآن الكريم، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط1، 2013.

● المرادي (أبو محمد الحسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي، ت 749هـ)

120- الجني اللّاني في حروف المعاني، تحقيق محمد نديم فاضل، فخر الدين قباوة، دار الكتب العالمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413، 1992.

● مسعود صحراوي:

121- التداولية عند العلماء العرب- دراسة تداولية لظاهرة "الأفعال الكلامية" في التراث العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2015.

● مسلم (الإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ت 261هـ):

122- صحيح مسلم، تحقيق فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط.)، (د.ت.).

● مصطفى العطار:

123- لغة التخاطب الحجاجي، دراسة في آليات التناظر عند ابن حزم، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2017.

● مصطفى العمراني:

124- التواصل نماذج ورهانات، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2016.

● مهدي الخزيمي:

125 - في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1986.

● ابن منظور:

126- لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1419هـ- 1999.

● ناصيف ناصر:

127- منطق السلطنة مدخل إلى فلسفة الأمر، دار أمواج، بيروت، لبنان، ط1، 1995.

● نعمة سعديّة:

128- لسانيات النص والخطاب الشعري دراسة في شعر محمد الماغوط، الوسام العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2015.

129- الأسلوبية والنص الشعري، دار الكلمة، الجزائر، ط1، 2016.

130- التحليل السيميائي والخطاب، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2016.

● نور الدين السدّ:

131- الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر، 1997.

● هاجر مدقن:

132- الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1434هـ، 2013.

● ابن هشام الأنصاري: (الإمام أبو محمد بن عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله، ت 761هـ)

133- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط6، 1985.

● هشام الريفي:

134- الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمّادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، تونس، مجلد XXXIX، 1998.

● أبو هلال العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، ت 395هـ):

135- كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، مطبعة محمود بك في جادة أبي السعود في الآستانة العليا، ط1، 4 محرم، 1319هـ.

● الواواء الدمشقي (أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني ت 613هـ):

136- الديوان، تحقيق سامي الدهان، دار صادر، بيروت، ط2، 1414هـ، 1993.

● **وليد قصاب:**

137- البلاغة العربية، علم المعاني، دار القلم، للنشر والتوزيع، الإمارات، ط1، 1998

● **ابن وهب (أبو الحسين بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، ت337هـ):**

138- البرهان في وجوه البيان، تحقيق حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة عابدين، مصر، (د.ط)، (د.ت).

ثانياً: الكتب المترجمة:

● **أرسطو طاليس:**

139- كتاب الخطابة، ترجمة إبراهيم سلامة، المكتبة الأنجلو مصرية، مصر، ط2، 1953.

● **أ. مولز- ك. زيلتمان. ك. أوريكيوني:**

140- في التداولية المعاصرة والتواصل، ترجمة وتعليق محمد نظيف، أفريقيا الشرق، المغرب، (د.ط)، 2014.

● **أندريه لالاند:**

141- موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 2001.

● **أوليفي روبول:**

142- هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي، ترجمة محمد العمري، ضمن كتاب البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2005.

● **باتريك شارودو ودومينيك ماقو:**

143- معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري، حمادي صمود، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، (د.ط)، 2008.

● **دومينيك ماقونو:**

144- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتين، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، ط1، 2008.

● **روبرت دي بوجراند:**

145- النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998.

● ستيفن أولمان:

146- دور الكلمة في اللغة، ترجمه وقدم له، وعلق عليه كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط12، (د.ت).

● فيليب بروطون وجيل جوتيه:

147- تاريخ نظريات الحجاج، ترجمة محمد صالح ناجي الغامدي، قسم اللغات الأوروبية وآدابها، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، مركز النشر العلمي، المملكة العربية السعودية، ط1، 2011.

● فيليب بروطون:

148- الحجاج في التواصل، ترجمة محمد مشبال، عبد الواحد التهامي العلمي، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2013.

● فيليب سيرنج:

149- الرموز في الفن، الأديان، الحياة، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق، سوريا، ط1، 1992.

● كورنيليا فون راد صكوحى:

150- الحجاج في المقام المدرسي، تحت إشراف فريق البحث في البلاغة والحجاج برئاسة حادي صمود، وحدة البحث في تحليل الخطاب، منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس، 2003.

● ليونيل بلنجر:

151- الآليات الحجاجية للتواصل، ترجمة عبد الرفيق بوركي، تقديم حافظ إسماعيل علوي، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ج5، ط1، 2010.

● هنريش بليث:

152- البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ترجمة وتعليق محمد العمري، افريقيا الشرق، المغرب (د.ط)، 1999.

ثالثا: الكتب الأجنبية:

● A.Reboul,J.Moeschler:

153- la pragmatique de discours,Paris, Armand Colin, 1998.

● Catherine Kerbrat- Orecchioni :

154- L'implicite, Armand Colin, Paris, 1986.

● **Chaim Perlman et Lucie-OLbrechts- Tyteca :**

155- *Traité de l'argumentation, 5 émé édition, Editions de l'université de Bruxelles 1992.*

● **C.K.Orecchioni:**

156- l'implicite, Armand Colin, Paris, 1986.

● **Jean Michel Adam :**

157 -les texts , types et prototypes, nothan, paris, 1992.

● ***Le grand Robert,***

158-*Dictionnaire de la langue française, T.1 ; Paris1989*

● **Oswald Ducrot :**

159- *les échelles argumentatives, les éditions de minuit, France, 1980.*

160- Dire et ne pas dire, 3ème édition , Hermann éditeur, paris.

● ***Reboul(O):***

161-*Introduction à la rhétorique ; théorie et pratique ; presse universitaire de France, 1999.*

رابعاً: الرسائل المخطوطة:

● **ابتسام بن خراف:**

162- الخطاب الحجاجي في كتاب " الإمامة والسياسة لابن قتيبة، دراسة تداولية، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه العلوم في اللغة، إشراف الأستاذ الدكتور السعيد هادف، كلية الآداب واللغات، جامعة الحاج لخضر، باتنة، قسم اللغة العربية وآدابها، 2009، 2010م.

● **أمينة رقيق:**

163- بلاغة الخطاب المكتوب، دراسة لتقنيات الحرف واللون والصورة في خطاب الدعاية التجارية، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علوم اللسان العربي، إشراف الأستاذ الدكتور محمد خان، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2013، 2014.

● **حمدي منصور جودي:**

164- بنية الخطاب الحجاجي في كلية ودمنة لابن المقفع، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآداب واللغة العربية، تخصص اللسانيات واللغة العربية، إشراف الأستاذ الدكتور محمد خان، كلية الآداب واللغات جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2015، 2016.

● **حمو النقاري:**

165- حمو النقاري، المنهجية الأصولية والمنطق اليوناني من خلال أبي حامد الغزالي وتقي الدين بن تيمية، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، إشراف الدكتور طه عبد الرحمن، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، السنة الجامعية 1987، 1988.

● **ردة الله بن ردة بن ضيف الطلحي:**

166- دلالة السياق، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في علم اللغة، إشراف الدكتور عبد العليم البركاوي، منشورات جامعة أم القرى، السعودية، مجلد1، 1418، ص 40.

● **ميلود نزار:**

167- آليات الحجاج في الخطاب الأدبي عند المعتزلة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللسانيات، إشراف الأستاذ الدكتور السعيد هادف، كلية اللغة والأدب العربي والفنون، جامعة باتنة-1 الحاج لخضر، باتنة، 2017، 2018.

● **هاجر مدقن:**

168- الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، دراسة تطبيقية في كتاب المساكين لـ الرافعي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، تخصص الأدب العربي ونقده، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة ورقلة، 2003.

خامسا: المجلات والدوريات:

● **ابتسام بن خراف:**

169- أثر الموجه اللساني في تحديد مقاصد المخاطب – الحديث النبوي الشريف أمودجا، مجلة حوليات مخبر اللسانيات واللغة العربية، بسكرة، العدد 6، ديسمبر، 2016.

● **أحمد ناظم داود:**

170- مفهوم السببية عند هيوم، كلية التمريض جامعة كركوك، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مجلد 18، العدد 9، تشرين الأول، 2010.

● بلوصيف كمال:

171- أسطورة المسخ والتحول في الثقافات القديمة وأثرها في الثقافة الشعبية الجزائرية، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة باجي مختار عنابة، العدد 23، ديسمبر، 2016.

● جميل عبد المجيد حسين:

172- عالم النص أسسه المعرفية وتجلياته النقدية، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مجلد 3، عدد 02، أكتوبر، ديسمبر، 2003.

● حمدي منصور جودي:

173- تشكّل أنواع الاستراتيجيات الخطائية، دراسة في الأهداف والوسائل، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، العدد 21، جوان 2017م.

● رضوان الرقي:

174- الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، عدد 02، مجلد 40، أكتوبر، ديسمبر، 2011.

● طه عبد الرحمن:

175- الاستعارة بين حساب المنطق ونظرية الحجاج، مجلة المناظرة، عدد 04، ماي 1991.

● عبد الرحمان العبدان وراشد الرويش:

176- استراتيجيات تعلّم اللغة العربية بوصفها لغة ثانية، مجلة جامعة أم القرى، (اللغة العربية وآدابها) السنة 10، عدد 16، 1997.

● عيسى عودة برهومة:

177- تمثيلات اللغة في الخطاب السياسي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عدد 01، مجلد 36، 1 يوليو، سبتمبر.

● ولد محمد الأمين محمد سالم:

178- مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، جانفي- مارس، 2000، عدد 02.

سادسا: المواقع الالكترونية:

• حسن المودن:

179- الخطاب الإقناعي في البلاغة العربية، ملخص عن أطروحة دكتوراه الدولة، كلية الآداب، مراكش، جوان 2006، ديوان العرب، دراسات وأبحاث، <http://www.diwanalarab.com/spip.php?article5018>.

• ذهبية حمو الحاج:

180- التعدد الصوتي من خلال السخرية في المنظور التداولي، ص 257، الصادرة من الموقع الالكتروني: revue.ummt0.dz/index.php/khitab/article/view/file/700/539 في سنة 2009.

• السلطان عبد الحميد الثاني:

181- الصادر من الموقع الالكتروني [blogs /net.aljazeera.blogs://http](http://blogs.net.aljazeera.blogs://http) بتاريخ 2018 /02/22

• عبد الرحمن الكواكبي:

182- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة، الصادرة من الموقع الالكتروني: بتاريخ 2016 /12 /10
<https://ar.wikipedia.org/>

• ما حكم الاستدلال بالأحاديث الضعيفة؟ الإسلام سؤال وجواب الصادرة من الموقع الالكتروني:
بتاريخ 2012 /03 /14.

<https://islamqa.info/ar/answers/180529/%D8%AD%D9%83%D9%85>

• أبو الهدى الصيادي في آثار معاصريه الصادرة من الموقع الالكتروني:

<http://www.alrased.net/main/artickes.aspx?selected-article=4890>

• ينظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة الصادرة من الموقع الالكتروني:

https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A8%D8%A7%D8%AF%D8%B1%D9%8A_%D8%A8%D9%8A-%

فهرس الموضوعات

مقدّمة:	أ-.....	و
الفصل الأول: الخطاب - أساسيات ومفاهيم-		
تمهيد	9.....	
1- الجهاز المفاهيمي للخطاب	9.....	
1-1- المفهوم اللغوي للخطاب	9.....	
2-1- المفهوم الاصطلاحي للخطاب	9.....	
1-2-1- عند العرب	9.....	
2-2-1- عند الغرب	14.....	
2- عناصر التفاعل الخطابي، شروطه وقوانينه:	20.....	
1-2 عناصر التفاعل الخطابي:	20.....	
1-1-2- المخاطب	21.....	
2-1-2- المخاطب	27.....	
3-1-2- السياق	30.....	
4-1-2- لغة الخطاب	42.....	
2-2 شروط التفاعل الخطابي:	46.....	
1-2-2- القصدية في الخطاب	47.....	
2-2-2- القيمة في الخطاب	48.....	
3-2-2- التلقي	49.....	
4-2-2- التفاعل	49.....	
3-2 قوانين الخطاب:	50.....	
1-3-2- مبدأ التعاون	50.....	
2-3-2- مبدأ الملاءمة	53.....	
3-3-2- مبدأ الصدق	53.....	
4-3-2- قانون الإخبارية	54.....	
5-3-2- قانون الشمول	54.....	

3- منطق التخاطب:	55.....
3-1-دورة التخاطب والمشاركون فيها	56.....
3-2- استراتيجية الخطاب	60.....
3-2-1- تعريف استراتيجية الخطاب	60.....
3-2-2- العوامل المؤثرة في اختيار استراتيجية الخطاب	61.....
3-2-3- أنواع استراتيجيات الخطاب	63.....
4- أنواع الخطاب وأتماطه:	65.....
خلاصة الفصل	71.....
الفصل الثاني: الحجاج -بين التأسيس والتأصيل-	
تمهيد	74.....
1- الحجاج بين المفهوم اللغوي والتأصيل الاصطلاحي في الفكر البلاغي الغربي والعربي:	74.....
1-1- المفهوم اللغوي للحجاج	75.....
1-2-1- التأصيل الاصطلاحي للحجاج في الفكرين البلاغي الغربي والعربي قديما وحديثا....	77
1-2-1-أ في الفكر البلاغي الغربي قديما	77.....
1-2-1-ب في الفكر البلاغي العربي قديما	80.....
1-2-1-ج في الفكر البلاغي الغربي حديثا	85.....
1-2-1-د في الفكر البلاغي العربي حديثا	93.....
2- الحجاج وعلاقته التباينية وتقاطعاته المصطلحية (الحجاج تباينات أم تقاطعات مصطلحية)؟	97.....
1-1- الحجاج والبلاغة	98.....
2-2- الحجاج والتواصل	103.....
3-2- الحجاج والجدل	110.....
4-2- الحجاج والبرهان والاستدلال	112.....
5-2- الحجاج والإقناع والافتناع	119.....
3-بنية الحجاج	124.....
1-3- مكونات الحجاج	124.....
2-3- أنواع الحجج	126.....
1-2-3- الحجج شبه المنطقية	126.....

131.....	2-2-3- الحجج المؤسّسة على بنية الواقع
136.....	3-2-3- الحجج المؤسّسة لبنية الواقع
140.....	3-3- السلام الحجاجية وقوانينها
149.....	خلاصة الفصل
	الفصل الثالث: بنية الخطاب الحجاجي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد:
152.....	تمهيد
152.....	1- عناصر التفاعل الخطابي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
153.....	1-1 المخاطب "عبد الرحمان الكواكبي"
158.....	2-1 المخاطب
164.....	3-1 الظروف التي تمخّض عنها إنتاج الكتاب
168.....	4-1 لغة خطاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
169.....	5-1 المنطلقات الفكرية العامة للحجاج وأهم تصوراتها في فحوى الكتاب
171.....	2- أنواع الحجج في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
171.....	1-2- الحجج شبه المنطقية:
171.....	1-1-2- الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية:
172.....	أ-1-2- حجة التناقض أو ما يسمى التعارض
175.....	ب-1-2- حجة التماثل والحدّ في الحجاج
178.....	ج-1-2- الحجج القائمة على العلاقة التبادلية
180.....	د-1-2- حجة التعدية
183.....	2-1-2- الحجج شبه المنطقية التي تعتمد على العلاقات الرياضية:
183.....	أ-2-1-2- إدماج الجزء في الكلّ
185.....	ب-2-1-2- تقسيم الكلّ إلى أجزائه المكونة له
187.....	ج-2-1-2- حجة المقارنة
190.....	د-2-1-2- حجة الاحتمال
193.....	2-2- الحجج المؤسّسة على بنية الواقع
193.....	1-2-2- وجوه الاتصال التتابعي:
193.....	أ-1-2-2- الحجة السببية:

195.....	2-2-1-ب- الحجة الغائية
199.....	2-2-2- وجوه الاتصال التوايدي:
199.....	2-2-2-أ حجة الشخص وأعماله
201.....	2-2-2-ب- حجة السلطة
207.....	2-3-الحجج المؤيِّسة لبنية الواقع
207.....	2-3-1 الحجج المؤيِّسة بواسطة الحالات الخاصة
215.....	2-3-2 الحجج المؤيِّسة بواسطة التمثيل
220.....	3-السلام الحجاجية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
220.....	3-1- السلام الحجاجي الكلي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد
229.....	3-2- تحليل السلم الحجاجي الجزئي لفصل (الاستبداد والعلم)
241.....	3-سر الرؤية الاستشرافية للكواكبي
247.....	خلاصة الفصل.....
الفصل الرابع: الآليات الإقناعية في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد	
251.....	تمهيد:.....
251.....	1- الآليات اللسانية النصية
252.....	1-1 الإحالة
260.....	2-1 التكرار
263.....	3-1 التوازن (الازدواج)
265.....	2- الآليات اللغوية
266.....	1-2 الروابط الحجاجية
276.....	4-2 العوامل الحجاجية
282.....	3- الآليات البلاغية:
285.....	1-3 حجاجية الاستعارة المكنية
296.....	2-3 حجاجية الكناية
307.....	خلاصة الفصل
310.....	الخاتمة
316.....	فهرس الآيات

317.....	فهرس الأءادئث
318.....	فهرس الأشعار
319.....	فهرس المءططاء
321.....	فهرس المءاءول
322.....	فهرس المصاءر والمراءع
341.....	فهرس الموءوءاء

ملخص الرسالة:

تحاول هذه الدراسة مقارنة مفهوم "الخطاب الحجاجي وآليات الإقناع في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" متوخية النظر في المراحل المشكلة لبنية الخطاب الحجاجي والآليات الإقناعية اللسانية واللغوية والبلاغية المستعملة لاستمالة المتلقي ودفعه إلى إنجاز فعل معين. ولغاية تحقيق هذه الدراسة تم اختيار كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) للكواكبي؛ إذ يمثل جانبا حجاجيا في قضايا الاستبداد وصلته بالدين، العلم، المجد، المال، الأخلاق التربوية، الترقى وكيفية التخلص من الاستبداد السياسي الذي يعتبره الكواكبي مَكْمَنَ كُلِّ دَاءٍ فيوقظ قارئه من سُباتِ دوغمائِي ويبعث في موات جسمه الحياة ويوجهه إلى سِكَّةِ الحق ويجفزه على التغيير والتعديل من تصرفاته حتى تنصلح أحواله.

وعليه تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن المراحل المشكلة لبنية الخطاب الحجاجي في هذه المدونة بدءًا بدراسة عناصر التفاعل الخطابي، للوقوف على مدى إسهام هذه العناصر في تشكيل بنية الحجاج كمرحلة أولى استلزمَت مَنَّا التدقيق في المرحلة الثانية المرتبطة بتفصي طبيعة أنواع الحجج الموظفة فيه لغاية الإقناع، تليها مباشرة المرحلة الثالثة المتعلقة بمراتب الحجج وفق السلام الحجاجية وتحديد وجهتها الحجاجية، وصولاً إلى اكتشاف السر من وراء الرؤية الاستشرافية، وأخيرا البحث في الآليات الإقناعية المثبتة لتحقيق التأثير في متلقي الحجاج. والغاية من كل ذلك وضع تصوّر عملي ونموذج تطبيقي يساعد على تحليل الخطاب الحجاجي.

Abstract:

This study attempts to analyse the concept of the argumentative speech and the convincing techniques in “tyranny natures and demise slavery book” also it explores the phases forming the argumentative discourse structure and the rhetoric linguistic techniques used to entice the recipient and push him to react in a certain manner.

To achieve the previous goal “tyranny” natures and demise slavery to el kawakebi has been chosen to show a part in tyranny matters and its relation with religion, science, glory, money, ethics, education, and progress, besides it shows how we can get rid of this political tyranny that is the origin of all evil. This may awaken the recipient from his hibernation and revive his body to make him change or alter his behaviour in order to ameliorate his state.

Thus, this study seeks to reveal the forming phases of the argumentative discours structure in this blog starting by the elements of the interactive speech to figure out the contrilution of these elements in the formation of arguing as a first step that needed scrutiny .secondly, knowing the natures of arguments types and their objective .thirdly this phas presente the classification of arguments and their role. finally, revealing the forward-looking vision and the immortality of this discours and ending by searching the convincing technigues to influence the recipient. The gool from what has been previously said is to make a practical concept and applied sample that helps to analyee the argumentative speech.